



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للغلام



عليه
صلى الله عليه وسلم

www.ghaemiyeh.com
www.ghaemiyeh.org
www.ghaemiyeh.net
www.ghaemiyeh.ir

الأمم

في تفسيرين كما جلا الله المنزلة

العلامة الفقيه المفسر

الشيخ كاظم حكايم الشيرازي

١٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل

كاتب:

آيت الله ناصر مكارم شيرازى

نشرت فى الطباعة:

مدرسه الامام على بن ابي طالب (عليه السلام)

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
٢٦	الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل المجلد ١٢
٢٦	اشاره
٢٧	اشاره
٣١	سوره النمل
٣١	اشاره
٣٣	محتوى سوره النمل
٣٤	فضيله سوره النمل:
٣٥	الآيات [سوره النمل (٢٧): الآيات ١ الى ٦]
٣٥	اشاره
٣٥	التفسير
٣٥	اشاره
٣٥	القرآن منزل من لدن حكيم عليم:
٣٩	الواقعيه و الإيمان:
٤٢	الآيات [سوره النمل (٢٧): الآيات ٧ الى ١٤]
٤٢	اشاره
٤٢	التفسير
٤٢	اشاره
٤٢	موسى يقتبس التور:
٥٠	الآيتان [سوره النمل (٢٧): الآيات ١٥ الى ١٦]
٥٠	اشاره
٥٠	التفسير
٥٠	اشاره
٥٠	حكومه داود و سليمان عليهما السلام:

٥٥	بحوث
٥٥	اشاره
٥٥	١-علاقه الدين بالسِّيَاسه
٥٦	٢-آيات الحكومه الإلهيه
٥٧	٣-منطق الطير
٥٩	٤-روايه «نحن معاشر الأنبياء لا نورث»..
٦٤	الآيات [سوره النمل (٢٧): الآيات ١٧ الى ١٩]
٦٤	اشاره
٦٤	التفسير
٦٤	اشاره
٦٤	سليمان في وادى النمل:
٦٨	بحوث
٦٨	اشاره
٦٨	١-معرفة سليمان بلغه الحيوانات و منطقها
٦٩	٢-سليمان و إلهامه الشكر لله
٧٠	٣-سليمان و العمل الصالح
٧٢	الآيات [سوره النمل (٢٧): الآيات ٢٠ الى ٢٦]
٧٢	اشاره
٧٢	التفسير
٧٢	اشاره
٧٢	قضه الهدهد و ملكه سبأ:
٧٧	ملاحظتان
٧٧	اشاره
٧٧	أ-الدروس التعليميه
٧٨	ب-الجواب على بعض الأسئلة
٨٠	الآيات [سوره النمل (٢٧): الآيات ٢٧ الى ٣٥]

٨٠	اشاره
٨٠	التفسير
٨٠	اشاره
٨٠	الملوك مفسدون مخزبون:
٨٥	بحوث
٨٥	اشاره
٨٥	١-آداب كتابه الرسائل
٨٧	٢-هل دعا سليمان إلى التقليد؟!
٨٧	٣-مداليل عميقه فى قضه سليمان عليه السلام
٨٨	٤-علامات الملوك
٩٠	الآيات [سوره النمل (٢٧): الآيات ٣٦ الى ٣٧]
٩٠	اشاره
٩٠	التفسير
٩٠	اشاره
٩٠	لا تخدعونى بالمال:
٩٢	ملاحظات
٩٤	الآيات [سوره النمل (٢٧): الآيات ٣٨ الى ٤٠]
٩٤	اشاره
٩٤	التفسير
٩٤	اشاره
٩٤	حضور العرش فى طرفه عين:
٩٨	مسائل مهمه:
٩٨	اشاره
٩٨	١-الجواب على بعض الاسئله
٩٩	٢-القوه و الأمانه شرطان مهمان
١٠٠	٤-هذا من فضل ربى

١٠١ ٥-كيف أحضر «أصف» عرش الملكة؟!

١٠٣ الآيات [سوره النمل (٢٧): الآيات ٤١ الى ٤٤]

١٠٣ اشاره

١٠٣ التفسير

١٠٣ اشاره

١٠٣ نور الايمان فى قلب الملكة:

١٠٧ بحثان

١٠٧ اشاره

١٠٧ ١-عاقبه أمر ملكه سباً

١٠٨ ٢-خلاصه عامه عن حياه سليمان

١١٠ الآيات [سوره النمل (٢٧): الآيات ٤٥ الى ٤٧]

١١٠ اشاره

١١٠ التفسير

١١٠ اشاره

١١٠ صالح فى ثمود:

١١٣ بحث

١١٣ اشاره

١١٣ «التطير و التناول»

١١٦ الآيات [سوره النمل (٢٧): الآيات ٤٨ الى ٥٣]

١١٦ اشاره

١١٦ التفسير

١١٦ اشاره

١١٦ تأمر تسعه رهط فى وادى القرى:

١١٩ ملاحظات

١١٩ اشاره

١١٩ ١-عقوبه ثمود

الآيتان [سوره النمل (٢٧): الآيات ٥٤ الى ٥٥] ----- ١٢٢

اشاره ----- ١٢٢

التفسير ----- ١٢٢

اشاره ----- ١٢٢

انحراف قوم لوط! ----- ١٢٢

الآيات [سوره النمل (٢٧): الآيات ٥٦ الى ٥٩] ----- ١٢٧

اشاره ----- ١٢٧

التفسير ----- ١٢٧

اشاره ----- ١٢٧

عند ما تعدّ الطهاره عيبا كبيرا! ----- ١٢٧

الآيات [سوره النمل (٢٧): الآيات ٦٠ الى ٦٤] ----- ١٣١

اشاره ----- ١٣١

التفسير ----- ١٣١

اشاره ----- ١٣١

أ مع كلّ هذه الأدله ما تزالون مشركين؟! ----- ١٣١

بحوث ----- ١٣٧

اشاره ----- ١٣٧

١- من المضطر الذي يجاب إذا دعاه؟ ----- ١٣٧

٢- الاستدلال المنطقي في كلّ مكان ----- ١٣٩

٣- خلاصه عامه و مرور على الآيات السابقه ----- ١٤٠

الآيات [سوره النمل (٢٧): الآيات ٦٥ الى ٦٨] ----- ١٤٢

اشاره ----- ١٤٢

التفسير ----- ١٤٢

الآيات [سوره النمل (٢٧): الآيات ٦٩ الى ٧٥] ----- ١٤٦

اشاره ----- ١٤٦

التفسير ----- ١٤٦

١٤٤ اشارة

١٤٤ لا يضيق صدرك بمؤامراتهم:

١٥٠ ملاحظات

١٥٢ الآيات [سوره النمل (٢٧): الآيات ٧٦ الى ٨١]

١٥٢ اشارة

١٥٢ التفسير

١٥٢ اشارة

١٥٢ عمى القلوب لا يقبلون دعوتك!

١٥٦ بحثان

١٥٦ اشارة

١٥٦ ١-أسباب التوكل

١٥٧ ٢-الموت و الحياه فى منطق القرآن!

١٦٠ الآيات [سوره النمل (٢٧): الآيات ٨٢ الى ٨٥]

١٦٠ اشارة

١٦٠ التفسير

١٦٤ بحوث

١٦٤ اشارة

١٦٤ ١-ما هى دابه الأرض!؟

١٦٧ ٢-الرجعه فى الكتاب و السنه!

١٧١ ٤-فلسفه الرجعه!

١٧٤ الآيات [سوره النمل (٢٧): الآيات ٨٦ الى ٨٨]

١٧٤ اشارة

١٧٤ التفسير

١٧٤ اشارة

١٧٤ حرکه الأرض إحدى معاجز القرآن العلميه:

١٧٨ و توضيح ذلك:

الآيات [سوره النمل (٢٧): الآيات ٨٩ الى ٩٣] ١٨١

اشاره ١٨١

التفسير ١٨١

اشاره ١٨١

آخر ما أمر به النبي! ١٨١

سوره القصص ١٨٧

اشاره ١٨٧

محتوى سوره القصص: ١٨٩

فضيله تلاوه سوره القصص: ١٩١

الآيات [سوره القصص (٢٨): الآيات ١ الى ٦] ١٩٣

اشاره ١٩٣

التفسير ١٩٣

اشاره ١٩٣

المشيئه الالهيه تقتضى انتصار: ١٩٣

بحوث ٢٠١

اشاره ٢٠١

١-حكومه المستضعفين العالميه ٢٠١

٢-من هم المستضعفون و من هم المستكبرون؟! ٢٠٢

٣-أسلوب المستكبرين على مدى التاريخ ٢٠٤

الآيات [سوره القصص (٢٨): الآيات ٧ الى ٩] ٢٠٦

اشاره ٢٠٦

التفسير ٢٠٦

اشاره ٢٠٦

فى قصر فرعون! ٢٠٦

ملاحظه ٢١٥

اشاره ٢١٥

٢١٥ تخطيط الله العجيب..

٢١٦ الآيات [سوره القصص (٢٨): الآيات ١٠ الى ١٣]

٢١٦ اشاره

٢١٦ التفسير

٢١٦ اشاره

٢١٦ عوده موسى إلى حضن أمه:

٢٢٢ الآيات [سوره القصص (٢٨): الآيات ١٤ الى ١٧]

٢٢٢ اشاره

٢٢٢ التفسير

٢٢٢ اشاره

٢٢٢ موسى عليه السلام و حمايه المظلومين:

٢٢٧ مسألتان

٢٢٧ اشاره

٢٢٧ ١- لم يكن عمل موسى هذا مخالفا للعصمه!

٢٢٨ ٢- دعم المجرمين و إسنادهم من أعظم الآثام:

٢٣١ الآيات [سوره القصص (٢٨): الآيات ١٨ الى ٢٢]

٢٣١ اشاره

٢٣١ التفسير

٢٣١ اشاره

٢٣١ موسى يتوجه إلى مدين خفيه:

٢٣٦ الآيات [سوره القصص (٢٨): الآيات ٢٣ الى ٢٥]

٢٣٦ اشاره

٢٣٦ التفسير

٢٣٦ اشاره

٢٣٦ عمل صالح يفتح لموسى أبواب الخير:

٢٤٠ مسألتان

٢٤٠ اشارة

٢٤٠ ١-أين كانت مدين؟!

٢٤١ ٢-دروس كثيره توحى بالعبر:

٢٤٤ الآيات [سوره القصص (٢٨): الآيات ٢٦ الى ٢٨]

٢٤٤ اشارة

٢٤٤ التفسير

٢٤٤ اشارة

٢٤٤ موسى فى دار شعيب:

٢٤٤ بحوث

٢٤٤ اشارة

٢٤٤ ١-شرطان أساسيان للإداره الصحيحه

٢٤٧ ٢-اسئله عن زواج موسى من بنت شعيب!...

٢٥٠ الآيات [سوره القصص (٢٨): الآيات ٢٩ الى ٣٥]

٢٥٠ اشارة

٢٥١ التفسير

٢٥١ اشارة

٢٥١ الشّراه الأولى للوحى:

٢٥٨ الآيات [سوره القصص (٢٨): الآيات ٣٦ الى ٣٧]

٢٥٨ اشارة

٢٥٨ التفسير

٢٥٨ اشارة

٢٥٨ موسى فى مواجهه فرعون:

٢٦١ الآيات [سوره القصص (٢٨): الآيات ٣٨ الى ٤٢]

٢٦١ اشارة

٢٦١ التفسير

٢٦١ اشارة

٢٦١ كيف كان عاقبه الظالمين؟

٢٦٧ ملاحظه!

٢٦٧ اشاره

٢٦٧ أئمه «التور» و أئمه «التار»

٢٦٩ الآيات [سوره القصص (٢٨): الآيات ٤٣ الى ٤٦]

٢٦٩ اشاره

٢٦٩ التفسير

٢٦٩ اشاره

٢٦٩ الأخبار الغيبية هي من عند الله وحده..

٢٧٣ الآيات [سوره القصص (٢٨): الآيات ٤٧ الى ٥٠]

٢٧٣ اشاره

٢٧٣ التفسير

٢٧٣ اشاره

٢٧٣ ذريعه للفرار من الحق:

٢٧٧ ملاحظه

٢٧٧ اشاره

٢٧٧ اتباع الهوى مدعاه للظلال:

٢٧٩ الآيات [سوره القصص (٢٨): الآيات ٥١ الى ٥٥]

٢٧٩ اشاره

٢٧٩ سبب النزول

٢٨١ التفسير

٢٨١ اشاره

٢٨١ طلاب الحق من أهل الكتاب آمنوا بالقرآن:

٢٨٤ ملاحظه!

٢٨٤ اشاره

٢٨٤ القلوب المهتأه للإيمان:

الآيات [سوره القصص (٢٨): الآيات ٥٦ الى ٥٧] ----- ٢٨٧

اشاره ----- ٢٨٧

التفسير ----- ٢٨٧

اشاره ----- ٢٨٧

الهدايه بيد الله وحده! .. ----- ٢٨٧

ملاحظه ----- ٢٩٢

اشاره ----- ٢٩٢

إيمان أبي طالب و الضجيج حوله: ----- ٢٩٢

الآيات [سوره القصص (٢٨): الآيات ٥٨ الى ٦٠] ----- ٢٩٧

اشاره ----- ٢٩٧

التفسير ----- ٢٩٧

اشاره ----- ٢٩٧

لا تخدعنكم علائق الدنيا: ----- ٢٩٧

الآيات [سوره القصص (٢٨): الآيات ٦١ الى ٦٤] ----- ٣٠٢

اشاره ----- ٣٠٢

التفسير ----- ٣٠٢

اشاره ----- ٣٠٢

أنهم عبده الهوى: ----- ٣٠٢

الآيات [سوره القصص (٢٨): الآيات ٦٥ الى ٧٠] ----- ٣٠٧

اشاره ----- ٣٠٧

التفسير ----- ٣٠٧

الآيات [سوره القصص (٢٨): الآيات ٧١ الى ٧٥] ----- ٣١١

اشاره ----- ٣١١

التفسير ----- ٣١١

اشاره ----- ٣١١

نعمتا «الليل و النهار» العظيمنتان: ----- ٣١١

الآيات [سوره القصص (٢٨): الآيات ٧٦ الى ٧٨] ٣١٥

اشاره ٣١٥

التفسير ٣١٥

اشاره ٣١٥

الثرى الاسرائيلى البخيل: ٣١٥

الآيات [سوره القصص (٢٨): الآيات ٧٩ الى ٨٢] ٣٢٤

اشاره ٣٢٤

التفسير ٣٢٤

اشاره ٣٢٤

جنون الثروه: ٣٢٤

بحوث ٣٣٠

اشاره ٣٣٠

١- نماذج قارونيه بالأمس و اليوم! ٣٣٠

٢- من أين جاء قارون بهذه الثروه العريضه؟ ٣٣٢

٣- موقف الإسلام من الثروه! ٣٣٣

الآيات [سوره القصص (٢٨): الآيات ٨٣ الى ٨٤] ٣٣٤

اشاره ٣٣٤

التفسير ٣٣٤

اشاره ٣٣٤

نتيجه حبّ التسلط و الفساد فى الأرض: ٣٣٤

ملاحظات ٣٤٠

الآيات [سوره القصص (٢٨): الآيات ٨٥ الى ٨٨] ٣٤١

اشاره ٣٤١

سبب النزول ٣٤١

التفسير ٣٤٢

اشاره ٣٤٢

الوعد بعوده التّبي إلى حرم اللّٰه الآمن: ٣٤٢

مسألّتان - ٣٤٨

اشاره ٣٤٨

١- كيف تفنى جميع الأشياء؟! ٣٤٨

٢- التّفسير المنحرف لجمله وَ لَا تَدْعُ مَعَ اللّٰهِ إِلٰهًا آخَرَ! ٣٥٠

سوره العنكبوت - ٣٥٣

اشاره ٣٥٣

محتوى سوره العنكبوت! ٣٥٥

فضيله هذه السوره! - ٣٥٦

الآيات [سوره العنكبوت (٢٩): الآيات ١ الى ٣] ٣٥٨

اشاره ٣٥٨

سبب التّزول ٣٥٨

التّفسير ٣٥٩

اشاره ٣٥٩

الامتحان الإلهى سنه خالده: ٣٥٩

بحث ٣٦١

اشاره ٣٦١

الامتحانات فى وجوه مختلفه: ٣٦١

الآيات [سوره العنكبوت (٢٩): الآيات ٤ الى ٧] ٣٦٤

اشاره ٣٦٤

التّفسير ٣٦٤

اشاره ٣٦٤

لا مهرب من سلطان اللّٰه: ٣٦٤

الآيتان [سوره العنكبوت (٢٩): الآيات ٨ الى ٩] ٣٦٨

اشاره ٣٦٨

سبب التّزول ٣٦٨

التفسير ٣٦٩

اشاره ٣٦٩

أفضل الوصايا بالنسبه للوالدين: ٣٦٩

ملاحظه ٣٧١

اشاره ٣٧١

الإحسان إلى الوالدين: ٣٧١

الآيات [سوره العنكبوت (٢٩): الآيات ١٠ الى ١٣] ٣٧٣

اشاره ٣٧٣

التفسير ٣٧٣

اشاره ٣٧٣

شركاء في الانتصار أفا في الشده فلا! ٣٧٣

مسألان ٣٧٨

اشاره ٣٧٨

١-السنن الحسنه و السنن السيئه: ٣٧٨

٢-جواب على سؤال: ٣٧٨

الآيات [سوره العنكبوت (٢٩): الآيات ١٤ الى ١٩] ٣٨٠

اشاره ٣٨٠

التفسير ٣٨٠

الآيات [سوره العنكبوت (٢٩): الآيات ٢٠ الى ٢٣] ٣٨٧

اشاره ٣٨٧

التفسير ٣٨٧

اشاره ٣٨٧

الأيسون من رحمه الله: ٣٨٧

يبقى هنا سؤالان: ٣٩١

الآيات [سوره العنكبوت (٢٩): الآيات ٢٤ الى ٢٧] ٣٩٣

اشاره ٣٩٣

التفسير ٣٩٣

اشاره ٣٩٣

أسلوب المستكبرين في جوابهم لإبراهيم: ٣٩٣

ملاحظتان ٣٩٩

اشاره ٣٩٩

١- أكبر الفخر!..... ٣٩٩

٢- مواهب إبراهيم العظيمه ٤٠٠

الآيات [سوره العنكبوت (٢٩): الآيات ٢٨ الى ٣٠] ٤٠٢

اشاره ٤٠٢

التفسير ٤٠٢

اشاره ٤٠٢

المنحرفون جنسيا: ٤٠٢

ملاحظه ٤٠٥

اشاره ٤٠٥

بلاء الانحراف الجنسي: ٤٠٥

الآيات [سوره العنكبوت (٢٩): الآيات ٣١ الى ٣٥] ٤٠٧

اشاره ٤٠٧

التفسير ٤٠٧

اشاره ٤٠٧

و هذه هي عاقبه المنحرفين: ٤٠٧

الآيات [سوره العنكبوت (٢٩): الآيات ٣٦ الى ٤٠] ٤١٤

اشاره ٤١٤

التفسير ٤١٤

اشاره ٤١٤

تنوع العذاب للظالمين: ٤١٤

الآيات [سوره العنكبوت (٢٩): الآيات ٤١ الى ٤٤] ٤٢١

٤٢١ اشارة

٤٢١ التفسير

٤٢١ اشارة

٤٢١ دعامة واهيه كبيت العنكبوت:

٤٢٧ الآية [سوره العنكبوت (٢٩): آيه ٤٥] -

٤٢٧ اشارة

٤٢٧ التفسير

٤٢٧ اشارة

٤٢٧ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر:

٤٣٠ «أحاديث» ينبغي الالتفات إليها

٤٣٢ بحث

٤٣٢ اشارة

٤٣٢ تأثير الصلاة في تربيته الفرد و المجتمع:

٤٤١ الآيات [سوره العنكبوت (٢٩): الآيات ٤٦ الى ٤٩] -

٤٤١ اشارة

٤٤١ التفسير

٤٤١ اشارة

٤٤١ أتبعوا أحسن الأساليب في البحث و الجدل:

٤٤٩ بحوث

٤٤٩ اشارة

٤٤٩ ١-الرسول صلى الله عليه و آله و سلم.الأمي

٤٥١ ٢-طريق النفوذ في الآخرين

٤٥٢ ٣-الكافرون و الظالمون

٤٥٥ الآيات [سوره العنكبوت (٢٩): الآيات ٥٠ الى ٥٥] -

٤٥٥ اشارة

٤٥٥ التفسير

٤٥٥ اشارة

٤٥٥ أ ليس القرآن كافيا في إعجازه؟!

٤٦٣ ملاحظات

٤٦٣ اشارة

٤٦٣ ١-دلائل إعجاز القرآن:

٤٦٤ ٢-التشبيث بالحيل لإنكار المعجزات:

٤٦٤ ٣-المعجزات الافتراحيه:

٤٦٥ الآيات [سوره العنكبوت (٢٩): الآيات ٥٦ الى ٦٠]

٤٦٥ اشارة

٤٦٥ سبب النزول

٤٦٦ التفسير

٤٦٦ اشارة

٤٦٦ لا بد من الهجره:

٤٧٢ الآيات [سوره العنكبوت (٢٩): الآيات ٦١ الى ٦٦]

٤٧٢ اشارة

٤٧٢ التفسير

٤٧٢ اشارة

٤٧٢ الإقرار بالتوحيد في الباطن و الشرك في الظاهر:

٤٧٩ ملاحظه

٤٧٩ اشارة

٤٧٩ الشدائد و اشراق القطره:

٤٨١ الآيات [سوره العنكبوت (٢٩): الآيات ٦٧ الى ٦٩]

٤٨١ اشارة

٤٨١ سبب النزول

٤٨١ التفسير

٤٨٥ ملاحظتان

٤٨٥	اشاره
٤٨٥	١-الجهاد و الإخلاص
٤٨٦	٢-الناس ثلثه أصناف:
٤٨٩	سوره الروم
٤٨٩	اشاره
٤٩١	محتوى سوره الروم:
٤٩٢	فضيله سوره الروم:
٤٩٤	الآيات [سوره الروم (٣٠): الآيات ١ الى ٧]
٤٩٤	اشاره
٤٩٤	سبب النزول
٤٩٥	التفسير
٤٩٥	اشاره
٤٩٥	تنبؤ عجيب!
٥٠٠	بحوث
٥٠٠	اشاره
٥٠٠	١-إعجاز القرآن من جهه «علم الغيب»
٥٠١	٢-السطحيون «أصحاب الظاهر»
٥٠٣	٣-المطابقه التاريخيه
٥٠٥	الآيات [سوره الروم (٣٠): الآيات ٨ الى ١٠]
٥٠٥	اشاره
٥٠٥	التفسير
٥٠٥	اشاره
٥٠٥	عاقبه المسيئين:
٥١٠	الآيات [سوره الروم (٣٠): الآيات ١١ الى ١٦]
٥١٠	اشاره
٥١٠	التفسير

٥١٠ اشارة

٥١٠ مصير المجرمين و مآلهم يوم القيامة!

٥١٣ ملاحظه

٥١٣ اشارة

٥١٣ لم كان أحد أسماء القيامة «الساعة»!؟

٥١٥ الآيات [سوره الروم (٣٠): الآيات ١٧ الى ١٩]

٥١٥ اشارة

٥١٥ التفسير

٥١٥ اشارة

٥١٥ التسبيح و الحمد فى جميع الأحوال لله!

٥٢٠ الآيات [سوره الروم (٣٠): الآيات ٢٠ الى ٢٢]

٥٢٠ اشارة

٥٢٠ التفسير

٥٢٠ اشارة

٥٢٠ آيات الله فى الأفق و فى الأنفس:

٥٢٨ الآيات [سوره الروم (٣٠): الآيات ٢٣ الى ٢٥]

٥٢٨ اشارة

٥٢٨ التفسير

٥٢٨ اشارة

٥٢٨ آيات عظمته-مزه أخرى:

٥٣٣ بحوث

٥٣٣ اشارة

٥٣٣ ١-دوره دروس كامله لمعرفة الله

٥٣٤ ٢-من هم المستلهمون من هذه الآيات

٥٣٥ ٣-عجائب عالم النوم

٥٣٦ ٤-علاقه الحب بين الزوجين

٥٣٨	الآيات [سوره الروم (٣٠): الآيات ٢٦ الى ٢٩]
٥٣٨	اشاره
٥٣٨	التفسير
٥٣٨	اشاره
٥٣٨	المالكيه لله وحده:
٥٤٥	الآيات [سوره الروم (٣٠): الآيات ٣٠ الى ٣٢]
٥٤٥	اشاره
٥٤٥	التفسير
٥٥٠	بحثنان
٥٥٠	اشاره
٥٥٠	١-التوحيد باعث داخلي قوى:
٥٥٦	٢-فطره التوحيد فى الأحاديث الإسلاميه
٥٥٩	الآيات [سوره الروم (٣٠): الآيات ٣٣ الى ٣٦]
٥٥٩	اشاره
٥٥٩	التفسير
٥٦٤	الآيات [سوره الروم (٣٠): الآيات ٣٧ الى ٤٠]
٥٦٤	اشاره
٥٦٤	التفسير
٥٧٣	الآيات [سوره الروم (٣٠): الآيات ٤١ الى ٤٥]
٥٧٣	اشاره
٥٧٣	التفسير
٥٧٣	اشاره
٥٧٣	أساس الفساد و مصدره أعمال الناس أنفسهم:
٥٧٨	بحوث
٥٧٨	اشاره
٥٧٨	١-العلاقه بين الذنب و الفساد

- ٥٧٩ ٢-فلسفه السير فى الأرض
- ٥٨١ ٣-الدين القيم
- ٥٨٢ ٤-لا عوده فى يوم القيامة!
- ٥٨٤ الآيات [سوره الروم (٣٠): الآيات ٤٦ الى ٥٠]
- ٥٨٤ اشاره
- ٥٨٤ التفسير
- ٥٨٤ اشاره
- ٥٨٤ انظر إلى آثار رحمة الله:
- ٥٩٣ الآيات [سوره الروم (٣٠): الآيات ٥١ الى ٥٤]
- ٥٩٣ اشاره
- ٥٩٣ التفسير
- ٥٩٣ اشاره
- ٥٩٣ الموتى و الصّم لا يسمعون كلامك:
- ٦٠٠ الآيات [سوره الروم (٣٠): الآيات ٥٥ الى ٦٠]
- ٦٠٠ اشاره
- ٦٠٠ التفسير
- ٦٠٠ اشاره
- ٦٠٠ يوم لا ينفع الاعتذار:
- ٦٠١ مسألان
- ٦٢١ تعريف مركز

سرشناسه: مکارم شیرازی، ناصر، - ۱۳۰۵

عنوان و نام پدیدآور: الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل / تالیف ناصر مکارم شیرازی؛ [با همکاری جمعی از فضلا]

وضعیت ویراست: [ویرایش ۲]

مشخصات نشر: قم: مدرسه الامام علی بن ابی طالب(ع)، ۱۴۲۱ق. = ۱۳۷۹.

مشخصات ظاهری: ج ۲۰

شابک: ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۳-X(دوره)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۹-۱(ج.۱)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۳-۲(ج.۲)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۸-۳(ج.۳)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۲-۴(ج.۴)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۷-۵(ج.۵)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۱-۶(ج.۶)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۶-۷(ج.۷)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۰-۸(ج.۸)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۵-۹(ج.۹)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۴-۱۰(ج.۱۰)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۲-۱۱(ج.۱۱)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۷-۱۲(ج.۱۲)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۱-۱۳(ج.۱۳)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۰-۱۵(ج.۱۵)

وضعیت فهرست نویسی: فهرست نویسی قبلی

یادداشت: کتاب حاضر ترجمه و تلخیص "تفسیر نمونه" است

یادداشت: کتاب حاضر در سالهای مختلف توسط ناشرین مختلف منتشر گردیده است

یادداشت: کتابنامه

موضوع: تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

شناسه افزوده: مدرسه الامام علی بن ابی طالب(ع)

رده بندی کنگره: BP۹۸/م ۷ ۷۰۴۴۷ ۱۳۷۹

رده بندی دیویی: ۲۹۷/۱۷۹

شماره کتابشناسی ملی: م ۷۹-۱۰۳۹۱

سوره النمل

اشاره

مكيه و عدد آياتها ثلاث و تسعون آيه

ص: ٥

محتوى سوره النمل

هذه السوره نزلت بمكّه- كما ذكرنا آنفاً- والمعروف أنّها نزلت بعد سوره الشعراء.

و محتوى هذه السوره- بصوره عامّه- كمحتوى سائر السور المكيه، فأكثر اهتمامها- من الوجهه الاعتقاديّه- ينصبّ على المبدأ و المعاد... و تتحدث عن الوحي و القرآن و آيات الله فى عالم الإيجاد و الخلق، و كيفيه المعاد و القيامة؟ و أمّا من ناحيه المسائل العمليه و الاخلاقيه، فالقسم الكبير منها يتحدث عن قصص خمسه أنبياء كرام و مواجهاتهم لأممهم المنحرفه، لتكون هذه السوره تسليه للمؤمنين القلّه بمكّه فى ذلك اليوم، و فى الوقت ذاته تكون إنذاراً للمشركين المعاندين الظالمين ليروا عواقب أمرهم فى صفحات تاريخ الظلمه الماضين، فلعلهم يحذرون و يرجعون إلى الرشد.

و أحد خصائص هذه السوره هى بيان قسم مهم من قصّه النّبي سليمان و ملكه سبأ، و كيفيه إيمانها بالتوحيد، و كلام الطير- كالهدهد، و الحشرات كالنمل- مع سليمان عليه السّلام.

و هذه السوره سمّيت سوره «النمل» لورود ذكر النمل فيها، و العجيب أنّها سمّيت بسوره «سليمان» كما فى بعض الروايات «و النمل أخرى» سليمان أحياناً، و كما سنلاحظ... فإنّ هذه التسميات للسور ليست اعتباطاً، بل هى مدروسه و دقيقه فى تسميتها، فهى من تعليمات النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم، و تكشف عن حقيقه

مهمه يغفل عنها الناس في الظروف الاعتيادية!

و تتحدث هذه السوره ضمنا عن علم الله غير المحدود، و هيمنته و سلطانه على كل شىء في عالم الوجود، و حاكميته عالم عباده... و الالتفات إلى ذلك له أثره الكبير في المسائل التربويه للإنسان.

و تبدأ هذه السوره بالبشرى و تنتهى بالتهديد، فالبشرى للمؤمنين، و التهديد للناس بأن الله غير غافل عن أعمالكم.

فضيله سورہ النمل:

جاء في بعض أحاديث النبي صلى الله عليه و آله و سلم أنه قال: «من قرأ طس سليمان كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق سليمان و كذب به، و هود و شعيب و صالح و إبراهيم و يخرج من قبره و هو ينادى لا إله إلا الله» (١).

و بالرغم من أن هذه السوره تتحدث عن موسى و سليمان و داود و صالح و لوط، و ليس فيها كلام عن هود و شعيب و إبراهيم، إلا أنه حيث أن جميع الأنبياء سواء في دعوتهم إلى الله- فلا مجال لأن نعجب من هذا التعبير.

و

ورد في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «من قرأ سور الطواسين الثلاث» يعنى سور الشعراء و النمل و القصص» في ليله جمعه كان من أولياء الله و في جواره و كنفه، و لم يصبه في الدنيا بؤس أبدا، و أعطى في الآخرة من الجنة حتى يرضى و فوق رضاه، و زوجه الله مائه زوجه من الحور العين» (٢).

ص: ٨

١- ١) - مجمع البيان ذيل الآيات و تفسير الثقلين، ج ٤، ص ٧٤.

٢- ٢) - «ثواب الأعمال» نقلا، نور الثقلين، ج ٤، ص ٧٤.

إشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (١) هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ
الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٣) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زِينَةً لَّهُمْ أَكْثَرُ لَهُمْ فَعَمَهُمْ يَعْمَهُونَ (٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ
الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسِرُونَ (٥) وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (٦)

التفسير

إشاره

القرآن منزل من لدن حكيم عليم:

نواجه مژه أخرى- في بدايه هذه السوره- الحروف المقطعه من القرآن (طس).

و بملاحظه أنّ ما بعدها مباشره هو الكلام عن عظمه القرآن، فيبدو أنّ واحدا من أسرار هذه الحروف هو أنّ هذا الكتاب العظيم و
الآيات اليبينات منه، كل ذلك يتألف من حروف بسيطه... و إن الجدير بالثناء هو الخالق العظيم الموجد لهذا الأثر البديع من
حروف بسيطه كهذه الحروف، و كان لنا في هذا الشأن بحوث مفصّله في بدايه سوره البقره و سوره آل

ثم يضيف القرآن قائلا: تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ و الإشارة للبعيد بلفظ (تلك) لبيان عظمه هذه الآيات السماويه، و التعبير ب(المبين) تأكيد على أنّ القرآن واضح بنفسه و موضح للحقائق أيضا (1).

و بالرغم من أنّ بعض المفسرين احتمل أنّ التعبير ب الْقُرْآنِ وَ كِتَابٍ مُبِينٍ إشاره إلى معنيين مستقلين، و أنّ «الكتاب المبين» يراد منه اللوح المحفوظ... إلّا. أنّ ظاهر الآيه يدلّ على أنّ كلاهما لبيان حقيقه واحده، فالأول في ثوب الألفاظ و التلاوه، و الثاني في ثوب الكتابه و الرسم.

و في الآيه التاليه وصفان آخران للقرآن إذ تقول: هُدًى وَ بُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ... الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ .

و هكذا فإن اعتقاد المؤمنين راسخ في شأن المبدأ و المعاد، و ارتباط متين بالله و خلقه أيضا... فالأوصاف المتقدمه تشير إلى اعتقادهم الكامل و منهجهم العملي الجامع!.

و هنا ينقدح سؤال و هو: إذا كان هؤلاء المؤمنون قد اختاروا الطريق السوي، من حيث المباني الاعتقاديه و العمليه، فما الحاجه لأنّ يأتي القرآن لهدايتهم؟! و يتضح الجواب بملاحظه أنّ الهدايه لها مراحل مختلفه، و كل مرحله مقدمه لما بعدها..

ثم إنّ استمرار الهدايه مسأله مهمه، و هي ما نسألها الله سبحانه ليل نهار بقولنا: اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ليشبتنا في هذا المسير، و يجعلنا مستمرين فيه بلطفه، فلو لا لطفه لما كان ذلك ممكنا لنا...

١ - ١) - «المبين» مشتق من (الإبانه) و كما يقول بعض المفسرين «كألاوسى في روح المعاني»: إنّ هذه ماده قد يأتي فعلها لازما، و قد يأتي متعديا ففي الصوره الأولى يكون مفهوم المبين هو الواضح و البين، و في الصوره الثانيه يكون مفهومه الموضح!

و بعد هذا كله، فالإفاده من آيات القرآن و الكتاب المبين هي نصيب أولئك الذين فيهم القابليه على معرفه الحق و طلب الحق. و إن لم يبلغوا مرحله الهدايه الكامله... و إذا ما وجدنا التعبير في بعض آيات القرآن بأنه هُدًى لِلْمُتَّقِينَ « كما في الآيه ٢ من سوره البقره» و في مكان آخر لِلْمُسْلِمِينَ « كما في الآيه ١٠٢ من سوره النحل» و هنا هُدًى وَ بُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّ ذَلِكَ ناشئ من أنه إذا لم يكن في قلب الإنسان أدنى مرحله من التقوى و التسليم و الإيمان بالواقع، فإنه لا يتجه نحو الحق، و لا يبحث عنه، و لا يفيد من نور هذا الكتاب المبين... لأن قابليه المحل شرط أيضا.

ثم بعد ذلك فإن الهدى و البشرى مقترنين معا.. و هما للمؤمنين فحسب، و ليس للآخرين مثل هذه المزيه...

و من هنا يتضح مجيء التعبير بالهدايه بشكل واسع لعموم الناس هُدًى للناس فإن المراد منه أولئك الذين تتوفر فيهم الأرضيه المناسبه لقبول الحق، و إلا فإن المعاندين الألداء. عماه القلوب، لو أشرقت عليهم آلاف الشمس بدل شمسنا هذه ليهتدوا، لما اهتدوا أبدا.

و تتحدث الايه التاليه عن الأشخاص في المقابله للمؤمنين، و تصف واحده من أخطر حالاتهم فتقول: إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيْنًا لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ. أى حيارى في حياتهم.

فهم يرون الملوث نقيًا، و القبيح حسنا، و العيب فخرا، و الشقاء سعادته و انتصارا!!.

أجل، هذا حال من يسلك الطريق المنحرف و يتوغل فيها... فواضح أن الإنسان حين يقوم بعمل قبيح. فإن قبحه يخف تدريجا، و يعتاد عليه، و عند ما يتطبع عليه يوجهه و يبرره، حتى يببدو له حسنا و يعدّه من وظائفه! و ما أكثر الذين تلوثت أيديهم بالأعمال الإجراميه... و هم يفتخرون بتلك الأعمال و يعدونها

أعمالاً إيجابيه.

و هذا التغير فى القيم، أو اضطراب المعايير فى نظر الإنسان، يؤدى إلى الحيره فى متاهات الحياه...و هو من أسوأ الحالات التى تصيب الإنسان.

و الذى يلفت النظر أن «التزيين» فى الآيه محل البحث-و فى آيه أخرى من القرآن، و هى الآيه (١٠٨) من سوره الأنعام، نسب إلى الله سبحانه، مع أنه نسب فى ثمانيه مواطن إلى الشيطان، و فى عشره أخر جاء بصيغ الفعل المجهول (زَيْن) و لو فكرنا بامعان-و أمعنا النظر، لوجدنا جميع هذه الصور كاشفه عن حقيقه واحده! فأما نسبة التزيين إلى الله، فلأنه «مسبب الأسباب» فى عالم الإيجاد، و ما من موجود مؤثر إلا و يعود تأثيره إلى الله.

أجل، إن هذه الخاصيه أوجدها الله فى تكرار العمل ليتطبّع عليه الإنسان...

و يتغير حسّ التشخيص فيه دون أن تسلب المسؤوليه عنه، أو أن تكون نقصا فى خلقه الله أو إيرادا عليه (لاحظوا بدقّه).

و أما نسبة التزيين إلى الشيطان (أو هوى النفس) فلأن كلاّ منهما عامل قريب و بغير واسطه للتزيين.

و أمّا مجيء التزيين بصوره الفعل المبنى للمجهول، فهو إشاره إلى أنّ طبيعه العمل يقتضى أن يوجد-على أثر التكرار-حاله و ملكه و علاقته و عشقا!! ثمّ تبين الآيه التاليه نتيجته «تزيين الأعمال» و عاقبه أولئك الذين شغفوا بها فتقول: **أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ**.

فهم فى الدنيا سيمسون حيارى آيسين نادمين، و سينالون العقاب الصارم فى الآخره وَ هُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ .

و الدليل على أنّهم فى الآخره هم الأخسرون، ما جاء فى الآيه (١٠٣) من سوره الكهف **قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ**

ص: ١٢

الدُّلْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا .

فأيه خساره أعظم من أن يرى الإنسان عمله القبيح حسنا!!و أن يهدر جميع طاقاته من أجله، ظنًا منه بأنه عمل «إيجابي» مثبت، إلا أنه يراه فى عاقبه أمره شقاء و ذله و عذابا.

و أما الآيه الأخيره-من الآيات محل البحث-فهى بمثابة إكمال البيانات السابقه فى صدد عظمه محتوى القرآن، و مقدمه لقصص الأنبياء التى تبدأ بعدها مباشرة فتقول: وَ إِنَّكَ لَتَلَقَّى (١) الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ .

و بالرغم من أن الحكيم و العليم كلاهما إشاره إلى علم الله سبحانه، إلا أن الحكمة تبين الجوانب العمليه، و العلم يبين الجوانب النظرية...و بتعبير آخر: إن العليم يخبر عن علم الله الواسع، و الحكيم يدل على الهدف من إيجاد هذا العالم و إنزال القرآن على قلب النبي (محمد صلى الله عليه و آله و سلم).

و مثل هذا القرآن النازل من قبل الله ينبغى أن يكن مبينا...و هدى و بشرى للمؤمنين، و أن تكون قصصه خاليه من أى نوع من أنواع الخرافات و التضليل و الأباطيل و التحريف.

الواقعيه و الإيمان:

المسأله المهمه فى حياه الإنسان هى أن يدرك الواقعيّات بما هى عليه، و أن يكون موقفه منها صريحا...فلا تمنعه من فهمها و إدراكها تصوراتها و أحكامه المسبقه و رغباته الانحرافيه و حبه و بغضه، و لذلك فأن أهم تعريف للفلسفه هو:

إدراك الحقائق كما هى!.

ص: ١٣

١ - ١) - «تلقى» فعل مضارع مبنى للمفعول، و هو من باب التفعيل، و الفعل الثلاثى المجرد من هذه الماده (لقى) و هو يتعدى إلى مفعول واحد. أما المزيد فيتعدى إلى مفعولين. و فى الآيه محل البحث (الله) هو الفاعل و ملقى القرآن، و النبي (مفعول به أول)، و القرآن مفعول ثان، و حيث أن الفعل بنى للمجهول يقوم المفعول الأول مقام الفاعل فرفع، و أما المفعول الثانى فعلى حاله.

و لذلك فقد كان من دعاء المعصومين: (اللهم أرني الأشياء كما هي) أى لأعرف قيمها و أؤدى حقها.

و هذه الحالة لا- تتحقق بغير الإيمان الأتّ الهوى و الهوس و الانحرافات أو الرغبات النفسيه، تكون حجابا و سدا كبيرا فى هذا الطريق، و لا يمكن رفع هذا الحجاب أو السد إلا بالتقوى و ضبط هوى النفس!.

لذلك فقد قرأنا فى الآيات آنفه الذكر: إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ .

و المثل الواضح و الجلى لهذا المعنى نراه فى حياه كثير من عبده الدنيا فى زماننا بشكل يّين. فهم يفتخرون ببعض المسائل و يرونها حضاره، إلا أنّها فى الواقع ليست إلا الفضيحه و العار و الذل.

فالتفسخ و الحماقه عندهم دليل «الحرية».

و التعرى و السفور من قبل النساء دليل «التمدن».

التكالب على بهارج الدنيا و زخارفها دليل على «الشخصيه».

الغرق فى ألوان الفساد دليل «التحرر».

القتل و الإجرام دليل على «القوه».

التخريب و غضب رؤوس الأموال دليل على الاستعمار، أى البناء و العمران (1) !! استخدام اجهزه الاعلام العامه كالراديو و التلفزيون لتوكيد المفاهيم!! سحق حقوق المحرومين دليل على احترام حقوق البشر.

الأسر فى قبضه المخدرات و الفضائح و ما إلى ذلك من أشكال الحرية!

و التزوير و الغش و اقتناء الأموال من أى طريق كان و كيف كان، دليل على

ص: ١٤

١ - ١) - المفهوم اللغوى للاستعمار مفهوم جميل، يعنى الإعمار كما جاء فى القرآن وَ اسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا إِلَّا أَنْ الْمَفْهُومَ السِّيَاسِيَّ للاستعمار هو التسلط من قبل الأجنبي و استثماره لخيرات الشعوب (المصحح).

الجداره و الذكاء.

رعايه أصول العدل و احترام حقوق الآخرين دليل على الضعف و عدم اللياقه!.

الكذب و الدجل و نقض العهود و ما إلى ذلك دليل على السياسه.

و الخلاصه: إن الأعمال السيئه و القبيحه تترين في نظر هؤلاء الى درجه أنهم لا يشعرون في أنفسهم بالخجل منها. بل و يفتخرون و يتباهون بها!! و واضح إلى اين يتجه مثل هذا العالم و ماذا سيكون مصيره!!

ص: ١٥

اشاره

إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنستُ نارا سآتيكم منها بخبرٍ أو آتيكم بشهابٍ قسٍ لعلكم تصيطلون (٧) فلما جاءها نودي أن بورك من في الدارِ ومن حولها وسبحان الله رب العالمين (٨) يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم (٩) و ألق عصاك فلما رآها تهترأ كأنها جانٌ وليٌ مدبراً ولم يعقب يا موسى لا تخف إنني لا يخاف لدى المرسلون (١٠) إلا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوءٍ فإني غفورٌ رحيمٌ (١١) و أدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوءٍ في تسع آياتٍ إلى فزعون و قومهم إنهم كانوا قوماً فاسقين (١٢) فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحرٌ مبينٌ (١٣) و جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً و علواً فانظر كيف كان عقابه المفسدين (١٤)

التفسير

اشاره

موسى يقتبس النور:

يجرى الكلام في هذه السوره- كما أشرنا من قبل- بعد بيان أهميه القرآن، عن قصص خمسة أنبياء عظام، و ذكر أممهم، و الوعد بانتصار المؤمنين و عقاب

فأول نبيّ تتحدث عنه هذه السوره، هو موسى عليه السّلام أحد الأنبياء «أولى العزم» وتبدأ مباشرة بأهم نقطه من حياته و أكثرها «حساسيه» و هي لحظه نزول الوحي على قلبه و إشراقه فيه، و تكليم الله إياه إذ تقول الآيه: **إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا (١) أَي رَأَيْتَ نَارًا مِنْ بَعِيدٍ، فَاذْكُرُونَهَا عَنِّي لعلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢).**

في تلك الليله الظلماء، كان موسى عليه السّلام يسير بزوجه بنت النبيّ شعيب عليه السّلام في طريق مصر- و في الصحراء- فهبت ريح بارده، و كانت زوجته (أهله) مقربًا، فأحسّت بوجع الطلق، فوجد موسى عليه السّلام نفسه بمسيس الحاجه إلى النار لتصطلى المرأه بها، لكن لم يكن في الصحراء أيّ شيء، فلما لاح له النار من بعيد سرّ كثيرًا، و علم أنّها دليل على وجود إنسان أو أناس، فقال: سأمضي و آتيكم منها بخبر أو شعله للتدفئه.

مما يلفت النظر أنّ موسى عليه السّلام يقول لأهله سأتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قيس «بضمير الجمع لا الإفراد» و لعل هذا التعبير هو أنّ موسى عليه السّلام كان معه بالإضافة إلى زوجته أطفال أيضا... لأنه كان قد مضى على زواجه عشر حجج (عشر سنين) في مدين.. أو أنّ الخطاب بصيغه الجمع (آتيكم) يوحى بالاطمئنان في هذه الصحراء الموحشه!.

و هكذا فقد تركّ موسى أهله في ذلك المكان و اتّجه نحو «النار» التي آنسها فلما جاءها نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَ سُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

و هناك احتمالات مختلفه عند المفسرين في المراد من قوله تعالى:

ص: ١٧

١- ١) - «آنست» فعل ماض مأخوذ من (الإيناس) و هو الرؤيه المقرونه بالراحه النفسيه و السكينه و إنما يطلق على الإنسان فهو لهذا المعنى.

٢- ٢) - «الشهاب» هو النور الذي ينبثق من النار كالعمود، و كل نور له عمود يدعى شهابًا، و في الأصل يطلق الشهاب على واحد النيازك التي تهوى من السماء بسرعه مذهله فتحرق بسبب اصطدامها بالغلاف الجوى فيكون لها عمود من نار، «و القيس» شعله من النار تنفصل عنها. «و تصطلون» من الاصطلاء و هو الدفع (بالنار)..

مَنْ فِي النَّارِ

وَمَنْ حَوْلَهَا

!...فما المقصود من هذا التعبير؟! و يبدو أنّ المراد من مَنْ فِي النَّارِ هو موسى نفسه، حيث كان قريبا منها و من الشجره الخضراء التي عندها، فكأنّ موسى كان في النار نفسها، و أنّ المراد من مَنْ حَوْلَهَا هم الملائكة المقربون من ساحه القدس، الذين كانوا يحيطون بتلك الأرض المقدسه في ذلك الوقت.

أو أنّ المراد على عكس ما ذكرنا آنفا- فمن في النار: هم الملائكة المقربون، و من حولها هو موسى عليه السلام.

و على كلّ حال فقد جاء في بعض الروايات أنّ موسى عليه السلام لما وصل النار و نظر بدقّه، رأى النار تشتعل من غصن أخضر! و تتسع الشعلة لحظه بعد أخرى، و الشجره تزداد اخضراراً و جمالا.. فلا حراره النار تحرق الشجره، و لا رطوبه الشجره تطفئ لهب النار، فتعجب من هذا المشهد الرائع.... و انحنى ليقتبس من هذه النار و يشعل الغصن اليابس «الحطب» الذي كان معه، فأتته النار فارتاع و رجع... فمرّه يأتي موسى إلى النار، و مرّه تأتي النار إلى موسى، و بيّنا هو على هذه الحاله، إذا بالنداء يقرع سمعه مبشراً إيّاه بالوحي.

فالمراد أنّ موسى عليه السلام اقترب من النار ألى درجه عبّر عنه بأنّه «في النار».

و التفسير الثالث لهذه الجملة، هو أنّ المراد من (من في النار) هو نور الله الذي تجلّى في تلك الشعلة، و المراد من «من حولها» هو موسى الذي كان قريبا منها. و على كلّ حال فمن أجل أن لا يتوهم أحد من هذه العبارة مفهوم «التجسيم» فقد ختمت الآية ب سُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ تنزيها له عن كلّ عيب و نقص و جسميّة و ما يعترض الجسم من عوارض!.

و مرّه أخرى نودى موسى بالقول: يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

و ذلك يزول عن موسى عليه السلام كلّ شك و تردّد، و ليعلم أنّ الذي يكلمه هو ربّ العالمين، لا شعله النار و لا الشجره، الربّ القوى العزيز الذي لا يغلب و لا يقهر،

و الحكيم ذو التدبير فى جميع الأمور!

و هذا التعبير فى الحقيقة مقدّمه لبيان المعجزه التى سيأتى بيانها فى الآيه التالىه لأنّ الإعجاز آت من هاتين الصفتين «قدره الله» و «حكّمته»، و لكن قبل أن نصل إلى الآيه التالىه.. ينقذح هذا السؤال و هو: من أين تيقن موسى عليه السلام أنّ هذا النداء هو نداء الله و ليس سواه؟! يمكن أن يجاب على هذا السؤال بأنّ هذا النداء- أو الصوت المقرون بمعجزه جليّه، و هى إشراق النار من الغصن الأخضر «فى الشجره الخضراء»- دليل حى على أنّ هذا أمر إلهى!

ثمّ إنّه- كما سنرى فى الآيه التالىه- بعد هذا النداء أمر موسى عليه السلام بإلقاء العصا و إظهار اليد البيضاء، على نحو الإعجاز، و هما شاهدان صادقان آخران على هذه الحقيقة.

ثمّ بعد هذا كله (فعلى القاعده) فإنّ نداء الله له خصوصيه تميزه عن كلّ نداء آخر، و حين يسمعه الإنسان يؤثر فى روحه و قلبه تأثيراً لا يخالطه الشكّ أو التردد بأنّ هذا النداء هو نداء الله سبحانه.

و حيث أنّ الصدع بالرساله و البلاغ (و أیه رساله و بلاغ... رساله إلى جبار مستكبر ظالم كفرعون). لا بدّ له من قوه ظاهرية و باطنية و سند على حقانيته...

فلذا أمر موسى بأن يلقى عصاه: وَ أَلْقِ عَصَاكَ .

فألقي موسى عصاه، فتبدلت ثعباناً عظيماً، فلما رآه موسى يتحرك بسرعه كما تتحرك الحيات الصغار خاف و ولّى هارباً و لم يلتفت الى الوراء: فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَ لَمْ يُعَقِّبْ . (١)

و يحتمل أنّ عصا موسى تبدلت بادئ الأمر إلى حيه صغيره، ثمّ تحولت إلى

ص: ١٩

١- ١) - يعتقد بعض المفسرين أنّ «الجان» مأخوذ من الجن، و هو الموجود غير المرئى، لأنّ الحيات الصغيره تتحرك بين العشب فى الأرض و تخفى نفسها.

أفعى كبيره فى المراحل الأخر! و هنا خوطب موسى مره أخرى أن يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ فهنا مقام القرب، و حرم أمن الله القادر المتعال.

و هنا لا- معنى للخوف و الوحشه. و معنى الآيه: أن يا موسى إنك بين يدى خالق الوجود العظيم، و الحضور عنده ملازم لأمن المطلق!.

و نقرأ نظير هذا التعبير فى الآيه (٣١) من سوره القصص: يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ .

إلا أن فى الآيه التاليه استثناء للجمله السابقه، حيث ذكره القرآن فقال: إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ!.

و هناك رأيان مختلفان لدى المفسرين فى علاقه الاستثناء بالجمله:

فالرأى الأول: أن هناك حذفاً ذيل الآيه آنفه الذكر و تقديره: إنك من الآمنين و غير الأنبياء ليس آمناً. ثم استثنى سبحانه من ذلك «بإلا» من ظلم ثم بدل حسناً، فهو من الآمنين أيضاً لأن الله غفور رحيم.

و الثانى: أن الاستثناء من ضمن الجمله، و الظلم إشاره إلى ترك الأولى الذى قد يقع من الأنبياء، و هو لا ينافى مقام العصمه، و معنى الآيه على هذا الرأى: أن الأنبياء فى حال ترك الأولى غير آمنين أيضاً، و أن الله يحاسبهم حساباً عسيراً، كما جاء فى آيات القرآن عن قصه آدم و قصه يونس عليهما السلام!.

إلا- أولئك الذين التفتوا إلى ترك الأولى، و انعطفوا نحو الله الرحيم، فبدلوا حسناً و عملاً صالحاً بعد ذلك، كما جاء فى شأن موسى عليه السلام نفسه فى قصه قتله الرجل القبطى، إذ اعترف موسى بتركه الأولى، فقال: رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي (١).

ص: ٢٠٠

أَمَّا الْمَعْجَزَةُ الثَّانِيَةُ الَّتِي أَمَرَ مُوسَى أَنْ يَظْهَرَهَا، فَهِيَ الْيَدُ الْبَيْضَاءُ، إِذْ تَقُولُ الْآيَةُ: وَ أَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ .

و القيد مِنْ غَيْرِ سُوءٍ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ بِيَاضَ الْيَدِ لَيْسَ مِنْ بَرَصٍ وَ نَحْوِهِ، بَلْ هُوَ بِيَاضٌ نَوْرَانِي يَلْفَتُ النَّظْرَ، وَ هُوَ بِنَفْسِهِ كَاشِفٌ عَنِ إِعْجَازٍ وَ أَمْرٍ خَارِقٍ لِلْعَادَةِ:

وَ مِنْ أَجْلِ أَنَّ يَظْهَرُ اللَّهُ تَعَالَى عِنَايَتَهُ وَ لَطْفَهُ لِمُوسَى أَكْثَرَ، وَ كَذَلِكَ مَنَحَ الْفُرْصَةَ لِلْمُنْحَرِفِينَ لِلْهَدَايَةِ أَكْثَرَ، قَالَ لِمُوسَى بِأَنَّ مَعْجَزَهُ لَيْسَتْ مَنَحَصْرَةً بِالْمَعْجَزَتَيْنِ الْآنِفَتَيْنِ، بَلْ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١).

وَ يَسْتَفَادُ مِنْ ظَاهِرِ الْآيَةِ أَنَّ هَاتَيْنِ الْمَعْجَزَتَيْنِ مِنْ مَجْمُوعِ تِسْعِ مَعْجِزِ «آيَاتِ» مُوسَى الْمَعْرُوفَةِ، وَ قَدْ اسْتَنْتَجْنَا ذَلِكَ مِنَ الْآيَةِ (١٠١) مِنْ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ، وَ إِنَّ الْمَعْجِزَاتِ السَّبْعَ الْآخَرَ هِيَ:

١- الطوفان ٢- الجراد ٣- كثرة الضفادع ٤- تبدل لون نهر النيل كلون الدم ٥- الآفات في النباتات. و كل واحد من هذه المعاجز الخمس تعدّ إنذاراً لفرعون و قومه، فكانوا عند البلاء يلجأون إلى موسى ليرفع عنهم ذلك.

أَمَّا الْمَعْجَزَتَانِ الْآخِرَتَانِ فَهُمَا ٦- الْقَحْطُ «السَّيْنِ» ٧- وَ نَقْصُ الثَّمَرَاتِ. إِذْ أَشَارَتْ إِلَيْهِمَا الْآيَةُ (١٣٠) مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ فَقَالَتْ: وَ لَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسَّيْنِ وَ نَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ... «و لمزيد الإيضاح يراجع الجزء التاسع من التفسير الأمثل ذيل الآية (١٠١) من سورة الإسراء».

وَ أَخِيرًا تَعَيَّنَ مُوسَى بِأَقْوَى سِلَاحٍ - مِنْ الْمَعْجِزَاتِ - فَجَاءَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْحَقِّ، كَمَا يَصْرَحُ الْقُرْآنُ بِذَلِكَ فِي آيَتِهِ التَّالِيَةِ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ .

وَ مَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا الْإِتْهَامَ «بِالسِّحْرِ» لَمْ يَكُنْ خَاصًّا بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، بَلْ اتَّخَذَهُ

ص: ٢١

١ - ١) - الجار و المجرور «في تسع آيات» أمّا متعلقان بجمله (اذهب) أو بأحد أفعال العموم المقدره.. و قد تكون (في) بمعنى (مع) و (إلى فرعون) متعلق بالجمله ذاتها، أو بجمله أنت مرسل بها المفهومه من السياق تقديرا.

المعاندون ذريعه بوجه الأنبياء، ليجعلوه سدًا في طريق الآخرين، والاتهام بنفسه دليل واضح على عظمه ما يصدر من الأنبياء خارقا للعادة، بحيث اتهموه بالسحر.

مع أننا نعرف أن الأنبياء كانوا رجالا صالحين صادقين طلاب حق مخلصين، أما السحرة فهم منحرفون ماديون تتوفر فيهم جميع صفات المدلسين «أصحاب التزوير».

وإضافه إلى ذلك فإن السحرة كانت لديهم قدره محدوده على الأعمال الخارقه، إلا أن الأنبياء فقد كان محتوى دعوتهم و منهاجهم و سلوكهم يكشف عن حقانيتهم، و كانوا يقومون بأعمال غير محدوده، بحيث كان ما يقومون به معجزا لا يشبه سحر السحرة أبدا.

و مما يلفت النظر أن القرآن يضيف فى آخر الآيه-محل البحث-قائلا: إن هذا الاتهام لم يكن لأنهم كانوا فى شك من أمرهم و مترددين فعلا، بل كذبوا معاجز أنبيائهم مع علمهم بحقانيتهم و جحدوا بها و استيقنتها أنفسهم ظلما و علواً .

و يستفاد من هذا التعبير أن الإيمان له حقيقه و واقعيه غير العلم و اليقين، و يمكن أن يقع الكفر جحودا و إنكارا بالرغم من العلم بالشىء!.

و بعبارة أخرى: إن حقيقه الإيمان هى الإذعان و التسليم-فى الباطن و الظاهر-للحق، فبناء على ذلك إذا كان الإنسان مستيقنا بشىء ما، إلا أنه لا يدعن له فى الباطن أو الظاهر فليس له إيمان. بل هو ذو كفر جحودى، و هذا موضوع مفصل، و نكتفى هنا بهذه الاشاره.

لذلك فإننا نقرأ حديثا عن الإمام الصادق عليه السلام يذكر فيه ضمن عدّه أقسام الكفر الخمسه

«كفر الجحود» و يبيّن بعض شعبه بالتعبير التالى (هو أن يجحد الجاحد و هو يعلم أنه حق قد استقرّ عنده). (١)

ص: ٢٢

و مما ينبغي الالتفات إليه أنّ القرآن يعدّ الباعث على إنكار فرعون و قومه أمرين: الأوّل الظلم، و الثّاني العلوّ: ظُلْمًا وَ عُلُوًّا .

و لعلّ «الظلم» إشارة إلى غضب حقوق الآخرين، و «العلوّ» إشارة إلى طلب التفوّق على بنى إسرائيل.

أى إنّهم كانوا يرون أنّهم إذا أذعنوا لموسى عليه السّلام و آمنوا به و بآياته، فإنّ منافعهم غير المشروعه ستكون فى خطر، كما أنّهم سيكونون مع رقيقهم «بنى إسرائيل» جنباً إلى جنب، و لا يمكنهم تحمّل أى من هذين الأمرين.

أو أنّ المراد من الظلم هو ظلم النفس أو الظلم بالآيات، و أنّ المراد من العلوّ هو الظلم للآخرين، كما جاء فى الآية (٩) من سوره الأعراف بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ .

و على كل حال، فإنّ القرآن يذكر عاقبه فرعون و قومه على أنّه درس من دروس العبره، فى جمله موجزه ذات معنى كبير، مشيراً إلى هلاكهم و غرقهم فيقول: فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ .

و القرآن هنا لا يرفع الستار عن هذه العاقبه، لأنّ قصّه هؤلاء الكفرة و نهايتهم الوحيمه ذكرها فى آيات أخرى و اكتفى هنا بالإشارة إلى تلك الآيات ليفهم من يفهم.

و القرآن يعول -ضمناً على كلمه (مفسد) مكان ذكر جميع صفاتهم السيئه، لأنّ الإفساد له مفهوم جامع يشمل الإفساد فى العقيدته، و الإفساد فى الأقوال و الأعمال، و الإفساد على المستوى الفردى، و المستوى الجماعى، فجمع كلّ أعمالهم فى كلمه (المفسدين).

اشاره

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ الْاَحْمَدُ لِلّٰهِ الَّذِي فَضَّلْنَا عَلٰى كَثِيْرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِيْنَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمٰنُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا اَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَ اُوْتِيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ اِنْ هٰذَا لَهٗوَ الْفَضْلُ الْمُبِيْنُ (١٦)

التفسير

اشاره

حكومہ داود و سليمان عليهما السلام:

بعد الكلام عن جانب من قصّيه موسى عليه السلام في هذه السوره، يجرى الكلام عن نبيين آخرين من الأنبياء العظام، و هما «داود» و «سليمان»... و الكلام على داود لا يتجاوز الإشاره العابره، إلا أنّ الكلام على سليمان أكثر استيعابا.

و ذكر هذا المقطع من قصّه هذين النبيين بعد قصّه موسى عليه السلام، لأنّهما كانا من أنبياء بنى إسرائيل أيضا، و ما نجده من اختلاف بين تاريخهما و تاريخ الأنبياء الآخرين، هو أنّهما - و نتيجة للاستعداد الفكري و ملائمه المحيط الاجتماعى فى عهدهما - قد وّفقا إلى تأسيس حكومه عظيمه، و أن ينشرا بالاستعانه و الإفاده من حكومتها دين الله، لذلك لا نجد هنا أثرا أو خبرا عمّا عهدناه من أسلوب فى تلك الآيات التى كانت تتكلم عن الأنبياء الآخرين، و هم يواجهون قومهم

المعاندين، وربما نالوا منهم الأذى و الطرد و الإخراج من مدنهم و قراهم..فالتعابير هنا تختلف عن تلكم التعابير تماما.

و يدلّ هذا بوضوح أنّه لو كان المصلحون و الدعاة إلى الله يوفقون إلى تشكيل حكومه لما بقيت معضله و لغدا طريقهم معبدا سالكا.

و على كل حال،فالكلام هنا عن العلم و القدره و العظمه،و عن طاعه الآخرين حتى الجن و الشياطين لحكومه الله و عن تسليم الطير في الهواء و الموجودات الأخر لحكومه الله!.

و أخيرا،فإنّ الكلام عن مكافحه عباده الأصنام عن طريق الدعوه المنطقيه، ثمّ الإفاده من قدره الحكومه!.

و هذه الأمور هي التي ميّزت قصّه هذين النبيين عن الأنبياء الآخرين.

الطريف،أن القرآن يبدأ من مسأله«موهبه العلم»التي هي أساس الحكومه الصالحه القويه،فيقول: **وَ لَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ عِلْمًا .**

و بالرغم من أن كثيرا من المفسّرين أجهدوا أنفسهم و أتعبوها ليعرفوا هذا العلم الذي أوتيته سليمان و داود،لأنّه جاء في الآيه بصوره مغلقه..فقال بعضهم:

هو علم القضاء،بقرينه الآيه(٢٠) من سوره ص: **وَ آتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَ فُضِّلَ الْخِطَابِ وَ الْآيَهُ(٧٩) من سوره الأنبياء وَ كَلَّا آتَيْنَا حُكْمًا وَ عِلْمًا .**

و قال بعضهم:إن هذا العلم هو معرفه منطق الطير بقرينه الآيه **عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ .**

و قال بعضهم:«إن المراد من هذا العلم هو صنعه الدروع، بقرينه **صَنَعَهُ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُخَصِّنْكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ .**

إلا- أن من الواضح أن العلم هنا له مفهوم واسع،بحيث يحمل في نفسه علم التوحيد و الإعتقادات المذهبيه و القوانين الدينيه،و كذلك علم القضاء،و جميع العلوم التي ينبغي توفرها لمثل هذه الحكومه الواسعه القويه...لأنّ تأسيس

حكومه إلهيه على أساس العدل... و حضاره عامره حرّه... دون الإفاده من علم واسع غير ممكن... و هكذا فإنّ القرآن يعدّ مقام العلم لتشكيل حكومه صالحه أوّل حجر أساس لها!.

و بعد هذه الجملة ينقل القرآن ما قاله داود و سليمان من ثناء لله: **وَ قَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ .**

و الذى يجلب النظر هو أنّه بعد بيان هذه الموهبه الكبيره «العلم» يجرى الكلام عن «الشكر» مباشره... ليكون واضحاً أنّ كل نعمه لا بدّ لها من شكر، و حقيقه الشكر هو أنّ يستفاد من النعمه فى طريقها الذى خلقت من أجله.

و هذان النيان العظيمان عليهما السلام استفادا من نعمه علمهما الاستفاده القصوى فى تنظيم حكومه إلهيه.

و قد جعل داود و سليمان معيار تفضيلهما على الآخرين «العلم» لا- القدره و لا- الحكومه، و عدّا الشكر للعلم لا- لغيره من المواهب، لأنّ كلّ قيمه هى من أجل العلم، و كلّ قدره تعتمد أساساً على العلم.

و الجدير بالذكر أنّهما يشكران الله و يحمداه لتفضيلهما و لحكومتها على امّه مؤمنه.. لأنّ الحكومه على امّه فاسده غير مؤمنه ليست مدعاه للفخر! و هنا ينقدح هذا السؤال، و هو: لم قال داود و سليمان الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ و لم يقولوا- على عباده المؤمنين جميعاً، مع أنّهما كانا نبيين، و هما أفضل أهل عصرهما؟ و لعلّ هذا التعبير رعايه لأصول الأدب و التواضع، إذ على الإنسان أن لا يرى نفسه أفضل من الجميع فى أى مقام كان! أو لأنّهما كانا ينظران إلى جميع الأزمنه، و لم ينظرا إلى مقطع زمنى خاص، و نعرف أن على مدى التاريخ يوجد أنبياء كانوا أفضل منهما.

و الآيه التاليه تتكلم على إرث سليمان أباه داود أولاً، فتقول: **وَ وَرِثَ**

و هناك كلام بين المفسرين فى المراد من الإرث هنا، ما هو؟ فقال بعضهم: هو ميراث العلم فحسب... لأن فى تصورهم أن الأنبياء لا يورثون.

وقال بعضهم: هو ميراث المال والحكمه، لأن هذا المفهوم يتداعى إلى الذهن قبل أى مفهوم آخر.

وقال بعضهم: هو منطق الطير.

ولكن مع الالتفات إلى أن الآيه مطلقه، وقد جاء فى الجمل التالى الكلام على العلم وعن جميع المواهب أُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فلا دليل على حصر مفهوم الآيه وجعله محدودا، فبناء على ذلك فإن سليمان ورث كل شىء عن أبيه.

وفى الروايات الوارده عن أهل البيت عليهم السلام أنهم كانوا يستدلون بهذه الآيه على عدم صحه ما

نسب إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم من حديث «نحن معاشر الأنبياء لا نورث و ما تركناه صدقه» و أنه ساقط من الإعتبار لمخالفته كتاب الله.

و

فى بعض الأحاديث عن أهل البيت أنه لما أجمع أبو بكر على أخذ فدك من فاطمه عليها السلام، محتجاً بالحديث آنف الذكر، جاءته فاطمه عليها السلام فقالت: (يا أبا بكر، أفى كتاب الله أن ترث أباك و لا أرث أبى؟! لقد جئت شيئا فريا، فعلى عمد تركتم كتاب الله و نبذتموه وراء ظهوركم، إذ يقول: وَ وِرثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ (١)).

ثم تضيف الآيه حاكيه عن لسان سليمان وَ قَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَ أُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ .

و بالرغم من ادعاء بعضهم أن تعبير النطق و الكلام فى شأن غير الناس لا يمكن إلا على نحو المجاز.. إلا أنه إذا أظهر غير الإنسان أصواتا من فمه كاشفا

ص: ٢٧

عن مطلب ما، فلا دليل على عدم تسميته نطقاً، لأنّ النطق كل لفظ مبين للحقيقه و المفهوم (١).

ولا- نريد أنّ نقول أنّ ما يظهر من أصوات الحيوانات عند الغضب أو الرضا أو الألم أو إظهار الشوق لأطفالها هو نطق، كلاً فهي أصوات تقترب بحالات الحيوان... إلا أنّنا- كما سيأتي في الآيات التاليه- سنرى بتفصيل أنّ سليمان تكلم مع الهدهد في مسائل و حمّله رساله... و طلب منه أن يتحرّى جوابها.

و هذا الأمر يدلّ على أنّ الحيوانات بالإضافة إلى أصواتها الكاشفه عن حالاتها الخاصه... لها القدره على النطق في ظروف خاصه بأمر الله، كما سيأتي الكلام في شأن تكلم النمل في الآيات المقبله إن شاء الله.

و بالطبع فإنّ النطق استعمل في القرآن بمعناه الواسع، حيث يبيّن حقيقه النطق و نتيجه، و هو بيان ما في الضمير، سواء كان ذلك عن طريق الألفاظ أو عن طريق الحالات الأخر، كما في قوله تعالى: هَذَا كِتَابُنَا يُنطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ (٢) إلاّ أنّه لا حاجة إلى تفسير كلام سليمان و منطق الطير بهذا المعنى... بل طبقاً لظاهر الآيات فإنّ سليمان كان بإمكانه أن يعرف ألفاظ الطير الخاصه الداله على مسائل معيّنه فيشخصها، أو أنّه كان يتكلم معها فعلاً..

و سنتكلم في هذا الشأن في البحوث إن شاء الله تعالى.

أمّا جملة أو تيناً مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فهي على خلاف ما حدده جماعه من المفسّرين، لها مفهوم واسع شامل.. فهي تشمل جميع الأسباب اللازمه لإقامه حكومه الله في ذلك الحين.. و أساساً فإنّ الكلام سيقع ناقصاً بدونها، و لا يكون له

ص: ٢٨

١-١) -يقول ابن منظور في لسان العرب: «النطق» هو التكلم، ثمّ يضيف «و كلام كل شيء منطوقه. و منه قوله تعالى: عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ ثُمَّ يَنْقُلُ عَنْ بَعْضِ عُلَمَاءِ الْعَرَبِ - و هو ابن سيده- أنّه «خلافاً لما قال بعضهم: إنّ النطق خاص بالإنسان. فقد يستعمل النطق في غير الإنسان». و ينبغي الالتفات إلى أنّ الفلاسفه و علماء المنطق أطلقوا النطق على القدره على التفكير الذي يعطى الإنسان التمكن من الكلام...»

٢-٢) -الجائيه، الآيه ٢٩.

ارتباط واضح بما سبق.

و هنا يثير الفخر الرازى سؤالاً- فيقول: أليس التعبير ب(علمنا) و(أوتينا) من قبيل كلام المتكبرين؟! ثم يجيب على سؤاله هذا بالقول: إن المراد من ضمير الجمع هنا هو سليمان و أبوه، أو هو و معاونوه فى الحكومه.. و هذا التعبير مستعمل حين يكون الشخص فى رأس هيئه ما، أن يتكلم عن نفسه بضمير الجمع!.

بحوث

اشاره

١- علاقته الدين بالسياسه

خلافًا لما يتصوره أصحاب النظره الضيقه من أن الدين مجموعه من النصائح و المواعظ، أو المسائل الخاصه بالحياه الشخصيه للإنسان.. بل هو مجموعه من القوانين و المناهج الحيويه التى تستوعب جميع مسائل حياه الإنسان و خاصه المسائل الاجتماعيه.

فقد بعث الأنبياء لإقامه القسط و العدل كما فى الآيه (٢٥) من سوره الحديد، إذ يقول سبحانه لِيُقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ .

و ليضع الأنبياء عن الناس إِضْرَارَهُمْ وَ الْأَعْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فيتمتعوا بالحريه كما أشارت إلى ذلك الآيه (١٥٧) من سوره الأعراف.

و الدين رحمه و منجاه للمستضعفين و تخليصهم من نير المتكبرين الظالمين.

و الدين- أخيراً- مجموعه من التعاليم و التربيه فى مسير تزيه الإنسان و الرقى به نحو الكمال (كما أشارت إليه الآيه ٢ من سوره الجمعه).

و بديهى أن هذه الأهداف الكبرى لا- يمكن أن تتحقق دون إقامه الحكومه! فمن ذا يستطيع أن يقيم القسط بين الناس بمجرد التوصيات الاخلاقيه؟.. أو أن

ص: ٢٩

يقطع أيدي الظالمين عن المستضعفين. و يضع الإصر و الأغلال عن يدي الإنسان و رجليه دون الاستناد الى قدره شامله!! و من يستطيع أن ينشر الثقافه الصحيحه و المسائل التربويه فى مجتمع يشرف عليه المفسدون، فيمنح القلوب الملكات الأخلاقيه؟ و هذا هو ما نقوله بأن الدين لا ينفصل عن السياسه، فإذا انفصل الدين عن السياسه فقد فقد عضده و شلت يده، و إذا انفصلت السياسه عن الدين تبدلت إلى عنصر مخرب يستغله أصحاب المنافع الشخصيه! إن النبي صلى الله عليه و آله و سلم إنما وفق لنشر هذا الدين القويم السماوى فى أرجاء العالم بسرعه، لأنه أسس حكومته فى أول فرصه واتته، و تابع أهدافه الإلهيه عن طريق الحكومه الإسلاميه.

و هناك بعض الأنبياء ممن نال مثل هذا التوفيق فنشروا دعوتهم إلى الله فى الأرض أفضل بشكل... أمّا من لم تسمح لهم الفرصه بإقامه حكومه إلهيه، فإنهم لم يحالفهم التوفيق كثيرا فى نشر رسالتهم الإلهيه..

٢- آيات الحكومه الإلهيه

مما يلفت النظر أننا نجد فى قصه سليمان و داود-بصوره واضحه-أنهما استطاعا أن يقلعا جذور الشرك و آثاره بسرعه، و أن يقيما نظاما إلهيا عادلا..

نظاما يقوم على أسس و اركان-طبقا لما فى الآيات محل البحث-العلم و المعرفه و الاطلاع فى المجالات المختلفه.

نظاما يتوج منهجه اسم الله، فهو على رأس لوحته.

نظاما استعمل كل قواه حتى الطائر، من أجل الوصول إلى أهدافه.

نظاما جعل الشياطين مغلوله، و الظالمين أذلاء لا يتجاوزون حدودهم.

و أخيرا فإنّ هذا النظام كانت لديه القدره النظاميه «العسكريه» الكافيه،

و الجهاز التجسس «الأمني»، و الأفراد المتخصصون فى المجالات الاقتصادية و الإنتاجية و العلميه المختلفه، و كل ذلك كان تحت خيمه «الإيمان» و مظلّه «التوحيد».

٣- منطق الطير

فى الآيات المتقدمه و الآيات التاليه بعدها التى تذكر قصه سليمان و الهدهد، إشاره صريحه إلى منطق الطير، و بعض ما يتمتع به الحيوان من شؤون.

و ممّا لا شك فيه أنّ الطيور كسائر الحيوانات تظهر أصواتا فى حالاتها المختلفه، بحيث يمكن معرفتها بدقه، أن أى صوت يعبر عن الجوع؟ و أى صوت يعبر عن الغضب؟ و أى صوت يعبر عن الرضا؟ و أى صوت يعبر عن التمنى؟ و أى صوت يدعوا الأفراخ إليه؟ و أى صوت يعبر عن القلق و الاستيحاش و الرعب؟.

فهذه الأصوات من أصوات الطيور، لا مجال للشك و التردد فيها، و كلّنا نعرفها مع اختلاف فى كثرة الاطلاع أو قلته! إلا أنّ آيات هذه السوره - بحسب الظاهر - تبين موضوعا أوسع ممّا ذكرناه آنفا.. فالبحث هنا عن نطقها بنحو «معنى خفى» بحيث ينطوى على مسائل دقيقه، و البحث عن تكلّمها و تفاهمها مع الإنسان.. و بالرغم من أن هذا الأمر مدعاه لتعجب بعضهم، إلا أنه مع الالتفات إلى المسائل المختلفه التى كتبها العلماء و مشاهداتهم الشخصيه فى شأن الطيور، لا يكون الموضوع عجيبا.

فنحن نعرف عن ذكاء الطيور مسائل أعجب من هذا.

فبعضها لديها المهاره فى صنع أعشاشها و بيوتها بشكل أنيق، قد يفوق عمل مهندسينا أحيانا.

و بعض الطيور تعرف عن وضع أفراخها فى المستقبل، و حاجاتها، و تعمل لها عملا دقيقا، بحيث تكون مثار إعجابنا جميعا.

و توقعها لما سيكون عليه الجوّ حتى بالنسبه لعدّه أشهر تاليه، و معرفتها بوقوع الزلازل قبل أن تقع، و قبل أن تسجلها مقياس الزلازل المعروفه!.

و التعليمات التي تصدر إلى الحيوانات في «السيرك» و نشاطاتها و أعمالها الخارقه للعادة الحاكيه عن ذكائها العجيب..

أعمال النمل و حركاته العجيبه و تمدنه المثير.

عجائب حياه النحل، و ما تقوم به من أعمال محيره.

معرفة الطيور المهاجره بالطرق الجويّه، و قد تقطع المسافه بين القطبين الشمالي و الجنوبي! خبره الأسماك في مهاجرتها الجماعيه في أعماق البحار.

كل ذلك من المسائل العلميه المسلّم بها، كما أنّها دليل على وجود مرحله مهمّه من الإدراك أو الغريزه- أو ما شئت فسمه- في هذه الحيوانات!.

وجود الحواس غير الطبيعيه في الحيوانات- كالرادار للخفاش، و حاسه الشم القويه في بعض الحشرات، و النظر الحاد عند بعض الطيور، و أمثالها، دليل آخر على أنّها ليست متخلفه عنّا في كل شيء! فمع الأخذ بنظر الإعتبار جميع ما بيّناه، لا يبقى مجال للعجب من أن لهذه الحيوانات تكلمها و نطقا خاصا، و أنّها تستطيع أن تتكلم مع الإنسان الذي يعرف، «ألف باءها»... و قد وردت الإشاره في آيات القرآن إلى هذا المعنى، و منها الآيه (٣٨) من سوره الأنعام وَ مِمَّا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْمَآرِضِ وَ لَا- طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ (١).

و في الزوايات الإسلاميه أمور كثيره أيضا، تكشف عن نطق الحيوانات و خاصه الطيور.. و حتى أنّه نقل لكل «منطق» هو بمثابة الشعار، بحيث يطول

ص: ٣٢

١- ١) - كان لنا بحث آخر ذيل الآيه (٣٨) من سوره الأنعام.

المقام بنا لو تعرضنا له بالتفصيل (١).

ففي روايه عن الإمام أبي عبد الله الصادق أنه قال: قال أمير المؤمنين على لابن عباس «إن الله علمنا منطق الطير كما علم سليمان بن داود و منطق كل دابه في برّ أو بحر» (٢).

٤- روايه «نحن معاشر الأنبياء لا نورث»..

نقل أهل السنه في كتبهم المختلفه

حديثا عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مضمونه أنه قال:

«نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقه».. و ربّما نقل الحديث في بعض الكتب بحذف الجملة الأولى و الاكتفاء بعبارته: «ما تركناه صدقه».

و سند هذا الحديث ينتهي في كتب أهل السنه المشهوره إلى «أبي بكر» - غالبا- إذ تولّى بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم زمام أمور المسلمين، و حين طلبت منه سيده النساء فاطمه عليها السلام أو بعض أزواج النبي ميراثها منه امتنع عن دفع ميراث النبي صلى الله عليه وآله وسلم إليها استنادا إلى الحديث آنف الذكر.

و قد نقل هذا الحديث «مسلم» في صحيحه «الجزء ٣- كتاب الجهاد و السير ص ١٣٧٩» و «البخارى» في الجزء الثامن من كتاب الفرائض ص ١٨٥، و جماعه آخرون في كتبهم.

مما يلفت النظر أن «البخارى» نقل في صحيحه حديثا عن «عائشه» أنها قالت: «إن فاطمه و العباس عليهما السلام أتيا أبا بكر يلتمسان ميراثهما من رسول الله، و هما حينئذ يطلبان أرضيهما من فدك و سهمهما من خير،

فقال أبو بكر: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: لا نورث... ما تركناه صدقه، إنما يأكل آل محمّد من هذا المال...

قال أبو بكر: و الله لا أدع أمرا رأيت رسول الله يصنعه فيه إلاّ صنعته «قال» فهجرته

ص: ٣٣

١-١) -لمزيد الاطلاع يراجع تفسير القرطبي ذيل الآيات محل البحث و تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٧٧، فما بعد..

٢-٢) -المصدر السابق، ص ٨١.

فاطمه فلم تكلمه حتى ماتت (١)!

و بالطبع فإنّ هذا الحديث فيه مجال للنقد و الطعن من جهات متعدده، إلا أنّنا نقتصر في هذا التفسير على ذكر ما يلي:

١- إنّ هذا الحديث لا ينسجم مع نصّ القرآن... ووفقا للقواعد الأصوليه التي عندنا، أن كلّ حديث لا يوافق كتاب الله ساقط عن الإعتبار، و لا يمكن التعويل على أنّه حديث شريف من أحاديث النبي أو المعصومين عليهم السلام.

ففي الآيات آفنه الذكر، ورد «و ورث سليمان داود» و ظاهر الآيه مطلق يشمل حتى الأموال.. و نقرأ في شأن يحيى و زكريا يَرْتُنِي وَ يَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ «مريم الآيه ٦». و لا سيما في ما يخصّ زكريا، فإن كثيرا من المفسرين أكّدوا على الأمور الماليه!

إضافه إلى ذلك فإنّ ظاهر آيات الإرث في القرآن المجيد عام و يشمل جميع الموارد.

و ربّما كان لهذا السبب أن يفسر «القرطبي»-مضطرا-الحديث على أنّه غالبا ما يكون كذلك، لا أنّه عام، و قال: هذا مثل قولهم: إنّنا- معشر العرب- أقرى للناس للضيف، مع أن هذا الحكم غير عام (٢).

إلا أن من الواضح أن هذا الكلام ينفي «قيمه هذا الحديث...» لأننا إذا توسّلنا بهذا العذر في شأن سليمان و يحيى، فإنّ شموله للموارد الأخرى غير قطعي أيضا.

٢- إنّ الزوايه المتقدمه تعارض روايه أخرى تدلّ على أن أبا بكر صمّم على إعاده فدك إلى فاطمه عليها السلام، إلا أن الآخرين ما نعوه، كما نقرأ في سيره الحلبي: إنّ فاطمه قالت له: من يرثك؟! قال أهلي و ولدي! فقلت: فما لي لا أرث أبي؟ و في

ص: ٣٤

١-١ - صحيح البخارى-الجزء الثامن، ص ١٨٥.

٢-٢ - تفسير القرطبي، ج ٧، ذيل الآيات محل البحث، ص ٤٨٨٠.

كلام سبط بن الجوزي: إنه كتب لها بفدك و دخل عليه عمر فقال: ما هذا؟ فقال:

كتاب كتبه لفاطمه بميراثها من أبيها. فقال: فما ذا تنفق على المسلمين، و قد حاربتك العرب كما ترى؟ ثم أخذ عمر الكتاب فشقه (١).

ترى كيف يمنع النبي صلى الله عليه و آله و سلم موضوع الإرث و ينهى عنه بصراحه، و يجرأ أبو بكر على مخالفته؟! و لم استند عمر إلى المسائل العسكريه و حاجه المعارك، و لم يستند إلى الروايه؟! إن التحقيق الدقيق في الروايات الآنفه- يدل على أن الموضوع لم يكن موضوع نهى النبي عن الإرث، كما أثاره أبو بكر، بل المهم هنا المسائل السياسيه آنئذ، و هذه المسائل هي ما تدعوننا إلى أن نتذكر مقاله ابن أبي الحديد المعتزلي إذ يقول: سألت أستاذي «علي بن الفارقي»: أ كانت فاطمه، صادقته؟ فقال: نعم.

قلت: فلم لم يدفع إليها أبو بكر فدك و هي عنده صادقته؟ يقول: المعتزلي: فتبسم أستاذي، ثم قال كلاما لطيفا مستحسنا مع ناموسه و حرمة و قلبه دعابته، قال: لو أعطها اليوم فدكا بمجرد دعواها، لجاءت إليه غدا و ادعت لزوجه الخلفه و لم يمكنه الاعتذار بشيء لأنه يكون قد أسجل على نفسه أنها صادقته فيما تدعى كائنا ما كان من غير حاجه الى بينه و لا شهود (٢).

٣- الروايه المعروفه عن النبي الوارده في كثير من كتب أهل السنه و الشيعه

«العلماء ورثه الأنبياء» (٣).

و ما

نقل عنه صلى الله عليه و آله أيضا «إن الأنبياء لم يورثوا دينارا و لا درهما».

يستفاد من مجموع هذين الحديثين أن الهدف الأساس للأنبياء نشر العلم، و هم يفخرون به، و أهم ما يتركونه هو الهدايه. و من يحصل على الحظ الكبير من

ص: ٣٥

١- ١) - سيره الحلبي، ج ٣، ص ٤٨٨.

٢- ٢) - شرح نهج البلاغه، لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ٢٨٤.

٣- ٣) - صحيح الترمذي، باب العلم، الحديث ١٩، و سنن ابن ماجه مقدمه الحديث ١٧. (٤) - أصول الكافي، ج ١، باب صفه العلم، الحديث ٢.

العلم و المعرفة فهو وارثهم الأصيل...بصرف النظر عن الأموال التي يرثها عنهم، ثم إن هذا الحديث منقول في المعنى، و عبّر عنه تعبيراً سيئاً و يحتمل أن يكون (ما تركناه صدقه) المستنبت من بعض الروايات مضاف عليه.

و لكي لا يطول بنا الكلام نهي كلامنا ببحث للمفسر المعروف من أهل السنه «الفخر الرازي» الذي أورده ذيل الآية (١١) من سوره النساء إذ يقول: من تخصيصات هذه الآية «آيه الإرث» ما هو مذهب أكثر المجتهدين، أن الأنبياء عليهم السلام لا يورثون، و الشيعة خالفوا فيه..روى أن فاطمه عليها السلام لما طلبت الميراث و منعوها منه احتجوا

بقوله عليه السلام: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث..ما تركناه صدقه».. فعند هذا احتجت فاطمه عليها السلام بعموم قوله: لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ و كأنها أشارت إلى أن عموم القرآن لا يجوز تخصيصه بخبر الواحد.

ثم يضيف الفخر الرازي قائلاً: إن الشيعة قالوا: بتقدير أن يجوز تخصيص عموم القرآن بخبر الواحد، إلا أنه غير جائز هنا و بيانه من ثلاثه أوجه:

«أحدها»: أنه على خلاف قوله تعالى حكاية عن زكريا عليه السلام: يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ .. و قوله تعالى: وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ قالوا: و لا- يمكن حمل ذلك على وراثه العلم و الدين، لأن ذلك لا- يكون وراثه في الحقيقة، بل يكون كسبا جديدا مبتدأ، إنما التوريث لا يتحقق إلا في المال على سبيل الحقيقة.

«و ثانيها»: أن المحتاج إلى معرفه هذه المسأله ما كان إلا فاطمه و على و العباس، و هؤلاء كانوا من أكابر الزهاد و العلماء و أهل الدين، و أمّا أبو بكر فإنه ما كان محتاجا إلى معرفه هذه المسأله البتة، لأنه ما كان يخطر بباله أن يرث من الرسول صلى الله عليه و آله و سلم، فكيف يليق بالرسول صلى الله عليه و آله و سلم أن يبلغ هذه المسأله إلى من لا حاجه به إليها؟ و لا يبلغها إلى من له إلى معرفتها أشدّ الحاجه؟! «و ثالثها»: يحتمل أن قوله: «ما تركناه صدقه» صله «لا نورث» و التقدير (الذي تركناه صدقه) فذلك الشيء (لا يورث).

فإن قيل: لا يبقى للرّسول خاصيه في ذلك! قلنا: بل تبقى الخاصيه، لاحتمال أن الأنبياء إذا عزموا على التصدّق بشيء فبمجرد العزم يخرج ذلك عن ملكهم ولا يرثه وارث عنهم، وهذا المعنى مفقود في حق غيرهم! والجواب: أنّ فاطمه رضيت بقول أبي بكر بعد هذه المناظره، وانعقد الإجماع على صحه ما ذهب إليه أبو بكر! إلخ (١).

إلا أن من الواضح أن جواب الفخر الرازي لا يناسب الاستدلالات السابقه، لأنه كما ذكرنا آنفاً ونقلناه عن المصادر المعتمده عند أهل السنه... فإن فاطمه لا أنّها لم ترض بكلام أبي بكر فحسب، بل ظلّت واجده و«غاضبه» عليه، فلم تكلمه حتى آخر عمرها سلام الله عليها! ثم بعد هذا كلّه كيف يمكن أن يدعى الإجماع في هذه المسأله، مع أنّ علياً و فاطمه عليها السلام و العباس و أصحابهم الذين تربّوا في مهبط الوحي و مركزه، كانوا مخالفين لهذا الرأى.

ص: ٣٧

١-١) - تفسير الفخر الرازي، ج ٩، ص ٢١٠.

إشاره

وَ حُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩)

التفسير

إشاره

سليمان في وادى النمل:

يستفاد من آيات هذه السوره، و آيات سوره سبأ أن «حكومه سليمان» لم تكن حكومه مألوفه، بل حكومه مقرونه بما يخرق العادات و المعاجز المختلفه، التى ورد قسم منها فى هذه السوره، و القسم الآخر ورد فى سوره «سبأ» أما ما ورد فى هذه السوره من الأمور الخارقه للعاده «حكومه سليمان على الجن، و الطير، و إدراكه كلام النمل، و كلامه مع الهدهد».

و فى الحقيقه فإنّ الله أظهر قدرته فى هذه الحكومه و ما سخر لها من قوى، و نحن نعرف أن هذه الأمور عند الله-فى نظر الإنسان الموحد-يسيره و سهله!.

وَأَوَّلَ مَا تَبَدَّأَ هَذِهِ الْآيَاتِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ .

و كانت جنوده من الكثره بحيث كانوا عند التحرك و المسير،و من أجل المحافظه على النظم. يؤمرون بتوقف مقدمه الجيش لتلحق بها مؤخرتها فَهُمْ يُوزَعُونَ .

«يوزعون»من ماده(وزع)على وزن(جمع)و معناه الحبس و الإيقاف، و هذا التعبير متى أطلق على الجنود أو الجيش فيعنى إيقاف أوّل الجيش ليلحق به آخره،لكى يحفظ من التشتت و التفرق.

و كلمه«وزع»معناها الحرص و العلاقه الشديده بالشيء،بحيث تمنع الإنسان عن الأمور الأخرى.

و يستفاد من هذا التعبير أنّ جنود سليمان كانوا كثيرين،كما كانوا يخضعون للنظم و الانضباط.

«و حشر»فعل ماض من (الحشر)على وزن(نشر)و معناه إخراج الجمع من المقرّ،و التحرك نحو الميدان للقتال،و ما أشبه ذلك.

و يستفاد من هذا التعبير-و التعبير التالي فى الآيه الأخرى أنّ سليمان عليه السّلام كان قد جمع جنوده و حرّكهم نحو نقطه ما،لكن هذه النقطه أيه نقطه هى؟و أين كان يتجه سليمان؟ليس ذلك معلوما على وجه الدقه.

و استفاد بعضهم من الآيه التاليه التى تتحدث عن وصول سليمان إلى وادى النمل،أنّها منطقه على مقربه من الطائف.و قال بعضهم:بل هى منطقه على مقربه من«الشام».

و حيث أنّ هذا الموضوع لا تأثير له فى الأمور الأخلاقيه و التربويه«للآيه» لذلك لم تتطرق له الآيه الكريمه.

و هناك-ضمنا-جدل بين كثير من المفسرين فى أن الإنس و الجن و الطير،

هل كانوا جميعا من جنود سليمان؟ فتكون (من) فى الآيه بيانيه، أو أن قسما منهم كان يؤلف جيشه و جنوده فتكون (من) تبعيضييه..و يبدو أن هذا بحث لا طائل تحته...لأنّ سليمان-دون أدنى شك-لم يكن حاكما على وجه البسيطة كلها، بل كانت منطقه نفوذه و حكومته منطقه الشام و بيت المقدس، و قد يدخل بعض ما حولهما تحت سلطته و حكومته!.

كما استفاد من الآيات التاليه أنّه لم تكن له بعد سلطه على اليمن أيضا..

و إنّما صارت اليمن تحت نفوذه بعد قصّه الهدهد و«تسليم ملكه سبأ» و إذعانها له.

و جملة و تَفَقَّدَ الطَّيْرَ فى الآيات التاليه، تدلّ على أن ههددا واحدا كان ضمن الطير التى كانت تحت أمر سليمان، بحيث أنه لما افتقده سأل عنه، فلو كانت الطيور جميعها تحت أمره و فيها آلاف الهداهد، لكان هذا التعبير غير صحيح «فتأملوا بدقه».

و على كل حال، فإنّ سليمان تحرك بهذا الجيش العظيم حتّى إذا أتوا على واد النمل .

فخاطبت نملة من النمل أصحابها محذره، كما تقول الآيه: **قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَ جُنُودُهُ وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١)**.

و لنا كلام سيأتى-إن شاء الله-فى كيفية اطلاع النملة و معرفتها بحضور سليمان و جنوده فى تلك المنطقه، و كيف أوصلت صوتها إلى بقية النمل؟.

و استفاد ضمنا من جملة **لَا يَشْعُرُونَ** أن عدل سليمان كان ظاهرا و واضحا حتى عند النمل، لأنّ مفهوم الجملة أن سليمان و جنوده لو شعروا و التفتوا إلى النملة الضعيفه لما وطأوها بالأقدام، و إذا وطئوها فإنّما ذلك لعدم توجههم و التفاتهم. **فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا**.

هناك كلمات مختلفه عند المفسرين فى الشىء الذى أضحك سليمان،

ص: ٤٠:

و الظاهر أن القضية ذاتها كانت عجيبة عند سليمان، بحيث تحذّر نمله صويحاتها من النمل... تحذرهنّ من تحطيم سليمان و جنوده إياهن و هم لا يشعرون:

فضحك من أجلها! و قال بعضهم: كان ضحك سليمان سرورا منه بأن عرف أن النمل تعترف بتقواه و عدالته و تقوى جنوده و عدالتهم.

و قال بعضهم: كان ضحكه و تبسمه لأنّ الله أعطاه هذه القدره، و هي أنّه برغم جلجله جيشه و لجبه فإنّه التفت إلى صوت النمله مخاطبه بقيه النمل فلم يغفل عنها.

و على كل حال، فإن سليمان توجه نحو الله.. داعيا و شاكرا مستريدا فضله و قال رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلَيَّ وَالِدَيَّ (١).

أى، لتكون لى القدره أن استعمل هذه النعم جميعها فى ما أمرتنى به و ما يرضيك، و لا أنحرف عن طريق الحقّ.. فإن أداء شكر هذه النعم لا يكون إلا بتوفيقك و إعانتك. وَ أَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ و هو يشير إلى أن بقاء هذا الجيش و حكومته و تشكيلاتها الواسعه غير مهم بالنسبه إليه، بل المهم أن يؤدى عملا صالحا يرضى به ربّه، و حيث أن «أعمل» فعل مضارع فهو دليل على طلب استمرار التوفيق من قبل الله له.

و الطلب الثالث الذى طلبه سليمان من ربّه، كما حكته الآيه، هو أن يجعله فى زمرة الصالحين، إذ قال: وَ أَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ..

ص: ٤١

١- ١) - «أوزعنى» من ماده (إيزاع) و معناه «الإلهام»، أو المنع عن الانحراف، أو إيجاد العشق و التعلق، إلا أن أغلب المفسرين اختاروا المعنى الأول.

١- معرفه سليمان بلغه الحيوانات و منطقتها

ليس لنا كثير معرفه بعالم الحيوانات... و ما يزال الغموض أو الإبهام يكتنف هذا العالم و يلقي عليه ظلاله، بالرغم من التقدم العلمى فى هذا المجال.

إننا نرى آثار ذكاء الحيوانات و مهارتها فى كثير من أعمالها.. فبناء خلايا النحل بشكلها المنظم الدقيق، و دقه النمل فى جميع ما يحتاج للشتاء، و كيفيه ذخيره و مدخره! و دفاع الحيوانات عن نفسها عند مواجهتها العدو، و حتى معرفتها بكثير من الأمراض، و العثور على بيوتها و أوكارها من الأماكن البعيده، و قطع المسافات الطويله للوصول إلى هدفها... و توقعها عن حوادث المستقبل و أمثالها.

كل هذه الأمور تدل على أن فى دنيا الحيوانات المجهوله كثيرا من الوسائل الغامضه التى لا نعرف حلها!.

ثم بعد هذا كله فإن كثيرا من الحيوانات تقوم بأعمال مذهله نتيجة للتعلم و التربه... يعجز عنها حتى الإنسان.

إلا أنه ليس من الواضح أن هذه الحيوانات إلى أيه درجه هى خيره بدنيا الناس!... ترى هل تعلم الحيوانات واقعا: من نحن؟! و ما نعمل؟! و قد لا نعهد فى هذه الحيوانات ذكاء بهذا المستوى، إلا أن هذا لا يعنى نفيه و سلبه عنها.

فعلى هذا الحساب إذا كنا قرأنا فى القصة السابقه.. أن النمل علم بمجىء سليمان و جنوده، و حذر من البقاء، و أنه يجب التوجه نحو مساكنه لئلا يحطمه سليمان و جنوده.. و سليمان عرف هذا الموضوع تماما.. فلا مجال للعجب.

ثم بعد هذا فإن حكومه سليمان- كما قلنا آنفا- كانت خارقه للعادات مقرونه بالمعاجز، فعلى هذا الأساس أبدى بعض المفسرين اعتقادهم بأن هذا

المستوى من الاطلاع و المعرفة-من قبل فئه من الحيوانات فى عصر سليمان، هو بنفسه إعجاز خارق للعادة،و لا يمنع أن لا نرى ذلك عينه فى سائر العصور و القرون.

و الغرض أنه لا- دليل عندنا على حمل قصه سليمان و النمل، أو سليمان و الهدهد،على الكنايه أو لسان الحال،مع إمكان حفظ الظاهر و حمله على المعنى الحقيقى (١)!

٢- سليمان و إلهامه الشكر لله

إن واحده من أفضل العلامات لمعرفه الحكام الإلهيين و تمييزهم عن الحكام الجباره،هى أن الجباره حين يصلون إلى القدره يغرقون فى الغرور و الغفله، و ينسون القيم الإنسانيه كلها...و يندكون بشده فى أنانيتهم! إلا- أن الحكام الإلهيين حين ينالون القدره يحشون بأعباء المسؤوليه..

فيتوجهون نحو الله أكثر من أى وقت مضى،و يسألونه العون و القدره على أداء رسالتهم...كما أن «سليمان»بعد أن وصل إلى تلك القدره. كان أهم شيء عنده أن يسأل الله الشكر على نعمه،و الإفاده من هذه المواهب فى مسير رضاه و سعادته عباده!.

و ممّا يلفت النظر أن يبدأ طلبه بعبارة أَوْزِعْنِي و مفهومه الإلهام الوجدانى و إعداد القوى الباطنيه كلها لأداء هذا الهدف الكبير.و معناها:اللهم تفضل على بقدره و طاقه تجعلنى أعبئ كل قواى الداخليه لأداء شكرك،و أداء ما على من مسئوليه..و دلتنى على السبيل إليك،لأنّ الطريق طويل صعب محفوظ

ص: ٤٣

١- ١) -تحدثنا فى تفسير الآيه (٣٨) من سوره الأنعام عن هذا الشأن أيضا..

بالمخاوف و المخاطر.. طريق أداء حقوق جميع الناس فى مثل هذه الحكومه الواسعه.

إنه لا- يطلب الإيزاع على شكر نعم الله عليه فحسب، بل يطلب فى الوقت ذاته أن يؤدى الشكر على المواهب و النعم التى أنعمها الله على والديه... لأن كثيرا من مواهب وجود الإنسان يرثها عن والديه... و ممّا لا- شك فيه أن الإمكانيات التى يمنحها الله للوالدين تعين الأبناء كثيرا فى سبيل الوصول لأهدافهم.

٣- سليمان و العمل الصالح

ممّا يلفت النظر أن سليمان رغم حكومته و سلطنته التى لا- نظير لها، و تلك القدره الواسعه، إلا أنه يطلب من الله يوفقه للعمل الصالح باستمرار، و أهم من ذلك و أسمى أن يكون فى زمرة عباده الصالحين.

و يستفاد من هذا التعبير:

أولاً: أن الهدف النهائى من نيل القدره هو أداء العمل الصالح، العمل الجدير القيم... و كل ما سواه يعدّ مقدمه له!.

و العمل الصالح مقدمه- أيضا- لنيل رضا الله- الذى هو الهدف النهائى و غايه الغايات.

ثانياً: أن الدخول فى زمرة «الصالحين» مرحله أسمى من مرحله أداء العمل الصالح، لأنّ الأوّل يعنى صلاح الذات، و الثّانى صلاح العمل «لا حضوا بدقّه».

و بتعبير آخر: قد يقوم الإنسان بعمل صالح، إلا أن هذا المعنى لا يعدّ جزءا من ذاته و روحه و نسيجه و وجوده، فسليمان عليه السلام يطلب من الله أن يشمله بعنايته إلى درجه يتجاوز بها مرحله كونه يعمل صالحا، لينفذ الصلاح إلى أعماق وجوده و روحه، و لا يمكن تحقّق هذا إلا برحمه الله.

فكم هو عزيز و غال أن يكون الإنسان عبدا صالحا لله، بحيث يطلب سليمان من ربه أن يدخله في عباده الصالحين، على الرغم من جاهه و حشمته و جلاله الذى لا يشك فيها أحد، و أن يحفظه الله من العثرات و الزلات فى كل آن، و خاصه ما قد يصدر من الإنسان و هو على رأس هيئه عظيمه و تشكيلات واسعه!

ص: ٤٥

اشاره

وَ تَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْيَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١)
فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَ جِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنْتًا يَاقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَ أُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَ
لَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَ جِئْتُهَا وَ قَوْمُهَا يَسْتَسْجِدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا
يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلَا يَسْتَسْجِدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ يَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَ مَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦)

التفسير

اشاره

قصه الهدد و ملكه سبأ:

يشير القرآن في هذا القسم من الآيات إلى جانب آخر من حياه سليمان عليه السلام المدهشه، و ما جرى له مع الهدد و ملكه سبأ.

فيقول أولًا: وَ تَفَقَّدَ الطَّيْرَ .

و هذا التعبير يكشف هذه الحقيقة، و هي أنه كان يراقب وضع البلاد بدقه، و كان يتحرى أوضاع حكومته لئلا يخفى عليه غياب شىء، حتى لو كان طائرا واحدا.

و ما لا شك فيه أن المراد من الطير هنا هو الهدهد، لأن القرآن يضيف استمرارا للكلام فقالَ مَا لِي لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ .

و هناك كلام بين المفسرين فى كيفية التفات سليمان إلى عدم حضور الهدهد.

فقال بعضهم: كان سليمان عليه السلام عند ما يتحرك تظلل الطير بأنواعها فوق رأسه فتكون مثل الخيمه، و قد عرف غياب الهدهد من وجود ثغره فى هذا الظل!.

و قال بعضهم: كان الهدهد مأمورا من قبل سليمان بالتقصي عن الماء كلما دعت الحاجه إليه... و عند ما دعت الحاجه إلى الماء فى هذه المره لم يجد الهدهد فعرف غيابه.

و على كل حال، فهذا التعبير مَا لِي لَا أَرَى الْهُدْهُدَ ثُمَّ قَوْلُهُ: أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ لعله إشاره إلى أن غياب الهدهد هل كان لعذر مقبول أو لغير عذر؟ و على أيه حال، فان حكومه منظمه و مقتدره يجب أن تجعل كل شىء يجرى داخل اطار الدوله تحت نظرها و نفوذها.. حتى وجود طائر واحد و غيابه، لا بد أن لا يخفى عن علمها و نظرها... و هذا درس كبير لمن أراد التدبير.

و من أجل أن لا يكون حكم سليمان غيبيا، و أن لا يؤثر غياب الهدهد على بقيه الطيور، فضلا عن الأشخاص الذين يحملون بعض المسؤوليات، أضاف «سليمان» قائلا: لَأَعَذِّبَنَّ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ .

و المراد من «السلطان» هنا هو الدليل الذى يتسلط به الإنسان من أجل إثبات قصده، و تأكيد هذا اللفظ ب«مبين» هو أنه لا بد لهذا الفرد المتخلف من

إقامه دليل واضح و عذر مقبول لتخلفه! و فى الحقيقه فإنّ سليمان قبل أن يقضى غيابيا ذكر تهديده اللازم فى صورته ثبوت التخلف... و حتى هذا التهديد جعله فى مرحلتين تناسبان الذنب...مرحلة العقاب بما دون الاعدام، و مرحله العقاب بالإعدام.

و قد برهن «سليمان» ضمنا أنّه-حتى بالنسبه للطائر الضعيف-يستند فى حكمه إلى المنطق و الدليل، و لا يعوّل على القوّه و القدره أبدا.

و لكن غيبه الهدهد لم تطل فَمَكَّتْ غَيْرَ بَعِيدٍ عاد الهدهد و توجه نحو سليمان: **فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَ جِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بَنِيَّ يَاقِينِ** .

و كأن الهدهد قد رأى آثار الغضب فى وجه سليمان، و من أجل أن يزيل ذلك التهجم، أخبره أولا بخبر مقتضب مهم الى درجه أن سليمان نفسه كان غير مطلع عليه، برغم ما عنده من علم، و لما سكن الغضب عن وجه سليمان، فصل الهدهد له الخبر، و سيأتى بيانه فى الآيات المقبله.

و ممّا ينبغى الالتفات إليه أنّ جنود سليمان-حتى الطيور الممثلته لأوامره- كانت عداله سليمان قد أعطتهم الحريه و الأمن و الدعاه بحيث يكلمه الهدهد دون خوف و بصراحه لا ستار عليها فيقول: **أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ** .

فتعامل الهدهد «و علاقته» مع سليمان لم يكن كتعامل الملاء-التملقين للجباريه الطغاه.. إذ يتملقون فى البدء مداه طويله، ثم يتضرعون و يعدون أنفسهم كالذرّه أمام الطود، ثم يهوون على أقدام الجباريه و يبدون حاجتهم فى حاله من التضرع و التملق، و لا يستطيعون أن يصرّحوا فى كلامهم أبدا، بل يكون كناية أرق من الورد لئلا يخدش قلب السلطان غبار كلامهم!!

أجل، إنّ الهدهد قال بصراحه: غيابى لم يكن اعتبارا و عبثا... بل جئتكم بخبر يقين «مهم» لم تحط به! و هذا التعبير درس كبير للجميع، إذ يمكن أن يكون موجود صغير كالهدهد

يعرف موضوعا لا يعرفه أعلم من في عصره، لئلا يكون الإنسان مغرورا بعلمه...

حتى لو كان ذلك سليمان مع ما عنده من علم النبوة الواسع.

و على كل حال، فإن الهدهد أخذ يفصل لسليمان ما حدث فقال: إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ .

لقد بين الهدهد لسليمان بهذه الجمل الثلاث جميع مواصفات هذا البلد تقريبا، وأسلوب حكومته! فقال أولا: إنه بلد عامر فيه جميع المواهب والإمكانات، والآخر إنني وجدت امرأة في قصر مجلل تملكهم، والثالث: لها عرش عظيم - ولعله أعظم من عرش سليمان - لأن الهدهد كان رأى عرش سليمان حتما، ومع ذلك يصف عرش هذه الملكة بأنه عظيم.

وقد أفهم الهدهد بكلامه هذا سليمان أنه لا ينبغي أن تتصور أن جميع العالم تحت «نفوذ أمرك و حكومتك»! وأن عرشك هو وحده العرش العظيم...

ولما سمع سليمان عليه السلام كلام الهدهد غرق في تفكيره، إلا أن الهدهد لم يمهل طويلا - فأخبره بخبر جديد.. خبر عجيب، مزعج مريب، إذ قال: وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَارَهُمْ فَكَانُوا يَفْخَرُونَ بعبادتهم للشمس و بذلك صدّهم الشيطان عن طريق الحق فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ .

وقد غرقوا في عبادة الأصنام حتى أتى لا أتصور أنهم يثوبون إلى رشدهم فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ .

و هكذا فقد بين الهدهد ما هم عليه من حاله دينيه و معنويه أيضا، إذ هم غارقون في الشرك و الوثنيه و الحكومه تروج عباده الشمس... و الناس على دين ملوكهم.

معابدهم و أوضاعهم الأخرى تدل على أنهم سادرون في التيه، و يتباهون

بهذا الضلال و الانحراف، و في مثل هذه الظروف التي يرى فيها الناس و الحكومه على خط واحد، فمن البعيد إمكان هدايتهم.

ثم أضاف الهدهد قائلا: **أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ يَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَ مَا تُعْلِنُونَ (١)**.

و كلمه «خبء» على وزن (صبر) معناها كل شىء خفى مستور، و هى هنا إشاره إلى إحاطه علم اللّٰه بغيب السماوات و الأرض، أى: لم لا يسجدون لله الذى يعلم غيب السماوات و الأرض و ما فيهما من أسرار؟! و ما فسّره بعضهم بأن الخبء فى السماوات هو الغيث، و الخبء فى الأرض هو النبات، فهو- فى الحقيقه- من قبيل المصداق البارز.

و الطريف فى الآيه أنّها تتكلم أولا عما خفى فى السماوات و الأرض، ثم تتكلم عن أسرار القلوب!

إلا- أنّه لم استند الهدهد من بين جميع صفات اللّٰه إلى علمه بغيب العالم و شهوده كبيره و صغيره؟! لعل ذلك لمناسبه أن سليمان- بالرغم من جميع قدرته- كان يجهل خصائص بلد سبأ، فالهدهد يقول: ينبغى الاعتماد على اللّٰه الذى لا يخفى عليه شىء فى السماوات و الأرض.

أو لمناسبه أنّه- طبقا لما هو معروف- للهدهد حس خاص يدرك به وجود الماء فى داخل الأرض... لذلك يتكلم عن علم اللّٰه الذى يعلم بكل خفيه فى عالم الوجود.

و أخيرا يختم الهدهد كلامه هكذا **لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**.

ص : ٥٠

١ - ١) - كلمه «ألا» مركبه من (أن و لا-) كما يذهب إلى ذلك كثير من المفسّرين، و هى متعلقه بجمله (فصدهم) أو «زين لهم الشيطان» و قدروا لها اللام فتكون الجمله هذا النحو من التقدير «صدّهم عن السبيل لئلا يسجدوا لله» إلا أن الظاهر أن (ألا) حرف تحضيض و معناه (هلا) و كما قلنا فى المتن فإنّ هذه الجمله من كلام الهدهد تعقبا على ما سبق، و إن كان هناك من يقول بأنها استثنافيه و إنها من كلام اللّٰه.

و هكذا يختتم الهدهد كلامه مستندا إلى «توحيد العباده» و«توحيد الربوبيه» لله تعالى. مؤكدا نفى كل أنواع الشرك عنه سبحانه.

ملاحظات

اشاره

أ-الدروس التعليميه

ما قرأناه فى هذا القسم من الآيات، فيه لطائف كثيره و مسائل دقيقه، يمكن أن يكون لها كبير الأثر فى حياه الناس و سياسه الحكومات جميعا.

١-فرييس الحكومه أو المدير العام، ينبغى عليه أن يكون دقيقا فى دائرته أو تشكيلاته التنظيميه، بحيث يتابع حتى غياب الفرد الواحد و يتفقدده! ٢-أن يراقب تخلف الفرد، و أن يتخذ الحكم الصارم، لكيلا يؤثر غيابه على الآخرين.

٣-لا ينبغى أن يصدر حكما غايبا أبدا دون أن يمنح المتخلف الفرصه للدفاع عن نفسه، مع الإمكان.

٤-ينبغى أن يجعل لكل جريمه عقابا مناسبا...و أن يكون العقاب بمقدار الذنب، و أن يراعى سلسله مراتبه.

٥-أن على أى شخص -حتى لو كان أكبر الناس، أو بيده أعظم المسؤوليات و القدره الاجتماعيه- أن يدعن للمنطق و الدليل حتى و لو صدر من فم أضعف الخلق!.

٦-ينبغى أن تحكم الصراحه فى محيط المجتمع، و أن يتمتع أفراده بالحريه بحيث يستطيع الواحد منهم عند اللزوم أن يقول لرئيس الحكومه: أَحَطُّتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ! ٧-من الممكن أن يكون أقل الأفراد على اطلاع و معرفه، فى حين أن أكبر

العلماء و أصحاب النفوذ غير مطلعين، لكيلا يغتر أى إنسان بعلمه! ٨- فى المجتمع البشرى حاجات و ضرورات متبادله، بحيث قد يحتاج أكبر شخص فيه-كسليمان مثلا- إلى مساعده أدنى شخص حتى و لو كان مثل الهدهد! ٩- بالرغم من أن فى النساء قابليات كثيره! أو قصه سليمان نفسها حاكيه عن أن ملكه سبأ كانت تتمتع بدرايه كبيره و فهم عال، إلا أن قياده الحكومه لا تتلاءم مع حاله المرأه و روحها و جسمها، بحيث يتعجب الهدهد من هذه المسأله و يقول:

إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ

! ١٠- أغلب الناس على دين ملوكهم... لذلك نقرأ فى هذه القصه أن الهدهد يقول فى شأن الملكه و قومها: وَجَدْتُهَا وَ قَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ .

يتحدث الهدهد أولاً عن سجودها ثم عن سجود قومها.

ب- الجواب على بعض الأسئلة

للمفسرين هنا بعض الأسئلة، و منها: كيف لم يحط سليمان عليه السلام بمثل هذه البلده مع ما لديه من علم و إمكانيات و فيره فى حكومته؟.

ثم كيف طوى الهدهد هذه المسافه بين اليمن و مركز حكومه سليمان الذى كان فى الشام «على ما يظهر»؟ و هل كان الهدهد قد ضل الطريق ثم اهتدى إلى ذلك المكان، أو كان له غرض آخر؟! أمّا فى ما يخص السؤال الأول فيمكن أن يجاب عنه بأن سليمان عليه السلام كان ذا علم بوجود هذه البلده، إلا أنه لم يعرف خصائصها، ثم إن صحراء الحجاز كانت تفصل بين اليمن و الشام، و لم تكن و سائل المواصلات بين البلدان يومئذ كما هى

عليه في يومنا هذا«و بالطبع فإنّ علمه عن طريق الغيب و الإلهام الإلهي موضوع آخر».

و أمّا قطع المسافه من قبل الهدهد، فإنّها لم يكن عسيره عليه... لأننا نعرف بعض الطيور التي تقطع المسافه بين القطبين...و الفاصله بين الشام و اليمن إزاء تلك المسافه لا تعدّ شيئاً.

و أمّا مجيء الهدهد إلى سبأ فكان- كما تقول بعض التواريخ- أنّ سليمان عزم على زياره بيت الله الحرام، فتوجه من الشام ليؤدى مناسك إبراهيم عليه السّلام «أى الحج»، و فى مسيره رغب فى السير نحو الجنوب، فواصل منطقه لا تبعد عن اليمن كثيرا... فاغتنم الهدهد الفرصه عند ما استراح سليمان فى تلك المنطقه و جاء إلى قصر ملكه سبأ فرأى ما رأى من المشهد المثير العجيب (1).

ص: ٥٣

١ - ١) - لا بأس بمراجعته دائره المعارف لمحيد فريد و جدى، ج ١٠، ص ٤٧٠ ماده «الهدهد» بالرغم من أن الرّوايه المذكوره هناك لم تخل من المبالغات!...

اشاره

قَالَ سَتَنُنظُرُ أَ صَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَ أَتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةٍ وَ أَوْلُوا بِأَسْ شَدِيدٍ وَ الْأَمْرُ إِلَيْكُمْ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَ جَعَلُوا أَعْرَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَ كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَ إِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥)

التفسير

اشاره

الملوك مفسدون مخربون:

لقد أصغى سليمان عليه السلام إلى كلام الهدهد بكل اهتمام... و فكر ملياً، و لعل سليمان كان يظن أن كلام الهدهد صحيح، و لا دليل على كذب بهذا الحجم... لكن

حيث أن هذه المسألة لم تكن مسأله «ساذجه» بسيطه، و لها أثر كبير فى مصير بلد كامل و أمه كبيره!...فينبغى أن لا يكتفى بمخبر واحد، بل ينبغى التحقيق أكثر فى هذا المجال: قَالَ سَنَنْظُرُ أَمْ صَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ .

و هذا الكلام يثبت بصوره جيده أنه يجب الاهتمام فى المسائل المصيريه المهمه، حتى لو أخبر بها «فرد» صغير، و أن يعجل فى التحقيقات اللازمه «كما تقتضيه السين» فى جمله «سننظر»!.

سليمان عليه السلام لم يتهم الهدهد فيحكم عليه بالكذب... و لم يصدق كلامه دون أى دليل... بل جعله أساسا للتحقيق! و على كل حال، فقد كتب كتابا و جيزا ذا مغزى عميق، و سلمه إلى الهدهد و قال له: إِذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (١) .

يستفاد من التعبير فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ أن يلقى الكتاب عند ما تكون ملكه سبأ حاضره بين قومها، لئلا تعبت به يد النسيان أو الكتمان. و من هنا يتضح أن ما ذهب إليه بعض المفسرين بأن الهدهد ذهب إلى قصر ملكه سبأ و دخل مخدعها و ألقى الكتاب على صدرها أو حنجرتها- لا يقوم عليه دليل- و إن كان متناسبا مع الجملة التى وردت فى الآيه التالیه إني ألقى إلى كتاب كريم .

فتحت ملكه سبأ كتاب سليمان، و اطّلت على مضمونه، و حيث أنها كانت من قبل قد سمعت بأخبار سليمان و اسمه، و محتوى الكتاب يدل على إقدامه و عزمه الشديد فى شأن بلده «سبأ»، لذلك فكرت مليا، و لما كانت فى مثل هذه المسائل المهمه تستشير من حولها، لذلك فقد دعتهم و توجهت إليهم و قالت يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْكِ كِتَابٌ كَرِيمٌ .

ص: ٥٥

١- ١) قال بعض المفسرين: إن جمله «ثم تول عنهم» مؤخره معنى، و إن تقدمت فى العبارة، و أصلها هكذا: فانظر ماذا يرجعون ثم تول عنهم... و إنما قدروا ذلك لأن تول عنهم معناه العوده و الرجوع، مع أن ظاهر الآيه أنه ألقى الكتاب و اعرض عنهم و انظر فى مكان مشرف لترى رد فعلهم!...

ترى، حَقًّا أن ملكه سبأ لم تكن رأت «حامل الكتاب»، إلاّ- أنّها أحست بأصاله الكتاب من القرائن الموجوده فيه؟ و لم تحتمل أن يكون الكتاب مفتعلا- و مفترى أبدا...؟! أم أنّها رأت الرسول بأم عينها، و رأت كيفيه وصول الكتاب الدهشه التي هي بنفسها دليل على أن المسأله واقعيه و مهمّه، و مهما كان الأمر فإنّها عوّلت على الكتاب بكل اطمئنان؟.

و قول الملكة: **إِنِّي أُلْقِي إِلَيْكَ كِتَابٌ كَرِيمٌ** «أى قيم» لعله لمحتواه العميق، أو لأنّه بدئ باسم الله أو لأنّه ختم بإمضاء صحيح (١). أو لأنّ مرسله رجل عظيم، و قد احتمل كل مفسّر وجهها منها- أو جميعها- لأنّه لا منافاه بينها جميعا. و قد تجتمع جميعها فى هذا المفهوم الجامع!.

صحيح أنّهم (قوم سبأ) كانوا يعبدون الشمس، إلاّ أننا نعرف أن كثيرا من عبده الأصنام كانوا يعتقدون بالله- أيضا- و يسمونه رب الأرباب و يعظمونه و يحترمونه.

ثمّ إن «ملكه سبأ» تحدّث عن مضمون الكتاب فقالت: **إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَ أَتُونِي مُسْلِمِينَ** (٢).

و من البعيد- كما بيد و- أن يكون سليمان كتب كتابه إلى ملكه سبأ بهذه العبارات «و هذه الألفاظ العربيه». إذا فالجمل الأنفه يمكن أن تكون منقوله بالمعنى، أو أنّها خلاصه ما كان كتبه سليمان، و قد أدّتها ملكه سبأ بهذه الوجازه و الاقتضاب إلى قومها.

ص: ٥٦

١- ١) -ورد فى الحديث أن كون الكتاب كريما هو بخاتمه «تفسير مجمع البيان و الميزان و القرطبي». و جاء فى حديث آخر أن الرسول صلّى الله عليه و آله و سلّم أراد أن يكتب رساله للعجم، فقليل له: إنهم لا يقبلونها إلاّ بالخاتم، فأمر النبي أن يصنع له خاتم و نقشه «لا اله إلاّ الله محمّد رسول الله» و ختم الرساله أو الكتاب بذلك الخاتم «القرطبي ذيل الآيات محل البحث».

٢- ٢) -جمله «ألاّ تعلموا على» يمكن أن تكون بمجموعها بدلا من (كتاب) و بيان لمحتواه. كما يمكن أن تكون (أن) تفسيريه فهى هنا بمعنى (أى)- كما يحتمل أن (أن) تكون متعلقه بمحذوف و تقديره: أو صيكم ألاّ تعلموا إلخ.

الطريف أن مضمون هذا الكتاب لم يتجاوز في الواقع ثلاث جمل:

الأولى: ذكر «اسم الله» و بيان رحمانيته و رحمته.

الثانية: الأمر بترك الاستعلاء و الغرور... لأن الاستعلاء مصدر المفاسد الفردي و الاجتماعي.

و الثالثة: التسليم و الإذعان للحق.

و إذا أمعنا النظر لم نجد شيئاً آخر لا بدّ من ذكره.

و بعد أن ذكرت ملكه سبأ محتوى كتاب سليمان لقومها... التفت إليهم و قالت يا أيها المملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعه أمراً حتى تشهدون .

لقد أرادت الملكة بهذه الاستشارة تقوية مركزها فى قومها، و أن تلفت أنظارهم إليها، كما أرادت ضمناً أن تعرف مدى انسجامهم و ميزان استجابتهم لما تقدم عليه من تصميم.

كلمة «أفتونى» مشتقة من (الفتوى) معناها فى الأصل الحكم الدقيق و الصحيح فى المسائل الغامضة و الصعبة... فملكه سبأ أرادت بهذا التعبير أن تشعرهم بصعوبة المسألة أولاً، و أن يدققوا النظر و يجمعوا الرأى فيها ليتجنبوا الخطأ ثانياً.

«تشهدون» مأخوذ من ماده «الشهود»، و معناه الحضور... الحضور المقرون بالتعاون و المشورة!.

فالتفت إليها أشراف قومها و أجابوها على استشارتها ف قالوا نحن أولوا قوه و أولوا بأس شديد و الأمر إليك فانظري ما ذا تأمرين .

و هكذا فقد أظهروا لها تسليمهم و إذعانهم لأوامرها... كما أبدوا رغبتهم فى الاعتماد على القوه و الحضور فى ميدان الحرب.

و لما رأت الملكة رغبتهم فى الحرب خلافا لميلها الباطنى، و من أجل إطفاء هذا الظماً و أن تكون هذه القضية مدروسه، لذلك قالت إن الملوک إذا دخلوا

فيقتلون جماعه منهم و يأسرون آخرين و يطردون طائفه ثالثة و يخرجونهم من ديارهم و يخربون حِيهم و ينهبون ثرواتهم و أموالهم.

و لمزيد التأكيد أردفت قائله: وَ كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ .

و فى الحقيقه...إن ملكه سبأ التى كانت بنفسها ملكه، كانت تعرف نفسه الملوك بصورة جيده،و أن سيرتهم تتلخص فى شيئين:

١-الإفساد و التخريب.

٢-إذلال الأعزّه...

لأنهم يفكرون فى مصالحهم الشخصيه،و لا يكثرثون بمصالح الأُمّه و عزتها...و هما على طرفى نقيض دائما.

ثمّ أضافت الملكة قائله:علينا أن نخبر سليمان و أصحابه،لنعرف منهم و ما يريدون؟و هل سليمان نبىّ حقا أو ملك؟و هل هو مصلح أو مفسد؟و هل يذلّ الناس أم يحترمهم و يعزّهم؟ فينبغى أن نرسل شيئا إليه و إِنِّي مُرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَيْدِيهِ فَنَظَرَهُ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ .

فالملوك لهم علاقه شديده بالهدايا،و نقطه الضعف كامنه فى هذا الأمر، فيمكن أن يدعنا للهدايا الغاليه...فإذا أذعن سليمان بهذه الهديه فهو ملك، و ينبغى أن نواجهه بالقوه فنحن أقوىاء...و إذا ألح على كلامه و لم يكثرث بنا فهو نبىّ،و فى هذه الصوره ينبغى التعامل معه بالحكمه و التعقل! و لم يذكر القرآن أيه هديه أرسلتها الملكة إلى سليمان،لكنّه بتنكيرها بين عظمتها،إلا أن المفسرين ذكروا مسائل كثيره لا يخلو بعضها من الإغراق:

قال بعضهم:أرسلت إليه خمسمائه غلام و خمسمائه جاريه ممتازه،و قد ألبست الرجال ثياب النساء و النساء ثياب الرجال،و جعلت الأقراط فى آذان

الرجال و الا سوره فى ايدىهم، و ألبست الجوارى تيجانا... و كتبت فى رسالتها إلى سليمان: لو كنت نبيا فمیز الرجال من النساء!.
و بعثت أولئك على مراكب ثمينه، و معهم جواهر و أحجار كريمه، و أوصت رسولها- فى الضمن- أن أنظر كيف يواجهك
سليمان عند وردك عليه، فإن واجهك بالغضب فاعلم بأنه سيره الملوک، و إن واجهك بالمحبه و اللطف فاعلم أنه نبى.

بحوث

اشاره

١- آداب كتابه الرسائل

ما ورد فى الآيات آنفه الذكر فى شأن كتاب «سليمان» إلى أهل سبأ، هو قدوه لكتابه الرسائل و «الكتب» و قد تكون من المسائل
المهمه و المصيريه... إذ تبدأ بيسم الله الرحمن الرحيم و تبين روح الكلام فى جملتين مدرستين.
و يظهر من التاريخ الإسلامى و الروايات- بشكل واضح- أن أئمتنا الكرام عليهم الصلاه و السلام، كانوا يعنون بالاختصار و
الاقتضاب فى إرسال الكتاب خاليا من الحشو و الزوائد، و هو مدروس أيضا.

فأمير المؤمنين عليه السلام يكتب إلى عماله و ممثليه فى بعض كتبه:

«أدقوا أقلامكم، و قاربوا بين سطوركم، و احذفوا عنى فضولكم، و اقصدا و قصد المعانى، و إياكم و الإكثار، فإن أموال المسلمين لا
تحتمل الإضرار» (١).

إن برى لسان القلم يجعل الكلمات أصغر، و تقارب السطور و حذف الفضول، لا- يؤدى إلى الاقتصاد فى الأموال العامه أو
الشخصيه فحسب- بل يقتصد فى وقت الكاتب و القارئ أيضا... و قد يضيع الفضول و التشرىفات

ص: ٥٩

١- ١) - الخصال- للصدوق، طبقا لما جاء فى البحار، ج ٧٦، ص ٤٩.

الوارده في أثناء جمل الكتاب الهدف من كتابته، فلا يصل الكاتب والقارئ إلى الهدف المنشود! وفي هذه الأيام أصبح من المؤلف الإكثار في كتابه العناوين البراقه والألقاب الفخمه وزياده المقدمات والحواشى والإضافات على خلاف ما كان في صدر الإسلام ممّا يهدر الكثير من الطاقات والأوقات والثروات.

وخاصه ينبغي الالتفات إلى أن الكتاب «الرساله» في ذلك العصر كان يتطلب زمانا طويلا لإيصاله وبذل المال لحامل الكتاب، ومع ذلك كانت الكتب موجزه مقتضبه، ويمكن ملاحظه أمثله منها في كتب النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى خسرو پرويز وقيصر الروم وأمثالهما.

وأساسا فإن رساله الإنسان و كتابه دليل على شخصيته، كما أن حامل الكتاب و الرسول دليل على شخصيه المرسل أيضا.

يقول الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغه: «رسولك ترجمان عقله، و كتابك أبلغ من ينطق عنك» (١).

و

يقول الإمام الصادق عليه السلام «يستدل بكتاب الرجل على عقله و موضع بصيرته، و برسوله على فهمه و فطنته» (٢).

و الجدير بالذكر أنه يستفاد من الروايات الإسلاميه أنّ ردّ الكتاب واجب كردّ السلام، إذ نقرأ

عن الإمام الصادق أنّه قال: «ردّ جواب الكتاب واجب كوجوب ردّ السلام» (٣).

و حيث أن كل رساله أو كتاب مشفوع عاده بالتحية، فلا يبعد أن يكون مشمولاً بالآيه الكريمة [□] وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّهِ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها [□] (٤).

ص: ٦٠

١-١) - نهج البلاغه، الكلمات القصار- الجملة ٣٠١.

٢-٢) - البحار، ج ٧٦، ص ٥٠.

٣-٣) - وسائل الشيعه، ج ٨، ص ٤٢٧ «كتاب الحج أبواب العشره باب ٣٢».

٤-٤) - النساء، الآيه ٨٦.

٢- هل دعا سليمان إلى التقليد؟!

بعض المفسرين استفادوا من كتاب سليمان أنه دعا أهل سبأ إليه دون دليل! ثم أجابوا بأن مجيء الهدهد بتلك الصورة «المعجزه» بنفسه دليل على حقانيه دعوته (١).

إلا أننا نعتقد أنه لا حاجة إلى مثل هذه الردود و الإجابات، فوظيفه النبي هي الدعوه. و وظيفه الآخرين التحقيق في أمره. و بتعبير آخر: إن الدعوه هي الباعث على التحقيق... كما قامت بذلك ملكه سبأ، فاختبرت سليمان و تحققت عنه، أهو ملك أم نبي؟!

٣- مداليل عميقه في قصه سليمان عليه السلام

نلاحظ في هذا القسم من قصه سليمان عليه السلام إشارات قصيره إلى مسائل مهمه أيضا:

أ- تلخص «روح» دعوه الأنبياء في نفى الاستعلاء الذى يعنى نفى كل نوع من أنواع الاستثمار و الاستعمار، و التسليم للحق و القانون الصحيح.

ب- بالرغم من أن أصحاب ملكه سبأ أعلنوا استعدادهم لخوض المعركه، إلا أن الطبع النسائي الشفاف في الملكه لم يكن موافقا على ذلك، و لذلك عطف انظارهم الى مسائل أخرى.

ج- لو أن الملكه أذعنت لرأيهم في الحرب لكانت بعيده عن الحقيقه و الصواب، و سنرى أن إقدامها على إرسال الهديه كان مشمرا، و كانت نتيجة طيبه لها و لقومها، و كان سببا لأن يهتدوا إلى طريق الحق و العدل، و يتعدوا عن سفك

ص: ٦١

(١ - ١) - تفسير الرازى، ذيل الآيه مورد البحث.

الدماء! د-و يستفاد من هذه القضية ضمنا أن المناهج التشاورية لا تنتهى إلى الحق دائما... إذ كانت عقيدته الأكثرية هنا أن يلجأ و إلى القوّه و القتال فى حين أن ملكه سبأ كانت ترى خلاف نظرتهم، و سنرى أن الحق كان معها فى نهايه القصّه! ه-و يمكن أن يقال: إنّ هذا النوع من التشاور أو المشوره غير ما هو جار بيننا اليوم من التشاور... فنحن نأخذ برأى الأكثرية على أنّه هو المعيار، و نعطيهم حق التصويت و التصويب. فى حين أن التشاور محل البحث هو محجّد إبداء النظر من قبل الأكثرية، و الرأى الحاسم لقائد تلك الجماعه... و لعل الآيه وَ شَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ (١) تشير إلى هذا القسم الثانى من التشاور. أمّا الآيه الكريمة وَ أَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ (٢) فناظره إلى القسم الأول (٣).

و-قال أصحاب ملكه سبأ لها نَحْنُ أَوْلُوا قُؤُوهٍ وَ أَوْلُوا بِيَأْسٍ شَدِيدٍ و لعل هذا الاختلاف بين «القوه» و «البأس» فى التعبير، هو أنّ «القوه» إشاره إلى الكميّه العظيمة من الجيش... و «البأس الشديد» إشاره إلى كفيّه العمل و روح الشجاعه و الشهامه فى الجيش، أى أن مرادهم أنّهم مستعدون للقتال من الناحيه «الكميه» و من حيث «الكيفيه» لمواجهه العدو أيضا.

٤-علامات الملوک

يستفاد من هذه الآيات-بصوره جيده-أن الحكومه الاستبداديه و السلطنه فى كل مكان مدعاه للفساد و إذلال الأعزّه... لأنّ الملوک يبعدون عنهم

ص: ٦٢

١-١) -آل عمران، الآيه ١٥٩.

٢-٢) -الشورى، الآيه ٣٨.

٣-٣) -لمزيد الإيضاح فى موضوع الشورى يراجع تفسير الآيه (١٥٩) من سوره آل عمران.

الشخصيات الفذه، و يدنون المتملقين، و يبحنون فى كل شىء عن مصالحهم و منافعهم الذاتيه، و هم أهل رشوه و ذهب و مال، و بالطبع فإنّ الأمراء و الأعوان القادرين على هذه الأمور أحبّ عندهم من غيرهم.

و بينما نرى تفكير الملوك و رغباتهم تتلخص فى نيل الهدايا و الجاه و المقام و الذهب و المال... نجد أنّ الأنبياء لا يفكرون إلّا بإصلاح أممهم!.

ص: ٦٣

اشاره

فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيَتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) إِرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَ لَنَخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَ هُمْ صَاغِرُونَ (٣٧)

التفسير

اشاره

لا تخدعوني بالمال:

خرج رسل ملكه سبأ بقافله الهدايا و تركوا اليمن وراءهم قاصدين مقر سليمان«فى الشام»ظنا منهم أن سليمان سيكون مسرورا بمشاهدته هذه الهدايا و يرحب بهم.

لكن ما إن حضروا عند سليمان حتى رأوا ما يدهش الإنسان...فإن سليمان عليه السلام مضافا الى عدم استقباله و اكتراثه بتلك الهدايا قال أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ فما قيمه المال، إزاء مقام النبوه و العلم و الهدايه و التقوى بل أَنْتُمْ بِهَدْيَتِكُمْ تَفْرَحُونَ .

أجل، أنتم الذين تفرحون بمثل هذه الزخارف، فيهدى بعضكم لبعض

فيشرق وجه تملع عيناه!! إلا أن هذه الأمور لا قيمه لها عندي و لا أكثرث بها.

و هكذا فقد حقر سليمان عليه السلام معيار القيم عندهم، و أوضح لهم أن هناك معيارا آخر للقيمه تضمحلّ عنده معايير عبده الدنيا و لا تساوى شيئا.

و من أجل أن يريهم سليمان موقفه الحاسم من الحق و الباطل، قال لرسول ملكه سبأ الخاص: **إِذْ جَعِإ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَ لَنَخْرِجَنَّهْم مِنْهَا أَذَلَّةً وَ هُمْ صَاغِرُونَ .**

و أَذَلَّةً فِي الْحَقِيقَةِ حَالٍ أَوْلَى وَ هُمْ صَاغِرُونَ حَالٍ ثَانِيَةٍ، و هما إشاره إلى أن أولئك لا يخرجون من أرضهم فحسب، بل بالإذلال و الإحقار و الصغار بشكل يتركون جميع ممتلكاتهم من قصور و أموال و جاه و جلال... لأنهم لم يذعنوا-و يسلموا-للحق... و إنما قصدوا الخداع و المكر! و طبعي أن هذا التهديد كان تهديدا جديا جديرا بأن يؤخذ بنظر الإعتبار بالنسبه لرسول ملكه سبأ الذين كانوا عند سليمان!.

و مع ملاحظه ما قرأناه في الآيات السابقه من أنّ سليمان طلب من أولئك شيئين: ترك الاستعلاء، و التسليم للحق **أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَ أَتُونِي مُسْلِمِينَ** و كان عدم إجابتهم لهذين و توسلهم بالهدية دليلا على امتناعهم من قبول الحق و ترك الاستعلاء، و لذلك هددهم باستخدام القوه العسكريه.

و لو أنّ ملكه سبأ و قومها طلبوا من سليمان الدليل و المعجزه (على أنه نبي مطاع) لأعطاهم الحق أن يتحروا و يفحصوا أكثر... إلا أنّ إرسال الهديه ظاهره أنّهم في مقام الإنكار.

و اتضح كذلك أنّهم خبر مزعج أخبر به الهدهد عن هذه الجماعه «ملكه سبأ و قومها» أنّهم كانوا يعبدون الشمس و يسجدون لها من دون الله الذي له ما في السموات و الأرض فكان سليمان عليه السلام قلقا من هذا الأمر... و من المعلوم أن عباده الأصنام ليست أمرا هينا تسكت عنه الأديان السماويه، أو أن تتحمل عبده

الأصنام على أنهم أقلية دينية. بل تستخدم القوه إذا لزم الأمر و تحطم الأصنام و يطوى الشرك و يريدوه من الوجود!

و مما بيناه من توضيحات آفا يظهر أنه لا تنافى بين تهديدات سليمان و الأصل الأساس لا إكراه في الدين لأن عباده الأصنام ليست ديناً، بل هي خرافة و انحراف.

ملاحظات

١-مما ينبغي الالتفات إليه أن الزهد في الأديان السماوية لا يعنى أن لا يتمتع الإنسان بماله و ثرواته و إمكانياته الدنيوية، بل حقيقة الزهد هي أن لا يكون أسير هذه الأمور.. بل أميراً عليها.. و قد بين سليمان هذا النبي العظيم برده الهدايا الثمينه على ملكه سباً أنه أميرها لا أسيرها.

و نقرأ

حديثاً للإمام الصادق عليه السلام يقول فيه: «الدنيا أصغر قدراً عند الله و عند أنبيائه و أوليائه من أن يفرحوا بشيء منها، أو يحزنوا عليه، فلا ينبغي لعالم و لا لعاقل أن يفرح بعرض الدنيا» (١).

٢-و مرّه أخرى نجد في هذا القسم من قصه سليمان دروساً جديره بالنظر، خافيه في تعابير الآيات الكريمة:

ألف: إن الهدف من تعبئه الجيش ليس قتل الناس، بل أن يرى العدو نفسه ضعيفاً قبالها، و لا يرى نفسه قادراً على مواجهه الطرف الآخر: بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا .

و هذا التعبير نظير ما أمر به المسلمون و أعدوا لهم ما استطعتم من قوه ...

ص: ٦٦

١-١) -تفسير روح البيان ذيل الآيه محل البحث.

تُزْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ . (١)

ب- إنَّ سليمان عليه السلام لا يهدد مخالفيه بالقتل، بل يهددهم بالإخراج من القصور أذله صاغرين، وهذا الأمر جدير بالملاحظة.

ج- إنَّ سليمان لا يستغفل مخالفيه، بل يحذرهم بصراحه قبل الهجوم.

د- إنَّ سليمان لا- يطمع فى أموال الآخريين، بل يقول: «ما آتانى الله خير» فهو لا- يرى مواهب الله منحصره بالقدره الماديه و المالىه، بل يفتخر بالعلم و الإيمان و المواهب المعنويه!.

ص: ٦٧

١- (١) - الأنفال، الآية ٦٠.

اشاره

قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيْتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآه مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠)

التفسير

اشاره

حضور العرش في طرفه عين:

و أخيرا عاد رسل ملكه سبأ بعد أن جمعوا هداياهم و أمتعتهم إلى بلدهم، و أخبروا ملكه سبأ بما شاهدوه من عظمه ملك سليمان عليه السلام المعجز و جهازه الحكومي، و كل واحد من هذه الأمور دليل على أنه لم يكن كسائر الأفراد و لا ملكا كسائر الملوك، بل هو مرسل من قبل الله حقا، و حكومته حكومه إلهيه.

و هنا اتضح لأولئك جميعا أنهم غير قادرين على مواجهته عكسريا، بل إذا استطاعوا-فرضا-فهم على احتمال قوى في مواجهه نبي عظيم ذي سلطه

واسعه!

لذلك قررت الملكة أن تأتي بنفسها مع أشرف قومها إلى سليمان، و يتفحصوا عن هذه المسألة ليتعرفوا على دين سليمان؟ فوصل هذا الخبر-عن أيّ طريق كان-إلى سمع سليمان عليه السّلام، فعزم على اظهار قدرته العجيبه-و الملكه و أصحابها فى الطريق إليه-ليعرفهم قبل كل شىء على إعجازه،ليذعنوا له و يسلموا لدعوته...لذلك التفت إلى من حوله و قال [□] يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ .

و بالرغم من أن المفسرين أتعبوا أنفسهم للوقوف على علّه إحضار عرش الملكه، و ربّما ذكروا وجوها لا تنسجم مع مفاد الآيات و لا-تناسب و إياها!..إلا أن من الواضح أنّ هدف سليمان عليه السّلام من هذه الخطه إنّّه كان يريد أن يظهر أمرا مهما للغايه خارقا للعاده ليذعنوا له دون قيد،و يؤمنوا بقدره الله من دون حاجه إلى سفك الدماء و المواجهه فى ساحات القتال.

كان يريد أن ينفذ الإيمان إلى أعماق قلب ملكه سبأ و أشرف قومها، ليستجيب الباقون لدعوته و التسليم لأمره!.

و هنا أظهر شخصان استعدادهما لامثال طلب سليمان عليه السّلام،و كان أمر أحدهما عجيبا و الآخر أعجب! إذ قال [□] عَفْرِيْتُ مِنَ الْجِنَّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ (١). فهذا الأمر على يسير،و لا أجد فيه مشقه، كما أنّى لا أخونك أبدا، لأننى قادر على ذلك و إننى عليه لَقَوِيٌّ أَمِينٌ .

و«العفريت»...معناه المارد الخبيث.

و جمله و إننى عليه لَقَوِيٌّ أَمِينٌ المشفوعه بالتأكيدات من عدّه جهات«إنّ و الجملة الاسميّه،و لام التوكيد» تشر الى احتمال خيانه هذا العفريت...لذلك فقد

ص: ٦٩

١- ١) -كلمه «آتيك»ربّما كانت اسم فاعل مضاف إلى(الكاف)و يمكن أن تكون فعل؛مضارعا من(أتى)إلا أن الاحتمال الأوّل يبدو أقرب للنظر!

أظهر الدفاع عن نفسه بأنه أمين و فَيّ.

و على كل حال فإنّ قصّه «سليمان» مملوءه بالعجائب الخارقه للعادات فلا عجب أن يرى عفریت بهذه الحاله مبديا استعداده للقيام بهذه المهمّه خلال سويعات..و سليمان يقضى بين الناس، أو يتابع أمور مملكته، أو يقدم نصحه و إرشاده للآخرين.

أمّا الشخص الآخر فقد كان رجلا صالحا له علم ببعض ما فى الكتاب، و يتحدث عنه القرآن فيقول: [□] قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .

فلما وافق سليمان عليه السلام على هذا الأمر، أحضر عرش بلقيس بطرفه عين بالاستعانه بقوته المعنويه فلما رآه مُسْتَفِرًّا عِنْدَهُ قَالَ [□] هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَ أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ .

ثم أضاف قائلا: وَ مَنْ شَكَرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ غَنِيٌّ كَرِيمٌ .

و هناك اختلاف بين المفسرين و كلام طويل فى أن هذا الشخص الذى جاء بعرش الملكه، من كان؟! و من أين له هذه القدره العجيبه؟! و ما المراد عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ ؟ إلا أن الظاهر أن هذا الشخص هو أحد أقارب سليمان المؤمنين و أوليائه الخاصين، و قد جاء اسمه فى التواريخ بأنه (آصف بن برخيا) وزير سليمان و ابن أخته (1).

و أمّا «علم الكتاب» فالمراد منه معرفه ما فى الكتب السماويه...المعرفه العميقه التى تمكّنه من القيام بهذا العمل الخارق للعاده! و قال بعضهم: يحتمل أن يكون المراد من (علم الكتاب) هو اللوح المحفوظ

ص : ٧٠

١- ١) - و ما قاله بعضهم بأنه سليمان أو جبرئيل فلا دليل عليه... و كونه سليمان نفسه (فهو) مخالف لظاهر الآيات قطعاً!

الذى علم الله بعضه ذلك الرجل «آصف» و لذلك استطاع أن يأتي بعرش ملكه سبأ بطرفه عين، و يحضره عند سليمان!.

و قال كثير من المفسرين: إن هذا الرجل المؤمن كان عارفا بالاسم الأعظم، ذلك الاسم الذى يخضع له كل شىء، و يمنح الإنسان قدره خارقه للعادة!.

و ينبغى القول أن «الاسم الأعظم» ليس كما يتصوره الكثير بأن مفهومه أن يتلفظ الإنسان بكلمه فيكون وراءها الأثر العجيب، بل المراد منه التخلق بذلك الاسم و الوصف، أى على الإنسان أن يستوعب «الاسم» فى نفسه و روحه، و أن يتكامل علمه و خلقه و تقواه و إيمانه إلى درجه يكون بها مظهرا من مظاهر ذلك الاسم الأعظم، فهذا التكامل المعنوى و الروحانى (بواسطة الاسم الأعظم) يوجد فى الإنسان مثل هذه القدره الخارقه للعادة (١).

كما أن للمفسرين فى جملة قِبَلِ أَنْ يَزْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ لَكِنْ بِمَلَا حِظِّهِ الْآيَاتِ الْآخِرِ مِنَ الْقُرْآنِ يُمْكِنُ مَعْرِفَةَ حَقِيقَتِهَا... ففى الآية (٤٣) من سوره إبراهيم نقرأ: لَا يَزْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ .

و نحن نعرف أن الإنسان عند ما يستوحش و يذهل، تبقى عيناه مفتوحتان على و تيره واحده كأنهما عينا ميت لا تتحركان.

فبناء على ذلك فالمراد منه أنني سأحضر عرش ملكه بلقيس قبل أن يتحرك جفناك (٢).

ص: ٧١

١- ١) - كان لنا فى ذيل الآية (١٨٠) من سوره الأعراف بحث فى شأن الاسم الأعظم، فلا بأس بمراجعته.

٢- ٢) - ما يقوله بعضهم: إن المراد من (يرتد إليك طرفك) هو إلقاء النظره على شىء ما و عوده النظره للإنسان لا دليل عليه، كما أن هذا التعبير لا يكون شاهدا على النظرية القائله بخروج الشعاع من العين الوارده فى الفلسفه-القديمه.

١- الجواب على بعض الاسئله

من الاسئله-التى تثار حول الآيات آنفه الذكر-هذا السؤال:لم لم يقدم سليمان بنفسه على هذا العمل الخارق للعادة؟فهو نبى كريم من قبل الله و ذو معاجز!فلم حوّل هذا الأمر إلى «آصف بن برخيا»؟! لعل الوجه فى ذلك أن آصف كان وصيه،و كان سليمان يريد أن يبين موقعه فى هذه اللحظه الحساسه للجميع (١).

إضافه إلى ذلك فإن من المهم أن يختبر الأستاذ تلاميذه فى الموارد اللازمه و يعرف جدارتهم،و أساسا فإن جداره التلاميذ دليل كبير على جداره الأستاذ.

السؤال الآخر هو:كيف جاء سليمان بعرش ملكه سبأ و أحضره عنده دون إذنها؟.

يقال:لعل ذلك لبيان هدف أسمى،كمسأله الهدايه و بيان معجزه كبيره.ثم بعد هذا كله فإننا نعرف أن الملوك ليس لهم مال من أنفسهم،بل أموالهم فى الغالب مغصوبه من الآخرين!.

السؤال الآخر:كيف تكون لعفريت من الجن القدره على أمر خارق للعادة كهذه الحادته؟! و قد بينا الجواب على هذا السؤال فى الأبحاث المتعلقة بالإعجاز،فقلنا:إن من الناس حتى غير المؤمنين من تكون له قدره على بعض الأمور الخارقه للعادة (و ذلك للرياضه المجهده و مجاهده النفس)إلا- أن الفرق بين ما يقومون به ممّا يخرق العاده و بين المعجزه هو أنه لما كانت أعمالهم مستنده إلى قدره بشريه محدوده...فهى «أعمالهم الخارقه للعادة»محدوده دائما،فى حين أن المعاجز تستند إلى قدره الله التى لا نهايه لها،وقدرته كسائر صفاته غير محدوده!.

ص: ٧٢

١- ١) -هذا الجواب نفسه أجاب به الإمام الهادى يحيى بن أكتهم كما جاء فى روايه عن تفسير العياشى ذيل الآيه محل البحث.

لذلك نرى أن العفريت من الجن يحدّد قدرته-على فتره بقاء سليمان في مجلس القضاء و التحقيق في أمور البلد،ليأتيه بعرش ملكه سبأ،في حين أنّ آصف بن برخيا لم يحدد قدرته،و تحديدها بارتداد الطرف هو في التحقيق إشاره إلى أدنى فتره زمنيّه ممكنه...و من المسلم به أن سليمان عليه السّلام يشجع الأعمال التي تبين للناس الأشخاص الصالحين،و يباركها،لا عمل العفريت الذي قد يوقع العوام و البساط في الوهم،فيعدونه دليلا على تقواه و طهارته!.

و بديهي أن أيّ إنسان يقوم بعمل مهم في المجتمع و يكون عمله مقبولا فإنّ أفكاره و معتقداته ستتجذّر و تتحدّد في المجتمع بذلك«العمل»فلا- ينبغي أن يأخذ العفاريت زمام المبادرة في حكومه سليمان الإلهيه،بل ينبغي أن يقوم به من عندهم علم من الكتاب ليؤثروا على أفكار الناس و عواطفهم.

٢-القوه و الأمانه شرطان مهمان

جاء في الآيات المتقدمه-و الآيه(٢٦)من سوره القصص-أن أهم شرط للعامل أو الموظف شيئان:الأوّل القوه،و الثّاني الأمانه!.

و بالطبع فإنّ المباني الفكرية و الأخلاقيه قد تقتضى أن يكون الإنسان حاويا على هاتين الصفتين«كما هي الحال في شأن موسى الوارد ذكره في سوره القصص»و قد يقتضى نظام المجتمع و الحكومه الصالحه أن يتصف بهاتين الصفتين حتى العفريت من الجن إلزاما.. و لكن-على كل حال-فليس من الممكن القيام بأى عمل كبير أو صغير في المجتمع دون توفر هاتين الصفتين...

سواء كان مصدرهما«التقوى»أو«النظام القانوني»..«فتأملوا بدقه».

٣-الفرق بين«علم من الكتاب»و«علم الكتاب» جاء التعبير في الآيات-محل البحث-عن الذي أتى بعرش ملكه سبأ في

أدنى مدّه» و«بطرفه عين» ب مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ بينما جاء في الآية (٤٣) من سورة الرعد في شأن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و من يشهد على حقانيته قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ .

في حديث عن أبي سعيد الخدري أنه قال: سألت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عن الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ الْوَارد فِي قِصَّةِ سُلَيْمَانَ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: هُوَ وَصِي أَخِي سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ، فَقُلْتُ: وَالْآيَةُ وَالَّذِي عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ عَمَّنْ تَتَحَدَّثُ؟ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ذَاكَ أَخِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ (١) .

و الالتفات إلى الفرق بين «علم من الكتاب» الذي يعنى «العلم الجزئى» و (علم الكتاب) الذى يعنى «العلم الكلى»، يكشف البون الشاسع بين آصف و على عليه السلام.

لذلك نقرأ فى روايات كثيرة أنّ الاسم الأعظم ثلاثة و سبعون حرفاً إنّما كان عند آصف منها حرف واحد فتكلم به فخشف بالأرض ما بينه و بين سرير بلقيس حتى تناول السرير بيده، ثمّ عادت الأرض كما كانت أسرع من طرفه عين - كان «حرف» واحد منه عند آصف بن برخيا» و قام بمثل هذا العمل الخارق للعاده - و عندنا نحن الائمه من أهل البيت - اثنان و سبعون حرفاً، و حرف واحد عند الله تبارك و تعالى استأثر به فى علم الغيب عنده (٢) .

٤- هذا من فضل ربى

إن عبده الدنيا و طلابها المغرورين حين ينالون «القوه» و الاقتدار ينسون كل شىء إلا أنفسهم.. و كل ما يقع فى أيديهم يحسبونه من عند أنفسهم لا من غيرهم،

ص: ٧٤

١ - ١) - نقل هذا الحديث جماعه من المفترين و علماء السنه بالعبارة ذاتها أو ما يقرب منها، و لمزيد الإيضاح يراجع الجزء الثالث من إحقاق الحق، ص ٢٨٠ و ٢٨١.

٢ - ٢) - راجع اصول الكافى و تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٩٠.

كما كان قارون يقول: إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَيَّ عِلْمٌ عِنْدِي .. في حين أن عباد الله و خاصته كلما نالوا شيئاً قالوا: هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي ..

الطريف أن سليمان عليه السلام لم يقل هذا الكلام عند ما شاهد عرش ملكه سبأ عنده فحسب، بل أضاف قائلاً: لِيُبْلُوْنِي أَمْ أَكْفُرُ .

و قرأنا في هذه السوره-من قبل-أن سليمان عليه السلام كان يرى جميع النعم التي يتمتع بها من نعم الله عليه، و كان يدعو ربّه خاضعاً فيقول: رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتِكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلَيَّ وَالْإِدَى وَ أَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ ! أجل.. هذا هو معيار معرفه الموحدين المخلصين من عبده الدنيا المغرورين.. و هذه سيره الرجال العظماء في قبال غيرهم من الأنانيين!

و بالرغم من أنه اعتيد كتابه هذه العبارة المهمه هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي مِنْ قَبْلِ الْمَتَظَاهِرِينَ بِالشُّكْرِ عَلَى أَبْوَابِ قُصُورِهِمُ «الطاغوتيه» دون أن يعتقدوا بذلك أو يكون أدنى أثر من هذه العبارة في عملهم.. إلا أن المهم هو أن تكتب على الباب و على جبين حياه الإنسان و في قلبه... أيضاً، و أن يكشف عمله أن كل ذلك من فضل الله.. و أن يشكره عليه، لا شكراً باللسان فحسب، بل شكراً مقروناً بالعمل و في جميع وجوده (1).

٥- كيف أحضر «آصف» عرش الملكة!؟

لم يكن هذا (الأمر) أول خارق للعاده نراه في قصه سليمان عليه السلام، أو في حياه الأنبياء بشكل عام.. و على من يحمل هذه التعبيرات على الكنايه و المجاز، و لا يؤخذ بظاهرها، أن يبينوا موقفهم من معاجز الأنبياء.

ترى هل يرون الأعمال الخارقه للعاده للأنبياء و خلفائهم محالاً، و ينكرونها

ص: ٧٥

١ - ١) - كان لنا بحث مفصّل في أهميه الشكر، و تأثيره على زياده النعمه، و أقسام الشكر «التكويني و التشريعي» في ذيل الآيه السابقه من سوره إبراهيم.

كثيرة؟! فهذا ما لا ينسجم مع أصل التوحيد، ولا مع قدره الله الحاكمه على قوانين الوجود، ولا ينسجم مع صريح القرآن في آيات كثيرة.. أيضا.

أمّا إذا قبلوا بإمكان المعاجز، فلا- ينبغي أن يفرقوا بين أن يكون البحث عن إحياء الموتى و إبراء العمى من قبل «عيسى بن مريم» عليه السلام، أو عن إحضار عرش ملكه سبأ من قبل آصف بن برخيا.

ولا- شك أن هنا علائق مجهوله و عللا لا نعزفها في هذا الأمر، إذ نجعل ذلك بعلمنا «المحدود»، لكننا نعرف أن هذا الأمر غير محال.

فهل استطاع «آصف» بقدرته المعنويه أن يبذل عرش بلقيس إلى أمواج من نور، و بلحظه أحضرها عند سليمان عليه السلام ثم أرجعها إلى مادتها الأصليه مرّه أخرى؟... هذا الأمر عندنا يلقه الغموض.

و ما نعرف أن الإنسان يقوم بأعمال بواسطه الطرق العلميه المتداوله، كانت قبل مائتى عام تعدّ في دائره المحال!.

فمثلا- لو كان يقال لشخص ما قبل عدّه قرون: سيأتى زمان على الناس يتكلم الرجل فى المشرق فيسمع الآخرون و يرونه فى المغرب فى اللحظه ذاتها.. لكان يعد هذا المقال ضربا من الهذيان أو الحلم! و ليس هذا إلا لأنّ الإنسان يريد أن يقوم كل شىء بعلمه المحدود و قدرته القاصره! مع أن ما وراء علمه و قدرته أسرار خفيه كثيره!

اشاره

قَالَ نَكُرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَ تَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَ هَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صِرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ فَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَ أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤)

التفسير

اشاره

نور الايمان في قلب الملكة:

نواجه في هذه الآيات مشهدا آخر، مما جرى بين سليمان و ملكه سبأ فسليمان من أجل أن يختبر عقل ملكه سبأ و درايتها، و يهيء الجو لايمانها بالله، أمر أن يغيروا عرشها و ينكروه ف قَالَ نَكُرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَ تَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ .

و بالرغم من أن المجيء بعرشها من سبأ الى الشام كان كافيا لان لا تعرفه ببساطه..و لكن مع ذلك فإن سليمان أمر أن يوجدوا تغييرات فيه، من قبيل تبديل

بعض علاماته، أو تغيير ألوانه و مواضع مجوهراته، و لكن هذا السؤال: ما الهدف الذي كان سليمان عليه السلام يتوخاه من اختبار عقل (و درايه) ملكه سبأ و ذكائها؟ لعل هذا الاختبار كان لمعرفة أى منطق يواجهها به؟ و كيف يأتى لها بدليل لإثبات المباني العقائديه؟ أو كان يفكر أن يتزوجها، و كان يريد أن يعرف هل هى جديره بأن تكون زوجته له، أم لا؟.. أو أراد-واقعا- أن يعهد لها بمسؤوليه بعد ايمانها... فلا بد من معرفه مقدار استعدادها لقبول المسؤوليه! و هناك تفسيران لجمله أ تَهْتَدِي فقال بعضهم: المراد منها معرفه عرشها.

و قال بعضهم: المراد من هذه الجملة أنها هل تهتدى إلى الله برؤيه المعجزه، أو لا؟! إلا أن الظاهر هو المعنى الأول، و إن كان المعنى الأول بنفسه مقدمه للمعنى الثانى.

و على كل حال... فَلَمَّا جَاءَتْ قَيْلَ أَهْكَذَا عَرْشُكَ و الظاهر أن القائل لها لم يكن سليمان نفسه، و الأ- فلا- يناسب التعبير ب«قيل»، لأن اسم سليمان ورد قبل هذه الجملة و بعدها، و عبر عن كلامه ب«قال».

أضف إلى ذلك أنه لا يناسب مقام سليمان عليه السلام أن يبارها بمثل هذا الكلام.

و على أى حال. فَإِنَّ مَلِكَةَ سَبَأٍ أَجَابَتْ جَوَابًا دَقِيقًا وَقَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ .

فلو قالت: يشبهه، لأخطأت.. و لو قالت: هو نفسه، لخالفت الاحتياط، لأن مجيء عرشها إلى أرض سليمان لم يكن مسأله ممكنه بالطرق الاعتياديه، إلا أن تكون معجزه.

و قد جاء فى التواريخ أن ملكه سبأ كانت قد أودعت عرشها الثمين فى مكان محفوظ، و فى قصر مخصوص فيه غرفه عليها حرس كثير! و مع كل ذلك فإن ملكه سبأ استطاعت أن تعرف عرشها رغم كل ما حصل له

من تغييرات..فقال مباشرة: وَ أَوْتَيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَ كُنَّا مُسْلِمِينَ .

أى، إذا كان مراد سليمان عليه السّلام من هذه المقدمات هو اطلاعنا على معجزته لكى نؤمن به، فإننا كنّا نعرف حقانيته بعلائم آخر.. كنّا مؤمنين به حتى قبل رؤيه هذا الأمر الخارق للعادة فلم تكن حاجه إلى هذا الأمر.

و هكذا فإنّ سليمان عليه السّلام منعها وَ صَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ (١) بالرغم من إنّها كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ .

أجل، إنّها ودعت ماضيها الأسود برؤيه هذه العلائم المنيره، و خطت نحو مرحله جديده من الحياه المملوءه بنور الإيمان و اليقين.

و فى آخر آيه من الآيات محل البحث يجرى الكلام عن مشهد آخر من هذه القصّه، و هو دخول ملكه سبأ قصر سليمان الخاص.

و كان سليمان عليه السّلام قد أمر أن تصنع إحدى ساحات قصوره من قوارير، و أن يجرى الماء من تحتها.

فلما وصلت ملكه سبأ إلى ذلك المكان قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ (٢) فلما رأته ظنته نهرا جاريا فرفعت ثوبها لتمر وسط الماء و هى متعجبه عن سبب وجود هذا الماء الجارى، و كما يقول القرآن: فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَ كَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا (٣) .

ص: ٧٩

١ - ١) - للمفسّرين أقوال مختلفه فى فاعل (صدّ) و أنّ (ما) هل هى موصوله أو مصدرية، فقال جماعه من المفسّرين. إن الفاعل هو سليمان كما بيّناه فى المتن، و بعضهم قال: بل هو الله، و النتيجة تكاد تكون واحده و طبقا لهذين التفسيرين تكون «ها» مفعولا أولا و (ما كانت) مكان المفعول الثانى، و إن كان أصلها جارا و مجرورا، أى و صدها سليمان أو الله عما كانت تعبد من دون الله. إلا أن جماعه ذهبوا إلى أن فاعل صدّ، هو (ما كانت)، لكن حيث أن الكلام عن إيمانها لا- كفرها فالتفسير الأوّل أنسب.. و أمّا كلمه (ما) فقد تكون موصوله.. أو مصدرية.

٢ - ٢) - «صرح» معناه الفضاء الواسع، و قد يأتى بمعنى البناء العالى و القصر و فى الآيه المشار إليها أنفا معناه ساحه القصر أى فضاءه الواسع ظاهرا.

٣ - ٣) - «اللّجه» فى الأصل مأخوذه من اللجاج، و معناه الشده، ثم أطلق على ذهاب الصوت و إيابه فى الحنجره تعبير

إِلَّا أَنْ سَلِيمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ التَّفَتَّ إِلَيْهَا وَقَالَ: إِنَّهُ صَرَخَ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ (١).

فلا حاجة الى الكشف عن ساقيك فلا يمس الماء قدميك.

و هنا ينقدح سؤال هام، و هو أن سليمان نبى كبير، فلم كان لديه هذا البناء الفائق و التزيين الرائع... و الصرح الممرد و البساط الممهّد!.. و صحيح أنه كان حاكما مبسوط اليد، إلا أن الأنسب أن يكون له بساط مألوف كسائر الأنبياء.

إلا أنه، ما يمنع أن يرى سليمان ملكه سبأ التى كانت ترى قدرتها و عظمتها بالعرش و التاج و القصر العظيم و الزينه.. يريها هذا المشهد لتدعن لأمره، و لتحترق ما عندها؟! و هذه نقطه انعطاف فى حياتها لتعيد النظر فى ميزان القيم و معيار الشخصيه! ما يمنعه- بدلا من أن يغير جيشا لجبا فيسفك الدماء- أن يجعل فكر ملكه سبأ حائرا مبهورا بحيث لم تكن تتوقع ذلك أصلا... خاصة أنها كانت امرأه تهتم بهذه الأمور و التشريفات! و لا سيما أن أغلب المفسرين صرحوا بأن سليمان أمر أن يبنى مثل هذا الصرح و القصر قبل أن تصل ملكه سبأ إلى الشام، و كان هدفه أن يريها قدرته لتدعن لأمره و تسلم له... و هذا الأمر يدل على أن سليمان عليه السلام كان يتمتع فى سلطانه بقدره عظيمه من حيث القوه الظاهرية وفق بها للقيام بمثل هذا العمل!.

و بتعبير آخر: إن هذه النفقات الماليه إزاء أمن منطقته و اسعده، و قبول دين الحق، و الوقايه عن الإنفاق المفرط للحرب- لم تكن أمرا مسرفا.

و لذلك حين رأت ملكه سبأ هذا المشهد الرائع قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَ أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

(٣)

(لجه) على وزن (ضجيه)، أما الأمواج المتلاطمه فى البحر فتسمى (لجه) على وزن (جبه) و هى هنا فى الآيه بهذا المعنى الأخير.

ص: ٨٠

١- (١) - «الممرد» معناه الصافى... و (القوارير) جمع قاروره و هى الزجاجه.

لقد كنت فى ما مضى أسجد للشمس و أعبد الأصنام، و كنت غارقة فى الزينه و التجميل، و كنت أتصور أنى أعلى الناس فى الدنيا.

أما الآن فإننى أفهم أننى ضعيفه جدًا و هذه الزخارف و الزبارج لا تروى ظمأ الإنسان و لا تبلى غليل روحه!.

ربّاه... أتيت إليك مسلمه مع سليمان نادمه عن سالف عمرى، خاضعه عنقى إليك. الطريف هنا أنها تقول: أسلمت مع سليمان، فتستعمل كلمه (مع) ليتجلى أن الجميع إخوه فى السبيل إلى الله! لا- كما يعتاده الجبابره إذ يتسلط بعضهم على رقاب بعض، و ترى جماعه أسيره فى قبضه آخر.

فهنا لا يوجد غالب و مغلوب، بل الجميع- بعد قبول الحق- فى صف واحد!.

صحيح أن ملكه سبأ كانت قد أعلنت إيمانها قبل ذلك أيضا، لأننا سمعنا عن لسانها فى الآيات آنفه الذكر و أوتينا العلم من قبلها و كنا مسلمين .

إلا أن إسلام الملكه هنا وصل إلى أوجه، لذلك أكدت إسلامها مره أخرى.

إنها رأت دلائل متعدده على حقانيه دعوه سليمان.

فمجيء الهدهد بتلك الحاله الخاصه! و عدم قبول سليمان الهديه الثمينه المرسله من قبلها.

و إحضار عرشها فى فتره قصيره من مدى بعيد.

و أخيرا مشاهده قدره سليمان الاعجازيه، و ما لمستته فيه من أخلاق دمه لا تشبه أخلاق الملوك!

بحثان

إشارة

١- عاقبه أمر ملكه سبأ

كان هذا كل ما ورد فى القرآن المجيد عن ملكه سبأ إذ آمنت أخيرا و لحقت

بالصالحين... لكن هل عادت إلى وطنها بعد إيمانها، واصلت حكمها من قبل سليمان، أو بقيت عند سليمان و تزوجت منه؟! أو تزوجت من أحد ملوك اليمن المشهورين باسم «تبع»؟ هذه الأمور لم يشر إليها القرآن الكريم، لأنها لا علاقه لها بالهدف الأصلي الذى يتبعه القرآن من المسائل التربويه!... إلا أن المؤرخين و المفسرين كلاً منهم اختار رأياً، و لا نجد ضروره فى الخوض فى ذلك، و إن كان المشهور-طبقاً لما قاله أغلب المفسرين- أنها تزوجت من سليمان نفسه (1).

إلا- أنه ينبغي أن نذكر بهذا الأمر المهم، و هو أنه وردت أساطير كثيره حول سليمان و جنوده و حكومته و خصوصيات ملكه سبأ. و جزئيات حياتها أيضاً، مما يصعب على عامه الناس تمييزها من الحقائق التاريخيه، و ربّما يغشى هذه الحقائق التاريخيه. ظلّ مظلم من الخرافات يشوه وجهها الناصع.. و هذه هى نتيجة الخرافات المتداخله فى الحقائق التى ينبغي أن تراقب مراقبه تامه!.

٢- خلاصه عامه عن حياه سليمان

ما ورد عن سيره سليمان و حالاته فى الثلاثين آيه آنفه الذكر، يكشف عن مسائل كثيره، قرأنا قسماً منها فى أثناء البحث، و نشير إلى القسم الآخر إشاره عابره:

١- إن هذه القصة تبدأ بالحديث عن موهبه (العلم الوافر) التى وهبها الله لسليمان بن داود، و تنتهى بالتسليم لأمر الله، و ذلك التوحيد أساسه العلم أيضاً.

٢- هذه القصة تدل على أن غياب طائر أحيانا (فى تحليقه استثنائيه) قد يغير مسير تاريخ أمه، و يجرها من الفساد إلى الصلاح، و من الشرك إلى الإيمان...

و هذا مثل عن بيان قدره الله، و مثل من حكومه الحق!.

ص: ٨٢

٣- إنَّ هذه القصّة تكشف عن أن نور التوحيد يشرق في جميع القلوب، حتى الطائر الذي يبدو ظاهراً أنّه صامت، فإنّه يخبر عن أسرار التوحيد العميقة!.

٤- ينبغي من أجل لفت نظر الإنسان إلى القيمة الواقعيه له و هدايته نحو الله، أن يدمر غروره و كبرياؤه أولاً.. ليماط عن وجه ستار الظلام، كما فعل سليمان، فدمر غرور ملكه سبأ و ذلك بإحضار عرشها، و إدخالها الصرح الممرد الذي حسبته لجه.

٥- إنَّ الهدف النهائي في حكومه الأنبياء ليس التوسع في رقعته الأرض، بل الهدف هو ما قرأناه في آخر آيه من الآيات محل البحث، و هو أن يعترف الظالم بذنبه، و أن يسلم لرب العالمين، و لذلك فإن القرآن ختم بهذه «اللطيفه» القصّه المذكوره.

٦- إنَّ روح الإيمان هي التسليم، لذلك فقد أكد سليمان عليه في كتابه إلى ملكه سبأ.

٧- قد يكون بعض الناس مع ما لديه من قدره عظيمه لا ترقى إليه قدره الآخرين، محتاجا إلى موجود ضعيف كالتائر مثلاً، لا إلى علمه فحسب، بل قد يستعين بعلمه أيضاً، و قد تحقّره نمله بما هي عليه من ضعف! ٨- إنَّ نزول هذه الآيات في مكّه حيث كان المسلمون تحت نير العدو، و كانت الأبواب موصده بوجههم، هذا النزول كان له مفهومه الخاص. و هو تقويه معنويات المسلمين و تسليه قلوبهم، و احياء أملهم بلطف الله و رحمته و الانتصارات المقبله.

اشاره

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥) قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْ لَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧)

التفسير

اشاره

صالح في ثمود:

بعد ذكر جانب من قصص موسى و داود و سليمان عليه السّلام فإنّ هذه الآيات تتحدث عن قصّه رابع نبىّ -و تبين جانبا من حياته مع قومه فى هذه السوره، و هى ما جاء عن صالح عليه السّلام و قومه «ثمود»! إذ يقول القرآن: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ (١).

و كما قيل من قبل: إنّ التعبير بـ«أخاهم» الوارد فى قصص كثير من الأنبياء، هو إشاره إلى منتهى المحبّه و الإشفاق من قبل الأنبياء لأممهم، كما أن فى بعض المواطن إشاره الى علاقه القريبى «الروابط العائليه للأنبياء بأقوامهم».

ص: ٨٤

(١- ١) -جملة (أن اعبدوا الله)مجروره بحرف جر مقدر و أصلها:و لقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا بعباده الله.

و على كل حال، فإن جميع دعوته هذا النبي العظيم تلخصت في جملة أن اعبدوا الله. أجل، إن عبادة الله هي عصاره كل تعليمات رسل الله.

ثم يضيف قائلاً: فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (١). المؤمنون من جهة و المنكرون المعاندون من جهة أخرى.

وقد عبر في الآيتين ٧٥ و ٧٦ من سورة الأعراف عن الفريقين، بالمستكبرين و المستضعفين: قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اشْتَكَبُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ، قَالَ الَّذِينَ اشْتَكَبُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ .

و بالطبع فإن هذه المواجهه بين الفريقين «الكفار و المؤمنين» تصدق في شأن كثير من الأنبياء، بالرغم من أن بعض الأنبياء بقوا محرومين حتى من هذا المقدار القليل من الأنصار حيث وقف كل افراد قومهم ضدهم.

فأخذ صالح عليه السلام ينذرهم و يحذرهم من عذاب الله الأليم... إلا أن أولئك لم يستجيبوا له و تمسكوا بعنادهم و طلبوا منه بإصرار أن إذا كنت نبياً فليحل بنا عذاب الله «و قد صرحت الآية ٧٧ من سورة الأعراف بأنهم سألوا نبيهم نزول العذاب» وَ قَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ .

إلا أن صالحاً أجابهم محذراً و قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ .

فلم تفكرون بعذاب الله دائماً و تستعجلونه؟ أ لا تعلمون أن عذاب الله إذا حل بساحتكم ختم حياتكم و لا يبقى مجال للإيمان؟ تعالوا و اختبروا صدق دعوتي في البعد الايجابي و الأمل في رحمه الله في

ص: ٨٥

١-١) - كلمه (فريقان) تشبيه، و فعلها مسند إلى ضمير الجميع، و ذلك لأن كل فريق يتألف من جماعه... فأخذ الجمع بنظر الإعتبار..

ظل الإيمان به لو لا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ !.

علام تسألون عن نزول العذاب و تصرون على السيئات؟! و لم هذا العناد و هذه الحماقة؟! لم يكن قوم صالح -و حدهم- قد طلبوا العذاب بعد انكارهم دعوه نبيهم، فقد ورد في القرآن المجيد هذا الأمر مرارا في شأن الأمم الآخرين، و منهم قوم هود «كما في الآيه ٧٠ من سوره الأعراف».

و نقرأ في شأن النبي محمد صلى الله عليه و آله و سلم و ما واجهه به بعض المشركين المعاندين، إذ قالوا: **اللَّهُمَّ إِنَّ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْبِتْنَا بِعَذَابِ أَلِيمٍ . (١)**

و هذا أمر عجيب حقاً أن يريد الإنسان اختبار صدق دعوه نبيّه عن طريق العقاب المهلك، لا عن طريق طلب الرحمة! مع أنهم يعلمون يقينا احتمال صدق دعوه هؤلاء الأنبياء «يعلمون ذلك في قلوبهم و إن أنكروه بلسانهم».

و هذا الأمر يشبه حاله ما لو ادعى رجل بأنه طيب، فيقول: هذا الدواء ناجع شاف، و ذلك الدواء ضار مهلك. و نحن من أجل أن نختبر صدقه نستعمل الدواء المهلك!! فهذا منتهى الجهل و التعصب... و لمرض الجهل الكثير من هذه الافرازات.

و على كل حال، فإن هؤلاء القوم المعاندين بدلا من أن يصغوا لنصيحه نبيهم و يستجيبوا له، واجهوه باستنتاجات واهيه و كلمات باطله!... منها أنهم قالوا **اطَّيْرْنَا بِكَ وَ بَمَنْ مَعَكَ وَ لعل تلك السنه كانت سنه قحط و جدب، فقالوا: إن هذا البلاء و المشاكل و العقبات كلها بسبب قدوم هذا النبي و أصحابه... فهم مشؤمون**

ص: ٨٦

جلبوا الشقاء لمجتمعنا!! فكانوا يحاولون مواجهه دعوه نبيهم صالح و منطقه المتين بحربه التطير، التى هى حربه المعاندين الخرافيين.

لكنه رد عليهم و قال طائرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ فهو الذى يتليكم بسبب أعمالكم بهذه المصائب التى أدت إلى هذه العقوبات.

فى الحقيقة إن ذلك اختبار و إمتحان إلهى كبير لكم، أجل بل أنتم قومٌ تُفْتَنُونَ .

هذه امتحانات و فتن إلهيه...هذه إنذارات و تنبيهات لينتبه-من فيهم اللياقه من غفلتهم، و يصلحوا انحرافهم و يتجهوا نحو الله!.

بحث

اشاره

«التطير و التفاؤل»

«التطير» مأخوذ من ماده «طير» و هو معروف، إذ يعنى ما يطير بجناحين فى الجو، و لما كان العرب يتشاءمون غالباً من بعض الطيور، سُمى الفأل غير المحبوب تطيراً، و هو فى قبال «التفأل» و معناه الفأل الحسن المحبوب.

و قد وردت فى القرآن الإشاره إلى هذا المعنى مرارا و هى أن المشركين الخرافيين كانوا يواجهون أنبياءهم بحربه التطير، كما نقرأ ذلك فى قصه موسى و أصحابه و إن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيِّرُوا بِمُوسَىٰ وَ مَنْ مَعَهُ (١).

و فى الآيات-محل البحث-أظهر قوم «ثمود» المشركون رد فعلهم فى

ص: ٨٧

مقابل نبيهم «صالح» بالتطير أيضا.

و أساسا، و نقرأ في سورة «يس» أن المشركين تطيروا من مجيء رسل المسيح عليه السلام الى «انطاكية» (يس-١٨).

فإنّ الإنسان لا- يمكن أن يقف أمام الحوادث على حال واحده، فلا بدّ أن يفسّر آخر الأمر لكل حادثه عله... فإذا كان الإنسان مؤمنا موحدا لله، فإنّه يرجع العلل إلى ذاته المقدسه تعالى طبقا لحكمته، فكل شيء عنده بمقدار، عالم الغيب و الشهاده الكبير المتعال. و لو استند إلى العلم في تحليل العله و المعلول الطبيعيين، فستحل مشكلته ايضا، و إلاّ فإنّه سينتج أوهاما و خرافات لا أساس لها.. أوهاما لا- حد لها.. و أحدها «التطير» و الفأل السىء! مثلا كان عرب الجاهليه إذا رأوا الطائر يتحرك من اليمين نحو الشمال عدوّه فألا حسنا، و إذا رأوه يتحرك من الشمال «اليسار» نحو اليمين عدوّه فألا سيئا، و دليلا على الخسران أو الهزيمة! و غيرها من الخرافات الكثيره عندهم (١).

و اليوم يوجد- من قبيل هذه الخرافات و الأوهام- الكثير في مجتمعات لا- تؤمن بالله، و إن حققت نصرا من حيث العلم و المعرفة، بحيث لو سقطت «مملحه» على الأرض أفلقتهم إلى حد كبير!... و يستوحشون من الدار أو البيت أو الكرسي المرقم ب ١٣، و ما زالت سوق المنجمين و أصحاب الفأل رائجه غير كاسده! فهناك مشترون كثير «للطالع و البخت»!.

إلا أنّ القرآن جمع كل هذه الأمور فجعلها في جملة موجزه قصيره فقال:

طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ

ص: ٨٨

١- ١) -يشير الكميّ الأسدي إلى بعض هذه الخرافات في قصيدته البائيه فيقول: و لا أنا ممن يزجر الطير همّه أ صاح غراب أم تعرض ثعلب و لا السانحات البارحات عشيه أمرّ سليم القرن أم مرّ أعضب (المصحح).

أجل، فطائرکم و طالعکم و انتصارکم و هزيمتکم و توفيقکم و فشلکم كله عند الله، الله الحكيم الذي يهب عطايه لمن كانت عنده اللياقه، و اللياقه بدورها انعكاس تنعكس عن الايمان و الأعمال الصالحه أو الطالحه!.

و هكذا فإنّ الإسلام يدعو أتباعه ليخرجهم من وادي الخرافه إلى الحقيقه، و من المفازه (1) إلى الصراط المستقيم.

«كان لنا بحث مفصل في مجال التطير و التفاؤل ذيل الآيه ١٣١ من سوره الأعراف».

ص: ٨٩

١-١) -المفازاه تأتي بمعنى الفوز، و تأتي بمعنى الهلاك... فهي من الأضداد في اللغة- و هنا معناها الصحراء المهلكه (المصحح).

اشاره

وَ كَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) وَ مَكَرُوا مَكْرًا وَ مَكَرْنَا مَكْرًا وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَ قَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتَلَمَّكَ يَبُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ (٥٣)

التفسير

اشاره

تآمر تسعه رهط في وادي القرى:

نقرأ هنا قسماً آخر من قصه «صالح» و قومه، حيث يكمل القسم السابق و يأتي على نهايته، و هو ما يتعلق بالتآمر على قتل «صالح» من قبل تسعه «رهط» (١) من المنافقين و الكفار، و فشل هذا التآمر في وادي القرى منطلقه «النبي صالح و قومه».

ص: ٩٠

١- ١) - «الرهط» من الناس ما لا يقل عن الثلاثة و لا يزيد عن العشرة، و هو اسم جنس لا مفرد له من نوعه و يجمع على أرهاط و أرهاط- و لا يكون في الرهط امرأة (المصحح).

يقول القرآن في هذا الشأن وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ .

و مع ملاحظه أنّ «الرّهط» يعنى فى اللغه الجماعه التى تقلّ عن العشره أو تقلّ عن الأربعين، فإنّه يتّضح أن كلاً من المجموعات الصغيره التسع كان لها منهج خاص، و قد اجتمعوا على أمر واحد، و هو الإفساد فى الأرض و الإخلال بالمجتمع (و نظامه الاجتماعى) و مبادئ العقيدته و الأخلاق فيه.

و جمله «لا يصلحون» تأكيد على هذا الأمر، لأنّ الإنسان قد يفسد فى بعض الحالات ثمّ يندم و يتوجه نحو الإصلاح.. إنّ المفسدين الواقعيين ليسوا كذلك، فهم يواصلون الفساد و الإفساد و لا يفكرون بالإصلاح!

و خاصّه أن الفعل فى الجملة «يفسدون» فعل مضارع، و هو يدل على الاستمرار، فمعناه أن إفسادهم كان مستمرا... و كلّ رهط من هؤلاء التسعه كان له زعيم و قائد... و يحتمل أن كلاً ينتسب إلى قبيله!

و لا ريب أن ظهور «صالح» بمبادئه الساميه قد ضيق الخناق عليهم، و لذلك تقول الآيه التاليه فى حقّهم: قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ .

«تقاسموا» فعل أمر، أى اشتركوا جميعا فى اليمين، و تعهدوا على هذه المؤامره الكبرى تعهدا لا عوده فيه و لا انعطاف!

الطريف أنّ أولئك كانوا يقسمون بالله، و يعنى هذا أنّهم كانوا يعتقدون بالله، مع أنّهم يعبدون الأصنام، و كانوا يبدأون باسمه فى المسائل المهمّه.. كما يدل هذا الأمر على أنّهم كانوا فى منتهى الغرور و «السكر» بحيث يقومون بهذه الجنايه الكبرى على اسم الله و ذكره! فكأنّهم يريدون أن يقوموا بعباده أو خدمه مقبوله...

إلا أنّ هذا نهج الغافلين المغرورين الذين لا يعرفون الله و الضالين عن الحق.

و كلمه «لنبيّته» مأخوذه من «التبييت»، و معناه الهجوم ليلا، و هذا التعبير

يدلّ على أنّهم كانوا يخافون من جماعه صالح و أتباعه، و يستوحشون من قومه..

لذلك و من أجل أن يحققوا هدفهم و لا يكونوا فى الوقت ذاته مثار غضب أتباع صالح، اضطروا إلى أن يبيتوا الأمر، و اتفقوا أن لو سألوهم عن مهلك النبى-لأنهم كانوا معروفين بمخالفته من قبل-حلفوا بأن لا علاقة لهم بذلك الأمر، و لم يشهدوا الحادثه أبدا.

جاء فى التواريخ أن المؤامره كانت بهذه الصوره، و هى أن جبلا كان فى طرف المدينه و كان فيه غار يتعيّد فيه صالح، و كان يأتيه ليلا بعض الأحيان يعبد الله فيه و يتضرع إليه، فصمّموا على أن يكمنوا له هناك ليقتلوه عند مجيئه فى الليل، و يحملوا على بيته بعد استشهاده ثم يعودوا إلى بيوتهم، و إذا سئلوا أظهروا جهلهم و عدم معرفتهم بالحادث.

فلما كمنوا فى زاويه و اختبثوا فى ناحيه من الجبل انثالت صخور من الجبل تهوى إلى الأرض، فهوت عليهم صخره عظيمه فأهلكتهم فى الحال! لذلك يقول القرآن فى الآيه التاليه: وَ مَكَرُوا مَكْرًا وَ مَكَرْنَا مَكْرًا وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ .

ثم يضيف قائلا: فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَ قَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ .

و كلمه (مكر)-كما بيناها سابقا-تستعملها العرب فى كل حيله و تفكير للتخلص أو الاهتداء إلى أمر ما..و لا تختص بالأمر التى تجلب الضرر، بل تستعمل بما يضر و ما ينفع..فيصح وصف المكر بالخير إذا كان لما ينفع، و وصفه بالسوء إذا كان لما يضر..قال سبحانه: وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ .

و قال: وَ لَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ!«فتأملوا بدقه» يقول الراغب فى المفردات..المكر صرف الغير عما يقصده..فبناء على هذا إذا نسبت هذه الكلمه إلى الله فإنها تعنى إحباط المؤامرات الضاره من قبل

الآخرين، و إذا نسبت إلى المفسدين فهي تعنى الوقوف بوجه المناهج الإصلاحية، و الحيلولة دونها.

ثم يعبر القرآن عن كيفية هلاكهم و عاقبه أمرهم فيقول: فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا .

فلا صوت يسمع منها و لا حركة تتردد و لا أثر من تلك الزخارف و الزبارج و النعم و المجالس الموبوءة بالذنوب و الخطايا.

أجل، لقد أذهبهم ريح عتوهم و ظلمهم، و احترقوا بنار ذنوبهم فهلكوا جميعا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

إلا أن الأخضر لم يحترق باليابس، و الأبرياء لم يؤخذوا بجرم الأشقياء... بل سلم المتقون و أنجينا الذين آمنوا و كانوا يتقون .

ملاحظات

إشارة

١- عقوبه ثمود

تختلف تعابير آيات القرآن في موضوع هلاك قوم صالح «ثمود».

فتاره يأتي التعبير عن هلاكهم بالزلزله فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ . (١)

و تاره يقول: «عنهم» القرآن: فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ (٢) .

و تاره يقول: وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ (٣) .

ص: ٩٣

١- ١) - الأعراف، الآية ٧٨.

٢- ٢) - الذاريات، ٤٤.

٣- ٣) - هود، ٦٧.

إلا أنه لا منافاه بين هذه التعابير الثلاثة أبدا... لأن «الصاعقه» هي الشعلة الكبيره بين السحاب و الأرض المقرونه بصيحه عظيمه و اهتزاز شديد فى الأرض «ذكرنا تفصيلا عن الصيحه السماويه فى ذيل الآيه ٦٧».

٢- روى بعض المفسرين أن أصحاب صالح الذين نجوا معه كانوا أربعة آلاف رجل، و قد خرجوا بأمر الله من المنطقه الموبوءه بالفساد إلى حضر موت» (١).

٣- «خاويه» من (الخواء) على وزن (الهواء) معناه السقوط و الهوى و الانهدام، و قد يأتى الخواء بمعنى الخلو... و هذا التعبير ورد فى سقوط النجم و هويته، إذا قالوا «خوى النجم» أى هوى.

و يرى الراغب فى المفردات أن الأصل فى «خوى» هو الخلو... و يرد هذا التعبير فى البطون الغرثى، و الجوز الخالى، و النجوم التى لا تعقب الغيث، كان عرب الجاهليه يعتقدون أن كل نجم يظهر فى الأفق يصحبه الغيث! «المطر».

٤- روى عن ابن عباس أنه قال: استفدت من القرآن أن الظلم يخرب البيوت و يهدمها، ثم استدل بالآيه الكريمه فَتَلَمَّكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا (٢).

و فى الحقيقه فإن تأثير الظلم فى تخريب البيوت و المدن و المجتمعات لا يقاس بأى شىء، فالظلم يأتى بالصاعقه المهلكه، و الظلم يزلزل و يدمر... و الظلم له أثر كأثر الصيحه- فى السماء- المهلكه المميته، و قد أكد التأريخ مرارا هذه الحقيقه و أثبتها، و هى أن الدنيا قد تدوم مع الكفر، إلا أنها لا تدوم مع الظلم أبدا.

٥- ما لا شك فيه أن عقاب ثمود «قوم صالح» كان بعد أن عقروا الناقه «قتلوها» و كما يقول القرآن فى الآيات (٦٥)- (٦٧) من سوره هود:

ص: ٩٤

١- ١) - راجع الطبرسى فى مجمع البيان، و الآلوسى فى روح المعانى، و القرطبى فى تفسيره المعروف، ذيل الآيات محل البحث.

٢- ٢) - مجمع البيان ذيل الآيه محل البحث..

فَعَقَرُوهُمَا فَقَالَ تَمَنَّوْا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعِيدٌ غَيْرُ مَكْدُوبٍ، فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ مِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ، وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ .

فبناء على هذه الآيات لم ينزل العذاب مباشرة بعد المؤامرة على قتل صالح، بل الاحتمال القوي أن الجماعة الذين تأمروا على قتله أهلكوا فحسب، ثم أمهل الله الباقين، فلما قتلوا الناقة أهلك الله جميع الظالمين و الأثمين الكافرين.

و هذه هي نتيجة الجمع بين آيات هذه السورة، و الآيات الواردة في هذا الشأن في سورتي الأعراف و هود.

و بتعبير آخر: في الآيات محل البحث جاء بيان إهلاكهم بعد مؤامرتهم على قتل نبيهم صالح، أما في سورتي الأعراف و هود في بيان هلاكهم بعد عقرهم الناقة.

و نتيجة الأمرين أنهم حاولوا قتل نبيهم، فلما لم يفلحوا أقدموا على قتل الناقة (و عقرها) التي كانت معجزته الكبرى... و نزل عليهم العذاب بعد أن أمهلوا ثلاثة أيام.

و يحتمل أيضا أنهم أقدموا على قتل الناقة أولا، فلما هددهم نبيهم صالح بنزول العذاب بعد ثلاثة أيام حاولوا قتله، فأهلكوا دون أن يفلحوا في قتله (1).

ص: ٩٥

اشاره

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أَلَا إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥)

التفسير

اشاره

انحراف قوم لوط!

بعد ذكر جوانب من حياه موسى و داود و سليمان و صالح عليهم السّلام مع أممهم و أقوامهم، فإنّ النّبي الخامس الذي وردت الإشارة إليه في هذه السوره: نبيّ الله العظيم «لوط».

و ليست هذه أوّل مرّه يشير القرآن إلى هذا الموضوع، بل تكررت الإشارة إليه عدّه مرّات، كما في سوره الحجر، و سوره هود، و سوره الشعراء، و سوره الأعراف.

و هذا التكرار و التشابه، لأنّ القرآن ليس كتابا تاريخيا كى يتحدث عن الموضوع مرّه و لا- يعود إليه.. بل هو كتاب تربوى إنسانى.. و نعرف أنّ المسائل التربويه قد تقتضى الظروف أحيانا أن تكرر الحادته و يذكر بها مرارا، و أن ينظر إليها من زوايا مختلفه، و يستنتج من جهاتها المتعدده.

و على كل حال فإنّ حياه قوم لوط المشهورين بالانحراف الجنسى و العادات السيئه المخزيه الأخرى، كما أنّ عاقبه حياتهم الوخيمه يمكن أن تكون لوحه بليغه لأولئك السادرين فى شهواتهم...و إن سعه هذا التلوّث بين الناس تقتضى أن يكرر ما جرى على قوم لوط مرارا.

يقول القرآن:فى الآيتين محل البحث أولا: **وَ لُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (١)**.

«الفاحشه» كما أشرنا إليها من قبل، تعنى الأعمال السيئه القبيحه، و المراد منها الانحراف الجنسى و عمل اللواط المخزى.

و جملة وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ إشاره إلى أنكم-يعنى قوم لوط-ترون بأم أعينكم قبح هذا العمل و آثاره الوخيمه، و كيف تلوّث مجتمعكم من قرنه إلى قدمه به...و حتى الأطفال فى غير مأمّن من هذا العمل القبيح، فعلام تبصرون و لا تتنبهون! و أمّا ما يحتمله بعضهم من أن جملة «تبصرون» إشاره إلى أنهم كانوا يشهدون فعل اللواط «بين الفاعل و المفعول» فهذا المعنى لا ينسجم و ظاهر التعبير، لأنّ لوطا يريد أن يحرك «وجدانهم» و ضمائرهم، و أن يوصل نداء فطرتهم إلى آذانهم...فكلام لوط نابع من البصيره و رؤيه العواقب الوخيمه لهذا العمل و التنبه منه.

ثم يضيف القرآن قائلا: **أَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ .**

و قد ورد التعبير عن هذا العمل القبيح بالفاحشه، ثمّ وضحه أكثر لئلا يبقى أى إبهام فى الكلام، و هذا اللون من الكلام واحد من فنون البلاغه لبيان المسائل المهمه.

ص: ٩٧

١ - ١) - يحتمل أن «و لوطا» منصوب بالفعل (أرسلنا) الذى سبق ذكره فى الآيات المتقدمه، و يحتمل أن يكون منصوبا بفعل محذوف تقديره (اذكر) و حيث جاء بعد الكلمه (إذ قال) فالاحتمال الثانى أنسب...

و لكي يتضح بأن الدافع على هذا العمل هو الجهل، فالقرآن يضيف قائلاً:

بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ

تجهلون بالله..و تجهلون هدف الخلق و نواميسه..و تجهلون آثار هذا الذنب و عواقبه الوخيمه،و لو فكرتم في أنفسكم لرأيتم أن هذا العمل قبيح جداً،و قد جاءت الجملة بصيغه الاستفهام ليكون الجواب نابعا من أعماقهم و وجدانهم، فيكون أكثر تأثيرا.

ص: ٩٨

بدايه الجزء العشرون من القرآن الكريم

ص: ٩٩

اشاره

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (٥٧) وَآمَظْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (٥٨) قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩)

التفسير

اشاره

عند ما تعدّ الطهاره عيا كبيرا!

لاحظنا- في ما سبق من البحوث- منطلق نبي الله العظيم «لوط»، ذلك المنطق المتين أمام المنحرفين الملوثين، وبيانه الاستدلالي الذي كان يعنّفهم على عملهم القبيح، و يكشف لهم نتيجة جهلهم و عدم معرفتهم بقانون الخلق و بجميع القيم الإنسانية.

و الآن، لنستمع الى جواب هؤلاء المنحرفين بماذا أجابوا منطق «لوط»؟! يقول القرآن: فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ .

فجوابهم كاشف عن انحطاطهم الفكرى و السقوط الأخلاقى البعيد!

أجل.. إنَّ الطهاره تعدّ عيبا و نقصا فى المحيط الموبوء، و ينبغى أن يلقى أمثال يوسف المتعفف فى السجن، و أن يطرد آل لوط
نبيّ الله العظيم و يبعدوا- لأنهم يتطهرون-خارج المدينة، و أن يبقى أمثال «زليخا» أحرارا أولى مقام...

كما ينبغى أن يتمتع قوم لوط فى مدينتهم دون حرج!

و هذا هو المصداق الجلى لكلام القرآن فى الضالين، إذ يقول: خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَ عَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَ عَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً بِسَبَبِ
أَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ الْمُخْزِيَةِ.

و يحتمل فى جملة إِنْهُمْ أَنْفُسٌ يَتَطَهَّرُونَ أن قوم لوط لا-نحرفهم و غرقهم فى الفساد، و تطبعهم و تعودهم على التلوّث، كانوا
يقولون مثل هذا الكلام من باب السخرية و الاستهزاء.. أى إِنْهُمْ يتصورون أن أعمالنا قبيحه و غير طاهره! و أن تقواهم من
التطهر، فما أعجب هذا الكلام! إنه لمهزله!

و ليس هذا غريبا أن يتبدل إحساس الإنسان-نتيجة تطبعه بعمل قبيح- فيتغير سلوكه و نظرتة.. فقد سمعنا بقصه الدباغ المعروفه، إذ
ورد أن رجلا- كان يدبغ الجلود المتعفنه دائما، و تطبعت «شامته» برائحته الجلود «العفنه» فمرّ ذات يوم فى سوق العطارين، فاضطرب
حاله و أغمى عليه، لأنّ العطور لا تناسب «شامته» فأمر رجل حكيم أن يؤخذ إلى سوق الدباغين لانقاذه من الموت...

فهذا مثال حسىّ طريف لهذا الموضوع المنطقى.

جاء فى الروايات أن لوطا كان يبلغ قومه حوالى ثلاثين عاما و ينصحهم، إلاّ أنّه لم يؤمن به إلاّ أسرته و أهله باستثناء زوجته فإنّها
كانت من المشركين و على عقيدتهم (١).

بديهى أن مثل هؤلاء القوم لا أمل فى إصلاحهم فى عالم الدنيا، فينبغى أن يطوى «طومار» حياتهم، لذلك تقول الآيه التالیه فى هذا
الشأن

ص: ١٠٢

و بعد أن خرج آل لوط في الموعد المعين «سحر ليله كانت المدينة غارقة فيها بالفساد» فلما أصبح الصباح نزلت عليهم الحجارة من السماء، و تزلزلت الأرض بهم، فدفنوا جميعا تحت الحجارة و الأنقاض، و الى هذا تشير الآية الكريمة التالية و أمطرنا عليهم مطراً ففساء مطر المُنْدَرِينَ .

و كان لنا بحث مفصل في قوم لوط و عاقبتهم الوخيمه و آثار الانحراف الجنسي، في ذيل الآيات ٧٧-٨٣ من سوره هود، و لا حاجة إلى تكراره.

إن قانون الخلق عيّن لنا مسيراً لو سلكناه لكان ذلك مدعاه لتكاملنا و حياتنا، و لو انحرفنا عنه لكان باعثاً على سقوطنا و هلاكنا.

فقانون الخلق جعل الجاذبيه الجنسيه بين الجنسين المتخالفين عاملاً لبقاء نسل الإنسان و اطمئنان روحه. و تغيير المسير نحو الانحراف الجنسي «اللواط أو السحاق» يذهب بالاطمئنان الروحي... و النظام الاجتماعي.

و حيث أن لهذه القوانين الاجتماعيه جذراً في الفطره، فالتخلف «أو الانحراف» يسبب الاضطراب و عدم الانسجام في نظام وجود الإنسان!

فلوط نبى الله العظيم تبه قومه المنحرفين إلى هذا الأساس «الفطرى» فقال لهم: أَ تَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ؟! فالجهل و عدم معرفتكم بقانون الحياه و السفاهه هو الذى يقودكم إلى الضلال و التيه!

فلا- عجب أن تتغير سائر قوانين الخلق في شأن هؤلاء القوم الضالين، فبدلاً من أن يغاثوا بماء من السماء يهب الحياه يمطرون بالحجاره.. و بدلاً من أن تكون الأرض مهاداً و ثيراً لهم تضطرب و تتزلزل و يقلب عاليها سافلها، لئلا يقتصر الحال على هلاكهم فحسب، بل لتمحى آثارهم!

و في آخر آيه من الآيات محل البحث، و بعد بيان ما جرى على لوط و قومه

المنحرفين، يتوجه الخطاب إلى النبي الكريم «محمد» صلى الله عليه وآله وسلم ليستنتج مما سبق، فيقول له: قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ .

الحمد و الثناء الخاص لله، لأنه أهلك أمما مفسدين كقوم لوط، لثلاث تلوث الأرض من وجودهم!.

الحمد لله الذى أبار قوم صالح ثمود، و فرعون و قومه المفسدين، و جعل آثارهم عبره للمعتبرين.

و أخيرا فالحمد لله الذى أنعم و تفضل على عباده المؤمنين... كداود و سليمان و أمثالهما، و أولاهم القوه و القدره، و هدى القوم الضالين كقوم سبأ.

ثم يضيف قائلا: وَ سَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ .

سلام على موسى و صالح و لوط و سليمان و داود، و سلام على جميع الأنبياء و المرسلين و عباد الله الصالحين، و من والاهم بإحسان.

ثم يقول: اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (١)!! رأينا فى قصص هؤلاء الأنبياء أن الأصنام لم تستطع عند نزول البلاء أن تسعف اتباعها، أو تقوم بأدنى مساعده لهم! غير أن الله سبحانه لم يترك عباده و حدهم فى هذه الخطوب، بل أعانهم بلطفه الذى لا ينفذ!

ص: ١٠٤

١ - ١) (الله) أصلها (أ الله) فانقلبت إحدى الهمزتين ألفا ثم صارت مده كما هي عليه الآن.. و جملة (أما يشركون) أصلها (أم ما يشركون) إذ أدغمت (أم) المعادله الاستفهاميه بما الموصوله فصارت (أما).

اشاره

أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَ إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَ إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَ إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَ إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَ إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦٤)

التفسير

اشاره

أمع كل هذه الأدلة ما تزالون مشركين!؟

في آخر آيه من آيات البحث السابق، و بعد ذكر جوانب مثيره من حياه

خمسه أنبياء عظام، ألقى هذا السؤال الوجيه المتين **آلله خيرٌ أمّا يُشركون؟**! أمّا فى الآيات محل البحث فتفصّل السؤال.. و توجه للمشركين خمس آيات تبدأ بخمسه أسئلة، لتناقش المشركين و تحاكمهم، و تكشف دلائل التوحيد فى الآيات الخمس فى اثنى عشر مثلاً! فالآية الأولى من هذه الآيات تتحدث عن خلق السماوات و الأرض، و نزول الماء من السماء و البركات الناشئة عنه، فتقول: هل أن معبوداتكم أفضل أمّن خلق السموات و الأرض و أنزل لكم من السماء ماءً فأنتبنا به حداثق ذات بهجه . (١)

(٢)

«الحدائق» جمع «الحديقة»، و هى كما يقول كثير من المفسرين: البستان الذى يحيطه الجدار أو الحائط، و محفوظ من جميع الجهات، و منها سميت حدقه العين حدقه لأنها محفوظة بين الجفنين و الهدب، أمّا الراغب فيقول فى المفردات:

إنّ الحديقة تطلق فى الأصل على الأرض المجتمع فيها الماء، كما أنّ حدقه العين فيها الماء دائماً.

و يستفاد من مجموع هذين الرأيين أن الحديقة بستان له جدار و ماء كاف.

و «البهجة» على وزن (لهجه) معناها الجمال و حسن الظاهر الذى يسر الناظرين.

و يتوجه الخطاب نحو العباد فى ختام الآية فيقول: **ما كان لكم أن تُنبؤوا شجرها**.

ص: ١٠٤

١ - ١) - كلمة (ذات) فى «ذات بهجه» جاءت مفردة، مع أن حدائق جمع و هى موصوفها، و ذلك لأنّ الحدائق جمع تكسير، و جمع التكسير قد يأتى أحياناً بمعنى الجماعه، و هى - أى لفظه الجماعه - مفرد و صفتها مفردة أيضاً..

٢ - ٢) - هذه الآية فى الحقيقة فيها حذف و تقديره: ما يشركون خير أم من خلق السماوات و الأرض؟ و فى الحقيقة إن السؤال فى الآية السابقه كان هكذا: الله خير أم الشركاء؟ و هنا يبدأ السؤال بالعكس: ما يشركون خير أم من خلق السماوات و الأرض.

فأنتم تستطيعون أن تنثروا البذور و تسقوا الأرض، لكن الذى جعل الحياه فى قلب البدره، و أمر الشمس أن تشرق على الأرض، و الماء ينزل من السماء حتى تنبت البدره فتكون شجرا، هو الله فحسب.

فهذه حقائق لا يمكن إنكارها، و لا أن تنسب لغير الله...فهو الذى خلق السماوات و الأرض، و هو الذى أنزل الغيث من السماء، و هو مبدأ هذه البهجه و الحسن و الجمال فى عالم الحياه!.

إن مجرّد التأمل فى لون الزهره الجميله، و أوراقها اللطيفه المنظمه التى تشكل حلقه رائعه..كاف أن يجعل الإنسان عارفا بعظمه الخالق و قدرته و حكمته..فهذه الأمور تهز قلب الإنسان و تدعوه إلى الله.

و بتعبير آخر فإن التوحيد فى الخلق يؤدى الى «توحيد الخالق»، و التوحيد فى الربوبية «توحيد مدبر هذا العالم» باعث على «توحيد العباده»!.

و لذلك فالقرآن يقول فى نهايه الآيه: أَ إِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ و لكن هؤلاء جهله عدلوا عن الله و عبدوا ما لا ينفعهم و لا يضرهم بل هُم قَوْمٌ يَعِدُلُونَ (١).

و السؤال الثانى بحث عن موهبه استقرار الأرض و ثباتها، و أنها مقر الإنسان فى هذا العالم، فيقول: هل أن أصنامكم أفضل، أمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَ جَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَ جَعَلَ لَهَا رَوَاسِيًا (٢) كما تحافظ على القشره الارضيه من الزلازل، كما وَ جَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا و مانعا من اختلاط البحر المالح بالبحر العذب.

و هكذا فقد ورد فى هذه الآيه ذكر أربع نعم عظيمه، ثلاث منها تتحدث عن استقرار الأرض!فتقول:

إن استقرار الأرض فى الوقت الذى تتحرك بسرعه و تدور حول نفسها

ص: ١٠٧

١- ١) - قد يكون (يعدلون) من ماده (العدول) أى الانحراف و الرجوع من الحق إلى الباطل، أو أنه ماده (عدل) على وزن (قشر) و معناه المعادل و النظير..ففى الصوره الأولى مفهوم الآيه أنهم ينحرفون عن الله الواحد إلى غيره، و فى الصوره الثانيه مفهومها أنهم يجعلون له عديلا.

٢- ٢) - «الخلال» فى الأصل معناه الشق بين الشئين. و «الرواسى» جمع «راسيه»، و هى الثابته.

و حول الشمس، و تتحرك في المنظومه الشمسيه و حركه هادئه و فى وتيره واحده، إلى درجه أن سَكَّانها لا- يحسّون بحركتها أبدا...فكأنها أوتدت فى مكان واحد! و بقيت ثابتة فلا يرى فيها أقلّ حركه.

و النعمه الأخرى وجود الجبال، التى قلنا عنها سابقا أنّها تحيط بالأرض، و جذورها متصله ببعضها ببعض كالحاجر القوى الذى يقاوم الضغوط الداخليه للأرض، و حركات الجزر و المدّ الذين يحصلان بسبب جاذبيه القمر، كما أنّها تعبر مانعا امام الأعاصير و السيول من أن تدمّر الأرض بطغيانها! و النعمه الأخرى الحجاب الحاجز بين البحرين، و الحائل الطبيعى الذى يحول بين الماء المالح و الماء العذب، و هذا الحجاب-غير المرئى-هو الاختلاف فى درجه الغلظه بين الماء العذب و الماء المالح، أو كما يصطلح عليه اختلاف «الوزن النوعى» الخاص الذى يسبب عدم انحلال مياه الأنهار العظيمه العذبه التى تنصب فى البحار المالحه لمدّه طويله، و عند حاله «المدّ» تتمدد هذه المياه العذبه على السواحل الصالحه للزراعه فتسقيها(و قد بيّنا تفصيل هذا الموضوع ذيل الآيه ٥٣ من سوره الفرقان).

و فى الوقت ذاته جعل الله خلال أجزاء الأرض المختلفه أنهارا تسقى المزارع و الأحياء...فتخضّر البساتين و تثمر الأشجار و بعض مصادر هذه المياه تكمن فى قمم الجبال...و بعضها بين الطبقات الأرضيه!.

ترى هل يمكن أن يكون هذا النظام قد ولد عن طريق الصدفه العمياء الصمّاء، و المبدأ الفاقد للعقل و الحكمه؟! و هل للأصنام تأثير فى هذا النظام البديع المثير للدهشه؟! حتى عبده الأصنام لا يدعون مثل هذا الادعاء! لذلك يكرر القرآن فى ختام الآيه هذا السؤال: أَلِإِلَهٍ مَّعَ اللَّهِ؟! حاش لله بلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

السؤال الثالث من هذه الأسئلة الخمسه التى تحكى عن محاوره و محاكمه

المعنويه يتحدث عن حلّ المشكلات، وفتح الطرق الموصده، وإجابة الدعاء، إذ تقول الآية التاليه: **أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَ يُكْشِفُ السُّوءَ .**

أجل...عند ما تغلق جميع أبواب عالم الأسباب بوجه الإنسان، و يبلغ النصل إلى العظم، و يغدو مضطرا حيرانا لا حيله له، فإنّ الذى يحلّ المعضله، و يفتح الأقفال، و يزيل السدود عن الطرق، و ينثر فى القلوب نور الأمل، و يفتح أبواب الرحمة بوجه الناس المتحيرين، هو الله لا غير!.

و حيث أنّ الناس يدركون هذه الحقيقه بالفطره فى اعماق نفوسهم جميعا، فإنّ المشركين حين يقعون بين أمواج البحر المتلاطمه ينسون جميع معبوديهم و يتوجهون نحو لطف الله، كما يقول القرآن: **فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ (١)** لذلك تضيف الآية قائله: **إِنَّهُ لَا يَنْقُذُكُمْ مِنْ هَذِهِ الْمَآزِقِ وَالشَّدَائِدِ فَحَسْبُ، بَل:**

وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهَ مَعَ اللَّهِ

و لكنكم لا تتعضون بهذه الدلائل.. **قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٢)** .

و حول مفهوم المضطر، و مسأله استجابه الدعاء و شروطها، بحوث ستأتى فى نهايه هذه الآيات! و المراد من **خُلَفَاءَ الْأَرْضِ** لعله بمعنى «سكنه الأرض» و أصحابها.. لأنّ الله جعل الإنسان حاكما على هذه الأرض، مبسوط اليد فيها بما أولاه من النعم و أسباب الرفاه و الدعه و الاطمئنان!.

و لا سيما حين يقع الإنسان فى شدّه، فيغدو مضطرا و يتجه نحو خالقه الكريم-فيرفع بكرمه البلايا و الموانع-فتستحکم أسس هذه الخلافه و هنا

ص: ١٠٩

١-١) -العنكبوت، الآية ٦٥.

٢-٢) (ما) فى قوله تعالى: **قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ** زائده ظاهرا، و نعرف أن الحروف الزائده فى كثير من المواطن للتأكيد، و(قليلًا)صفه لمصدر محذوف و تقديره:تذكرون تذكرا قليلا.

تتجلى العلاقة بين شطرى الآيه.

كما قد يكون المراد بهذا المعنى، وهو أنّ الله جعل ناموس الحياه أن يخلف قوم قوما على الدوام، بحيث لو لم يكن هذا التناوب لم تغد الصوره متكامله (١)!.
و يشير القرآن فى السؤال الرابع مسأله الهدايه فيقول: هل أن الأصنام أفضل، أمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ بِوَسْطِهِ النُّجُومَ وَمَنْ يُزِيلُ الرِّيحَ بُشْرًا يَبْيَنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ!!؟.

و يشير القرآن فى السؤال الرابع مسأله الهدايه فيقول: هل أن الأصنام أفضل، أمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ بِوَسْطِهِ النُّجُومَ وَمَنْ يُزِيلُ الرِّيحَ بُشْرًا يَبْيَنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ!!؟.

فالرياح التى تدل على نزول الغيث، وكأنها رسل البشرى تتحرك قبل نزول الغيث، إنها فى الحقيقه تهدى الناس إلى الغيث أيضا.

و التعبير بـ بُشْرًا فى شأن الرياح، و التعبير بـ يَبْيَنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ فى شأن الغيث، كلاهما تعبيران طريفان لأنَّ الرياح هى التى تحمل الرطوبه فى الجو و تنقل أبخره الماء من على وجه المحيطات بشكل قطعَات من السحب على متونها، إلى النقاط اليابسه، و تخبر عن قدوم الغيث! و كذلك الغيث الذى ينشد نغمه الحياه على وجه البسيطة، و حينما نزل حلت البركه و الرحمه (٢).

(ذكرنا شرحا مفصلا فى تأثير الرياح فى نزول الغيث فى ذيل الآيه ٥٧ من سورة الأعراف).

و يخاطب القرآن فى ختام الآيه المشركين مرّه أخرى فيقول: أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَنِ يُشْرِكُونَ .

أما فى آخر آيه من الآيات محل البحث، فيشير القرآن السؤال الخامس فى

ص: ١١٠

(١-١) - فبناء على هذا المعنى يكون (خلفاء الأرض) بمعنى: خلفاء فى الأرض.

(٢-٢) - «بشر» على وزن «عشر» - كما ذكرنا آنفا - مخفف بشر على وزن «كتب»، و هى جمع «بشور» على وزن «قبول» و معناه المبشر.

شأن المبدأ و المعاد بهذه الصورة، فيقول: هل أن أصنامكم أفضل، أمَّنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ أ إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ.. فهل بعد ذلك تعتقدون بوجود معبود غير الله قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ؟! و في الواقع فإن الآيات المتقدمه كلها كانت تتكلم على المبدأ، و آيات عظمه الله في عالم الخلق و الوجود، و مواهبه و نعمه، إلا أنه في الآيه الأخيره ينتقل البحث من معبر ظريف إلى مسأله المعاد، لأن بدايه الخلق نفسها دليل على تحققها، و القدره على بدايه الخلق تعد دليلا واضحا على المعاد.

و من هنا يتضح الجواب على السؤال الذى يثيره كثير من المفسيرين، و هو أن المشركين المخاطبين بهذه الآيات أغلبهم لم يعتقدوا بالمعاد «المعاد الجسمانى» فكيف يمكن أن يوجه إليهم هذا السؤال مع هذه الحال و يطلب منهم الإقرار.

فالجواب عليه أن هذا السؤال مقرون بدليل يسوق الطرف الآخر للإقرار، لأنه باعترافهم أن بدايه الخلق من الله، و هذه المواهب و النعم كلها منه، لكي تقبل عقولهم إمكان المعاد و الرجوع الى الحياه فى يوم القيامة مره أخرى.

و المراد من (الرزق السماوى) هو الغيث و نور الشمس و أمثال ذلك، أما (الرزق الارضى) فالنباتات و المواد الغذائيه المختلفه التى تنمو على الأرض مباشره، أو عن طريق غير مباشر كالأنعام و المعادن و المواد المختلفه التى يتمتع بها الإنسان فى حياته!.

بحوث

اشاره

١- من المضطر الذى يجب إذا دعاه؟

مع أن الله -يجيب دعاء الجميع عند تحقق شروط الدعاء، إلا أن فى الآيات آنفه الذكر اهتماما بالمضطر، و ذلك لأن من شروط إجابته الدعاء أن يغمض

ص: ١١١

الإنسان عينيه عن عالم الأسباب كلياً، و أن يجعل قلبه و روحه بين يدي رحمة الله، و أن يرى كل شيء منه و له! و أن حل كل معضله بيده، و هذه النظرة و هذا الإدراك إنما يتحققان في حال الاضطرار.

و صحيح أنّ العالم هو عالم الأسباب و المسببات، و المؤمن يبذل منتهى سعيه و جهده في هذا الشأن... إلاّ أنّه لا يضيع في عالم الأسباب أبداً... و يرى كل شيء من بركات ذاته المقدسه، و يرى من وراء الحجاب ببصره النافذ «مسبب الأسباب» فيطلب منه ما شاء!.

أجل، إذا وصل الإنسان إلى هذه المرحلة، فإنه يوفرّ لنفسه أهم شرط لإجابته الدعاء.

الطريف أنّه قد ورد في بعض الروايات تفسير هذه الآية بقيام المهدي صلوات الله و سلامه عليه!

ففي روايه عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه قال: «و الله لكأني أنظر إلى القائم و قد أسند ظهره إلى الحجر ثمّ ينشد الله حقّه... قال و الله هو المضطرّ في كتاب الله في قوله: أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَ يَكْشِفُ السُّوءَ وَ يَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ» (١)!

في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام قال: «نزلت في القائم من آل محمّد عليهم السّلام هو و الله المضطرّ إذا صلى في المقام ركعتين و دعا الله عزّ و جلّ فأجابته و يكشف السوء و يجعله خليفه في الأرض» (٢).

و لا شك أن هذا التفسير - كما رأينا نظائره الكثيره - لا يحصر المراد من هذه الآية بالمهدي عليه السّلام، بل مفهوم الآية واسع، و المهدي عليه السّلام واحد من مصاديقها الجلّيه... إذ الأبواب في زمانه موصده، و الفساد عمّ البسيطة، و البشريه في طريق

ص: ١١٢

١-١) -تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٩٤.

٢-٢) -تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٩٤.

مسدود، و حاله الاضطرار ظاهره فى جميع العالم.. فعندئذ يظهر الإمام فى أقدس بقعه.. فيطلب كشف السوء، فيلبى الله دعوته، و يجعله بدايه «الظهور» المبارك فى العالم، و يستخلفه فى الأرض هو و أصحابه، فيكون مصداقا لقوله تعالى وَ يَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ

«كان لنا بحث فى شروط إجابته الدعاء و أهميته، و فى سبب عدم الإجابة، فصلناه فى ذيل الآيه (١٨٦) من سوره البقره»

٢- الاستدلال المنطقى فى كل مكان

نقرأ فى آيات القرآن-مرارا- أنه يطالب المخالفين بالدليل، و خاصه بقوله:

هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ

و قد جاء هذا النص فى أربعة مواضع البقره: الآيه ١١٥، الأنبياء: الآيه ٢٤، النمل: الآيه ٦٤، و القصص: الآيه ٧٥ كما أنه أكد فى مواضع أخرى على البرهان خاصه «و المراد من البرهان: أصدق دليل».

و هذا المنطق (المطالبه بالبرهان) للإسلام يحكى عن محتواه الغنى و القوى، لأنه يسعى لأن يواجه مخالفيه مواجهه منطقيه، فكيف يطالب الآخرين بالبرهان و هو لا يكثر به؟! آيات القرآن المجيد مملوءه بالاستدلالات المنطقيه...

و البراهين العلميه فى المسائل المتعدده!.

و هذا الأمر على خلاف ما حرفته المسيحيه اليوم-و عوّلت عليه، و ترى أن الدين هو ما يوحيه القلب!! و تفصل العقل عنه إذ تراه أجنبيا عنه... حتى أنها تؤمن بالتناقضات العقلية كالتوحيد فى التثليث، و من هنا فقد سمحت للخرافات أن تدخل فى الدين، مع أن الدين لو خلا من العقل و الاستدلال العقلى فسوف لا يقوم دليل عليه، و يكون ذلك الدين و ما يضاده سواء!.

و تبرز عظمه هذا المنهج (و هو الاهتمام بالبرهان و دعوه المخالفين إلى الاستدلال المنطقى) حين نلتفت إلى أن الإسلام ظهر فى محيط يعيش الخرافات

التي لا أساس لها و المسائل غير المنطقيه فى جميع مفاصل منظومته الفكرية و المعرفيه!!

٣- خلاصه عامه و مرور على الآيات السابقه

فى الآيات السابقه كان اهتمام القرآن منصباً لإثبات «توحيد المعبود» على «توحيد الخالق»، و«توحيد الرب» اى (توحيد الخلق و توحيد التدبير) و تحدّث عن اثنتى عشره آيه و علامه لله العظيم فى عالم الوجود:

١- السماء و الأرض.

٢- نزول الغيث.

٣- بركاته فى الحياه.

٤- قرار الأرض.

٥- الأنهار.

٦- الجبال الرواسى.

٧- الحاجز بين البحرين (العذب و المالح).

٨- إجابته دعوه العباد.

٩- هدايتهم فى ظلمات البر و البحر.

١٠- إرسال الرياح بشرا بين يدي رحمته.

١١- بدء الخلق و إعادته.

١٢- رزق الإنسان «و سائر الخلق» من السماء و الأرض.

هذه المواهب «و النعم» الاثنتا عشره بينت فى خمس آيات و ضمن خمس أسئله! و كانت تعالج الأمور الخمسه التاليه على التوالى:

١- الخلق.

٢- الاستقرار.

٣- كشف الضّر.

٤- الهدايه.

٥- إعادته الحياه (بعد الموت).

وقد عقب ذيل كل واحد من الأسئلة الخمسه، بقوله تعالى: **أَإِلَهُ مَعَ اللَّهِ؟** وقد أوضح القرآن في نهايه كل سؤال أموراً، فأشار في نهايه الآيه الأولى إلى انحراف المخالفين عن الحق.

و أشار في الآيه الثانيه إلى جهلهم.

و أشار في الآيه الثالثه إلى عدم تفكيرهم! و أشار في الآيه الرابعه إلى انحطاط أفكارهم.

و طالبهم في نهايه الآيه الخامسه بالاستدلال! و قد أبدى القرآن بشكل عام مجموعه من الأسئلة الجامعه و المنسجمه بعضها مع بعض.

ص: ١١٥

اشاره

قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥) نَبِيلٍ إِذْ أَرَكَ عَلْمُهُمْ فِي الْمَآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاءُنَا أَوْ آبَاءُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٦٨)

التفسير

لَمَّا كَانَ الْبَحْثُ فِي آخِرِ الْآيَاتِ السَّابِقَةِ عَنِ الْقِيَامَةِ وَالْبَعْثِ، فَإِنَّ الْآيَاتِ -مَحَلَّ الْبَحْثِ- تَعَالَجَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ مِنْ جَوَانِبِ شَتَّى، فَتَجِبُ أَوْلَا عَلَى السُّؤَالِ الَّذِي يَثِيرُهُ الْمَشْرُكُونَ دَائِمًا، وَهُوَ قَوْلُهُمْ: مَتَى تَقُومُ الْقِيَامَةُ؟ وَ«مَتَى هَذَا الْوَعْدُ»؟! فَتَقُولُ: قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ! لَا شَكَّ أَنَّ عِلْمَ الْغَيْبِ -وَمِنْهُ تَارِيخُ وَقُوعِ الْقِيَامَةِ- خَاصٌّ بِاللَّهِ، إِلَّا أَنَّهُ لَا مَنَافَاةَ فِي أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ بَعْضَ ذَلِكَ الْعِلْمِ عِنْدَ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، كَمَا نَقَرْنَا فِي الْآيَتَيْنِ (٢٦) وَ(٢٧) مِنْ سُورَةِ الْجِنِّ عَالِمِ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَيَّ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا

مِنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ .

و بتعبير آخر فإنّ علم الغيب بالذات، و بصورته المستقله و المطلقه غير المحدوده، خاصّ بالله سبحانه، و كل علوم الآخريين مسترفده من علمه تعالى.

و لكن مسأله تاريخ و وقوع القيامه مستثناه من هذا الأمر أيضا، و لا يعلم بها أحد «إلا الله» (١).

ثم يتكلم القرآن عن عدم علم المشركين بيوم القيامه و شكهم و جهلهم، فيقول: بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ .

«ادارك» في الأصل «تدارك» و معناه التتابع أو لحوق الآخر بالأول، فمفهوم جمله: بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ أَنَّهُمْ لَمْ يَصِلُوا إِلَى شَيْءٍ بِالرَّغْمِ مِمَّا بَدَلُوهُ مِنْ تَفْكِيرٍ، و جمعوا المعلومات في هذا الشأن، لذلك فإنّ القرآن يضيف مباشره بعد هذه الجملة بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ . لأنّ دلائل الآخره ظاهره في هذه الدنيا، فعوده الأرض الميتة إلى الحياه في فصل الربيع، و إزهار الأشجار و إثمارها مع أنّها كانت في فصل الشتاء جرداء!... و مشاهدته عظمه قدره الخالق في مجموعه الخلق و الوجود، كلها دلائل على إمكان الحياه بعد الموت، إلا أنّهم كالعَمَى الذين لا يبصرون كل شيء! و بالطبع فإنّ هناك تفاسير آخر للجملة أعلاه، منها أنّ المراد من ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ أن أسباب التوصل للعلم في شأن الآخره متوافره و متتابعه، إلا أنّهم عمى عنها.

و قال بعضهم: إنّ المراد منها أنّهم عند ما تكشف الحجب في يوم الآخره، فإنّهم سيعرفون حقائق الآخره بشكل كاف.

ص: ١١٧

(١ - ١) - كان لنا بحوث مفصله في علم الغيب في الأجزاء السابقه في هذا التفسير.

إلا- أن الأنسب من بين هذه التفاسير الثلاثة هو التفسير الأول حيث يناسب بقيه الجمل في الآيه، و البحوث الواردة في الآيات الأخرى!

و هكذا فقد ذكرت ثلاث مراحل لجهل المنكرين (للاخره).

الأولى: أن إنكارهم و إشكالهم هو لأنهم يجهلون خصوصيات الآخره «و حيث أنهم لم يروها فهم يظنون الحقيقه خيالا».

الثانيه: أنهم فى شك من الآخره أساسا، و سؤالهم عن زمان تحققها ناشئ من أنهم فى شك منها!.

الثالثه: أن جهلهم و شكهم ليس منشؤهما أنهم لا يملكون دليلا أو دلائل كافيه على الآخره، بل الأدله متوفره إلا أن أعينهم عمى عنها! و الآيه التاليه: توجز منطق منكرى القيامة و البعث فى جملة واحده، فتقول:

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاءُنَا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ

؟! فهم مقتنعون بهذا المقدار، أن هذه المسأله بعيده (أن يتحول الإنسان إلى تراب ثم يعود إلى الحياه)! مع أنهم كانوا أول الأمر ترابا و خلقوا من التراب، فما يمنع أن يعودوا إلى التراب، ثم يرجعون أحياء بعد أن كانوا ترابا! الطريف أننا نواجه مثل هذا الاستبعاد فى ثمانية مواضع من القرآن، فهم يشكون فى مسأله القيامة فى المواضع آنفه الذكر بمجرد استبعاد عودتهم إلى الحياه من «التراب» ثانيه!.

ثم يحكى القرآن عما يضيفه المشركون من قول: لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ و لكن لم نجد أثرا لهذا الوعد و لن يوجد إن هذا إلا أساطير الأولين .

فما هى سوى خرافات و خزعبلات القدماء.

فبناء على هذا فإنهم يبدأون من الاستبعاد ثم يجعلونه أساسا للإنكار المطلق... فكأنهم كانوا ينتظرون أن تتحقق القيامة عاجلا، و حيث أنهم لم يشهدوا

ذلك فى حياتهم فهم ينكرونه.

و على كل حال، فهذه التعبيرات جميعها تدل على غفلتهم و غرورهم!

و يستفاد-ضمننا من هذا التعبير-أنهم أرادوا أن يسخروا من كلام النبى فى شأن يوم القيامة، و يطعنوا عليه، فيقولوا: إن هذه الوعود الباطله سبقت لأسلافنا، فلا جديد فيها يستحق بذل التفكير و المراجعة!.

ص: ١١٩

إشاره

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩) وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٧١) قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) وَإِنَّ رَبَّكَ لَعَدُوٌّ فَضْلًا عَلَى النَّاسِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٧٥)

التفسير

إشاره

لا يضيق صدرك بمؤامراتهم:

كان الكلام في الآيات السابقة عن إنكار المعاندين الكفار للمعاد، و استهزائهم و تكذيبهم باليوم الآخر.

و لما كان البحث المنطقي غير مجد لهؤلاء القوم المعاندين و الأعداء الألداء، بالإضافة إلى ما أقامته الآيات الأخر من الدلائل الوافره على المعاد مما يرى كل يوم في عالم النباتات و في عالم الأجنه، و ما إلى ذلك، فإن الآيات محل البحث

بدلاً من أن تأتيهم بدليل، هددتهم بعذاب الله الذي شمل من سبقهم من الكفار، و أنذرتهم بعقابه المخزى... فوجهت الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم قائله: قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ .

فأنتم تعترفون أن هذه الوعود تلقاها أسلافكم، فلم يكثرثوا بها، ولم يروا ضرراً.. فهلاً سرتم في الأرض قليلاً، لتشهدوا آثار هؤلاء المجرمين المنكرين للتوحيد والمعاد، وخاصة الآثار في المناطق القريه من الحجاز... لتنظروا أن الأمر ليس كما تزعمون.

و لكن سيحين موعدكم فلا تعجلوا... فأنتم كأولئك ستواجهون المصير المحتوم و العاقبه المخزيه إذا لم تصلحوا أنفسكم!.

و القرآن دعا مرارا إلى السير في الأرض، و مشاهده آثار الماضين، و المدن الخاويه الخربه التي حاق بأهلها سوء العذاب، و قصور الظالمين المتداعيه، و القبور الدارسه و العظام النخره، و الأموال التي خلفها أصحابها المغرورون!! إن مطالعه تلك الآثار التي تعبّر عن التاريخ الحيّ لأولئك الماضين، توقظ القلوب الغافله! و تبصّرها بالحق... و الواقع كذلك، فإن مشاهده واحد من هذه الآثار يترك في القلب أثرا لا تتركه مطالعه عدّه كتب تاريخيه!.

(كان لنا بحث مفصل في هذا المجال ذيل الآيه ١٣٧ من سوره آل عمران).

مما ينبغي ملاحظته أنه جاء في هذه الآيه التعبير ب«المجرمين» بدلا من «المكذبين»... و هو إشاره إلى أن تكذيبهم لم يكن لأنهم أخطأوا في التحقيق، بل أساسه العناد و اللجاجه. و تلوّثهم بأنواع الجرائم! و حيث أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان يشفق عليهم لأنكارهم، و يحزن لعنادهم، و يحترق قلبه من أجلهم، إذ كان حريصا على هدايتهم، و كان يواجه مؤامراتهم أيضا.. فإن الآيه التاليه تسرى عن قلب النبي فتقول له: وَ لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ لَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ .

إلا- أن هؤلاء المنكرين المعاندين، بدلا من أن يأخذوا إنذار النبي المشفق عليهم مأخذ الجد فيتعضوا بوعظه و يستر شدوا بنصحه، أخذوا يسخرون منه و يَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ .

و مع أن المخاطب هو النبي صلى الله عليه و آله و سلم، إلا- أن الموضوع ذكر بصيغه الجمع «إن كنتم صادقين» لأن المؤمنين الصادقين كانوا قد ضموا صوتهم إلى صوت النبي صلى الله عليه و آله و سلم أيضا... فهم مخاطبون بما خوطب به كذلك! و هنا يرد القرآن على استهزائهم و سخريتهم بلهجه موضوعيه، فيقول مخاطبا نبيه: قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ .

فعلام تستعجلون؟! و علام تستصغرون عقاب الله؟! أ فلا- ترحمون أنفسكم؟! ترى، هل عذاب الله ضرب من الهزل أو المزاح؟ فعسى أن يأخذكم الله بعذابه لكلامكم هذا فيهلككم... فلم هذا العناد و اللجاجه؟! «ردف» فعل مشتق من (ردف) على وزن (حرف) و معناه كون الشيء خلف الشيء الآخر، و لذا يطلق على من يركب الفرس خلف صاحبه (رديف) كما يطلق الرديف على الأشخاص أو الأشياء التي تقف صفا واحدا بعضها خلف بعض.

و هناك كلام عن المراد من العذاب الذي كانوا يستعجلون به، فقيل: هو ما أصابهم يوم بدر من هزيمه كبرى، إذ صرع من عتاتهم سبعون رجلا و أسر سبعون رجلا!.

كما و يحتمل أن المراد منه العقاب العام الذي دفع أخيرا، ببركه وجود النبي إذ كان رحمه للعالمين، و الآية (٣٣) من سورة الأنفال شاهده عليه و مَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ .

و التعبير ب«عسى» لعله على لسان النبي صلى الله عليه و آله و سلم. و حتى لو كان من قبل الله سبحانه- فعلى خلاف ما يتصوره بعضهم، فإنه ليس فيه أى إشكال... إذ هو إشاره إلى وجود مقدمات الشيء و مقتضياته، مع إمكان أن تقترن هذه المقدمات

بالمانع، فلا تصل إلى النتيجة النهائية (فلاحظوا بدقه)!

ثم يتحدث القرآن في الآيه التاليه عن هذه الحقيقه: و هي أنّ الله إذا لم يعجل في عقابكم، فذلك بفضلته و برحمته، حيث يمهل عباده الإمهال الكافي لإصلاح أنفسهم، فيقول: **وَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ** .

و إذا كانوا يتصورون أن تأخير العقاب لعدم علم الله سبحانه لما يدور في خلدهم من نيات سيئه و أفكار ضاله، فهم في غايه الخطأ: **وَ إِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَ مَا يُعْلِنُونَ (١)** .

فهو يعلم خفاياهم بمقدار ما يعلم من ظاهرهم و ما يعلنون، و الغيب و الشهاده عنده سيان.

فهذه المفاهيم هي من نتاج علمنا المحدود، و إلا فهي في مقابل غير المحدود تفقد معانيها و تتلاشى حدودها.

و هنا ذكر «علم الله بما تكنّ القلوب» مقدما على علمه بالأفعال الخارجيه، و لعل ذلك هو بسبب أهميه النيات و الإراده! كما يمكن أن يكون التقديم لأنّ الأفعال الخارجيه ناشئه عن النيات الداخليه، و العلم بالعله مقدم على العلم بالمعلول!

ثم يضيف القرآن قائلا: إنه ليس علم الله منحصرا بما تكنّ القلوب و ما تعلن، بل علمه واسع مطلق! **وَ مَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٢)** .

و واضح أن «الغائبه» لها معنى واسع، فهي تحمل في مفهومها كل ما خفى عن حسيّنا و غاب... و تشمل أعمال العباد الخفيه و النيات الباطنيه، و أسرار

ص: ١٢٣

١- ١) - «تكنّ» مأخوذ من كنّ على وزن جنّ، و هذا الفعل يطلق على ما تستر فيه الأشياء و تحفظ، و هنا كناية عن ما يخطر في قلوب الكفّار من خواطر و أفكار عدوانيه!..

٢- ٢) - «الغائبه» اسم فاعل مشتق يدل على الوصف، و كما يعتقد بعضهم «التاء» ليست في هذه الكلمه للتأنيث، بل هي إشاره للأشياء المخفيه، فهي للمبالغه في الخفاء... إلا أنّه لا مانع من أن نحتمل أن التاء للتأنيث، و أن موصوفها محذوف، و تقديره: و ما من خصله غائبه. أو أشياء غائبه، و الله العالم..

السموات و الأرض و قيام الناس للحساب يوم القيامة، زمان نزول العذاب، و أمثال ذلك. و لا دليل على أن نفسير «الغائبه» هنا بواحد من هذه الأمور المذكوره آنفا- كما ذهب إليه بعض المفسرين-.

و المراد ب«الكتاب المبين» هو اللوح المحفوظ، و علم الله الذى لا نهايه له، و قد بحثنا هذا الموضوع فى ذيل الآيه (٥٩) من سوره الأنعام.

ملاحظات

التحقيق فى الآيات المتقدمه يدل على أن منكرى المعاد من أجل أن يتنصّلوا من عبء الإيمان بالقيامة و المسؤوليات الناشئه عنه، كانوا يتوسلون بثلاثه طرق:

١- استبعاد العوده للحياه بعد أن يغدو الإنسان ترابا، لا اعتقادهم أنّ التراب لا يمكن أن يكون أساسا للحياه! ٢- قدم هذه العقيدته و عدم الجده فيها.

٣- عدم نزول العذاب على منكرى المعاد... لأنه لو كان حقًا أن يبئلى المنكرون بالعذاب فلم لا ينزل عليهم! و قد ترك القرآن الجواب على الإشكاليين الأوّل و الثانى، لأننا نرى بأمر أعيننا أنّ التراب مصدر الحياه و أساسها، و كنا فى البدايه ترابا ثم صرنا أحياء! و كون الشىء قديما لا ينقص من أهميته أيضا... لأنّ قوانين هذا العالم الأصيله ثابتته و مستقره من الأزل حتى الأبد... و فى الأصول الفلسفيه و المسائل الرياضيه و العلوم الأخر أصول كثيره ثابتته... فهل كون امتناع اجتماع النقيضين قديما، أو جدول ضرب فيثاغورس قديما، دليلا- على ضعفه؟! أو إذا رأينا العدل حسنا و الظلم سيئا منذ القدم، و لا- يزال كذلك، فهل هو دليل على بطلانه... فكثيرا

ما يتفق أن القدم دليل على الأصالة.

و أما فى شأن الإشكال الثالث، فيجيب القرآن: ألا تعجلوا.. فعدم نزول العذاب من لطف الله، فهو يمهلكم و لا يعذبكم عاجلا، لكن إذا جاء عذابه فلا مفز منه.

ص: ١٢٥

إشاره

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُضُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَىٰ اللَّهِ إِنَّكَ عَلَىٰ الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩) إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠) وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٨١)

التفسير

إشاره

عمى القلوب لا يقبلون دعوتك!

كان الكلام فى الآيات السابقة عن المبدأ و المعاد... أمّا فى الآيات-محل البحث- فيقع الكلام على مسألة النبوه، و حقائقه القرآن، ليكتمل بهما هذا البحث!.

و من جهه أخرى فقد كان الكلام فى الآيات السابقة عن علم الله الواسع غير المحدود، و فى الآيات محل البحث مزيد تفصيل فى هذا الشأن.

أضف إلى ذلك أنّ الخطاب كان فيما سبق من الآيات موجهًا للمشركين، و هنا يوجه الخطاب نحو الكفار الآخرين كاليهود و اختلافاتهم!.

فتقول الآيات أولاً: إِنَّ لِهَذَا الْقُرْآنِ يُقْضَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

لقد اختلف بنو إسرائيل فيما بينهم في مسائل كثيرة! فقد اختلفوا في شأن مريم و عيسى عليهما السلام. و في شأن النبي الذي بشرت به «التوراه» من هو؟ كما أنهم اختلفوا في ما بينهم في كثير من المسائل الدينيه و الأحكام الشرعيه... فجاء القرآن موضحا هذه الأمور بجلاء، و قال: إن المسيح عليه السلام عرف نفسه بصراحه ف قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا (١) .

و قال أيضا: إِنَّ الْمَسِيحَ وَلَدَ مِنْ دُونِ أَبِي، و ليس أمره محالا و إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ (٢) .

و أما النبي الذي بشرت به التوراه فتطبق أوصافه على نبي الإسلام محمد صلى الله عليه و آله و سلم، و لا تنطبق على أحد سواه!

و على كل حال فإن واحده من مهام القرآن هي مواجهه الاختلافات المتولده من اختلاط الخرافات و حقائق التعليمات التي جاء بها الأنبياء... و كل نبي مسئول أن يحسم الاختلافات الناشئه من التحريف و الخلط بين الحق و الباطل... و حيث أن هذا العبء لا يمكن أن ينهض به رجل أُمى لم يسبق له أن يقرأ، و في محيط جاهلي، فيتضح أنه مرسل من قبل الله! و لما كانت مواجهه الاختلافات و الوقوف بوجهها مدعا للهدى و الرحمه، فإن الآيه التاليه تشير إلى هذا «الأصل الكلي» و تقول: وَ إِنَّهُ لَهْدَىٰ وَ رَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ .

أجل، إنه هدى و رحمه من حيث حسم الخلافات و مبارزه الخرافات، هدى و رحمه لأن دليل حقانيته كامن في عظمه محتواه!

ص: ١٢٧

١-١) -سوره مريم، الآيه ٣٠.

٢-٢) -آل عمران، الآيه ٥٩.

هدى و رحمه لأنه يهدى إلى سبيل الحق و يدل عليه!

و ذكر «المؤمنين» هنا خاصه.. هو لما ذكرناه آنفا من أنه ما لم تتوفر مرحله من الإيمان فى الإنسان، و هى مرحله الاستعداد لقبول الحق و التسليم لله، فإنه لا يستطيع الاستفادة من هذا المصدر الإلهى الفياض.

و حيث أن جماعه من بنى إسرائيل وقفت بوجه القرآن و الحقائق الواردة فيه، لأوامر الله، فإن الآيه التالىة تقول فى شأنهم: إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ .

و بالرغم من أن هذه الآيه لم تصرح بأن قضاء الله بينهم سيكون يوم القيامة...

إلا- أنه بقريه آيتين أخريين تتحدثان عن اختلافات بنى إسرائيل، و أن الله يقضى بينهم يوم القيامة، يتضح أن مراد الآيه محل البحث هو هذا المعنى ذاته.

ففى الآيه (١٧) من سوره الجاثية يقول سبحانه: إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

كما ورد فى ذيل الآيه (٩٣) من سوره يونس، هذا النص المتقدم نفسه.

و وصف الله «بالعزیز» و «العلیم» إشاره إلى ما ينبغى توفره فى القاضى من هاتين الصفتين، «العلم» بصوره كافيه و «القدره» على إجراء الحكم، و الله سبحانه أعلم من الجميع و أعزهم.

و هذا الكلام إضافه إلى أنه يبين عظمه القرآن، و هو تهديد لبنى إسرائيل، فهو فى الوقت ذاته تسليه عن قلب النبى و تسريه عنه، لذا فالآيه التالىة تقول: فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ .

توكل على الله العزيز الذى لا- يغلب، و العليم بكل شىء.. توكل على الله الذى أنزل القرآن على عظمته فاجعله عندك، فتوكل عليه و لا تفلت من المشركين و المعاندين، لأنه يركاك و إنك على الحق المبين .

و هنا ينقدح هذا السؤال، و هو: إذا كان القرآن حقاً مبيناً فلما ذا خالفوه؟

فالأيات التالية تجيب على هذا السؤال، فتقول: إذا كان أولئك لا يدعون للحق المبين، و لا يؤثر في قلوبهم هذا الكلام المتين، فلا مجال للعجب.. لَ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى (١).

بل تسمع الأحياء الذين يبحثون عن الحق و أرواحهم تواقه إليه، أمّا إحياء الموتى -أو موتى الأحياء- لتعصبهم و عنادهم و استمرارهم على الذنب، فلا- ترهق فكرك و نفسك من أجلهم و حتى لو كانوا أحياء فإنهم صمّ لا- يسمعون فلا يمكنهم أن يسمعوا صوتك، و خاصة إذا أداروا إليك ظهورهم و ابتعدوا عنك و لَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وُلُّوا مُدْبِرِينَ .

و لعلمهم لو كانوا عندك و كنت تصرخ فيهم لبلغت بعض أمواج صوتك إلى مسامعهم، إلا أنّهم مع صممهم يبتعدون عنك.

كما أنّهم لو كانوا مع هذه الحال يبصرون بأعينهم لاهتدوا إلى الصراط المستقيم، و لو ببعض العلامات، إلا أنّهم عمى و مَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ .

و هكذا فقد أوصدت جميع طرق إدراك الحقيقة بوجوههم، فقلوبهم ميتة، و آذانهم صمّ موقره، و أعينهم عمى! فأنت يا رسول الله إِنْ تُسْمِعِ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ و يشعرون في أنفسهم بالإذعان للحق.

و في الحقيقة إن الآيتين -آنفى الذكر- تتحدثان عن مجموعه واضح من عوامل المعرفة و ارتباط الإنسان بالعالم الخارجى و هى:

«حس التشخيص»، و العقل اليقظ، فى مقابل القلب الميت.

«الأذن الصاغية» لاكتساب الكلام الحق، عن طريق السمع.

ص: ١٢٩

١- ١) -قال جماعه من المفسرين: إن هذه الجملة و الجمل الأخر التى تليها بمثابة الدليل على لزوم توكل النبى على الله و عدم يأسه... مع أن الظاهر أنّها جواب على سؤال يثار فى شأن القرآن و كونه هو «الحق المبين».

«و العين الباصره» لرؤيه وجه الحق و وجه الباطل، عن طريق البصر.

إلا أن العناد و اللجاجه و التقليد الأعمى و الذنب... كلها تعمى العين التى بها يرى الإنسان الحقيقه، و توفر سمعه، و تمت قلبه.

و مثل هؤلاء المعاندين المذنبين، لو جاء جميع الأنبياء و الأولياء و الملائكه لهدايتهم، لما أثروا فيهم شيئاً، لأنّ ارتباطهم بالعالم الخارجى مقطوع، و هم غارقون فى «مستنقع ذواتهم» فحسب!.

و نظير هذا التعبير ورد فى سوره البقره و سوره الروم و سور آخر من القرآن (و كان لنا بحث آخر فى نعمه «و سائل المعرفه» فى تفسير سوره النحل ذيل الآيه ٧٨.

و مرّه أخرى نذكر بهذه اللطيفه و هى أنّ المراد من الإيمان و التسليم ليس معناه أنّهم قبلوا حقائق الدين من قبل، فيكون من باب تحصيل الحاصل، بل الهدف من ذلك أن الإنسان إذا لم يكن فيه شوق للحق و خضوع لأمر الله، فإنه لا يصغى إلى كلام النبى أبداً.

بحثان

اشاره

١- أسباب التوكل

«التوكل» مأخوذ من «الوكاله»، و هو فى منطق القرآن يعنى الاعتماد على الله و جعله ولياً و كيلاً، و عدم القلق و الخوف من كثره المشاكل و الموانع و عظم حجمها، بسبب التوكل على الله! و هذا الأمر واحد من دلائل الإيمان المهمّه و مدعاه للنصر و التوفيق!.

و الطريف أنّ الآيات المتقدمه عدّت التوكل فى شيئين:

أحدهما: القدره و العلم لمن يتوكل عليه الإنسان.

و الآخر: وضح الطريق الذى اختاره الإنسان!.

و فى الحقيقه فإنّ القرآن يقول: لا- مدعاه للضعف و الخوف و الوحشه، فأنت تعوّل على الله العزيز الذى لا يقهر، و العليم الخبير بكل شىء هذا من جهه.. ثمّ إنّك على الطريق الواضح و الحق اللائح من جهه أخرى.. فالمدافع عن الحق المبين علام يخاف؟! و إذا ما رأيت جماعه خالفتك فلا تحزن أبدا... فهى لا تملك عيوننا باصره، و لا آذاننا صاغيه، و لا قلوبنا حيّه!... و هى خارجه أساسا عن طريق الهدايه و التبليغ... و إنّما يلتفّ حولك طلاب الحق و عشاق الله، و العطاشى إلى العدل حيث يخفون نحو منبع القرآن الزلال، ليرتووا من نيره العذب.

٢- الموت و الحياه فى منطق القرآن!

هناك كثير من الألفاظ لها مداليل و معان شتى بحسب النظرات المختلفه، و من هذه الألفاظ، لفظا الحياه و الموت. «فالحياه» بالنظره الماديه تعنى الحياه الطبيعه «الفيزيائيه» فحسب، أى متى كان القلب ينبض، و الدم يجرى فى العروق إلى أعضاء الجسم كافه، و كانت الحركه و عمليه الجذب و الدفع فى البدن، كان البدن حيا.. أمّا إذا سكنت هذه الحركه، فتدلل على «الموت» القطعى الذى يعرف بالاختبار الدقيق خلال عدّه لحظات!.

إلا- أنّ النظره القرآنيه تختلف عن النظره الماديه، فكثير من الناس يعدون أحياء بحسب النظره الماديه- إلا أنّهم أموات بحسب النظره القرآنيه.. كأولئك الذين أشارت إليهم الآيات المتقدمه.. و على العكس منهم الشهداء، فهم بحسب الظاهر أموات، لكنهم بالمنطق القرآنى أحياء خالدون! و السبب فى هذا الاختلاف بين النظرتين، هو أنّ الإسلام بالإضافه إلى أنّه يعدّ معيار الحياه الإنسانيه و شخصيه الإنسان فى القيم الروحانيه، فهو يرى فى

إيصال النفع الى الآخرين و عدمه معيار الوجود الحياه و عدمها فى الإنسان.

فالإنسان الذى يرى بحسب الظاهر حيًا، إلا أنه غارق فى الشهوات، فلا يسمع صرخه لمظلوم، و لا صوتا لمنادى الحق، و لا ينظر بعين بصيره فى آثار الله فى خلقه، و لا يفكر و لو لحظه واحده فى مستقبله و ماضيه.. فمثل هذا الإنسان ميت فى منطق القرآن. أما الذين ما تزال آثارهم تملأ الدنيا بعد موتهم، و أفكارهم أسوه و قدوه للآخرين، فهؤلاء أحياء خالدون (١).

و بغض النظر عن هذه الأمور كلها.. فالإسلام-حسب ما لدينا من المدارك- يؤمن بالحياه البرزخيه للناس.. و العجب أن بعض الوهابيين الجهله يصرون على نفى أى نوع من أنواع الحياه و العلم بعد الوفاة، حتى للنبي صلى الله عليه و آله و سلم و يمنعون التوسل به، لأنه بزعمهم ميت و لا أثر للميت، و الأعجب من ذلك أنهم يستندون إلى الآيات-محل البحث- لتأييد دعواهم!! فى حين أن بعضهم الآخر يصرح على أن للنبي نوعا من الحياه البرزخيه، حياه أشرف من حياه الشهداء المصرح بها فى القرآن، و قال: إنه يسمع سلام المسلم عليه (٢).

و الروايات فى هذا الشأن كثيره و افره عن الفريقين الشيعه و السنه، أن النبي صلى الله عليه و آله و سلم و الأئمه المعصومين يسمعون من يسلم عليهم من بعيد أو قريب، و يردون عليه سلامهم، كما أن أعمال الأئمه تعرض عليهم (٣).

و نقرأ فى حديث ورد فى صحيح البخارى فى قصه معركة بدر أن النبي صلى الله عليه و آله مع بعض أصحابه وقف على «القلب» و قد ألقيت فيه أجساد قتلى المشركين، فناداهم بأسمائهم، و

قال: هلا أطمعتم الله و رسوله، لقد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا،

ص: ١٣٢

١- ١) - كان لنا بحث مفصل «فى الموت و الحياه الروحانيين» فى ذيل الآيه (٢٤) من سوره الأنفال.

٢- ٢) - الرساله الثانيه من الهديه السنيه لمحمد بن عبد الوهاب، ص ٤١.

٣- ٣) - لمزيد من الإيضاح يراجع كتاب كشف الارتياح ص ١٠٩ للسيد محسن الأمين العاملى.

فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا..فقال عمر:يا رسول الله،تكلم أجسادا لا روح فيها...فقال صلى الله عليه وآله:«و الذى نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم» (١).

و نقرأ فى قصه الجمل عن الأصبع بن نباته،أنه لما انهزم أصحاب الجمل ركب على عليه السلام بغله رسول الله الشهباء و سار فى القتلى يستعرضهم فمرّ ب«كعب بن سور»قاضى البصره و هو قتيل،فقال:أجلسوه،فأجلس.فقال:و يلمك يا كعب بن سور،لقد كان لك علم لو نفعك..و لكن الشيطان أضلك فأزلك فعجلك إلى النار (٢).

و نقرأ فى نهج البلاغه-أيضا-أنه عليه السلام بعد رجوعه من صفين بلغ مقبره كانت خلف سور الكوفه،فخاطب الموتى فقال كلاما فى قلب الدنيا ثم

قال: «هذا ما عندنا فما خبر ما عندكم ثم أضاف عليه السلام أما لو أذن لهم فى الكلام لأخبروكم أن خير الزاد التقوى» (٣).

و هذا بنفسه دليل على أنهم يسمعون إلا أنهم لا يسمح لهم بالرد..و لو أذن لهم لأجابوا!!

فجميع هذه التعبيرات«إشاره»إلى حياه الإنسان البرزخيه.

ص: ١٣٣

١-١) -صحيح البخارى،ج ٥،ص ٩٧،باب قتل أبى جهل.

٢-٢) -شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد،ج ١،ص ٢٤٨.

٣-٣) -نهج البلاغه-الكلمات القصار رقم ١٣٠.

إشاره

وَ إِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (٨٢) وَ يَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَ قَالَا أَمْ كَذَبْتُمْ بِآيَاتِنَا وَ لَمْ تُحِطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ ذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤) وَ وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ (٨٥)

التفسير

لَمَّا كَانَتِ الْآيَةُ السَّابِقَةُ تَتَحَدَّثُ عَنْ اسْتِعْجَالِ الْكُفَّارِ بِالْعَذَابِ وَ نَزْوِلِهِ، أَوْ تَحَقُّقِ الْقِيَامَةِ وَ انْتِظَارِهِمْ بِفَارِغِ الصَّبْرِ وَ وَقُوعِ ذَلِكَ، وَ كَانُوا يَقُولُونَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ: مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. وَ مَتَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ إِنْ الْآيَاتِ -مَحَلِّ الْبَحْثِ- تُشِيرُ إِلَىٰ بَعْضِ الْحَوَادِثِ الَّتِي تَقَعُ بَيْنَ يَدَيِ الْقِيَامَةِ، وَ تَجَسَّدَ عَاقِبَةُ الْمُنْكَرِينَ الْوَحِيمَةِ، فَتَقُولُ: وَ إِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ.

وَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ هُوَ صُدُورُ أَمْرِ اللَّهِ وَ مَا وَعَدَهُمْ مِنَ الْعِقَابِ وَ الْجَزَاءِ.. أَوْ وَقُوعِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَ حُضُورِ عِلَائِمِهَا، الْعَلَائِمِ الَّتِي يَخْضَعُ لَهَا كُلُّ مَنْ يَرَاهَا، وَ يَسْتَسَلِمُ لِأَمْرِ اللَّهِ، وَ يَحْصُلُ عِنْدَهُ الْيَقِينُ بِأَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ، وَ أَنَّ

القيامة قد اقتربت...و حينئذ توصل أبواب التوبة...لأنّ الإيمان في مثل هذه الظروف يقع اضطرارا.

و بالطبع فإنّ هذين المعنيين متلازمان لأنّ اقتراب القيامة يقترن بنزول العذاب و مجازاه الكافرين.

و لكن ما هي «دابه الأرض»؟ و ما مصداقها؟ و أية مهمّة تحملها؟..فالقرآن يجمل و لا يفصل، و كأنّه يريد أن يترك الموضوع مجملا غامضا، ليكون الكلام فيه أكثر تأثيرا و باعنا على التهويل.

فيقول مختصرا: يخرج الله موجودا يتحرك «أو دابه من الأرض» بين يدي القيامة، فيتكلم مع الناس و يقول: «إنّ الناس كانوا لا يؤمنون بآيات الله».

و بتعبير آخر: إنّ مهمّة هذه الدابه هي تفريق الصفوف و تمييز المنافقين و المنكرين من المؤمنين.

و بديهي أن المنكرين يرجعون إلى أنفسهم عند مشاهد هذه الآيات، و يندمون على ما سلف منهم و على أيّامهم المظلمه، و لكن ما عسى أن ينفعهم الندم و أبواب التوبة موصده؟! و هناك مسائل كثيرة و مطالب و فيره في خصوصيات «دابه الأرض» و جزئياتها و صفاتها في الروايات الإسلاميه الوارده في كتب الفريقين، الشيعة و أهل السنه، و سنتعرض إليها ذيل هذه الآيات في باب البحوث إن شاء الله.

ثمّ تشير الآيات إلى علامه أخرى من علامات القيامة، فتقول: وَ يَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ .

«و الحشر» معناه إخراج جماعه ما من مقرّها و السير بها نحو ميدان الحرب أو غيره! و «الفوج»، كما يقول الراغب في المفردات: الجماعه التي تتحرك بسرعه.

و أمّا «يوزعون» فمعناه حبس الجماعه و إيقافها حتى يلحق الآخر منها بالأوّل.. و هذا التعبير يطلق -عاده- على الجماعات الكثيره، نظير ما قرأنا في

شأن جنود سليمان في هذه السوره ذاتها.

فبناء على هذا يستفاد من مجموع الآيه أن يوما سوف سيأتي يحشر الله فيه من كل أمه جماعه، ويهيئهم للحساب و الجزاء على أعمالهم!.

و الكثير من الأعظم يعتقدون بأن هذه الآيه تشير إلى مسأله الرجعه و عوده جماعه من الصالحين و جماعه من الطالحين إلى هذه الدنيا قبيل يوم القيامه.. لأنّ التعبير لو كان عن القيامه لم يكن قوله «نحشر من كل أمه فوجا» صحيحا.. إذ في القيامه يكون الحشر عاما للجميع، كما جاء في الآيه (٤٧) من سوره الكهف قوله تعالى: وَ حَشَرْنَاَهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا .

و الشاهد الآخر على أنّ الآيات هذه تتحدث عمّا يقع قبيل القيامه، هو أنّ الآيات التي قبلها كانت تتحدث عن الحوادث التي تقع قبل القيامه، و الآيات التي تلى الآيات محل البحث تتحدث عن الحوادث التي تقع قبيل القيامه أيضا... فمن البعيد أن تتحدث الآيات السابقه و اللاحقه عن ما يقع قبل القيامه، و هذه الآيات محل البحث-فقط- تتحدث عن ما يقع في يوم القيامه.

و هناك روايات كثيره في هذا الصدد عن مسأله الرجعه سنتناولها في البحوث القادمه إن شاء الله، إلا أن المفسرين من أهل السنه يعتقدون أن الآيه ناظره إلى يوم القيامه، و قالوا: إنّ المراد بالفوج هو إشاره إلى رؤساء الجماعات و أئمتهم! و أما عدم الانسجام بين الآيات الذي يحدثه هذا التفسير، فقالوا: إنّ الآيات بحكم التأخير و التقديم، فكان الآيه (٨٣) حقها أن تقع بعد الآيه (٨٥).

إلا أننا نعلم أن تفسير الفوج بالمعنى الآنف الذكر خلاف الظاهر، و كذلك عدم انسجام الآيات بأنّها في حكم التأخير و التقديم هو خلاف الظاهر أيضا.

حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَ كَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَ لَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ دَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

(١)

ص: ١٣٦

١- ١) -جملة (أما إذا كنتم تعملون) جملة استفهامية و (أما) مركبه من (أم) التي هي حرف عطف و تأتي بعد همزه

و قائل هذا الكلام هو الله سبحانه، والمراد من «الآيات» هي المعجزات التي يأتي بها الأنبياء، أو أوامر الله، أو الجميع!

و المراد من جمله وَ لَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا هو أنكم بدون أن تتحققوا و تطلعوا على حقيقته الأمر، كذبتهم الآيات، و هذا منتهى الجهل و عدم المعرفة أن ينكر الإنسان شيئاً دون أن يتحقق منه!

و فى الحقيقة فإنهم يسألون عن شيئين.

الأول: تكذيبهم دون أن يفحصوا عن الحق.

و الآخر: عن أعمالهم التي كانوا يقومون بها.

و إذا كانت الآية-آنفه الذكر-تحدث عن القيامة، فمفهومها واضح. و أمّا إذا كانت تشير إلى مسأله الرجعه-كما يقتضيه انسجام الآيات-فهى إشاره إلى أنه عند ما يرجع إلى هذه الدنيا طائفه من المجرمين...فولى الأمر الذى يمثل الله، و هو خليفته فى الأرض، يتحقق منهم و يسألهم عما فعلوه فى حياتهم، ثم يجازيهم حسب ما يستحقون من الجزاء الدنيوى، و لا يمنع هذا من عذاب الآخرة، كما أن كثيرا من المجرمين ينالون الحد الشرعى فى هذه الدنيا، و يستوفون جزاءهم، فإذا لم يتوبوا فإن ما يستحقون من العقاب ينتظرهم فى الآخرة.

و بديهى أن هؤلاء المجرمين لا يستطيعون الإجابة على أى من هذين السؤالين، لذلك فإن الآية الأخيره من الآيات محل البحث تضيف قائله: وَ وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ .

و هذا القول أو العذاب دنيوى، إذا فسّرنا الآية بالرجعه، أو هو عذاب الآخرة إذا فسّرنا الآية بيوم القيامة.

(١)

الاستفهام عاده، و تسمى بالمعادله، و(ما) الاستفهاميه. و معنى الآية: أو أى شىء كنتم تعملون.

ص: ١٣٧

١- ما هي دابة الأرض!؟

«الدَّابَّة» معناها ما يدب و يتحرك، و«الأرض» معناها واضح.. و خلافا لما يتصوَّره بعضهم بأنَّ الدَّابَّة تطلق على غير الإنسان... بل الحق أنَّها ذات مفهوم واسع يشمل الإنسان أيضا، كما نقرأ في الآية (٤) من سورة هود وَ مَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ، و في الآية (٤١) من سورة النحل وَ لَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ .

و في الآية (٢٢) من سورة الأنفال إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ .

إلا- أنه- كما ذكرنا في تفسير الآية آتفا- فإنَّ القرآن لا يفصّل في بيان هذه الكلمة و إنّما يذكرها على إجمالها، فكأنَّ البناء كان على الإجمال و الإبهام، و الوصف الوحيد المذكور لها بأنّها تكلم الناس و تميز المؤمن من غير المؤمن...

إلا أنّ هناك كلاما طويلا في الروايات الإسلامية و أقوال المفسرين في الشأن، و يمكن تلخيص مجموعها في تفسيرين:

١- طائفته تعتقد بأنّ هذه «الدابة» حيوان غير مألوف و من غير جنس الإنسان له شكل عجيب، و نقلوا له عجائب شبيهه بما يخرق العادات و المعاجز!.

هذه الدابة تخرج في آخر الزمان، و تتحدث عن الإيمان و الكفر، و تفضح المنافقين و تسمهم بميسمها! ٢- و طائفته تعتقد- حسب الروايات الإسلامية الواردة في هذا الشأن- أنّها إنسان فوق العاده- إنسان متحرك فعّال! و واحد من أفعاله الأصليه تمييز المؤمنين عن المنافقين و وسمهم.. حتى أنّه يستفاد من بعض الروايات أن معه عصا موسى عليه السّلام و خاتم سليمان.. و نحن نعرف أن عصا موسى رمز للقدرة و الإعجاز، و خاتم سليمان رمز للحكومة و السلطه الإلهيه إذا هذا الإنسان

قد جاء فى حديث عن «حذيفه بن اليمان» عن رسول الله صلى الله عليه و آله فى وصف هذه الدابه قوله: «لا يدركها طالب و لا يفوتها هارب، فتسم المؤمن بين عينيه و يكتب بين عينيه مؤمن، و تسم الكافر بين عينيه و يكتب بين عينيه كافر، و معها عصا موسى و خاتم سليمان» (١).

و قد طبق هذا المفهوم فى روايات كثيره على «أمير المؤمنين» عليه السلام

ففى تفسير على بن إبراهيم عن الإمام الصادق عليه السلام أن رجلا قال لعمار بن ياسر: فى القرآن آيه شغلت بالى و جعلتنى فى شك قال عمار: آيه آيه هى؟ قال: آيه و إذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابّة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون فيقول عمار: و الله لا أجلس على الأرض و لا أكل طعاما و لا أشرب ماء حتى أرى كها. ثم يأخذه عمار إلى الإمام على، و هو يأكل طعاما فلما بصر به الإمام على ناداه فجاء عمار عنده و أكل معه!.

فتعجب الرجل و لم يصدق هذا المشهد، إذ كان عمار قد حلف و وعده أن لا يجلس على الأرض و لا يأكل و لا يشرب حتى يريه دابه الأرض، فكأنه نسى وعده!.

فلما قام عمار و ودّع عليّا.. قال له الرجل: عجيب منك أن تقسم بالله أن لا تأكل و لا تشرب و لا تجلس على الأرض، حتى ترى دابه الأرض!... فقال له عمار: أرى كها لو كنت تعقل (٢).

و نظير هذا المعنى فى تفسير العياشى، إلا أنه ورد اسم «أبى ذر» مكان عمار (٣).

١-١) - مجمع البيان ذيل الآيه محل البحث.

٢-٢) - مجمع البيان ذيل الآيات محل البحث..

٣-٣) - المصدر السابق.

ينقل العلامة المجلسي رحمه الله في بحار أنواره بسند معتبر عن الإمام الصادق عليه السلام قال: انتهى رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أمير المؤمنين عليه السلام وهو نائم في المسجد قد جمع رملا- ووضع رأسه عليه، فحرّكه برجله، ثم قال: قم يا دابه الله، فقال رجل من أصحابه: يا رسول الله أنسى بعضنا بهذا الاسم؟ فقال لهم: «لا والله ما هو إلا له خاصه وهو الدابه التي ذكر الله في كتابه وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ثُمَّ قَالَ: يا على إذا كان آخر الزمان أخرجك الله في أحسن صورته، و معك ميسم تسم به أعداءك» (١).

و بناء على هذه الرواية، فالآية تنطبق على الرجعه و تنسجم هي و الآية التي تليها في الرجعه!

و يقول المرحوم «أبو الفتوح الرازي» في تفسيره في ذيل الآية: طبقا للأخبار التي جاءتنا عن طريق أصحابنا، فإن دابه الأرض كناية عن المهدي «صاحب الزمان عليه السلام» (٢).

و مع الأخذ بنظر الإعتبار لهذا الحديث و الأحاديث المتقدمه، يمكن أن يستفاد من دابه الأرض مفهوم واسع، ينطبق على أي إمام عظيم يخرج في آخر الزمان و يميز الحق عن الباطل.

و هذا التعبير الوارد في الروايات الاسلاميه بأن معه عصا موسى عليه السلام التي هي رمز القوه و الإنتصار، و خاتم سليمان عليه السلام الذي يرمز للحكومه الإلهيه، قرينه على أن دابه الأرض إنسان نشط فعال فوق العاده!

كما أن ما ورد في الروايات الإسلاميه من أنها تسم المؤمن بين عينيه فيكتب مؤمنا، و تسم الكافر فيكتب كافرا ينسجم و القول بأنها إنسان!

ص: ١٤٠

١-١) -بحار الأنوار، ج ٥٣، ص ٥٢، خ ٣.

٢-٢) -تفسير الرازي، ج ٨ ص ٤٢٣.

إضافه إلى ذلك فالتصريح فى القرآن بأنّها تكلم الناس يساعد على هذا المعنى!.

و من مجموع ما مرّ نصل هنا إلى أنّ الدّابه تطلق فى الأغلب على غير الناس، و قد استعملها القرآن فى الأعم من الإنسان و غيره أو فى خصوص الإنسان، هذا من جهه. و من جهه أخرى فالقرائن المتعدده الموجوده فى الآيه ذاتها، و الروايات الكثيره فى تفسير الآيه، تدل على أنّ المراد من «دابه الأرض» هنا إنسان نشط فعال بما ذكرنا له من خصائص آنفا، فهو يميز الحق من الباطل و المؤمن من المنافق و الكافر.

إنسان يخرج فى آخر الزمان قبيل يوم القيامه، و هو بنفسه آيه من آيات عظمه الخالق!.

٢- الرجعه فى الكتاب و السنه!

من المسائل التى تجدر بالملاحظه، فى الآيات-محل البحث- ظهور بعض من هذه الآيات فى مسأله الرجعه!.

و«الرجعه» من عقائد الشيعه المعروفه، و تفسيرها فى عباره موجزه بهذا النحو: «بعد ظهور المهدي عليه السّلام و بين يدي القيامه، يعود طائفه من المؤمنين الخلّص، و طائفه من الكفار الأشرار، إلى هذه الدنيا.. فالطائفه الأولى تصعد فى مدارج الكمال... و الطائفه الثّانيه تنال عقابها الشديد!.

يقول «الشريف المرتضى» الذى هو من أعظم الشيعه: إنّ الذى تذهب الشيعه الإماميه إليه، أن الله تعالى يعيد عند ظهور الإمام المهدي عليه السّلام أقواما ممن كان قد تقدم موته من شيعته ليفوز بثواب نصرته و معونته و مشاهدته دولته، و يعيد أيضا قوما من أعدائه لينتقم منهم، فيلتذوا بما يشاهدون من ظهور الحق و علوّ كلمه أهله!

ثم يضيف السيد المرتضى قائلاً: والدلالة على صحة هذا المذهب أن الذي ذهبوا إليه مما لا شبهه على عاقل في أنه مقدور لله تعالى غير مستحيل في نفسه، فإننا نرى كثيراً من مخالفينا ينكرون الرجعة إنكاراً من يراها مستحيلة غير مقدوره، وإذا ثبت جواز الرجعة ودخولها تحت المقدور، فالدليل إلى إثباتها إجماع الإمامية على وقوعها (1).

ويظهر بالطبع - من كلمات بعض قدماء علماء الشيعة و كذلك من كلام العلامة «الطبرسي» في مجمع البيان - أن «الأقليات» القليلة من الشيعة لا تؤمن بهذه العقيدة، أي «الرجعة» وفسدروها بعوده حكومه أهل البيت عليهم السلام، لا رجوع الأشخاص و حياتهم بعد موتهم في هذه الدنيا، إلا أن مخالفه هذه القلة لا تؤثر في الإجماع.

و على كل حال، فهنا مطالب كثيره، و من أجل ألا نخرج عن أسلوب بحثنا نشير إليها بإيجاز في ما يلي:

١- لا ريب أن إحياء جماعه من الموتى في هذه الدنيا ليس محالاً!... كما أن إحياء جميع البشر في يوم القيامة ممكن، و التعجب من هذه المسألة كتعجب المشركين «من أهل الجاهلية» من مسأله المعاد، و السخرية منها كالسخرية من المعاد!... لأن العقل لا يحكم على مثل هذا الأمر بالاستحالة... و قدره الله واسع بحيث أن هذه الأمور عندها سهله يسيره هين!

٢- جاء ذكر الرجعة في القرآن المجيد إجمالاً، و وقوعها في خمسة مواطن في شأن الأمم السالفه.

ألف: في ما يتعلق بالنبي الذي مرّ على قريه و هي خاويه على عروشها، و عظام أهلها نخره متفرقه هنا و هناك. فتساءل في نفسه و قال: **أَنْى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مَائَةَ عَامٍ ثُمَّ أَحْيَاهُ فَقَالَ لَهُ: كَمْ لَبِثْتَ؟** قال: لبثت يوماً أو

ص: ١٤٢

بعض يوم قال: بل لبثت مائه عام «مؤدى الآيه ٢٥٩- من سورة البقره».

و سواء كان هذا النبى عزيرا أم سواه، فلا فرق فى ذلك، المهم أن القرآن صرح بحياته بعد موته فى هذه الدنيا فأماته الله مائه عام ثم بعته!.

ب- يتحدث القرآن- فى الآيه (٢٤٣) من سورة البقره ذاتها- عن جماعه أخرى خرجت من ديارها خوفا من الموت، و امتنعت من الذهاب إلى سوح القتال بحججه مرض الطاعون، فأماتها الله ثم أحيها أ لم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحيهم إن الله لذو فضل على الناس و لكن أكثر الناس لا يشكرون .

و بالرغم من أن بعض المفسرين لم يتحملوا وقوع مثل هذه الحادته غير المألوفه، و عدوها مثالا فحسب، إلا أن من الواضح أن مثل هذه التأويلات إزاء ظهور الآيه- بل صراحتها- لا يمكن المساعده عليه!.

ج- و فى الآيتين ٥٥ و ٥٦ من سورة البقره أيضا، يتحدث القرآن عن بنى إسرائيل فيقول: وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ، ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

د- و نقرأ فى الآيه (١١٠) ضمن معاجز عيسى قوله تعالى: وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي .

و يدل هذا التعبير على أن المسيح عليه السلام أحيى الموتى فعلا- بل التعبير بالفعل المضارع (تخرج) يدل على أنه أحيى الموتى مرارا، و هذا الأمر بنفسه يعد نوعا من الرجعه لبعضهم! ه- و أخيرا فى الآيتين (٧٢) و (٧٣) من سورة البقره، إشاره إلى مقتل رجل من بنى إسرائيل و وقوع الجدل و النزاع فى شأن قاتله، و ما أمرهم الله أن يفعلوه بضرب القتيل ببعض البقره- الوارده خصائصها فى الآيه ٧٢- إذ يقول سبحانه:

وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ، فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا

كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .

و بالإضافة إلى هذه المواطن الخمسة التي أشرنا إليها، فهناك مواطن آخر في القرآن، منها قصّة أصحاب الكهف، و هي قصّة تشبه الرجعه. و قصّيه الأربعة من الطير التي أمر إبراهيم أن يذبحها فأتيته سعياً بعد ذبحهن و تفريقهن على رأس كل جبل جزءاً منهن، ليتّضح له إمكان المعاد للناس و يكون مجسداً برجوع هذه الطيور إلى الدنيا.

و على كل حال! كيف يمكن أن يؤمن الشخص بالقرآن و أنّه كتاب سماوي، ثم ينكر هذه الآيات الواضحة في الرجعه؟ و هل الرجعه-أساساً- إلاّ العوده للحياه بعد الموت؟! أو ليست الرجعه مثلاً مصغراً من القيامة في هذه الدنيا.

فمن يؤمن بالقيامة بمقياسها الواسع، كيف يمكنه أن يعترض على مسأله الرجعه و أن يسخر منها؟! و أن يقول قائل كأحمد أمين المصري في كتابه «فجر الإسلام» اليهوديه ظهرت بالتشيع بالقول بالرجعه (١).!! و أي فرق بين كلام أحمد أمين هذا، و إنكار عرب الجاهليه لمسأله المعاد الجسماني؟! ٣- ما ذكرناه- إلى هنا- يثبت إمكان الرجعه، و أمّا ما يؤيد وقوعها فروايات كثيره نقلها الثقات عن أئمّه أهل البيت عليهم السّلام و حيث لا- يسع بحثنا نقلها و التحقيق فيها، فيكفي أن نذكر ما عدّه المرحوم العلامة المجلسي في بحار أنواره و ما جمعه منها، إذ يقول: و كيف يشك مؤمن بحقيّه الأئمه الأطهار عليهم السّلام فيما تواتر عنهم في قريب من مائتي حديث صريح (٢)، رواها تيّف و أربعون من الثقات العظام و العلماء الأعلام، في أزيد من خمسين من مؤلفاتهم.. فإذا لم يكن مثل هذا

ص: ١٤٤

١- ١) -انظر عقائد الإماميه- للشيخ محمّد رضا المظفر ص ٧١.

٢- ٢) -يعني «بالرجعه».

متواترا ففى أى شىء يمكن دعوى التواتر (١)؟!

٤- فلسفه الرجعه!

إنّ أهم سؤال يثار فى هذا الصدد، هو: ما الهدف من الرجعه قبل يوم القيامة؟! و مع ملاحظه ما يستفاد من الروايات الإسلاميه من أنّ هذا الموضوع ليس عامّا بل يختصّ بالمؤمنين الخلّص الذين هم فى مرحله عاليه من الإيمان، و الكفار و الطغاه الظلمه الذين هم فى مرحله منحطه من الكفر و الظلم.. فيبدو أنّ الرجعه لهاتين الطائفتين للدنيا ثانيه هى من أجل إكمال الطائفه الأولى حلقتها التكامليه، و أن تذوق الطائفه الثانيه جزاءها الدنيوى.

و بتعبير آخر: إن الطائفه المؤمنه «خالصه الإيمان» الذين واجهوا الموانع و العوائق فى مسير تكاملهم المعنوى فى حياتهم و لم يتكاملوا الكمال اللائق باستعدادهم، فإنّ حكمه الله تقتضى أن يتكاملوا عن طريق الرجعه لهذه الدنيا و أن يكونوا شهداء الحكومه العالميه للحقّ و العدل، و أن يساهموا فى بناء هذه الحكومه، لأنّ المساهمه فى بناء مثل هذه الحكومه من أعظم الفخر!

و على عكس الطائفه الآنفه الذكر، هناك طائفه من المنافقين و الجابره المعاندين، ينبغى أن ينالوا جزاءهم الدنيوى بالإضافة إلى جزاءهم الأخرى، كما ذاق قوم فرعون و ثمود و عاد و قوم لوط جزاءهم- و لا طريق لأن يذوقوا عذاب الدنيا إلا بالرجعه!

يقول الإمام الصادق عليه السلام فى بعض أحاديثه «إن الرجعه ليست بعامه، و هى خاصّه، لا يرجع إلا من محض الإيمان محضاً، أو محض الشرك محضاً» (٢).

و لعل الآيه (٩٥) من سوره الأنبياء وَ حَرَامٌ عَلٰى قَوْمِهِ أَهْلِكْنَاهَا أَنْهُمْ لَا يُرْجَعُونَ

ص: ١٤٥

١-١) -بحار الأنوار، ج ٥٣، ص ١٢٢.

٢-٢) -بحار الأنوار، ج ٥٣، ص ٣٩.

تشير إلى هذا المعنى أيضا، لأنها تتحدث عن عدم رجوع أولئك الذين ذاقوا عذابهم الشديد في هذه الدنيا، فيتضح منها أن أولئك الذين لم يذوقوا مثل هذا الجزاء ينبغي أن يرجعوا، فيذوقوا عذابهم «فلاحظوا بدقه».

كما يرد هذا الاحتمال أيضا، وهو أن رجعه «الطائفتين هاتين» في ذلك المقطع الخاص من الزمان هي بمثابة درسين كبيرين و آيتين مهمتين من آيات عظمة الله -و مسأله القيامة و «المبدأ و المعاد»- للناس، ليلبغوا أسمى درجات الكمال المعنوى بمشاهدتهما و يزداد إيمانهم... و لا يكونوا مفتقرين إلى شىء أبدا.

٥- و يتصور بعضهم أن الاعتقاد بالرجعه لا ينسجم و أصل حريه الإراده و الإختيار عند البشر!.

و مما بيناه آنفا يتضح أن هذا اشتباه محض، لأن رجوع من يرجع إلى هذه الدنيا سيكون في ظروف طبيعیه، و يتمتع بحريه كامله.

و ما يقوله بعضهم بأنه من الممكن أن يتوب الجبار و الكفار المعاندون بعد الرجعه و يعودوا إلى الحق، فجوابه أن هؤلاء الأفراد غارقون في الظلم و الفساد و الكفر بحيث أن هذه الأمور مندمجه مع روحهم و نسيجهم و لا يتصور توبتهم!

كما أن القرآن يحكى في رده على طلب أهل النار يوم القيامة الرجوع إلى الدنيا، ليقضوا ما فاتهم و لا يعملوا السيئات... فيقول: وَ لَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ . (١)

كما يتضح الجواب على إشكال بعضهم من أن الرجعه لا تنسجم مع الآيه (١٠٠) من سوره المؤمنون لأنه طبقا لهذه الآيه فإن المشركين يطلبون الرجوع إلى هذه الدنيا ليعملوا صالحا، و يقول كل منهم: رَبِّ ارْجِعُونِي لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ فإرد عليه بالقول: كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا .

ص: ١٤٦

فالجواب على هذا الإشكال، أن هذه الآية عامه و الرجعه خاصه «فلاحظوا بدقه».

٦-و آخر الكلام هنا أنّ الشيعة مع اعتقادهم بالرجعه التي أخذوها عن أهل البيت عليهم السّلام فإنّهم لا يحكمون على منكري الرجعه بالكفر، لأنّ الرجعه من ضروريّات المذهب الشيعي لا من ضروريّات الإسلام.

فبناء على ذلك فإنّ هذه المسأله لا تقطع وشائج الأخوه الإسلاميه مع الآخرين..إلا أن الشيعة تواصل دفاعها المنطقي عن عقيدتها هذه.

و ينبغي الالتفات إلى أن هناك خرافات تمتزج أحيانا بالرجعه فتشوّه وجهها في نظر البعض، فينبغي أن نعول على الأحاديث الإسلاميه الصحيحه في الشأن، و أن نتجنب الأحاديث المطعون فيها أو المشكوكه.

و ما ذكرناه هنا خلاصه موجزه عمّا يتعلق بالرجعه، و ينبغي مراجعه الكتب التي تتحدث عن هذا الشأن لمن أراد أن يستزيد و يعرف خصائص آخر للرجعه أو جزئياتها.

و مع ملاحظه هذا المقدار الذي بيّناه يتّضح الجواب على الحملات المسعوره من قبل أولئك الذين لم يطلعوا على هذا الموضوع من إخواننا أهل السنه «كما فعل «الآلوسي» في تفسيره روح المعاني ذيل الآيات محل البحث» و أن إشكالهم على مسأله الرجعه ناشئ من عدم تعقلهم لها حتى عدّوها أسطوره!.

اشاره

أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسًا كُنُوزًا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦) وَ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي
السَّمَاوَاتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَ كُلُّ أَتَّوهُ دَاخِرِينَ (٨٧) وَ تَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُ بِهَا جَامِدَةً وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُبَّغَ
اللَّهِ الَّذِي أَتَقَنَّ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨)

التفسير

اشاره

حركة الأرض إحدى معجز القرآن العلمي:

مره أخرى تتحدث هذه الآيات عن مسأله المبدأ و المعاد، و آثار عظمه الله، و دلائل قدرته في عالم الوجود، و حوادث
القيامه، فتقول: أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسًا كُنُوزًا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا وَ فِي ذَلِكَ عَلَائِمٌ وَ دَلَائِلٌ وَاضِحَةٌ عَلَى قَدْرِهِ اللَّهُ وَ حِكْمَتُهُ
لَمَنْ كَانَ مُسْتَعِدًّا لِلْإِيمَانِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

و هذه ليست أوّل مره يتحدث فيها القرآن عن الليل و النهار الحيويّه، و نظامي النور و الظلمه، كما أنّها ليست آخر مره أيضا.. و
ذلك لأنّ القرآن كتاب تعليم و تربيّه، و هو يهدف إلى بناء الشخصيه الإنسانيّه... و نحن نعرف أن أصول التعليم

و التريبه تقتضى أحيانا أن يتكرر الموضوع فى «فواصل» مختلفه، و أن يذكر الناس به لىبقى فى الذهن كما يقال.

فالسكن أو الهدوء الذى يحصل من ظلمه الليل، مسأله علميه و حقيقه مسلم بها، فسدل الليل ليست أسبابا إجباريه لتعطيل النشاطات اليوميه فحسب، بل لها أثر عميق على سلسله الأعصاب فى الإنسان و سائر الحيوانات، و يجرها إلى الراحة و النوم العميق، أو كما يعبر القرآن عنه بالسكون!.

و كذلك العلاقه بين ضوء النهار و السعى و الحركه التى هى من خصائص النور من الناحيه العلميه-أيضا-و لا مجال للتردد فيها. فنور الشمس لا- يضىء محيط الحياه ليبصر الإنسان به مأربه فحسب، بل يوقظ جميع ذرات وجود الإنسان و يوجهه إلى الحركه و النشاط!.

فهذه الآيه توضح جانبا من التوحيد الربوبى، و لما كان المعبود الواقعى هو ربّ «عالم الوجود» و مدبره، فهى تشطب بالبطلان على وجوه الأوثان!... و تدعو المشركين إلى إعاده النظر فى عبادتهم.

و ينبغى الالتفات إلى هذه اللطيفه، و هى أنّ على الإنسان أن يجعل نفسه منسجما مع هذا النظام، فيستريح فى الليل و يسعى فى النهار، لىبقى نشطا صحيحا دائما... لا كالمناقده لهواه الذى يطوى الليل يقظا ساهرا و ينام النهار حتى الظهر!.

و الطريف أن كلمه «مبصر» نسبت إلى النهار و وصف بها، مع أنّها وصف للإنسان فى النهار، و هذا نوع من التأكيد الجميل للاهتمام بالنشاط فى النهار، كما يوصف الليل أحيانا بأنه «ليل نائم» (١).

ص: ١٤٩

١- ١) - هذا النوع من التعبير يسمّى عند البلاغيين بـ «المجاز العقلى»، و يراد منه إسناد الفعل أو ما فى معناه «كاسم الفاعل و اسم المفعول» لغير ما وضع له لعلاقه، منها العلاقه الزمانيه، فيقال مثلا: نهار الزاهد صائم و ليله قائم. (المصحح)

و هذا التفاوت فى التعبير فى الآيه، هو لبيان فائده الليل و النهار، إذ جاء فى شأن الليل لَيْسَ كُنُوتًا فِيهِ و عبر عن النهار ب(مبصر) فلعل هذا الاختلاف فى التعبير إشاره إلى أن الهدف الأصلى من وجود الليل هو السكون و الهدوء، و الهدف من الضوء و النهار ليس النظر فحسب، بل رؤيه الوسائل الموصله إلى مواهب الحياه و الاستمتاع بها «فلاحظوا بدقه».

و على كل حال، فهذه الآيه و إن كانت تتكلم مباشره عن التوحيد و تدبير عالم الوجود، إلا أنها ربّما كانت إشاره لطيفه إلى مسأله المعاد، لأنّ النوم بمثابه الموت، و اليقظه بمثابه الحياه بعد الموت!.

و الآيه التاليه تتحدث عن مشاهد القيامة و مقدماتها، فتقول: و اذكر يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَ كُلُّ أَتَوُّهُ دَاخِرِينَ أَى خاضعين.

و يستفاد من مجموع آيات القرآن أنّ النفخ فى الصور يقع مرّتين أو ثلاث مرات.

فالمرّه الأولى يقع النفخ فى الصور عند نهايه الدنيا و بين يدى القيامة! و بها يفزع من فى السماوات و الأرض إلا من شاء الله! و الثانيه «عند النفخ» يموت الجميع من سماع الصيحه، و لعل هاتين النفختين واحده.

و المرّه الثالثه ينفخ فى الصور عند البعث و قيام القيامة.. إذ يحيا الموتى جميعا بهذه النفخه، و تبدأ الحياه الجديده معها.

و هناك كلام بين المفسّرين الى أنّ الآيه محل البحث هل تشير الى النفخه الأولى أم الثانيه أم الثالثه؟!.. القرائن الموجوده فى الآيه و ما بعدها من الآيات تنطبق على النفختين، و قيل: بل هى تشمل الجميع.

إلا أن الظاهر من الآيه يدل على أن النفخه هنا إشاره إلى النفخه الأولى التى

تقع فى نهايه الدنيا، لأنّ التعبير ب(فزع) و هو يعنى الخوف أو الاستيحاش الذى يستوعب جميع القلوب، يعدّ من آثار هذه النفخه... و نعلم أن الفزع فى يوم القيامة هو بسبب الأعمال لا من أثر النفخه!

و بتعبير آخر: إن ظاهر «فاء» التفرع فى «فزع» أن الفزع ناشئ من النفخه فى الصور، و هذا خاص بالنفخه الأولى، لأنّ النفخه الأخيره ليست لا تثير الفزع فحسب، بل هى مدعاه للحياه و الحركه، و إذا حصلت حاله فهى من أعمال الإنسان نفسه!

و أمّا ما المراد بالنفخ فى الصور،؟ هناك كلام طويل بين المفسرين سنتناوله فى ذيل الآيه (٦٨) من سوره «الزمر» بإذن الله!

و أمّا جملة الإ- مَنْ شَاءَ اللَّهُ المذكوره للاستثناء من الفزع العام، فهى إشاره للمؤمنين الصالحين سواء كانوا من الملائكه أو سائر المؤمنين فى السماوات و الأرض، فهم فى اطمئنان خاص إلا- تفرعهم النفخه فى الصور الأولى و لا الأخرى.. إذ نقرأ فى الآيات التى تلى هذه الآيات قوله تعالى: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَ هُمْ مِنْ فِرْعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ .

و أمّا جملة وَ كُلُّ أُنْفُثَةٍ دَاخِرِينَ فظاهاها عام و ليس فيه أى استثناء، حتى الأنبياء و الأولياء يخضعون لله و يذعنون لمشيئته، و إذا ما لاحظنا قوله تعالى فى الآيه (١٢٧) من سوره الصافات: فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ إِلَّا عَبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ، فلا منافاه بينها و بين عموم الآيه محل البحث، فالآيه محل البحث إشاره إلى أصل الحضور فى المحشر، و أمّا الثانيه فهى إشاره إلى الحضور للمحاسبه و مشاهدته الأعمال!

و الآيه التاليه تشير إلى إحدى آيات عظمه الله فى هذا العالم الواسع، فتقول:

وَ تَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِى أَنْتَقْنَ كُلَّ

فمن يكون قادرا على كل هذا النظم و الإبداع فى الخلق، لا ريب فى علمه و إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ .

يعتقد كثير من المفسرين أن هذه الآيه تشير إلى الحوادث التى تقع بين يدى القيامة، لأننا نعرف أن فى نهايه هذه الدنيا تقع زلازل و انفجارات هائله، و تتلاشى الجبال و تنفصل بعضها عن بعض، و قد أشير الى هذه الحقيقه فى السور الأخيره من القرآن كرارا.

و وقوع الآيه فى سباق آيات القيامة دليل و شاهد على هذا التفسير.

إلا- أن قرائن كثيره فى الآيه تؤيد تفسيراً آخر، و هو أن الآيه آنفه الذكر من قبيل آيات التوحيد و دلائل عظمه الله فى هذه الدنيا، و تشير إلى حركه الأرض التى لا نحس بها.

و توضيح ذلك:

١- إن الآيه تقول: تحسب الجبال ساكنه و جامده مع أنها تمرّ مرّ السحاب..

و هذا التعبير واضح أنه لا ينسجم مع الحوادث التى تقع بين يدى القيامة.. لأن هذه الحوادث من الوضوح بمكان بحيث يعبر عنها القرآن يَوْمَ تَرُؤْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَ تَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَ تَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَ مَا هُمْ بِسُكَارَىٰ . (٢)

٢- تشبيه حركه الجبال بحركه السحاب يتناسب مع الحركات المتناسقه الهادئه، و لا يتناسب و الانفجارات العظيمة التى تصطك منها المسامع!.

ص: ١٥٢

١- ١) - «صنع الله» منصوب بفعل محذوف تقدير (أنذر صنع الله) أو ما شاكله.

٢- ٢) - سورة الحج، الآيه ٢.

٣-التعبير الآنف الذكر يدلّ على أنّه فى الوقت الذى ترى الجبال بحسب الظاهر جامده، إلاّ أنّها فى الواقع تتحرك بسرعه «على حالتها التى ترى فيها جامده» أى أن الحالتين تبيان شيئا واحدا.

٤- والتعبير ب«الإتقان» الذى يعنى الإحكام و التنظيم، يتناسب زمان استقرار نظام العالم، ولا يتناسب و زمان انهياره و تلاشيه.

٥-جملة إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ مع ملاحظه أنّ «تفعلون» فعل مضارع، تدل على أنّها تتعلق بهذه الدنيا، لأنّها تقول: إن الله خبير بأعمالكم التى تصدر فى الحال و المستقبل. و لو كانت ترتبط بانتهاء العالم، لكان ينبغى أن يقال: إنّه خبير بما فعلتم. «فتأملوا بدقه».

و يستفاد من مجموع هذه القرائن أنّ هذه الآيه تكشف عن إحدى عجائب الخلق، و هى فى الواقع تشبه ما جاء فى الآيتين آنفتى الذكر: أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ .

و بناء على ذلك فالآيات محل البحث قسم منها فى التوحيد، و قسم منها فى المعاد!.

و ما نستنتجه من هذا التفسير، هو أن هذه الجبال التى نتصورها ساكنه «جامده» هى فى سرعه مطرّده فى حركتها... و من المقطوع به أنّه لا معنى لحركه الجبال من دون حركه الأرض المتصله بها، فيتّضح من الآيه أنّ الأرض تتحرك كما يتحرك السحاب!.

و وفقا لحسابات علماء اليوم فإنّ سرعه حركه الأرض حول نفسها تقرب من (٣٠) كيلومتر فى كل دقيقه، و سرعه سيرها فى حركتها الانتقاليه حول الشمس أكثر من هذا المقدار...

لكن علام عنى بالجبال دون غيرها؟ لعل ذلك إنّما هو لأنّ الجبال يضرب بها المثل لثقلها و قرارها، و تعدّ مثلا حسنا لبيان قدره الله سبحانه، فحيث أن هذه

الجبال على عظمتها و ما فيها من ثقل، تتحرك كالسحاب بأمر الله «مع الأرض» فقدرته على كل شيء «بينه، و ثابتة»!.

و على كل حال، فالآيه آنفه الذكر تعدّ من معاجز القرآن العلميه... لأننا نعلم أن أوّل العلماء الذين اكتشفوا حركة كره الأرض هو «غاليليو» الإيطالي و «كبرنيك» اللذين أظهرها هذه الحقيقه للملأ فى أواخر القرن السادس عشر و أوائل القرن السابع عشر! بالرغم من أن رجال الكنيسه حكموا عليهما حكما صارما، و تعرضا لمضايقات كثيره..

إلا أنّ القرآن كشف الستار عن وجه هذه الحقيقه قبل ذلك بألف عام تقريبا و بين حركة الأرض بالأسلوب الآنف الذكر على أنّها بعض أدله التوحيد! و يرى بعض فلاسفه الإسلام، فى الوقت الذى يقبلون فيه التفسير الثانى، و هو الإشاره إلى حركة الجبال فى هذا العالم، أن الآيه ناظره إلى «الحركه الجوهرية» فى الأشياء، و اعتقدوا أنّ الآيه منسجمه و النظرية المعروفه بالحركه الجوهرية و مؤيده لها (١)

ص: ١٥٤

١ - ١) - المراد من «الحركه الجوهرية» هو أنّ أشياء عالم ماده بالإضافة إلى ما يحصل فيها من تغييرات مختلفه فى الكيفيه و الكميّه و المكان و ما أشبه ذلك! فيها حركه فى داخلها «و جوهرها» أى أنّها وجود سيال و متحرك، و التغييرات الظاهرية هى انعكاس عن التغييرات الداخليه لها.. و بتعبير آخر: إن لدينا وجودين مختلفين ذاتا.. الوجود الثابت «الوجود ما وراء المادى»، و وجود سيال و متحرك «الوجود المادى» و أهم دليل على إثبات هذه النظرية مسأله وجود الزمان للموجودات الماديه و عدم انفصال التغييرات الظاهرية عن التغييرات الباطنيه، و يطول بنا البحث فى هذا الصدد و هو خارج عن موضوعنا هنا.

اشاره

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فِرْعَ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (٨٩) وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠) إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ (٩٢) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣)

التفسير

اشاره

آخر ما أمر به النبي!

كان الكلام في الآيات السابقة عن أعمال العباد و علم الله بها..أما الآيات محل البحث فيقع الكلام في مستهلها عن جزائهم و ثواب أعمالهم و أمنهم من فِرْعَ يوم القيامة، إذ يقول سبحانه: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فِرْعَ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ .

و هناك اختلاف بين تعبيرات المفسرين في المراد من «الحسنه» في هذه الآيه:

ففسرها بعضهم بكلمه التوحيد «لا إله إلا الله» والإيمان بالله.

و فسرها بعضهم بولايه أمير المؤمنين عليه السلام و الأئمه من أهل البيت عليهم السلام، و قد ورد التأكيد على هذا المعنى فى الروايات المتعدده عن أهل البيت، و من جملتها ما

جاء فى روايه عن الإمام الباقر عليه السلام أنه دخل أبو عبد الله الجدلى على أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أبا عبد الله ألا أخبرك بقول الله عز و جل: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَ هُمْ مِنْ فَرْعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ وَ مَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ قال: بلى يا أمير المؤمنين جعلت فداك، فقال: «الحسنه معرفه الولايه حُبنا أهل البيت، و السيئه إنكار الولايه و بغضنا أهل البيت ثم قرأ عليه السلام الآيه» (١).

و بالطبع فإن معنى الآيه واسع -و قد أشرنا إلى ذلك مرارا- كما أن الحسنه هنا معناها واسع أيضا... فهى تشمل الصالحات و الأعمال الخالصه، و من ضمنها الإيمان بالله و برسوله و ولايه الأئمه من أهل البيت عليهم السلام، التى تعدّ فى طليعه الأعمال الحسنه، و لا يمنع أن تكون هناك أعمال صالحه أخرى تشملها الآيه.

أمّا ما أورده بعضهم بأنّه: على فرض العموم فى «الحسنه» فسوف تشمل الإيمان بالله و هل هناك خير من الإيمان حتى يقول سبحانه: من جاء بالحسنه فله خير منها؟ فالجواب على هذا الإشكال واضح... لأنّ رضا الله خير من الإيمان. و بتعبير آخر: جميع هذه الأمور مقدمه له... و ذو المقدمه خير من المقدمه!.

و هناك سؤال آخر يثار هنا، و هو أن ظاهر بعض الآيات -كآيه ٢ من سوره الحج- أنّ الفرع يعمّ الجميع فى يوم القيامه، فكيف أستثنى أصحاب الحسنات منه؟.

فآيه (١٠٣) من سوره الأنبياء توضح الجواب على هذا السؤال فتقول:

ص: ١٥٦

١- ١) -اصول الكافى، وفقا لما جاء فى تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ١٠٤.

لَا يَخْزِنُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ .

و«الفرع الأكبر»-هو كما نعلم-فرع يوم القيامة، و فرع الدخول في نار جهنم -أعاذنا الله منها- لا الفرع الحاصل من النفخه في الصور «فلاحظوا بدقه».

ثم يتحدث القرآن عن الطائفة الأخرى التي تقابل أصحاب الحسنات فتقول: وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ .
و ليس لهذه الطائفة أى توقع غيرها هل تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

و«كبت» مأخوذ من «كب» على وزن «جدد» ومعناه فى الأصل إلقاء الشيء على وجهه على الأرض، فبناء على هذا فإن ذكر «وجوههم» فى الآية هو من باب التوكيد!

و إلقاء هذه الطائفة على وجوها فى النار من أسوأ أنواع العذاب. إضافة إلى ذلك، فإن أولئك حين كانوا يواجهون الحق يلوون وجوههم و رؤوسهم، و كانوا يواجهون الذنوب بتلك الوجوه فرحين... فالآن لا بد أن-يبتلوا بمثل هذا العذاب.

و جمله هل تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ لعلها جواب على سؤال يلقى هنا، و هو ما لو قيل: إن هذا الجزاء «العقاب» شديد، فيجاب: بأن هذا الجزاء إن هو إلا عملك فى الدنيا، فهل تجزون إلا ما كنتم تعلمون «فلاحظوا بدقه».

ثم يوجه الخطاب للنبي صلى الله عليه و آله و سلم فى الآيات الثلاث من آخر هذه السوره، و يؤكد له هذه الحقيقه و هى أن يخبر أولئك المشركين بأن عليه أن يؤدى رسالته و وظيفته... سواء آمنتم أم لم تؤمنوا؟! فتقول الآية الأولى من هذه الآيات: إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ .

هذه البلده المقدسه التى يتلخص كل وجودكم و شرفكم بها... البلده المقدسه التى كرمها الله و كرمكم بما أنزل فيها من البركات.. إلا أنكم بدل أن تشكروا نعمه الله كفرتم بها! البلده المقدسه التى هى حرم أمن الله، و أشرف بقعه على وجه الأرض، و أقدم معبد للتوحيد!

أجل... أعبد رب هذه البلده المقدسه الَّذِي حَرَّمَهَا و جعل لها خصائص و أحكاما و حرمة، و أمورا آخر لا تتمتع بها أيه بلده أخرى فى الأرض!.

لكن لا تتصوروا أن هذه البلده وحدها لله، بل له كل شى فى عالم الوجود وَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ .

و الأمر الثانى الذى أمرت به هو أن أسلم وجهى له وَ أَمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

و هكذا فإن الآيه بَيَّنَّتْ وظيفتين أساسيتين على النبى و هما (عباده الواحد الأحد، و التسليم المطلق لأمره).

و الآيه التالیه تبين أسباب الوصول إلى هذين الهدفين فتقول: وَ أَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ .

أتلوه فأستضىء بنوره، و أنتهل من عذب معينه الذى يهب الحياه أو أن أعول فى جميع مناهجى على هديه. أجل.. فالقرآن وسيلتى للوصول إلى هذين الهدفين المقدسين، و المواجهه لكل أنواع الشرك و الانحراف و الضلال و مكافحتها، ثم تعقب الآيه لتحكى عن لسان الرسول و هو يخاطب قومه: لا تتصوروا أنكم إذا آمنتم انتفعت من وراء ذلك لنفسى، كما أن الله غنى عنكم، بل فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ .

و كل ما يترتب على الهدايه من منافع دنيويه، كانت أم أخرويه فهى عائده للمهتدى نفسه و العكس صحيح وَ مَنْ ضَلَّ فَقُلِّبْهُ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ .

و عواقبه الوخيمه لا تصيبنى... فوظيفتى البلاغ و الإنذار و إراءه سبيل الحق، و الإصرار على أن تسلكوا سبيل الحق، إلا أن من أراد أن يبقى فى طريق الضلال، فإنما يشقى وحده، فيكون من الخاسرين.

الطريف أنّ القرآن يقول في شأن الهدايه: فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَلَكِنَّ لِمَنْ ضَلَّ فَضْرَهُ عَلَيْهِ، بل يقول: فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ .

و هذا الاختلاف في التعبير لعله إشاره إلى أنّ النبي عليه السلام يقول: إني لا- أسكت بوجه الضالين أبدا، ولا- أتركهم على حالهم، بل أظّل أنذرهم و أوصل الإنذار و لا أعيأ عن ذلك، لأنني من المنذرين (بالطبع هناك آيات وردت في القرآن في شأن الهدايه و الضلاله، و فيها التعبير «لنفسه و عليها» للموضوعين... كقوله تعالى:

فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ

فعلينا لكننا نعلم أنّ هذا الاختلاف في التعبيرات منسجم مع اختلاف المقامات، و ربّما جاء لإلقاء المعاني المختلفه و المتفاوته! و الجدير بالذكر أنّ هذه السوره شرعت ببيان أهميه القرآن، و انتهت بالأمر بتلاوته، فبدايتها و نهايتها عن القرآن.

و الأمر الأخير في آخر آيه من هذه السوره- موجه للنبيّ أن يحمد الله على هذه النعم الكبرى، و لا سيما نعمه الهدايه فيقول: وَ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ هَذَا الْحَمْدُ أَوْ الثَّناء يعود لنعمه القرآن، كما يعود للهدايه أيضا، و يمكن أن يكون مقدمه للجمله التاليه سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا .

و هذا التعبير إشاره إلى أنّه مع مرور الزمان و تقدم العلم و المعرفه، سينكشف كل يوم بعض أسرار عالم الوجود، و يرفع ستار جديد عنها.. و ستعرفون نعم الله و عظمه قدرته و عمق حكيمته يوما بعد يوم.. و إراءه الآيات هذه مستمره دائما و لا تنقطع مدى عمر البشر.

إلا أنّكم إذا واصلتم طريق الخلاف و الانحراف، فلن يترككم الله سدى و ما ربك بغافل عما يعمل الظالمون.

و لا تتصوروا بأنّ الله إذا أخرج عقابكم بلطفه، فهو غير مطلع على أعمالكم، و أنّها لا تسجل في اللوح المحفوظ.

و جملة و مَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ الواردة بنفسها أو مع شيء من التفاوت اليسير في تسع آيات من القرآن جملة موجزه، و هي تهديد ذو معنى عميق، و إنذار لجميع الناس.

و الحمد لله رب العالمين نهاية سورة النمل

ص: ١٦٠

سوره القصص

اشاره

مكيه و عدد آياتها ثمان و ثمانون آيه

ص: ۱۶۱

محتوى سوره القصص:

المعروف أنّ هذه السوره نزلت بمكّه، و بإمكاننا ملاحظه أنّ محتواها الكلى و خطوطها العامه الأساسيه على شاكله السور المكيه (١) غير أنّ بعض المفسّرين استثنوا الآيه ٨٥، أو الآيات ٥١-٥٥ من هذه السوره معتقدين أنّ الآيه الأولى «٨٥» نزلت بالجحفه- و هى منطقه بين مكّه و المدينه- و أما الآيات الأربع الأخرى فيقولون: إنّها نزلت بالمدينه. و لا يوجد دليل واضح على كلامهم..

و لعل محتوى الآيات الخمس التى تتحدث عن أهل الكتاب. (و كان أكثر أهل الكتاب يقطنون فى المدينه). كان سببا لمثل هذا التصور. فى حين أنّ نزول الآيات القرآنيه فى مكّه لا يعنى إنّها لا بدّ أنّ تتحد عن المشركين فى مكّه فحسب، و خاصّه أنّ أهالى مكّه و المدينه كانت لهم رحلات متقابله و علاقات و روابط قبلية و تجارويه. و بالطبع فإنّ المفسّرين ذكروا سببا آخر لنزول الآيات ٥٢-٥٥ يتناسب مع كونها مدينه، و سنتحدث، عن ذلك فى محله إن شاء الله..

أما الآيه (٨٥) التى تتحدث عن عوده النّبى إلى موطنه الأصلي، أى «مكّه» فلا- مانع من أنّ تكون نزلت حين خروجه و هجرته من مكّه على مقربه من هذه الأرض المقدسه... لأنّ النّبى كان فى غايه الشوق و الحنين لمكّه بلد الله الحرام الآمن، و الله سبحانه يبشره فى هذه الآيه بأنّه سيردّه إلى معاده «مكّه المكرمه».

ص: ١٦٣

١-١) -يراجع فى هذا الشأن «تاريخ القرآن» لأبى عبد الله الزنجانى و «الفهرست» لابن النديم، و كتب التفسير الأخرى..

فعلى هذا الأساس يمكن أن تكون هذه الآيه-المشار إليها آنفا-مكيه، و لو فرضنا أنها نزلت «بالجحفه» فهى إلى مكه أقرب منها إلى المدينه.

و على هذا الأساس-أيضا-لا يمكن فى تقسيم الآيات إلى مكيه و مدينه- إلا أن نعد هذه الآيه (٨٥)مكيه!..

أجل..هذه السوره نزلت فى مكه...و فى ظروف كان المؤمنون فى قبضه الأعداء الأقوياء و بين مخالبيهم..الأعداء الذين كانوا أكثر عددا و أشد قدره و قوه و نفيرا..

فهؤلاء الأقلية من المؤمنين و المسلمين كانوا يرزحون تحت وطأه هذا التصور بحيث كان جماعه من المسلمين قلقين على مستقبل الإسلام و خائفين من أجله.و بما أن هذه الحاله كانت كثيره الشبه بالحاله التى كان عليها بنو إسرائيل و هم بين مخالبي الفراعنه،فإنّ قسما من محتوى هذه السوره يتحدث عن قصه بنى إسرائيل و موسى عليه السلام و الفراعنه..

و لعل هذا القسم يستوعب نصف هذه السوره تقريبا..خاصه أنها تتحدث عن فتره كان موسى طفلا ضعيفا رضيعا فى قبضه الفراعنه...و لكنّ تلك القدره التى تستوعب عالم الوجود كله-و لا تقف أيه قوه أمامها-تكفلت هذا الطفل الضعيف و رعته و هو فى أحضان أعدائه الأقوياء،حتى منحته قدره و قوه قصوى قهرت سلطان الفراعنه و نكست تيجانهم و قلبت قصورهم!!

هكذا تتحدث هذه السوره ليطمئن المسلمون إلى لطف الله و قدرته، و لا يرهبوا كثرة الأعداء و قوتهم،و لا يخافوا من الطريق ذاته!..

أجل..القسم الأوّل من هذه السوره يتضمن هذا التاريخ الملىء بالدروس و العبر و يبشر المستضعفين فى بدايه السوره بحكومته الحق و العدل لهم و كسر شوكة الظالمين،بشرى تمنحهم الاطمئنان و القدره.

تتحدث هذه السوره عن أن بنى إسرائيل كانوا مصفدين بأغلال أعدائهم ما

داموا بعيدين عن خيمه الإيمان و التوحيد، و فاقدين لأى نوع من أنواع الحركه و النهوض و السعى الذى يتحدثون به أعداءهم، لكن ما إن وجدوا قائدهم و نؤروا قلوبهم بنور العلم و التوحيد حتى أغاروا على الفراعنه و سيطروا على الحكم و حرروا أنفسهم من نير الفراعنه.

و«القسم الآخر» من هذه السوره يتحدث عن «قارون»، ذلك الرجل المستكبر الثرى الذى كان يعتمد على علمه و ثروته...حتى لقى أثر غروره ما لقيه فرعون من مصير أسود! أحدهما غريق فى الماء و الآخر دفين فى الأرض..و ذلك معتمد على سلطانه و جيشه فى حكمه، و هذا معتمد على ماله و ثروته! ليتضح أنه لا يمكن لتجار مكه و أثريائهم و لأقويائهم من المشركين، و لا سياسيينهم فى ذلك المحيط، أن يقاوموا إرادته الله فى انتصار المستضعفين على المستكبرين.

و هذا القسم جاء فى أواخر السوره.

و بين هذين القسمين دروس حيّه و قيمه من التوحيد و المعاد و أهميه القرآن، و بيان حال المشركين فى يوم القيامة، و مسأله الهدايه و الضلاله، و الإجابة على حجج الأفراد الضعاف، و هى فى الحقيقه «نتيجه» الأول و «مقدمه» للقسم الثانى.

فضيله تلاوه سوره القصص:

نقرأ فى بعض الأحاديث الوارده عن الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله أنه قال: «من قرأ طسم القصص أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بموسى و كذب به، و لم يبق ملك فى السماوات و الأرض إلا شهد له يوم القيامة أنه كان صادقاً» (١).

كما

ورد فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «من قرأ سوره الطواسين الثلاث فى ليله الجمعة كان من أولياء الله، و فى جواره و كنفه، لم يصبه

ص: ١٦٥

فى الدنيا بؤس أبدا، و أعطى فى الآخرة حتى ىرضى و فوق رضاه، و زوجه الله مائه زوجه من الحور العين» (١).

و بديهى أن كلّ هذا الأجر و الثواب هو لأولئك الذين يقفون جنبا إلى جنب مع أصحاب موسى عليه السّلام و المؤمنين الصادقين- عند قراءه هذه السوره- لىبارزوا فراعنه عصرهم و قارون زمانهم، و لا يقبعون فى الأجار أو يطأطون رؤوسهم.

عند مواجعتهم الأخطار و المشاكل و الأعداء، و لا يضيعون مواهبهم لىستغلّها الآخرون..

هذا الأجر خاص لمن يقرءون و يتفكرون، و على ضوء هذه السوره يخططون لحياتهم و عملهم..

ص: ١٦٦

١- ١) - ثواب الأعمال طبقا لنقل تفسير نور الثقلين فى بدايه سوره القصص.

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّ مِنْهُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٦) هَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦)

التفسير

اشاره

المشيئه الالهيه تقتضى انتصار:

هذه هي المره الرابعه عشره التي نواجه بها بدايات السوره «بالحروف المقطعه» في القرآن، وقد تكررت فيها طسم ثلاث مرات، و هي هنا-أى «طسم»-ثالث المرات و آخرها..

وقد بينا مرارا و تكرارا أن للحروف المقطعه من القرآن تفاسير متعدده و مختلفه، و قد ذكرناها و بحثناها بحثا وافيا في بدايات سور «البقره» و «آل

و علاوه على ذلك كله فإنه يظهر من كثير من الروايات في شأن طسم أن هذه الحروف إشارات موجزه عن صفات الله سبحانه و تعالى، أو أنها أماكن مقدسه.. و لكنّها في الوقت ذاته لا تمنع من ذلك التفسير المعروف الذي أكدنا عليه مرارا، و هو أنّ الله تعالى يريد أن يوضح هذه الحقيقه للجميع، و هي أنّ هذا الكتاب السماوى العظيم الذى هو أساس التغيير الكبير فى تاريخ البشرية و حامل المنهج المتكامل للحياه الكريمه للإنسانيه يتشكّل من أمور بسيطه كهذه الحروف «ألف باء...» التى يستطيع أن يتلفظ بها كل صبى.

و من هنا تتجلى عظمه القرآن و أهميته القصوى، إذ يتألف من هذه الحروف البسيطه التى هى فى اختيار الجميع.

و لعل هذا السبب كان داعيا لأن يكون الحديث بعد «الحروف المقطعه» مباشره عن عظمه القرآن، إذ يقول: تَلَكَّ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ، و بالرغم من أن الْكِتَابِ الْمُبِينِ جاء بمعنى اللوح المحفوظ كما قد ورد فى الآيه (٦١) من سوره يونس و لا- أَضِيغَرُ مِنْ ذَلِكْ وَ لا- أَكْبَرُ إِلَّا- فى كِتَابِ مُبِينٍ و الآيه السادسه من سوره هود كُلُّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ و لكنّه جاء بمعنى القرآن فى الآيه محل البحث بقرينه ذكر «الآيات» و كذلك جملة نَتَلُوا عَلَيْكَ الْوَارِدِ فى الآيه التى بعدها..

و قد وصف القرآن هنا بكونه «مبين» و كما يستفاد من اللغه فإنّ كلمه «مبين» تستعمل فى المعنيين «اللازم و المتعدى»، فهو واضح فى نفسه و موضح لغيره، و القرآن المجيد بمحتواه المشرق يميز الحق عن الباطل، و يبين الطريق اللائح من الطريق المعوج (1)

و القرآن بعد ذكر هذه المقدمه القصيره يحكى قصه «فرعون» و «موسى» فيقول: نَتَلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَاِ مُوسَى وَ فِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

ص: ١٦٨

التعبير ب«من» التي هي للتبعض إشاره إلى هذه اللطيفه الدقيقه، و هي أن ما ورد-هنا في القرآن-من هذه القصه ذات الأحداث الكبيره يتناسب و ما تقتضيه الضروره فحسب..

و التعبير «بالحق» إشاره إلى أنّ ما ورد هنا خال من كل خرافه و أسطوره، و بعيد عن الأباطيل و الأكاذيب.. فهي إذن تلاوه مقترنه بالحق و الواقعيه..

و التعبير ب لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ هو تأكيد على هذه الحقيقه، و هي أنّ مؤمنى ذلك العصر الذين كانوا يرزخون تحت ضغوط المشركين و الأعداء، عليهم أن يدركوا هذه الحقيقه، و هي أنّ الأعداء مهما تعاظمت قواهم و ترايدوا عددا و عددا، و أن المؤمنين مهما قلّوا و كانوا تحت ضغط أعدائهم و كانوا ضعافا بحسب الظاهر، فلا ينبغي أن يهنوا و ينكصوا عن طريق الحق، فكل شىء عند الله سهل يسيرا!..

الله الذى ربّى «موسى» فى أحضان «فرعون» لإبادته و تدميره.. الله الذى أوصل العبيد و المستضعفين إلى أن يكونوا حاكمين فى الأرض، و أذل الجبابره و المستكبرين و أبادهم.

الله الذى رعى الطفل الرضيع بين أمواج النيل فحفظه و نجاه و أغرق آلاف الفراعنه الأقوياء فى تلك الأمواج.. هو قادر على أن ينجيكم «أيها المؤمنون»..

أجل، إنّ الهدف الأصل من هذه الآيات هم المؤمنون و هذه التلاوه لأجلهم، و المؤمنون الذين يستلهمون من معانى هذه الآيات و يشقّون طريقهم-وسط زحام المشاكل و الأخطار-باطمئنان.

كان ذلك فى الحقيقه بيانا إجماليا، ثم يفصّل القرآن ما أجمله بقوله: **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ .**

فقد كان عبدا ضعيفا، و على أثر جهله و عدم معرفته أضاع شخصيته و وصل إلى مرحله من الطغيان حتى أنّه ادّعى الربوبيه.. و التعبير ب«الأرض» إشاره إلى أرض مصر و ما حولها.. و حيث أن القسم المهم العامر من الأرض فى ذلك العصر

كان «مصرًا» فقد جاء التعبير بالأرض بصورة مطلقه.

و يحتمل أيضا أنّ الألف و اللام للعهد أى «أرض مصر».

و على كل حال فإنّ فرعون-من أجل تقوية قواعده الاستكباريه-قد أقدم على عدّه جرائم كبرى!..

فالجريمه الأولى، أنّه فرّق بين أهل مصر وَ جَعَلَ أَهْلَهُمْ شَتِيحاً وَ هى سياسه معروفه و متبعه على امتداد التاريخ، و عليها يستند المستكبرون فى حكمهم، فلا- يمكن أن تحكم الأقلية-التي لا- تعدّ شيئاً-على الأ-كثريه إلا- بالخطه المعروفه «فرّق تسد» فهم مستوحشون من «كلمه التوحيد» و«توحيد الكلمه» و يخافون منهما أبدا- و يخافون من التفاف الناس بعضهم حول بعض، و لذلك يلجأون إلى الطبقيه فى الحكم، فهذه الطريقه وحدها تتكفل بقاءهم فى الحكم، كما صنعه فرعون فى أهل مصر، و يصنعه الفراعنه فى كل عصر و مصر.

أجل، إنّ فرعون قسّم أهل مصر إلى طائفتى «الأقباط» و«الأسباط».

فالأقباط هم أهل مصر «الأصليون» الذين كانوا يتمتعون بجميع وسائل الرفاه و الراحة، و كانت فى أيديهم القصور و دوائر الدوله و الحكومه.

و«الأسباط» هم المهاجرون إلى مصر من بنى إسرائيل الذين كانوا على هيئة العبيد و الخدم «فى قبضه الأقباط»! و كانوا محاطين بالفقر و الحرمان، و يحملون أشدّ الأعباء دون أن ينالوا من وراء ذلك نفعاً [و التعبير بالأهل فى شأن الطائفتين الأقباط و الأسباط هو لأنّ بنى إسرائيل كانوا قد سكنوا مصر مدّه طويله فكانوا يعدّون من أهلها حقيقه!]

و حين نسمع أن بعض الفراعنه يستعمل مائه ألف مملوك من العبيد لتشييد مقبره خلال عشرين سنه (كما هى الحال بالنسبه إلى هرم خوفو المعروف الكائن بمقبره من القاهره عاصمه مصر) و يموت فى سبيل ذلك آلاف العبيد و المماليك

على أثر الضرب بالأسواط و تحت ضغط العمل الشاق، ندرک جيدا الحاله الارهابيه السائده فى ذلك المجتمع...

و الجريمه الثانيه هى استضعافه لجماعه من أهل مصر بشكل دموى سافر كما يعبر عن ذلك القرآن بقوله: **يَسْتَضْعِفُ طَائِفَهُ مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ** .

فقد كان أصدر أمرا بأن يراقبوا الأطفال الذين يولدون من بنى إسرائيل، فإن كانوا ذكورا فإنّ حظهم الذبح، و إن كانوا إناثا فيتركن للخدمه فى المستقبل فى بيوت الأقباط.

و ترى ماذا كان يهدف فرعون من وراء عمله هذا؟! المعروف أنّه رأى فى منامه أن شعله من النار توهجت من بيت المقدس و أحرقت جميع بيوت مصر، و لم تترك بيتا لأحد من الأقباط إلاّ أحرقت، و لكنّها لم تمسّ بيوت بنى إسرائيل بسوء، فسأل الكهنة و المعبرين للرؤيا عن تأويل ذلك، فقالوا له: يخرج رجل من بيت المقدس يكون على يديه هلاكك و زوال حكمه الفراعنه (1).

و أخيرا كان هذا الأمر سببا فى عزم فرعون على قتل الرضع من الأطفال الذكور من بنى إسرائيل (2).

كما يحتمل -أيضا- أنّ الأنبياء السابقين بشّروا بظهور موسى عليه السّلام و خصائصه، و قد أحزن الفراعنه خبره، فلما أطلعوا على هذا الأمر أقدموا على التصدى له (3).

و لكون ورود جملة **يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ** بعد جملة **يَسْتَضْعِفُ طَائِفَهُ مِنْهُمْ**

ص: ١٧١

١-١) -راجع فى ذلك مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٣٩، و التفسير الكبير للفخر الرازى ذيل الآيات.

٢-٢) -المصدر السابق.

٣-٣) -راجع التفسير الكبير للفخر الرازى-ذيل الآيه محل البحث.

فإنَّ مسأله أخرى تتجلى أمامنا، وهى أنَّ الفراعنه اتَّخذوا خطه لاستضعاف بنى إسرائيل بذبح الأبناء، لئلا يستطيع بنوا إسرائيل أن يواجهوا الفراعنه و يحاربوهم، و كانوا يتركون النساء اللاتى لا طاقه لهن على القتال و الحرب، ليكبرن ثمَّ يخدمن فى بيوتهم.

و الشاهد الآخر هو الآيه (٢٥) فى سوره المؤمن، إذ يستفاد منها-بصوره جيده- أن خطه قتل الأبناء و استحياء النساء كانت موجوده حتى بعد ظهور موسى عليه السلام [و مجيئه إلى الفراعنه]

إذ تقول: فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَ اسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَ مَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ .

و جملة يَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ يظهر منها أنَّهم كانوا يصرون على إبقاء البنات و النساء، إمَّا لكى يخدمن فى بيوت الأقباط، أو للاستمتاع الجنسى، أو لكلا الأمرين جميعا.

و فى آخر جملة تأتى الآيه بتعبير جامع، و فيه بيان العله أيضا فتقول: إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ .

و باختصار فإنَّ عمل فرعون يتلخص فى الفساد فى الأرض، فاستعلاؤه كان فسادا، و إيجاد الحياه الطبقية فى مصر فساد آخر، و تعذيب بنى إسرائيل و استضعافهم و ذبح أبنائهم و استحياء نساءهم ليخدمن فى بيوت الأقباط فساد ثالث، و سوى هذه المفاسد كانت لديه مفاسد كثيره أخرى أيضا.

و التعبير ب«يذبح» المشتق من ماده «المذبح» تدل على معامله الفراعنه لبنى إسرائيل كمعامله القصابين للأغنام و الأنعام الأخرى، إذ كانوا يذبحون هؤلاء الناس الأبرياء و يحتزون رؤوسهم! (١).

ص: ١٧٢

١ - ١) - ممَّا يلفت النظر أنَّ ماده (ذبح) فى الفعل الثلاثى مجرّده، و فعلها متعدّد بنفسه، و لكنّها هنا استعملت بصيغه التفعيل لتدلّ على الكثرة، كما تستفاد من صيغه المضارع الاستمرار على هذه الجنايه [فلاحظوا بدقه] .

و فى هذه الخطة الإجراميه من قبل الفراعنه ضد الحوامل قصص مذكوره، إذ قال بعضهم: إن فرعون كان قد أمر برقابه مشدده على النساء الحوامل من بنى إسرائيل، و أن لا- يلى إيلادهن إلا- قابله من القبطيات و الفرعوتيات، فإذا كان المولود ذكرا فإن جلاوزه القصر الفرعونى يأتون ليتسلموا «قربانهم» (١).

و لا يعرف بدقه كم بلغ عدد «ضحايا الحوامل» من أطفال بنى إسرائيل على أثر هذه الخطة الإجراميه؟ قال بعضهم: كان الضحايا من الأطفال المواليد تسعين ألفا، و أوصلها بعضهم إلى مئات الآلاف!..

لقد كانوا يظنون أنهم سيفقون بوجه إرادته الله الحتميه بهذه الجرائم الوحشيه، فلا ينهض بنوا إسرائيل ضدهم و لا يزول سلطانهم.

ثم تأتي الآيه الأخرى لتقول: إن إرادتنا و مشيئتنا اقتضت احتواء المستضعفين بلطفنا و كرما و نريد أن نمنّ على الذين استضعفوا فى الأرض و أن تشملهم رعايتنا و مواهبنا تكون بيد الحكومه و مقاليد الأمور: وَ نَجْعَلُهُمُ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلُهُمُ الْوَارِثِينَ .

و يكونون اولى قوه و قدره فى الأرض وَ نُمَكِّنْ لَهُمْ فى الأَرْضِ وَ نُرِىْ فِرْعَوْنَ وَ هَامَانَ وَ جُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ما أبلغ هاتان الآيتان، و ما أعظم ما فيهما من رجاء و أمل!.. إذ جاءتا بصوره الفعل المضارع و الاستمرار، لئلا يتصور أنهما مختصتان بالمستضعفين من بنى إسرائيل و حكومه الفراعنه، إذ تبدآن بالقول: وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ

أى إن فرعون أراد أن يجعل بنى إسرائيل شذر مذر و يكسر شوكتهم و يبير قواهم و قدرتهم، و لكننا أردنا-و نريد- أن ينتصروا و يكونوا أقوىاء! فرعون يريد أن تكون الحكومه بيد المستكبرين إلى الأبد. و لكننا أردنا أن تكون بيد المستضعفين، فكان كما أردنا.

ص: ١٧٣

والتعبير ب«نمّن» كما أشرنا إلى ذلك من قبل، معناه منح الهبات و النعم، و هو يختلف تمام الاختلاف مع «المنّ» المراد به عدّ النعم لتحقير الطرف المقابل، و هو مذموم قطعاً.

و يكشف الله في هاتين الآيتين الستار عن إرادته و مشيئته بشأن المستضعفين، و يذكر في هذا المجال خمسة أمور بعضها مرتبط ببعض و متقاربه أيضاً:

الأول: قوله تعالى: وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ... لنشملهم بالمواهب و النعم.. إلخ.

الثاني: قوله: وَ نَجْعَلُهُمْ أُتْمَةً .

الثالث: قوله: وَ نَجْعَلُهُمُ الْوَارِثِينَ أى المستخلفين بعد الفراعنه و الجبابره.

الرابع: قوله: وَ نُمَكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أى نجعلهم يحكمون فى الأرض و تكون السلطه و القدره و غيرهما لهم و تحت تصرفهم..

و الخامس: إن ما كان يحذره الأعداء منهم و ما عبأوه لمواجهتهم يذهب أدراج الرياح، و تكون العاقبه لهم وَ نُرى فِرْعَوْنَ وَ هَامَانَ وَ جُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ .

هكذا لطف الله و عنايته فى شأن المستضعفين، أما من هم أولئك المستضعفون؟! و ما هى أوصافهم؟! فستتحدث عن كل ذلك بعد قليل بأذن الله و كان «هامان» وزير فرعون المعروف يتمتع بنفوذ و سلطه إلى درجه أن الآيه المتقدمه إذ تتحدث عن جنود مصر فإنها تعزوهم إلى فرعون و هامان معا (و سيأتى مزيد إيضاح و شرح عن حال هامان بأذن الله فى ذيل الآيه (٣٨) من هذه السوره ذاتها).

١- حكومه المستضعفين العالميه

قلنا: إن الآيات المتقدمه لا تتحدث عن فتره خاصه أو معينه، ولا تختص ببني إسرائيل فحسب، بل توضح قانونا كليا لجميع العصور والقرون ولجميع الأمم والأقوام، إذ تقول: وَ تُرِيدُ أَنْ نُمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ .

فهى بشاره فى صدد انتصار الحق على الباطل و الإيمان على الكفر.

و هى بشاره لجميع الأحرار الذين يريدون العدالة و حكومه العدل و انطواء بساط الظلم و الجور.

و حكومه بنى إسرائيل و زوال حكومه الفراعنه ما هى إلا- نموذج لتحقيق هذه المشيئه الإلهيه و المثل الأكمل هو حكومه نبى الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم و أصحابه بعد ظهور الإسلام..حكومه الحفاه العفاه و المؤمنين المظلومين الذين كانوا موضع تحقير فراعنه زمانهم و استهزائهم و يرزخون تحت تأثير الضغوط «الظالمه» لائمه الكفر و الشرك.

و كانت العاقبه أن الله فتح على أيدى هؤلاء المستضعفين أبواب قصور الأكاسره و القياصره، و أنزل أولئك من أسره الحكم و القدره و أرغم أنوفهم بالتراب.

و المثل الأكبر و الأوسع هو ظهور حكومه الحق و العدالة على جميع وجه البسيظه-و الكره الأرضيه-على يد «المهدى» أرواحنا له الفداء.

فهذه الآيات هى من جمله الآيات التى تبشّر-بجلاء-بظهور مثل هذه الحكومه، و نقرأ عن أهل البيت عليهم السلام فى تفسير هذه الآيه أنها إشاره إلى هذا الظهور العظيم.

فقد ورد فى نهج البلاغه عن على عليه السلام قوله: «لتعطفن الدنيا علينا بعد شماسها

عطف الضروس على ولدها، و تلا عقيب ذلك: وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ « (١).

و

في حديث آخر نقرأ عنه عليه السلام في تفسير الآية المتقدمة قوله: «هم آل محمد صلى الله عليه وآله يبعث الله مهديهم بعد جهدهم فيعزهم و يذل عدوهم» (٢).

و نقرأ

في حديث آخر عن الإمام على بن الحسين زين العابدين عليه السلام قوله:

«و الذي بعث محمدا بالحق بشيرا و نذيرا، إن الأبرياء منا أهل البيت و شيعتهم بمنزله موسى و شيعته، و إن عدونا و أشياعهم بمنزله فرعون و أشياعه» (٣) (أى سننتصر أخيرا و ينهزم أعداؤنا و تعود حكومه العدل و الحق لنا).

و من الطبيعي أن حكومه المهدي عليه السلام العالميّه في آخر الأمر لا تمنع من وجود حكومات إسلاميه في معايير محدوده قبلها من قبل المستضعفين ضد المستكبرين، و متى ما تمت الظروف و الشروط لمثل هذه المحكومات الإسلاميه فإن وعد الله المحتوم و المشيئه الإلهيه سيتحققان في شأنها، و لا بد أن يكون النصر حليفها بإذن الله.

٢- من هم المستضعفون و من هم المستكبرون!؟

كلمه «المستضعف» مشتقه من ماده «ضعف»، و لكنّها لما استعملت في باب «الاستفعال» دلت على من يكبل بالقيد و الغلّ و يجرّ إلى الضعف.

و بتعبير آخر: ليس المستضعف هو الضعيف و الفاقد للقدره و القوه.. بل المستضعف من لديه قوى بالفعل و بالقوه، و لكنّه واقع تحت ضغوط الظلمه و الجابره، و برغم أنّه مكبل بالأغلال في يديه و رجليه فإنّه غير ساكت

ص: ١٧٦

١- (١) - نهج البلاغه-الكلمات القصار رقم ٢٠٩.

٢- (٢) - الغيبه للشيخ الطوسى حسب نقل تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ١١٠.

٣- (٣) - مجمع البيان ذيل الآية.

و لا يستسلم، و يسعى دائما لتحطيم الأغلال و نيل الحريه، و التصدى للجبايره و المستكبرين، و نصره مبدأ العدل و الحق.

فاللّٰه سبحانه و عد أمثال هؤلاء بالمنّ و بالحكومه على الأرض، لا الأفراد الجبناء الذين لا يجروّن على ادنى اعتراض فكيف إذا حمى الوطيس و حان أوان التضحيه و الفداء؟! فبنوا إسرائيل استطاعوا أن يأخذوا الحكومه و يرثوها من الفراعنه لأنهم التفوا حول موسى عليه السّلام و عبّؤوا قواهم و شكّلوا صفا واحدا، و استكملوا بقايا إيمانهم الذى ورثوه عن جدّهم إبراهيم الخليل، و نفذوا الخرافات عن أفكارهم و نهضوا مع موسى عليه السّلام.

و بالطبع فإنّ المستضعفين أنواع، فهناك مستضعف فكرى، و هناك مستضعف ثقافى، و هناك مستضعف اقتصادى، و آخر مستضعف سياسى، أو أخلاقى، و أكثر ما أكّد عليه القرآن هو الاستضعاف السياسى و الأخلاقى!.

و ما من شك أنّ المستكبرين الجبايره يسعون أبدا لأن يجروا قرايبنهم إلى الاستضعاف الفكرى و الثقافى، ثم إلى الاستضعاف الاقتصادى، لئلا تبقى لهم قوّه و لا قدره، و لئلا يفكروا بالنهوض و تولى زمام الحكومه.

و فى القرآن المجيد ورد الكلام عن المستضعفين فى خمسهِ موارد، و على العموم فإنّ هذا الكلام يدور حول المؤمنين الذين يرزخون تحت ضغوط الجبايره.

ففى مكان من القرآن الكريم يدعو إلى الجهاد و المقاتله فى سبيل الله و المستضعفين إذ يقول: **وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَ النِّسَاءِ وَ الْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ**

و فى مكان واحد فقط ورد الكلام عن الذين أعانوا الكفار و ظلموا أنفسهم، و ادعوا أنهم مستضعفون، و لم يهاجروا فى سبيل الله، فالقرآن ينفى عنهم هذا الاستضعاف فيقول: إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ أَسَعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٢).

و على كل حال فإنه القرآن فى كل مكان منه يدافع عن المستضعفين و يذكّرهم بخير، و يعبر عنهم بالمؤمنين الذين يرزخون تحت ضغوط المستكبرين... المؤمنون المجاهدون و الساعون بجدّهم المشمولون بعنايه الله و لطفه.

٣- أسلوب المستكبرين على مدى التاريخ

لم يكن فرعون وحده يذبح أبناء بنى إسرائيل و يستحيى نساءهم لا ذلّهم، فعلى مدى التاريخ نجد أسلوب الجبايره على هذه الشاكلة، حيث يسعون لتعطيل القدرات و القوى بأيه وسيلة كانت، فحيث لم يستطيعوا قتل «الرجال» يلجأون إلى قتل «الرجولة»، و يذوّبون روح الشهامه بنشر الفساد و المخدّرات و الفحشاء و المنكر و الانحراف الجنسى و كثره الشراب و القمار، ليستطيعوا براحه بال و اطمئنان خاطر أن يواصلوا حكمهم و حكومتهم.

و لكنّ أنبياء الله، و خاصّه نبى الإسلام صلّى الله عليه و آله كانوا يسعون لإيقاظ قوى الفتوه النائمه و يشحنوا قدرات الشباب الهائله، و يحرروهم من أسر الذله، و كانوا

ص: ١٧٨

١-١) -النساء، الآية ٧٥.

٢-٢) -النساء، الآية ٩٧.

يعلمون حتى النساء دروساً من الشجاعه و الشهامه،ليقفن فى صفوف الرجال ضد المستكبرين.

و الشواهد على هذين المنهجين فى البلاد الإسلاميه فى التأريخ المعاصر و التأريخ القديم كثيره و واضحه جيداً،فلا حاجه لسردها و ذكرها بتفصيل.

ص: ١٧٩

اشاره

وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَ جَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَ هَامَانَ وَ جُنُودَهُمْ كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَ قَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَ لَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩)

التفسير

اشاره

في قصر فرعون!

من أجل رسم مثل حيّ لانتصار المستضعفين على المستكبرين، يدخل القرآن المجيد في سرد قصه موسى و فرعون، و يتحدث بالخصوص عن مراحل يكون فيها موسى في أشدّ حالات الضعف، أمّا فرعون فهو في أقوى الحالات و أكثرها هيمنه... ليتجسّد انتصار مشيئه الله على إرادته الجباره في أعلى الصور و أحسن الوجوه..

يقول القرآن: وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ

فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ

و هذه الآيه على ايجازها تشتمل على أمرين و نهيين و بشارتين، و هى خلاصه قصه كبيره و ذات أحداث و مجريات نقلها بصوره مضبوطه:

كانت سلطه فرعون و حكومته الجائره قد خططت تخطيطا واسعا لذبح «الأطفال» من بنى إسرائيل حتى أن القوابل [من آل فرعون]

كن يراقبن النساء الحوامل [من بنى إسرائيل]

و من بين هؤلاء القوابل كانت قابله لها علاقه مودّه مع أمّ موسى عليه السّلام «و كان الحمل خفيا لم يظهر أثره على أم موسى» و حين أحست أم موسى بأنّها مقرب و على أبواب الولاده أرسلت خلف هذه القابله و أخبرتها بالواقع، و أنّها تحمل جنينا فى بطنها و توشك أن تضعه، فهى بحاجه- هذا اليوم- إليها.

و حين ولد موسى عليه السّلام سطع نور بهي من عينيه فاهتزّت القابله لهذا النور و طبع حبه فى قلبها، و أثار جميع زوايا قلبها.

فالتفت القابله إلى أم موسى و قالت لها: كنت أروم أن أخبر الجهاز الفرعونى بهذا الوليد ليأتى الجلاوزه فيقتلوه «و أنال بذلك جائزتى» و لكن ما عسى أن أفعل و قد وقع حبه الشديد فى قلبى، و أنا غير مستعده لأن تنقص و لو شعره واحده من رأسه، فاهتمى بالمحافظه عليه، و أظنّ أن عدونا المتوقع سيكون هذا الطفل أخيرا.

ثمّ خرجت القابله من بيت أم موسى فرآها بعض الجواسيس من جلاوزه فرعون و صمموا على أن يدخلوا البيت، فعرفت أخت موسى ما أقدموا عليه فأسرعت إلى أمها و أخبرتها بأن تنهيا للأمر، فارتبكت و لم تدر ما ذا تصنع؟! و فى هذه الحاله من الارتباك و هى ذاهله لفت وليدها «موسى» بخرقه و ألقتة فى النور فإذا بالمأمورين و الجواسيس يقتحمون الدار، فلم يجدوا شيئا إلاّ النور المشتعل نارا... فسألوا أم موسى عن سبب دخول القابله عليها فقالت: إنّها صديقتى و قد

جاءت زائره فحسب، فخرجوا عايسين.

ثمّ عادت أمّ موسى إلى رشدّها و صوابها و سألت «أخت موسى» عن أخيها فأظهرت عدم معرفتها بمكانه، و إذا البكاء يعلو من داخل التنور، فركضت إلى التنور فرأت موسى مسالما و قد جعل الله النار عليه بردا و سلاما «الله الذي نجّى إبراهيم الخليل من نار النمرود» فأخرجت وليدها سالما من التنور.

لكن الأمّ لم تهدأ إذ أن الجواسيس يمضون هنا و هناك و يفتشون البيوت يمنه و يسره، و كان الخطر سيقع لو سمعوا صوت هذا الطفل الرضيع.

و في هذه الحال اهتدت أم موسى بإلهام جديد، إلهام ظاهره أنّه مدعاه للخطر، و لكن مع ذلك أحسّت بالاطمئنان أيضا.

كان ذلك من الله و لا بدّ أن يتحقق، فلبست ثياب عملها و صممت على أن تلقى وليدها في النيل.

فجاءت إلى نجار مصرى «و كان النجار من الأقباط و الفراعنه أيضا» فطلبت منه أن يصنع صندوقا صغيرا.

فسألها النجار قائلا: ما تصنعين بهذا الصندوق مع هذه الأوصاف؟ و لكن الأمّ لما كانت غير متعوده على الكذب لم تستطع دون أن تقول الحق و الواقع، و أنّها من بنى إسرائيل و لديها طفل تريد إخفاءه في الصندوق.

فلما سمع النجار القبطى هذا الخبر صمم على أن يخبر الجلاوزه و الجلّادين، فمضى نحوهم لكن الرعب سيطر على قلبه فارتج على لسانه و كلّما حاول أن يفهمهم و لو كلمه واحده لم يستطع، فأخذ يشير إليهم إشارات مبهمه، فظن أولئك أنّه يستهزئ بهم فضربوه و طردوه، و لما عاد إلى محله عاد عليه وضعه الطبيعى، فرجع ثانيه إليهم ليخبرهم فعادت عليه الحاله الأولى من الارتجاج و العى، و أخيرا فقد فهم أن هذا أمر إلهى و سرّ خفى، فصنع الصندوق و أعطاه لأمّ موسى.

و لعلّ الوقت كان فجرا و الناس -بعد- نيام، و في هذه الحال خرجت أم

موسى و فى يديها الصندوق الذى أخفت فيه ولدها موسى،فاتجهت نحو النيل و أرضعت موسى حتى ارتوى،ثم ألقت الصندوق فى النيل فتلقفته الأمواج و أخذت تسير به مبتعدة عن الساحل،و كانت أم موسى تشاهد هذا المنظر و هى على الساحل..و فى لحظه أحست أن قلبها انفصل عنها و مضى مع الأمواج، فلو لا لطف الله الذى شملها و ربط على قلبها لصرخت و لانكشف الأمر و اتضح كل شىء.

و لا أحد يستطيع أن يصور فى تلك اللحظات الحساسه-قلب الأم بدقه.

لا- يستطيع أى أحد أن يصور حال أم موسى و ما أصابها من الهلع و الفرع ساعه ألقت طفلها فى النيل و لكن هذه الأبيات المترجمه عن الشاعر«پروين اعتصامى»-بتصرف-تحكى صورته«تقريبه»عن ذلك الموقف:

أم موسى حين ألقت طفلها

للذى رب السما أوحى لها

نظرت للنيل يمضى مسرعا

آه لو تعرف حقا حالها

و دوى الموج فيه صاحب

و فتاها شاغل بلبالها

و تناغيه بصمت:ولدى

كيف يمضى بك هذا الزورق

دون ربان،و إن ينسك من

هو ذو لطف فمن ذا يشفق

فأتاها الوحى:مهلا،و دعى

باطل الفكر و وهما يزهب

إن موسى قد مضى للمنزل

فاتق الله و لا تستعجلى

قد تلقينا الذى ألقىته
بيد ترعى الفتى لا تجهلى
و خريير الماء أضحي مهده
فى اهتزاز مؤنس إن تسألى
و له الموج رؤوما حدبا
يأمر البحر فيغدو هائجا
و له الطوفان طوعا مائجا
عالم الإيجاد من آثاره
كل شىء لعلاه عارجا
أين تمضين دعيه فله
خير ربّ يرتضيه لا هجا
كل هذا من جهه!..

أمّ موسى حين أَلقت طفلها

للذى رب السما أوحى لها

نظرت للنيل يمضى مسرعا

آه لو تعرف حقا حالها

و دوى الموج فيه صاحب

و فتاها شاغل بلبالها

و تناغيه بصمت:ولدى

كيف يمضى بك هذا الزورق

دون ربان،و إن ينسك من

هو ذو لطف فمن ذا يشفق

فأتاها الوحى:مهلا،و دعى

باطل الفكر و وهما يزهدق

إن موسى قد مضى للمنزل

فاتق الله و لا تستعجلى

قد تلقينا الذى ألقيته

بيد ترعى الفتى لا تجهلى

و خريير الماء أضحى مهده

فى اهتزاز مؤنس إن تسألى

و له الموج رؤوما حدبا

يأمر البحر فيغدو هائجا

و له الطوفان طوعا مائجا

عالم الإيجاد من آثاره

كل شيء لعلاه عارجا

أين تمضين دعيه فله

خير ربّ يرتضيه لا هجا

كل هذا من جهه!..

و لكن تعالوا لنرى ما يجرى فى قصر فرعون؟! ورد فى الأخبار أنّ فرعون كانت له بنت مريضه، و لم يكن له من الأبناء سواها، و كانت هذه البنت تعاني من آلام شديده لم ينفعها علاج الأطباء، فلجأ إلى الكهنة فقالوا له: نتكهن و نتوقع أن إنسانا يخرج من البحر يكون شفاؤها من لعاب فمه حين يدهن به جسدها، و كان فرعون و زوجته «آسيه» فى انتظار هذا «الحادث» و فى يوم من الأيام.. فجاءه لاج لعيونهما صندوق تتلاطمه أمواج النيل فلفت الأنظار، فأمر فرعون عمّاله أن يأتوا به ليعرفوا ما به؟! و مثل الصندوق «المجهول» الخفى أمام فرعون، و لم يتمكن أحد أن يفتحه.

بلى كان على فرعون أن يفتحه لينجو موسى على يد فرعون نفسه، و فتح الصندوق على يده فعلا!.

فلما وقعت عين آسيه عليه سطع منه نور فأضاء قلبها، و دخل حبّه فى قلوب الجميع، و لا سيما قلب امرأه فرعون «آسيه».. و حين شفيت بنت فرعون من لعاب فمه زادت محبته أكثر فأكثر (1).

و لنعد الآن إلى القرآن الكريم لنسمع خلاصه القصّه من لسانه! يقول القرآن

ص :

١ - ١) -ورد هذا القسم من الروايه عن ابن عباس فى تفسير الفخر الرازى كما هناك روايات آخرها فى تفسير «أبو الفتوح» و«مجمع البيان».

فى هذا الصدء: فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا .

كلمه «التقط» مأخوذه من مائه «التقاط» و معناه فى الأصل الوصول إلى الشىء دون جهد و سعى، و إنما سميت الأشياء التى يعثر عليها «لقطه» للسبب نفسه أيضا..

و بديهى أن الفراعنه لم يجلبوا الصندوق الذى فيه الطفل الرضيع من الماء ليربوه فى أحضانهم فىكون لهم عدوا لدودا، بل أرادوه- كما قالت امرأه فرعون- قره عين لهم.

و لكن النتيجة و العاقبه.. كان ما كان و حدث ما حدث.. و كما يقول علماء الأءب: إِنَّ اللام فى الآيه هنا فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ.. هى «ال- العاقبه» ليست «لام العله» و لطافه التعبير كامنه فى أَنَّ اللّٰه سبجانه يريد أن يبين قدرته، و كيف أن هذه الجماعه «الفراعنه» عبأت جميع قواها لقتل بنى إسرائيل، و إذا الذى أرادوا قتله- و كانت كل هذه المقدمات من أجله- يتربى فى أحضانهم كأعزّ أبنائهم.

و التعبير- ضمنا- بآل فرعون يدل على أَنَّ الملتقط لم يكن واحدا، بل اشترك فى التقاط الصندوق جماعه من آل فرعون، و هذا بنفسه شاهد على أنهم كانوا ينتظرون مثل هذا الحدث!.

ثم تختتم الآيه بالقول: إِنَّ فِرْعَوْنَ وَ هَامَانَ وَ جُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ .

كانوا خاطئين فى كل شىء، و أى خطأ أعظم من أن يحيدوا عن طريق العدل و الحق، و أن يبنوا قواعد حكمهم على الظلم و الجور و الشرك!.

و أى خطأ أعظم أن يذبخوا آلاى الأطفال لىقتلوا موسى عليه السلام، و لكن الله سبحانه أودعه فى أيديهم و قال لهم: خذوا عدوكم هذا و ربّوه ليكبر عندكم؟! (١)

ص: ١٨٥

١- ١) -يقول الراغب فى مفرداته: إن الفرق بين «الخاطى» و «المخطى» هو أنّ الخاطى هو من يقدم على عمل لا يخرج من عهده و يطوى طريق الخطأ بنفسه.. أمّا المخطى فىقال فى من يقدم على عمل و يخرج من عهده، إلاّ أنه يخطى فى الأثناء صدفه، فيتلف العمل.

و يستفاد من الآيه التاليه أن شجارا حدث ما بين فرعون و امرأته، و يحتمل أن بعض أتباعه كانوا قد وقفوا عند رأس الطفل ليقتلوه، لأنّ القرآن الكريم يقول في هذا الصدد: **وَ قَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتْ عَيْنٌ لِي وَ لَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَ لَدَاءً...**

و يلوح للنظر أنّ فرعون وجد في مخايل الطفل و العلامت الأخرى و من جملةتها إيداعه في التابوت «الصندوق» و إلقاءه بين أمواج النيل، و ما إلى ذلك- أن هذا الطفل من بنى إسرائيل، و أن زوال ملكه على يده، فجمتم كابوس ثقيل على صدره من الهم و ألقى على روحه ظلّه، فأراد أن يجرى قانون إجرامه عليه.

فأيده أطرافه و أتباعه المتملقون على هذه الخطه، و قالوا: ينبغي أن يذبح هذا الطفل، و لا دليل على أن لا يجرى هذا القانون عليه.

و لكن آسياه امرأه فرعون التي لم ترزق ولدا ذكرا، و لم يكن قلبها منسوجا من قماش عمال قصر فرعون، و وقفت بوجه فرعون و أعوانه و منعتهم من قتله.

و إذا أضفنا قصه شفاء بنت فرعون بلعاب فم موسى- على ما قدمناه- فسيكون دليلا آخر يوضح كيفيه انتصار آسياه في هذه الازمه.

و لكن القرآن- بجملة مقتضيه و ذات مغزى كبير- ختم الآيه قائلا: **وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ!**

أجل، إنهم لم يشعروا أنّ أمر الله النافذ و مشيئته التي لا- تقهر، اقتضت أن يتربى هذا الطفل في أهم المراكز خطرا... و لا- أحد يستطيع أن يردّ هذه المشيئه، و لا يمكن مخالفتها أبدا..

تخطيط الله العجيب..

إظهار القدره..ليس معناه أن الله إذا أراد أن يهلك قوما جبارين، يرسل عليهم جنود السماوات و الأرض، فيهلكهم و يدمرهم تدميرا.

إظهار القدره هو أن يجعل الجباره و المستكبرين يدمرون أنفسهم بأيديهم، يلهم قلوبهم بالإلقاء أنفسهم فى البئر التى حفروها لغيرهم، و أن يصنعوا لأنفسهم سجنا يموتون فيه! و أن يرفعوا أعواد المشانق ليعدموا عليها!..

و فى قضيه الفراعنه الجباره المعاندين حدث مثل هذا، و تمت تربيته موسى و نجاته فى جميع المراحل على أيديهم.

فالقابله التى أولدت موسى كانت من الأقباط.

و النجار الذى صنع الصندوق الذى أخفى فيه موسى كان قبطيا.

و الذين التقطوا الصندوق كانوا من آل فرعون!.

و الذى فتح باب الصندوق كان فرعون بنفسه أو امرأته آسيه.

و أخيرا فإن المكان الآمن و الهادى الذى تربى فيه موسى -البطل الذى قهر فرعون- هو قصر فرعون ذاته.

و بهذا الشكل يظهر الله تعالى قدرته.

اشاره

وَ أَصِيحَ فُوَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِعَاً إِنَّ كَادَتْ لِتُبَدِيَ بِهِ لَوْ لَا أَنَّ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) وَ حَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلٍ فَقَالَتْ هَيْلٌ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَ هُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَ لَا تَحْزَنَ وَ لَتَعْلَمَنَّ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣)

التفسير

اشاره

عوده موسى إلى حضن أمه:

في هذه الآيات تتجسد مشاهد جديده..فأمّ موسى التي قلنا عنها:إنها ألفت ولدها في أمواج النيل،بحسب ما فضّلنا آنفا..اقتحم قلبها طوفان شديد من الهمّ على فراق ولدها،فقد أصبح مكان ولدها الذي كان يملأ قلبها خاليا و فارغا منه.

فأوشكت أن تصرخ من أعماقها و تذيع جميع أسرارها،لكن لطف الله تداركها،و كما يعبر القرآن الكريم وَ أَصِيحَ فُوَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِعَاً إِنَّ كَادَتْ لِتُبَدِيَ بِهِ لَوْ لَا أَنَّ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .

«الفارغ» معناه الخالي، و المقصود به هنا أن قلب أم موسى أصبح خاليا من كل شيء إلا من ذكر موسى.. وإن كان بعض المفسيّرين يرون أن المقصود به هو خلوّ القلب من الهمّ و الغمّ، أو أنّه خال من الإلهام و البشائر التي بشرت بها أم موسى من قبل، و لكن مع الالتفات لهذه الجملة و التدقيق فيها يبدو هذا التفسير غير صحيح.

و طبيعيّ تماما أنّ أمّا تفارق ولدها بهذه الصورة يمكن أن تنسى كل شيء إلا ولدها الرضيع، و يبلغ بها الذهول درجه لا تلتفت معها إلى ما سيصيبها و ولدها من الخطر لو صرخت من أعماقها و أذاعت أسرارها.

و لكن الله الذي حمّل أم موسى هذا العبء الثقيل ربط على قلبها لتؤمن بوعد الله، و لتعلم أنّه بعين الله، و أنّه سيعود إليها و سيكون نبيا.

كلمه «ربطنا» من ماده «ربط» و معناها فى الأصل شدّ وثاق الحيوان أو ما أشبهه بمكان ما ليكون محفوظا فى مكانه، و لذلك يدعى هذا المحلّ الذى تربط فيه الحيوانات ب «الرباط» ثمّ توسعوا فى اللغه فصار معنى الربط: الحفظ و التقويه و الاستحكام، و المقصود من «ربط القلب» هنا تقويته.. أى تثبيت قلب أم موسى، لتؤمن بوعد الله و تتحمل هذا الحادث الكبير.

و على أثر لطف الله أحست أم موسى بالاطمئنان، و لكنّها أحبّت أن تعرف مصير ولدها، و لذلك أمرت أختها أن تتبع أثره و تعرف خبره و قالتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيه .

كلمه «قُصِّيه» مأخوذه من ماده «قَصَّ» على زنه «نَصَّ» و معناها البحث عن آثار الشيء، و إنّما سميت القُصّه قُصّه لأنّها تحمل فى طياتها أخبارا مختلفه يتبع بعضها بعضا.

فاستجابت «أخت موسى» لأمر أمّها، و أخذت تبحث عنه بشكل لا يثير الشبهه، حتى بصرت به من مكان بعيد، و رأّت صندوقه الذى كان فى الماء يتلقفه

آل فرعون..و يقول القرآن فى هذا الصدد: فَصَبَّرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ .

و لكن أولئك لم يلتفتوا إلى أن أخته تتعقبه وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ .

قال البعض: إن خدم فرعون كانوا قد خرجوا بالطفل من القصر بحثا عن مرضعه له، فرأتهم أخت موسى.

و يبدو أن التفسير الأول أقرب للنظر، فعلى هذا بعد رجوع أم موسى إلى بيتها أرسلت أخته للبحث عنه، فرأت -من فاصله بعيدة- كيف استخرجه آل فرعون من النيل لينجو من الخطر المحقق.

هناك تفاسير أخرى لجمله وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ أيضا.

فالعلامه «الطبرسى» لا- يستبعد أن يكون تكرار هذه الجملة فى الآيه السابقه و الآيات اللاحقه إشاره إلى هذه الحقيقه، و هى أن فرعون جاهل بالأمر الى هذه الدرجه فكيف يدعى الربوبيه؟ و كيف يريد أن يحارب مشيئه الله التى لا تقهر!؟.

و على كل حال، فقد اقتضت مشيئه الله أن يعود هذا الطفل إلى أمه عاجلا ليطمئن قلبها، لذلك يقول القرآن الكريم: وَ حَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ (١) .

و طبيعى أن الطفل الرضيع حين تمر عليه عدّه ساعات فإنه يجوع و يبكى و لا يطيق تحمل الجوع، فيجب البحث عن مرضع له، و لا سيما أن ملكه مصر «امرأه فرعون» تعلق قلبها به بشده، و أحبته كروحها العزيزه.

كان عمال القصر يركضون من بيت لآخر بحثا عن مرضع له، و العجيب فى الأمر أنه كان يأبى أئداء المرضعات.

لعل ذلك آت من استيحاشه من وجوه المرضعات، أو أنه لم يكن يتذوق

ص: ١٩٠

١ - ١) - «المراضع» جمع «مرضع» على زنه «مخبر» و معناها المرأه التى تسقى الطفل لبنها من ثديها، و قال البعض: (المراضع) جمع (مرضع) على زنه (مكتب) أى مكان الإرضاع، أى، «الأئداء» و قال البعض: يحتمل أن تكون الكلمه جمعا للمصدر الميمى «مرضع» بمعنى الرضاع، و لكن المعنى الأول أنسب كما يبدو..

ألبانهن، إذ يبدو لبن كلّ منهن مرّا في فمه، فكأنّه يريد أن يقفز من أحضان المراضع، وهذا هو التحريم التكويني من قبل الله تعالى إذ حرّم عليه المراضع جميعا.

و لم يزل الطفل لحظه بعد أخرى يجوع أكثر فأكثر و هو يبكي و عمال فرعون يدورون به بحثا عن مريض بعد أن ملأ قصر فرعون بكاء و ضجيجا، و ما زال العمال في مثل هذه الحال حتى صادفوا بنتا أظهرت نفسها بأنّها لا تعرف الطفل، فقالت: هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ .

إنّني أعرف امرأه من بنى إسرائيل لها ثديان مملوءان لبنا، و قلب طافح بالمحبّة، و قد فقدت وليدها، و هي مستعدة أن تتعهد الطفل الذي عندكم برعايتها.

فسير بها هؤلاء و جاءوا بأمّ موسى إلى قصر فرعون، فلما شمّ الطفل رائحه أمّه التقم ثديها بشغف كبير، و أشرقت عيناه سرورا، كما أن عمال القصر سرّوا كذلك لأنّ البحث عن مربيه له أعياهم، و امرأه فرعون هي الأخرى لم تكتم سرورها للحصول على هذه الممرضع أيضا.

و لعلمهم قالوا للممرضع: أين كنت حتى الآن، إذ نحن نبحث عن مثلك منذ مدّة.. فليتك جئت قبل الآن، فمرحبا بك و بلبنك الذي حلّ هذه المشكله.

تقول بعض الروايات: حين استقبل موسى ثدى أمّه، قال هامان وزير فرعون لأم موسى: لعلك أمّه الحقيقيه، إذ كيف أبى جميع هذه المراضع و رضى بك، فقالت: أيّها الملك، لأنّى امرأه ذات عطر طيب و لبنى عذب، لم يأتى طفل رضيع إلّا قبل بي، فصدّقها الحاضرون و قدموا لها هدايا ثمينه (١).

و نقرأ في هذا الصدد

حديثا قال الراوى: فقلت للإمام الباقر عليه السّلام؛ فكم مكث موسى غائبا من أمّه حتى ردّه الله؟ قال «ثلاثه أيام» (٢).

ص: ١٩١

١-١) - تفسير الفخر الرازى، ج ٢٤، ص ٢٣١.

٢-٢) - تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ١١٦.

وقال بعضهم: هذا التحريم التكويني لأن الله لم يرد لموسى أن يرتضع من الألبان الملوثة بالحرام.. الملوثة بأموال السرقة، أو الملوثة بالإجرام و الرشوه و غصب حقوق الآخرين، وإنما أراد لموسى أن يرتضع من لبن طاهر كلبن أمه ليستطيع أن ينهض بوجه الأرجاس و يحارب الآثمين.

و تم كل شيء بأمر الله فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَ لَتَعْلَمَنَّ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١).

هنا ينقدح سؤال مهم و هو: هل أودع آل فرعون الطفل «موسى» عند أمه لترضعه و تأتي به كل حين- أو كل يوم- إلى قصر فرعون لتراه امرأه فرعون؟! أم أنهم أودعوا موسى فى القصر و طلبوا من المرضع «أم موسى» أن تأتي بين فترات متناسبه إلى القصر لترضعه؟! لا- يوجد دليل قوى لأى من الاحتمالين، إلا- أن الاحتمال الأول أقرب للنظر كما يبدو! و هناك سؤال آخر أيضا، و هو: هل انتقل موسى إلى قصر فرعون بعد إكماله فتره الرضاعه، أم أنه حافظ على علاقته بأمه و عائلته و كان يتردد ما بين القصر و بيته؟! قال بعضهم: أودع موسى بعد فتره الرضاعه عند فرعون و امرأته، و تربي موسى عندهما، تنقل فى هذا الصدد قصص عريضة حول موسى و فرعون، و لكن هذه العبارة التى قالها فرعون لموسى عليه السّلام بعد بعثته أَلَمْ نُرَبِّكَ فِيْنَا وَ لِيدًا وَ كَبَّشْتَ فِيْنَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ؟! (٢)، تدل بوضوح على أن موسى عاش فى قصر فرعون مده، بل مكث هناك سنين طويله.

و يستفاد من تفسير على بن إبراهيم أن موسى عليه السّلام بقى مع كمال الاحترام فى

ص: ١٩٢

١- ١) -تحدثنا عن الجذر اللغوى لماده «تقرّ عينها» فى ذيل الآيه «٧٤» من سوره الفرقان- فيراجع هناك.

٢- ٢) -الشعراء، الآيه ١٨.

قصر فرعون حتى مرحله البلوغ، إلا- أنّ كلامه عن توحيد الله أزعج فرعون بشده إلى درجه أنه صمّم على قتله، فترك موسى القصر و دخل المدينة فوجد فيها رجلين يقتتلان، أحدهما من الأقباط و الآخر من الأسباط، فواجه النزاع بنفسه «و سيأتي تفصيل ذلك في شرح الآيات المقبله إن شاء الله» (١).

ص: ١٩٣

١-١) - لاحظ تفسير على بن إبراهيم طبقا لما ورد في نور الثقلين، ج ٤، ص ١١٧.

اشاره

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَنْتَاهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ (١٧)

التفسير

اشاره

موسى عليه السلام و حمايه المظلومين:

في هذه الآيات نواجه المرحله الثالثه من قصه موسى عليه السلام و ما جرى له مع فرعون، و فيها مسائل تتعلق ببلوغه، و بعض الأحداث التي شاهدها و هو في مصر قبل أن يتوجه إلى «مدين» ثم سبب هجرته إلى مدين.

تقول الآيات في البدايه وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ اسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا

كلمه «أشدّ» مشتقه من ماده «الشده» و هى القوه.

و كلمه «استوى» مشتقه من «الاستواء» و معناها كمال الخلقه و اعتدالها.

و هناك كلام بين المفسرين فى الفرق بين المعنيين:

فقال بعض المفسرين: المقصود من بلوغ الأشد هو أن يصل الإنسان الكمال من حيث القوى الجسمانيه، و غالبا ما يكون فى السنه الثامنه عشره من العمر..

أمّا الإستواء فهو الاستقرار و الاعتدال فى أمر الحياه، و غالبا ما يحصل ذلك بعد الكمال الجسمانى.

و قال بعضهم: إنّ المقصود من بلوغ الأشد هو الكمال الجسمانى، و أمّا الاستواء فهو الكمال العقلى و الفكرى.

و نقرأ فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام فى كتاب معانى الأخبار قال: فلما بلغ أشده و استوى قال: «أشده ثمان عشر سنه و استوى، التحى» (١).

و ليس بين هذه التعابير فرق كبير، و من مجموعها- مع ملاحظه المعنى اللغوى للكلمتين «الأشدّ و الاستواء»- يستفاد منهما أنّهما يدلان على التكامل فى القوى الجسميه و العقليه و الروحيه.

و لعل الفرق بين «الحكم» و «العلم» هو أنّ الحكم يراد منه العقل و الفهم و القدره على القضاء الصحيح، و العلم يراد به العرفان الذى لا يصحبه الجهل.

أمّا التعبير كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ فيدل بصوره جليّه على أن موسى عليه السلام كان جديرا بهذه المنزله، نظرا لتقواه و طهارته و أعماله الصالحه، إذ جازاه الله «بالعلم و الحكم» و واضح أنّ المراد بالحكم و العلم هنا ليس النبوه و الوحى و ما إليهما.. لأنّ موسى عليه السلام يومئذ لم يبعث بعد، و بقى مده بعد ذلك حتى بعث نبيا.

بل المقصود و المراد من الحكم و العلم هما المعرفه و النظره الثاقبه و القدره

على القضاء الصحيح و ما شابه ذلك، وقد منح الله هذه الأمور لموسى عليه السلام لطهارته و صدقه و أعماله الصالحة كما ذكرنا آنفا.

و يفهم من هذا التعبير-إجمالاً-أنّ موسى عليه السلام لم يتأثر بلون المحيط الذى عاشه فى قصر فرعون، و كان يسعى إلى تحقيق العدل و الحق ما استطاع إلى ذلك سبيلاً..رغم أنّ جزئيات تلك الأعوام غير واضحة.

و على كل حال فإن موسى دَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا .

فما هى المدينة المذكوره فى الآيه المتقدمه؟ لا نعرفها على وجه التحقيق..

لكن الاحتمال القوى أنّها عاصمه مصر..و كما يقول بعض المفسرين فإنّ موسى عليه السلام على أثر المشاجرات بينه و بين فرعون، و مخالفاته له و لسلطته التى كانت تشتدّ يوماً بعد يوم حتى بلغت أوجها، حكم عليه بالتباعد عن العاصمه..

لكنّه برغم ذلك فقد سنحت له فرصه خاصّه و الناس غافلون عنه أن يعود إلى المدينة و يدخلها.

و يحتمل أيضاً، أنّ المقصود دخوله المدينة من جهه قصر فرعون..لأنّ القصور يومئذ كانت تشاد على أطراف المدينة ليعرف الداخل إليها و الخارج منها.

و المقصود من جمله عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا هو الزمن الذى يستريح الناس فيه من أعمالهم، و لا تراقب المدينة فى ذلك الحين بدقّه، و لكن أى حين و أى زمن هو؟! قال بعضهم: هو أوّل الليل، لأنّ الناس يتركون أعمالهم و يعطون دكاكينهم و محلاتهم ابتغاء الراحة و النوم، و جماعه يذهبون للتزّه، و آخرون لأماكن أخرى..هذه الساعه هى المعبر عنها بساعه الغفله فى بعض الروايات الإسلاميه.

و هناك حديث شريف

عن النبى صلّى الله عليه و آله فى هذا الشأن يقول: «تفلّوا فى ساعه الغفله و لو بر كعتين خفيفتين».

ص: ١٩٦

وقد ورد في ذيل هذا الحديث الشريف هذه العبارة

«و ساعه الغفله ما بين المغرب و العشاء» (١).

و الحق أنّ هذه الساعه ساعه غفله و كثيرا ما تحدث الجنايات و الفساد و الانحرافات الأخلاقية في مثل هذه لساعه من أوّل الليل..فلا الناس مشغولون بالكسب و العمل،و لا هم نائمون،بل هي حاله غفله عموميه تغطى المدينه عاده، و تنشط مراكز الفساد أيضا في هذه الساعه.

و احتمال البعض أن ساعه الغفله هي ما بعد نصف النهار،حيث يستريح الناس من أعمالهم استراحه مؤقتة،و لكن التفسير الأوّل أقرب للنظر كما يبدو.

و على كل حال،موسى دخل المدينه،و هنالك واجه مشادّه و نزاعا،فاقترب من منطقه النزاع فَوَجِدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَفْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَ هَذَا مِنْ عَدُوِّهِ .

و التعبير ب«شيعته» يدل على أن موسى قبل أن يبعث كان له أتباع و أنصار و شيعه من بنى إسرائيل،و ربّما كان قد اختارهم لمواجهة فرعون و حكومته كنواه اساسيه.

فلَمَّا بَصَرَ الْإِسْرَائِيلِي بِمُوسَى اسْتَصْرَخَهُ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ .

فجاءه موسى عليه السّلام لاستنصاره و تخليصه من عدوّه الظالم..الذى يقال عنه أنّه كان طباخا في قصر فرعون،و كان يريد من الإسرائيلى أن يحمل معه الحطب إلى القصر،فضرب موسى هذا العدو بقبضه يده القويه على صدره،فهوى إلى الأرض ميتا في الحال تقول الآيه: فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ (٢) .

و ممّا لا شك فيه،فإنّ موسى لم يقصد أن يقتل الفرعونى،و يتّضح ذلك من خلال الآيات التالیه أيضا..و لا يعنى ذلك أن الفراعنه لم يكونوا يستحقون القتل،

ص: ١٩٧

١-١) -وسائل الشيعه،ج ٥،ص ٢٤٩[باب ٢٠ من أبواب الصلوات المندوبه].

٢-٢) -«وكر» مأخوذ من «الوكر»على زنه «رمز»و معناه الضرب بقبضه اليد،و هناك معان اخرى لا تناسب المقام..

و لكن لاحتمال وقوع المشاكل و التبعات المستقبلية على موسى و جماعته.

لذلك فإن موسى عليه السلام أسف على هذا الأمر قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين .

و بتعبير آخر: فإن موسى عليه السلام كان يريد أن يبعد الفرعوني عن الرجل الإسرائيلي، و إن كان الفرعونيون يستحقون أكثر من ذلك. لكن ظروف ذلك الوقت لم تكن تساعد على مثل هذا العمل، و كما سنرى فإن ذلك الأمر دعا موسى عليه السلام إلى أن يخرج من مصر إلى أرض مدين و حرمة من البقاء في مصر.

ثم يتحدث القرآن عن موسى عليه السلام فيقول: قال رب إني ظلمت نفسي فأغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم .

و من المسلم به أن موسى عليه السلام لم يصدر منه ذنب هنا، بل ترك الأولى، فكان ينبغي عليه أن يحتاط لثلاث يقع في مشكله، و لذلك فإنه استغفر ربه و طلب منه العون، فشملة اللطيف الخبير بلطفه.

لذلك فإن موسى عليه السلام حين نجا بلطف الله من هذا المأزق قال رب بما أنعمت علي من عفوك عني و انقاذي من يد الأعداء و جميع ما أنعمت علي منذ بدايه حياتي لحد الآن فلن أكون ظهيرا للمجرمين . و معنا للظالمين.

بل سأنصر المؤمنين المظلومين، و يريد موسى عليه السلام أن يقول: إنه لا يكون بعد هذا مع فرعون و جماعته أبدا.. بل سيكون إلى جانب الإسرائيليين المضطهدين..».

و احتمال بعضهم أن يكون المقصود ب«المجرمين» هو هذا الإسرائيلي الذي نصره موسى، إلا أن هذا الاحتمال بعيد جدا، حسب الظاهر.

١- أ لم يكن عمل موسى هذا مخالفاً للعصمة!

للمفسرين أبحاث مزيّله و طويله في شأن المشاجره التي حدثت بين القبطي و الإسرائيلي و قتل موسى للقبطي.

و بالطبع فإنّ أصل هذا العمل ليس مسأله مهمّه.. لأنّ الظلمه الأقباط و الفراعنه المفسدين الذين قتلوا آلاف الأطفال من بني إسرائيل و لم يتأبوا يحجموا عن أيه جريمه ضد بني إسرائيل، لم تكن لهم حرمه عند بني إسرائيل.

إنّما المهم عند علماء التفسير هو تعبيرات موسى عليه السّلام التي ولدت إشكالات عندهم.

فهو تاره يقول: ﴿﴾ هذا من عمَلِ الشَّيْطَانِ .

و في مكان آخر يقول: رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي .

فكيف تنسجم أمثال هذه التعابير مع عصمه الأنبياء حتى قبل بعثتهم و رسالتهم.

و لكن هذه الإشكالات تزول بالتوضيح المتقدم في تفسير الآيه الآنفه، و هو أن ما صدر من موسى عليه السّلام هو من قبيل «ترك الأولى» لا- أكثر، إذ كان عليه أن يحتاط قبل أن يضرب القبطي، فلم يحتط، فأوقع نفسه في مشاكل جانبية، لأنّ قتل القبطي لم يكن أمراً هينا حتى يعفو عنه الفراعنه.

و نعرف أن ترك الأولى لا- يعنى أنه عمل حرام ذاتا، بل يؤدي الى ترك عمل أهم و أفضل، دون أن يصدر منه عمل مخالف و مناف لذلك العمل!.

و نظير هذه التعابير ما ورد في بعض قصص الأنبياء من جملتهم أبو البشر آدم عليه السّلام التي تقدم شرحه في ذيل الآيه (١٩) من سوره الأعراف.

و نقرأ

في حديث عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السّلام في تفسير الآيات

﴿ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾

يعنى الاقتتال الذى وقع بين الرجل لا ما فعله موسى عليه السّلام من قتله «إنه» يعنى الشيطان «عَدُوٌّ مُضِلُّ مُبِينٌ» - و أمّا المراد من جملة - «رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي» يعنى ان موسى يريد أن يقول وضعت نفسى غير موضعها بدخول هذه المدينة «فَاغْفِرْ لِي» أى استرنى من أعدائك لئلا يظفروا بى فيقتلونى...» (١).

٢- دعم المجرمين و إسنادهم من أعظم الآثام:

هناك باب مفصل فى الفقه الإسلامى فيه أحاديث وافره تتحدث حول «الإعانه على الإثم» و«معاونه الظلمه» و تدل على أن واحدا من أسوأ الآثام إعانه الظالمين و المجرمين، و تكون سببا لأن يشترك المعين فى مصيرهم الأسود.

و أساسا فإنّ الظلمه و المجرمين - أمثال فرعون - فى المجتمع أيّما كان هم أفراد معدودون، و إذا لم يساعد المجتمع هؤلاء لم يكونوا فراغه، فهؤلاء القلّه المتفرعونون.. إنّما يعتمدون على الناس الضعاف أو الانتهازيين و عبده الدنيا، الذين يلتفون حولهم و يكونون لهم أجنحه و أذرعاً، أو على الأقل يكثرون السواد ليوفروا لهم القدره الشيطانيه.

و فى القرآن الكريم آيات كثيره تشير إلى هذا الأصل الإسلامى، فنحن نقرأ فى الآيه الثانيه من سوره المائده قوله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَ لَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ .

كما أنّ القرآن يصرّح فى بعض آياته بالقول: ﴿ وَ لَا تَزَكُّوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ .

ص: ٢٠٠

و سواء كان «الركون» هنا بمعنى الميل القلبي، أو بمعنى الإعانة الظاهرية، أو إظهار الرضا و المحبة، أو طلب الخير لهم.. هذه المعانى التى ذكرها المفسرين «الركون» يجمعها مفهوم جامع لها، وهو الاتكاء و الاعتماد و التعلق و ما إلى ذلك، و هذا المفهوم شاهد حتى على مقصودنا.

و نقرأ فى هذا الصدد حديثاً للإمام على بن الحسين عليه السّلام مع «محمّد بن مسلم الزهرى» الذى كان رجلاً عالماً، إلاّ أنّه كان يتعاطف و يتعاون مع الجهاز الأموى و لا سيما مع هشام بن عبد الملك، يحذّره الإمام فى حديثه هذا من إعانة الظالمين و الركون إليهم، و هو حديث مثير جدّاً.. و قد جاء فيه:

«أو ليس بدعائهم إِيّاك حين دعوك جعلوك قطبا أداروا بك رحي مظالمهم، و جسرا يعبرون عليك إلى بلاياهم، سلّما إلى ظلالتهم، داعيا إلى عينهم سالكا سبيلهم، يدخلون بك الشك على العلماء و يقتادون بك قلوب الجهال إليهم، فما أقل ما أعطوك فى قدر ما أخذوا منك، و ما أيسر ما عمروا لك فى جنب ما خزّبوا عليك! فانظر لنفسك فإنّه لا ينظر إليها غيرك، و حاسبها حساب رجل مسؤل» (٢).

و الحقّ أنّ هذا المنطق البليغ المؤثر للإمام عليه السّلام لكلّ عالم من وعاظ السلاطين مرتبط بالظالمين راكن إليهم، يمكن أن يبصّره بمصيره المشؤوم عاقبته المخزیه.

و يذكر ابن عباس أن آية رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهيراً لِلْمُجْرِمِينَ من جملة الآيات التى تؤكّد على أن الركون للمجرمين ذنب عظيم، و إعانة المؤمنين إطاعه لأمر الله سبحانه.

ص: ٢٠١

١-١) -سوره هود، الآية ١١٤.

٢-٢) -تحف العقول، ص ٦٦.

قالوا لبعض العلماء: إن فلانا أصبح كاتباً للظالم الفلاني، ولا يكتب له إلا الدخل والخرج، وحياته وحياه عائلته مرهونه بما يحصل عليه من مال لقاء هذا العمل، وإلا فسيقع هو وأسرته في فقر مدقع.

فكان جواب هذا العالم: أما سمع قول العبد الصالح «موسى» رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهيراً لِلْمُجْرِمِينَ (١).

ص: ٢٠٢

١ - ١) - كان لنا بحثان مستوفيان في مجال إعانه الظالمين في ذيل الآيه (٢) من سوره المائده و ذيل الآيه (١١٢) من سوره هود، فلا بأس بمراجعتهما.

اشاره

فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اِسْتَصْرَاهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمَصْحُورِينَ (١٩) وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢)

التفسير

اشاره

موسى يتوجه إلى مدين خفيه:

نواجه في هذه الآيات المقطع الرابع من هذه القصة ذات المحتوى الكبير.

حيث أن مقتل الفرعوني في مصر انتشر بسرعه، والقرائن المتعدده تدل على

أن القاتل من بنى إسرائيل، ولعل اسم موسى عليه السلام كان مذكورا من بين بنى إسرائيل المشتبه فيهم.

و بالطبع فإنّ هذا القتل لم يكن قتلا عاديا، بل كان يعد شراره لانفجار ثوره مقدمه للثوره.. ولا شك أن جهاز الحكومه لا يستطيع تجاوز هذه الحاله ببساطه ليعرض أرواح الفرعونيين للقتل على أيدي عبيدهم من بنى إسرائيل.

لذلك يقول القرآن في بدايه هذا المقطع فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ (١).

و هو على حال من الترقب و الحذر، فوجئ في اليوم التالي بالرجل الإسرائيلي الذي آزره موسى بالأمس يتنازع مع قبلى آخر و طلب من موسى أن ينصره فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ (٢).

و لكن موسى تعجب منه و استنكر فعله و قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُبِينٌ إذ تحدث كل يوم نزاعا و مشاده مع الآخرين، و تخلق مشاكل ليس أوانها الآن، إذ نحن نتوقع أن تصيينا تبعات ما جرى بالأمس، و أنت اليوم فى صراع جديد أيضا!! و لكنه كان على كل حال مظلوما فى قبضه الظالمين (و سواء كان مقصرا فى المقدمات أم لا) فعلى موسى عليه السلام أن يعينه و ينصره و لا يتركه وحيدا فى الميدان، فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا جَاحَ صَاحِ ذَلِكَ الْقَبْطِيِّ: قَالَ يَا مُوسَى أَرَأَيْدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ و يبدو من عملك هذا أنك لست إنسانا منصفًا

ص: ٢٠٤

١ - ١) - كلمه «يترقب» مأخوذه من «الترقب»، و معناها الانتظار، و موسى هنا فى انتظار نتائج هذه الحادته، و محل الجمله إعرابا-خبر بعد خبر، و إن قيل أنها حال، إلا أن هذا القول ضعيف.

٢ - ٢) - كلمه «يستصرخ» مشتقه من ماده «الاستصراخ»، و معناها الإستغاثه، و لكنها فى الأصل تعنى الصياح أو طلب الصياح من الآخر، و هذا عاده ملازم للإعانه...

إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ

(١)

و هذه العبارة تدلّ بوضوح على أن موسى عليه السّلام كان في نيّته الإصلاح من قبل، سواء في قصر فرعون أو خارجه، و نقرأ في بعض الروايات أن موسى عليه السّلام كانت له مشادات كلاميه مع فرعون في هذا الصدد، لذا فإن القبطى يقول لموسى: أنت كل يوم تريد أن تقتل إنسانا، فأىّ إصلاح هذا الذى تريده أنت؟! فى حين أن موسى عليه السّلام لو كان يقتل هذا الجبار، لكان يخطو خطوه أخرى في طريق الإصلاح..

و على كل حال فإنّ موسى التفت إلى أن ما حدث بالأمس قد انتشر خبره، و من أجل أن لا تتسع دائره المشاكل لموسى فإنّه أمسك عن قتل الفرعونى في هذا اليوم.

و من جهه أخرى فإنّ الأخبار وصلت إلى قصر فرعون فأحسّ فرعون و من معه فى القصر أن تكرار مثل هذه الحوادث ينذر به بالخطر، فعقد جلسه شورى مع وزرائه و انتهى «مؤتمرهم» إلى أن يقتلوا موسى، و كان فى القصر رجل له علاقه بموسى فمضى إليه و أخبره بالمؤامره.. و كما يقول القرآن الكريم: **وَ جَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ .**

و يبدو أنّ هذا الرجل هو «مؤمن آل فرعون» الذى كان يكتم إيمانه و يدعى «حزقيل» و كان من أسره فرعون، و كانت علاقته بفرعون و ثيقه بحيث يشترك معه فى مثل هذه الجلسات.

و كان هذا الرجل متألماً من جرائم فرعون، و ينتظر أن تقوم ثوره «إلهيه»

ص: ٢٠٥

١-١) -يعتقد جماعه من المفسّرين أن هذه الجملة قالها الإسرائيلي لموسى، لأنّه ظن أن موسى يريد قتله، و لكن القرائن الكثيره فى الآيه تنفى هذا الاحتمال!

ضده فيشترك معها.

و يبدو أنه كان له أمل كبير بموسى عليه السّلام إذ كان يتوسم في وجهه رجلا ربّانيا صالحا ثوريا، و لذلك فحين أحسّ بأن الخطر محقق بموسى أوصل نفسه بسرعه إليه و أنقذه من مخالبا الخطر، و سنرى بعدئذ أن هذا الرجل لم يكن في هذا الموقف فحسب سندا و ظهيرا لموسى، بل كان يعدّ عينا لبني إسرائيل في قصر فرعون في كثير من المواقف و الأحداث.

أمّا موسى عليه السّلام فقد تلقى الخبر من هذا الرجل بجديّه و قبل نصحه و وصيته في مغادره المدينه فخرّج منها خائفاً يتربّق .
و تضرع إلى الله بإخلاص و صفاء قلب ليدفع عنه شرّ القوم و قال رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .

فأنا أعلم يا ربّ أنّهم ظلمه و لا- يرحمون، و قد نهضت-دفاعا عن المحرومين-بوجه الظالمين، و لم آل جهدا و وسعا في ردع الأشرار عن الإضرار بالطيبين، فأسألك-يا ربّي العظيم-أن تدفع عني أذاهم و شرّهم.

ثمّ قرر موسى عليه السّلام أن يتوجه إلى مدينه «مدين» التي كانت تقع جنوب الشام و شمال الحجاز، و كانت بعيده عن سيطره مصر و الفراعنه.. و لكنه شاب تربّي في نعمه و رفاه و يتجه إلى سفر لم يسبق له في عمره أن يسافر إليه، فلا- زاد و لا متاع و لا صديق و لا- راحله و لا- دليل، و كان قلقا خائفا على نفسه، فلعل أصحاب فرعون سيدركونه قبل أن يصل إلى هدفه «مدين» و يأسرونه ثمّ يقتلونه.. فلا عجب أن يظل مضطرب البال! أجل، إن على موسى عليه السّلام أن يجتاز مرحله صعبه جدّا، و أن يتخلص من الفخ الذي ضربه فرعون و جماعته حوله ليصطادوه، ليستقرّ أخيرا إلى جانب المستضعفين و يشاطرهم آلامهم بأحاسيسه و عواطفه، و أن يتهيأ لنهضه إلهيه

ص: ٢٠٦

إِلَّا أَنَّهُ كَانَ لَدِيهِ فِي هَذَا الطَّرِيقِ وَ عَوَاطِفِهِ رَأْسَ مَالٍ كَبِيرٍ وَ كَثِيرٍ لَا يَنْفَدُ أَبَدًا، وَ هُوَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَ التَّوَكُّلُ عَلَيْهِ، لِذَا لَمْ يَكْتَرِثْ بِأَيِّ شَيْءٍ وَ وَاصِلَ السَّيْرِ.. وَ لَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدِينٍ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (١).

ص: ٢٠٧

١- ١) - «تلقاء» مصدر أو اسم مكان، ومعناه هنا: الوجهه و الصوب الذي قصده.

اشاره

وَ لَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدَرَ الرَّعَاءُ وَ أَبُوْنَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥)

التفسير

اشاره

عمل صالح يفتح لموسى أبواب الخير:

نواجه هنا المقطع الخامس من هذه القصه، و هي قضيه ورود موسى عليه السلام إلى مدينه مدين.

هذا الشاب الطاهر الذي لا يغش أحدا أمضى عدّه أيام في الطريق، الطريق التي لم يتعود المسير فيها من قبل أبدا، و لم يكن له بها معرفه، و كما يقول بعضهم:

اضطر موسى إلى أن يمشى في هذا الطريق حافيا، و قيل: إنّه قطع الطريق في

ثمانية أيام، حتى لقي ما لقي من النصب والتعب، وورمت قدماه من كثره المشى.

و كان يقتات من نبات الأرض و أوراق الشجر دفعا لجوعه، و ليس له أمام مشاكل الطريق و أتعابه إلا قلبه المطمئن بلطف الله الذى خلّصه من مخالب الفراعنه.

و بدأت معالم «مدين» تلوح له من بعيد شيئا فشيئا، و أخذ قلبه يهدأ و يأنس لاقترابه من المدينه، و لما اقترب ثم عرف بسرعه أنّهم أصحاب أغنام و أنعام يجتمعون حول الآبار ليسقوا أنعامهم و أغنامهم.

يقول القرآن فى هذا الصدد: **وَلَمَّا وَرَدَ مَاءٌ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ (١)**.

فحركه هذا المشهد...حفنه من الشبان الغلاظ يملأون الماء و يسقون الأغنام، و لا- يفسحون المجال لأحد حتى يفرغوا من أمرهم..بينما هناك امرأتان تجلسان فى زاويه بعيده عنهم، و عليهن آثار العقه و الشرف، جاء إليهما موسى عليه السلام ليسألهما عن سبب جلوسهما هناك و قال **مَا خَطْبُكُمَا (٢)**.

و لم لا تتقدمان و تسقيان الأغنام؟! لم يرق لموسى عليه السلام أن يرى هذا الظلم، و عدم العداله و عدم رعايه المظلومين، و هو يريد أن يدخل مدينه مدين، فلم يتحمل ذلك كله، فهو المدافع عن المحرومين و من أجلهم ضرب قصر فرعون و نعمته عرض الحائط و خرج من وطنه، فهو لا يستطيع أن يترك طريقته و سيرته و أن يسكت أمام الجائرين الذين لا ينصفون المظلوم!..

فقال البنتان: إنهما تنتظران تفرق الناس و أن يسقى هؤلاء الرعاه اغنامهم:

ص: ٢٠٩

١- ١) - «تذودان» مشتقه من «ذود» على زنه «زرد» و معناها المنع، فهما إذا كانتا تذودان أغنامهما لئلا تختلط بالأغنام الأخرى.

٢- ٢) - ما خطبكما: أى ما شأنكما و ما شغلكما هنا؟!

و من أجل أن لا يسأل موسى: أليس لكما أب؟ ولماذا رضى بإرسال بناته للسقى مكانه، أضافتنا مكملتين كلامهما وَ أَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فلا هو يستطيع أن يسقى الأغنام، وليس عندنا أخ يعينه على الأمر فلا حيله لنا إلا أن تؤدى نحن هذا الدور.

فتأثر موسى عليه السلام من سماعه حديثهما بشده. فأى أناس هؤلاء لا ينصفون المظلوم، ولا هم لهم غير أنفسهم.

فتقدم و أخذ الدلو و ألقاها فى البئر..يقال: إن هذه الدلو كان يجتمع عليها عدّه نفر ليخرجوها بعد امتلائها من الماء، إلا أن موسى عليه السلام استخرجها بقوته و شكيمته و همته بنفسه دون أن يعينه أحد فَسَقَى لَهُمَا أَغْنَامَهُمَا.

و يقال: إن موسى عليه السلام حين اقترب من البئر لام الرعاء، قال: أى أناس أنتم لا- همّ لكم إلا- أنفسكم! و هاتان البنتان جالستان؟! ففسحوا له المجال و قالوا له:

هلّمّ و املاّ الدلو، و كانوا يعلمون أن هذه الدلو حين تمتلئ لا يستخرجها إلا عشرة أنفار من البئر.

و لكن موسى عليه السلام بالرغم من تعب السير فى الطريق و الجوع ملأ الدلو و سحبها بنفسه و سقى أغنام المرأتان جميعها.. ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ .

أجل..إنّه متعب و جائع، و لا أحد يعرفه فى هذه المدينة، فهو غريب، و فى الوقت ذاته كان مؤدبا و إذا دعا الله فلا يقول: ربّ إني أريد كذا و كذا، بل يقول:

رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ

أى إنّه يكشف عن حاجته فحسب، و يترك الباقي إلى لطف الله سبحانه.

لكن هلّمّ إلى العمل الصالح، فكم له من أثر محمود! و كم له من بركات

عجيبه اخطوه نحو الله ملء دلو من أجل إنصاف المظلومين، فتح لموسى فصلا جديدا، و هيا له. من عالم عجيب من البركات الماديه و المعنويه.. و وجد ضالته التي ينبغي أن يبحث عنها سنين طوالا.

و بدايه هذا الفصل عند ما جاءته احدى البنتين تخطو بخطوات ملؤها الحياء و العفه و يظهر منها أنها تستحي من الكلام مع شاب غريب: رجوعهما إليه بهذه السرعة على غير ما اعتادتا عليه، فقصتا عليه الخبر، فأرسل خلفه فجاءته إحداهما تمشي على اسرّتها فلم تزد على أن قالت إنَّ أباي يدعوكَ ليجزيكَ أجرَ ما سقيت لنا .

فلمع في قلبه إشراق من الأمل، و كأنه أحس بأن واقعه مهمه تنتظره و سيواجهه رجلا كبيرا!.. رجلا عارفا بالحق و غير مستعد أن يترك أى عمل حتى لو كان ملء الدلو أن يجزيه عليه، هذا الرجل ينبغي أن يكون إنسانا نموذجيا و رجلا سماويا و إلهيا.. ربّاه.. ما أروعها من فرصه.

أجل، لم يكن ذلك الشخص الكبير سوى «شعيب» النبي الذي كان يدعو الناس لسنين طوال نحو الله، كان مثلا لمن يعرف الحق و يطلب الحق، و اليوم إذ تعود بنتاه بسرعه يبحث عن السبب، و حين يعرف الأمر يقرر أن يؤدي ما عليه من الحق لهذا الشاب كائنا من كان.

تحرك موسى عليه السلام و وصل منزل شعيب، و طبقا لبعض الروايات، فإنّ البنت كانت تسير أمام موسى لتدله على الطريق، إلا أن الهواء كان يحرك ثيابها و ربّما انكشف ثوبها عنها، و لكن موسى لما عنده من عفه و حياء طلب منها أن تمشي خلفه و أن يسير أمامها، فإذا ما وصلا إلى مفترق طرق تدله و تخبره من أى طريق يمضى إلى دار أبيها شعيب: (1)

دخل موسى عليه السلام منزل شعيب عليه السلام، المنزل الذي يسطع منه نور النبوه.. و تشع

ص: ٢١١

(١ - ١) - انظر: أبو الفتوح الرازي - ذيل الآيات.

فيه الروحانيه من كل مكان..و إذا شيخ و قور يجلس ناحيه من المنزل يرحب بقدم موسى عليه السلام،و يسأله:

من أين جئت؟!و ما عملك؟!و ما تصنع في هذه المدينه.و ما مرادك و هدفك هنا؟! و لم أراك وحيدا؟! و أسئله من هذا القبيل..

يقول القرآن في هذا الصدد: فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ فَأَرْضَنَا بعيده عن سيطرتهم و سطوتهم و لا تصل أيديهم إلينا،فلا تقلق و لا تشعر نفسك الوحشه،فأنت في مكان آمن و لا تفكر بالغربه،فكل شيء بلطف الله سيتيسر لك!..

فالتفت موسى إلى أنه وجد استاذا عظيما..تبع من جوانبه عيون العلم و المعرفه و التقوى،و تغمر وجوده الروحانيه..و يمكن أن يروى ظمأه منه.

كما أحس شعيب أنه عثر على تلميذ جدير و لائق،و فيه استعداد لأن يتلقى علومه و ينقل إليه تجارب العمر! أجل..كما أن موسى شعر باللذه حين وجد أستاذا عظيما..كذلك أحس شعيب بالفرح و السرور حين عثر على تلميذ مثل موسى.

مسألتن

اشاره

١- أين كانت مدين؟!!

«مدين»:اسم مدينه كان يقطنها«شعيب»و قبيلته،هذه المدينه كانت تقع في شرق خليج العقبه[و شمال الحجاز و جنوب الشامات]

و أهلها من أبناء إسماعيل

ص: ٢١٢

«الذبيح» ابن إبراهيم الخليل عليهما السلام، و كانت لهم تجاره مع مصر و فلسطين و لبنان.

أمّا اليوم فيطلق على «مدين» اسم «معان».

كما أن بعضاً من المفسّرين يعتقدون أن مدين اسم لجماعه كانت تعيش ما بين خليج العقبه و جبل سينا المعروف بطور سيناء، و جاء اسمها في التوراه ب «مديان» أيضاً (١).

كما يرى البعض: إنّ أساس تسميه هذه المدينه «بمدين» هو لأنّ أحد أبناء إبراهيم الخليل و اسمه «مدين» كان يعيش في هذه المدينه (٢).

و في الوقت الحاضر يبدو في الخرائط الجغرافيه للأردن أن إحدى مدنها في الجنوب الغربى منها، و اسمها «معان» تحمل الأوصاف ذاتها التي كانت في مدين..

و تنطبق عليها تماماً.

٢- دروس كثيره توحى بالعبر:

في هذا القسم من قصه موسى عليه السلام دروس كثيره توحى بالعبر:

أ- إنّ أنبياء الله هم حماه المظلومين دائماً، فموسى سواء كان في مصر أو كان في مدين كان يسيئه أن يرى ظلماً و تجاوزاً على حقوق الآخرين، و كان ينهض لنصره المظلوم.. و لم لا يكون كذلك، و أحد أهداف بعثه الأنبياء نصره المظلوم.

ب- أداء عمل صغير لله له بركات كثيره! لم يفعل موسى سوى أنّه جلب دلوا من الماء و سقى الأغنام للبتين، و لم يكن له هدف سوى مرضاه الله الخالق سبحانه! و لكن كم كان لهذا العمل الصغير من خير و بركه؟! لأنّه صار سبباً لأن يصل

ص: ٢١٣

١-١) - راجع أعلام القرآن، ص ٥٧٢.

٢-٢) - راجع روح المعاني، ج ٢٠، ص ٥١.

إلى منزل شعيب نبي الله، و أن يتخلص من الغربه، و أن يجد مأوى يطمئن إليه، و صار من نصيبه الأكل الهنيء و الثياب و الزوجه الصالحه، و أهم من كل ذلك.. إنه وصل إلى شعيب، ذلك الشيخ الكبير الذى يتمتع بضمير حى و له دين سماوى، فعاش معه عشر سنين و أصبح مهياً لقياده الأمه فى ذلك الوقت..

ج- إن رجال الله لا يتركون أى عمل سدى- و خاصه ما يعمله المخلصون- دون أن يؤدوا أجره.. و لهذه السبب فإن شعيبا حين بلغه ما قدمه موسى عليه السلام من عمل- و هو شاب لم يكن معروفا لم يكن معروفا هناك- لم يقر حتى أرسل خلفه ليعطيه أجره.

د- و هذه المسأله تثير الانتباه، و هى أن موسى كان يذكر الله دائما، و يطلب منه العون فى كل أمر، يوكل حل مشاكله إليه.

فحين قتل القبطى و عرف أنه «ترك الأولى» استغفر ربه فوراً و قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي .

و حين خرج من مصر سأل الله أن يحفظه و قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .

و حين وصل أرض مدين قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ! .

و حين سقى أغنام «شعيب» و تولى إلى الظل دعا ربه فقال رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ .

و هذا الدعاء الأخير-خاصه-الذى دعا به فى وقت تحوط فيه الأزمت و هو فى أشد الحاجات، دعا به و هو فى غايه التأدب و الخشوع، و لم يسأل الله أن يحقق له ما يحتاج، بل سأل المزيد و قال: رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ .

ه- لا ينبغي التصور أن موسى عليه السلام إنما كان يذكر الله فى الشدائد فحسب، فهو لم ينس ذكر الله حتى حين كان فى نعمه و رفاهيه من العيش، إذ كان يعيش فى

«درج موسى كان يوما عند فرعون فعطس موسى فقال: الحمد لله رب العالمين. فأنكر فرعون ذلك عليه و لطمه و قال:

ما هذا الذي تقول؟ فوثب موسى على لحيته-و كان طويل اللحية-فهلبيها أى قلعها، فألمه ألما شديدا، فهم فرعون بقتله فقالت له امرأته، هذا غلام حدث لا يدري ما يقول و قد لطمته بلطمه إيّاك. فقال فرعون: بلى يدري...» إلخ (١).

ص: ٢١٥

اشاره

قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَّجَ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجْلَيْنِ فَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلِيمٌ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨)

التفسير

اشاره

موسى فى دار شعيب:

هذا هو المقطع السادس من قصه حياه موسى عليه السلام المثيره، جاء موسى إلى منزل شعيب، منزل قروى بسيط، منزل نظيف و ملئ بالروحيه العاليه، و بعد أن قص عليه قصته، بادرت إحدى بنتى شعيب بالقول- و بعبارة موجزه:- إننى أقترح أن تستأجره لحفظ الأغنام و رعايتها: و قالت يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين .

هذه البنت التي تربت فى حجر النبى الكبير، ينبغى أن نتحدث بمثل هذا

الحديث الوجيز الكريم، و أن تؤدي الكلام حقه بأقل العبارات.

ترى من أين عرفت هذه البنت أن هذا الشاب قوى و أمين أيضا؟ مع أنها لم تره إلا لأول مره على البئر، و لم تتضح لها سوابق حياته! و الجواب على هذا السؤال واضح و جلي.. إذ لاحظت قوته و هو ينحى الرعاء عن البئر و يملأ القربه الثقيله لوحده و يطالب بحق المظلوم، و أما أمانته و صدقه فقد اتضح لها منذ أن سارت أمامه إلى بيت أبيها، فطلب منها أن تتأخر و يتقدمها، لئلا تضرب الريح ثيابها!.

أضف إلى ذلك.. من خلال نقله قصته لشعيب فقد اتضحت قوته في دفعه القبطي عن الإسرائيلي و قتله إياه بضربه واحده.. و أمانته و صدقه.. في عدم مساومته الجابره.

فرضى شعيب عليه السلام باقتراح ابنته، و توجه إلى موسى و قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين علي أن تأجرني ثمانين حجاج ثم أضاف قائلا: فإن أتممت عشرًا فمن عندك (١).

و على كل حال، فلا أريد إيذاءك و ما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين .

فأنا ألتزم بالعهد و الميثاق و أفي بما نتعاقد عليه، و لا أشدد عليك في الأمور، و أتعامل معك معاملة حسنه و صالحه.. إن شاء الله.

و من خلال هذا الاقتراح هناك أسئلة كثيره حول الزواج من ابنه شعيب و المهر و سائر الخصوصيات، و سنبحث عنها في البحوث القادمه إن شاء الله.

و استجابه لهذا القرار و العقد الذي أنشأه شعيب مع موسى.. و افق موسى

ص: ٢١٧

١- ١) - هذا المضمون نفسه ورد في روايه منقوله في تفسير على بن إبراهيم، فقال لها شعيب: أما قوته فقد عرفتنه إنه يستقى الدلو وحده، فبم عرفت أمانته؟ فقالت: «إنه لما قال لي تأخرى عني و دليني على الطريق فإننا من قوم لا ينظرون في أدبار النساء عرفت أنه ليس من الذين ينظرون أعجاز النساء فهذه أمانته».

وَقَالَ ذَلِكُمْ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ..

ثم أردف مضيفاً بالقول: أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُمْ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ أَي سِوَاءِ قَضَيْتُمْ عَشْرَ سِنِينَ أَوْ ثَمَانِي سِنِينَ «حجج» فلا عدوان علي..
و من أجل استحكام العقد بينهما جعل موسى عليه السلام الله كفيلاً و قال: وَاللَّهُ عَلَيَّ مَا نَقُولُ وَكَيْلٌ!

و بهذه البساطه أصبح موسى صهرا لشعيب على ابنته.

بحوث

إشارة

١- شروط أساسيان للإدارة الصحيحه

في العبارة القصيره التي وردت في الآيات المتقدمه على لسان بنت شعيب في شأن استئجار موسى، كان من أهم الشروط و أكثرها أصاله شرطان لخصا في «القوه» و «الأمانه».

و من البديهي أنّ القوه المذكوره-آنفا-ليس المراد منها قوه الجسم فحسب، بل القدره على تحمّل المسؤوليه أيضا.

فالطبيب «القوى الأمين» هو الطبيب الذي له معرفه جيده و كافيه في عمله، و له تسلط عليه أيضا.

و المدير القوى هو الذي يعرف «أصول الإدارة» و يعرف الأهداف المطلوبه..

و له تسلط في وضع الخطط و «البرامج»، و له سهم وافر في الابتكار و تنظيم الأعمال.. و يعبئ القوى في سبيل الوصول للهدف المعين.

و في الوقت ذاته يكون مشفقاً و ناصحاً و أميناً و صادقاً في العمل.

و الأشخاص الذين يقنعون في تحمل المسؤوليه وجود الأمانه و الطهاره فحسب، هم مخطئون بمقدار خطأ من يعتمد على سمه التخصص و العلم فحسب.

ص: ٢١٨

فالمختصون بالخونه و العلماء المنحرفون يضربون ضربتهم كما يضربها المخلصون الذين لا حظ لهم من الاطلاع و المهارة في العمل.

و إذا أردنا أن نخرب دوله ما فينبغي أن نوكل الأمور إلى إحدى هاتين الطائفتين.. إلى مدراء خائنين ل«الأمانه»، إلى المخلصين الذين لاحظ لهم من العلم و الإداره و النتيجة واحده.

إن منطق الإسلام هو أن يوكل كل عمل إلى شخص قوى أمين مقتدر، ليصل نظام المجتمع إلى الكمال، و إذا ما تأملنا في سبب زوال الحكومات في طول التاريخ، و فكّرنا في الأمر، وجدنا العامل الأصلي هو إيكال الأمر إلى إحدى هاتين الطائفتين اللتين تكلمنا عنهما آنفا.

و من الطريف أنّ منهج الإسلام في جميع الأمور أنّه يقرن «العلم مع التقوى» جنبا إلى جنب.

فمرجع التقليد لا بدّ أن يكون «مجتهدا عادلا» و القاضى و كذلك القائد يجب أن يكون «مجتهدا عادلا».. و بالطبع فإن شروطا أخرى ينبغى توفرها أيضا، و لكن أساس هذه الشروط جميعا شرطان هما «العلم المقترن بالتقوى و العدل».

٢- أسئلة عن زواج موسى من بنت شعيب!...

ذكرنا- آنفا- أنّ الآيات المتقدمه تحمل بين ثناياها أسئلة متعدده، و علينا أن نجيب عليها و لو باختصار:

أ- هل يجوز من الناحيه الشرعيه و الفقهيه، أن تكون الزوجه غير معلومه، بل يقال عند إجراء صيغه العقد «أزوّجك إحدى البنيتين مثلا»؟...

و الجواب: ليس من المعلوم أن العبارة السابقه **أُنكحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ** ذكرت عند إجراء صيغه العقد.. بل الظاهر أنّه جرى كلام و مقدمات للعقد و الزواج، و بعد موافقه موسى على الزواج، ثمّ تجرى صيغه العقد على واحده

بعينها.

ب- هل يمكن أن يكون المهر مجهولاً، أو مردداً بين النقصان والتمام؟! والجواب: يفهم من لغة الآية أن المهر الواقعى كان ثمانى سنوات خدمه.. أما الستتان الأخريان فموكلتان لرغبة موسى، إن شاء أداهما، وإلا فلا! ج- هل يجوز أساساً أن يكون المهر «خدمه و عملاً»؟! وكيف يمكن الزواج من امرأه على هذا المهر والدخول بها، والمهر بعد لم يتم، ولا يمكن إتمامه فى مكان واحد! والجواب: إنّه لا دليل على عدم جواز مثل هذا المهر، بل إطلاقات الأدله على المهر فى شريعتنا-أيضاً- تشمل كل شىء ذى قيمه! كما أنّه لا يلزم أداء المهر فى مكان واحد، بل يكفى أن يكون فى ذمّه الرجل، والمرأه مالكه له.

و أصل السلامه والاستصحاب يقضيان أنّ هذا الرجل يحيا مدّه ويستطيع أداء هذا المهر.

د- أساساً كيف يمكن جعل خدمه للأب مهراً للبنت؟! فهل المرأه بضاعه تباع فى مقابل الخدمه (1)؟!..

و الجواب: لا شكّ أن شعيباً كان يحرز رضا ابنته على مثل هذا المهر، ولديه وكاله منها على هذا العقد، وبتعبير آخر: إن المالك الأصلي لما فى ذمّه موسى، هى زوجته «بنت شعيب».

و لكن.. حيث أنّهم كانوا يعيشون فى بيت واحد و فى غايه الصفاء والنقاء، و لم تكن بينهم فرقه وانفصال «كما هى الحال بالنسبه إلى كثير من الأسر القرويه

ص: ٢٢٠

١- ١) -قال المحقق الحلّى فى الشرائع «يصح العقد على منفعه كتعليم الصنعه و السوره من القرآن و كل عمل محلل، و على إجاره الزوج نفسه مدّه معينه» و يضيف الفقيه الكبير الشيخ محمّد حسن صاحب الجواهر بعد ذكر تلك العبارة قوله: «وفاقاً للمشهور» (جواهر الكلام، ج ٣١، ص ٤).

القديمه التي تبدو حياتها منسجمه تمام الانسجام» فلم تكن هذه المسأله- مسأله أداء الدين- محل بحث و لا كيف يوفى المهر.

المهم هنا أن المالك للمهر البنت وحدها لا الأب، و الخدمات التي قدمها موسى كانت في هذا السبيل أيضا.

ه- كان مهر بنت شعيب مهرا ثقيلًا نسبيًا- لأننا إذا أردنا أن نلاحظ أجره العامل العادي خلال شهر ثم خلال سنه، و بعدئذ نضاعف ذلك الأجر إلى ثماني مرات فسيكون مبلغًا كثيرًا جدًا.

الجواب: أولاً لم يكن هذا الزواج زواجا بسيطًا، بل كان مقدمه لبقاء موسى عند «شعيب» متبعًا شاكلته و مذهبه، و مقدمه لأن يدرس موسى عليه السّلام في جامعه علميه كبرى خلال هذه الفتره الطويله، و الله العالم كم تعلم موسى من «شيخ مدين» في هذه المده من امور؟! ثم بعد ذلك كله، لو قلنا: إنّ هذه المده الطويله كان يقضيها موسى في خدمه شعيب، ففي مقابل ذلك سيؤمن له شعيب مصرفه و نفقات زوجه من هذا الطريق أيضًا.. فإذا جردنا مصرف موسى و نفقاته من أجره عمله لم يكن المهر غاليًا- بل سيبقى مبلغ زهيد و خفيف!..

٣- يستفاد ضمنا من هذه القصه أن ما يشيع في عصرنا من أن اقتراح الأب على إختيار البعل لابنته أمر مصيب، لا مانع منه و ليس معيبًا، فإذا وجد الأب شخصا لائقًا و جديرًا، فله الحق أن يقترح عليه الزواج من ابنته، كما فعل شعيب عليه السّلام مع موسى في شأن ابنته عليه السلام و الزواج منها.

٤- اسما ابنتى شعيب: واحده «صفوره» أو «صفورا» و هى التى تزوجت من موسى عليه السلام، أمّا الثانيه فاسمها «ليا» (١).

ص: ٢٢١

(١- ١) - مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٤٩.

فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ بَشِيرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا أَنهَا نُوْدِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٠) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا صِحَّانٌ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١) أَسِيلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (٣٤) قَالَ سَنَسُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصْعَقُكُمَا إِلَّا كَمَا بُدِّعْنَا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَنْ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (٣٥)

الشّارة الأولى للوحى:

نصل الآن-إلى المقطع السابع-من هذه القصّة..

لا يعلم أحد-بدقّه-ما جرى على موسى فى سنواته العشر مع شعيب (١)، ولا شكّ أن هذه السنوات العشر كانت من أفضل سنوات العمر لموسى عليه السّلام سنوات عذبه هادئه،سنوات هياته للمسؤوليه الكبرى.

فى الحقيقه كان من الضرورى أن يقطع موسى عليه السّلام مرحله عشر سنين من عمره فى الغربه إلى جانب النّبي العظيم شعيب،و أن يكون راعيا لغنمه؛ليغسل نفسه ممّا تطبّعت عليه من قبل أو ما قد أثرت عليه حياه القصر من خلق و سجيّه.

كان على موسى عليه السّلام أن يعيش إلى جوار سكنه الأ-كواخ فتره ليعرف همومهم و آلامهم،و أن يتهيأ لمواجهه سكنه القصور.

و من جهه أخرى كان موسى بحاجة الى زمن طويل ليفكر فى أسرار الخلق و عالم الوجود و بناء شخصيته.فأى مكان أفضل له من صحراء مدين،و أفضل من بيت شعيب؟!.

إنّ مسؤوليه نبي من أولى العزم،ليست بسيطه حتى يمكن لكل فرد أن يتحملها،بل يمكن أن يقال:إنّ مسؤوليه موسى عليه السّلام-بعد مسؤوليه النّبي محمّد صلّى الله عليه و آله-من بين الأنبياء جميعا،كانت أثقل و أهم،بالنظر لمواجهته الجابره على الأرض،و تخليص أمّه من أسرهم،و غسل آثار الأسر الثقافى من أدمغتهم.

نقرأ فى «التوراه»و فى بعض الروايات الإسلاميه-أيضا-أنّ شعيبا قرر تكريما لأتعباب موسى و جهوده معه أن يهب له ما تلبده الأغنام فى علائم خاصه، فاتفق أن ولدت جميع الأغنام أو أغلبها-فى السنه الذى ودّع فيها موسى شعيبا-

ص: ٢٢٣

١ - ١) - يظهر من الروايات الإسلاميه أنّ موسى عليه السّلام عمل مع شعيب عشر سنوات،و هذا الموضوع موجود فى كتاب وسائل الشيعه،ج ١٥،الصفحه ٣٤(كتاب النكاح..أبواب المهور.الباب ٢٢-الحديث الرابع).

أولادها بتلك العلائم التي قررها شعيب (١)، و قدمها شعيب مع كامل الرغبة إلى موسى.

و من البديهي أنّ موسى عليه السّلام لا يقنع في قضاء جميع عمره برعى الغنم، و إن كان وجود «شعيب» إلى جانبه يعدّ غنيمه كبرى.

فعلية أن ينهض إلى نصره قومه، و أن يخلصهم من قيود الأسر، و ينقذهم من حاله الجهل و عدم المعرفة.

و عليه أن ينهى وجود الظلمه و حكام الجور في مصر، و أن يحطّم الأصنام، و أن يجد المظلومون العزه بالله معه، هذا الإحساس كان يدفع موسى للسفر إلى قومه.

و أخيرا جمع موسى أثاثه و متاعه و أغنامه و تهيأ للسفر.

و يستفاد ضمنا من التعبير «الأهل» التي وردت في آيات كثيرة في القرآن أن موسى عليه السّلام كان عنده هناك غير زوجته ولد أو أولاد، كما تؤيد الرّوايات الإسلاميه هذا المضمون، و كما صرّح بهذا المعنى في «التوراه» في سفر الخروج، و إضافه إلى كل ذلك فإنّ زوجته كانت حاملا أيضا.

و عند عودته من مدين إلى وطنه أضاع الطريق، و لثلا يقع أسيرا بيد الظلمه من أهل الشام اختار طريقا غير مطروق.

و على كل حال فإنّ القرآن يقول في أوّل من آيه هذا المقطع: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ ثمّ التفت إلى أهله و قال ﴿لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي (تندفون).

«آنست»: مشتقّه من ماده «إناس» و معناها المشاهده و الرؤيه المقترنه بالهدوء و الراحة.

ص: ٢٢٤

«جذوه» هي القطعه من النار، وقال بعضهم: بل هي القطعه الكبيره من الحطب.

و يستفاد من قوله لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَنَّهُ كَانَ أَضَاعَ الطَّرِيقَ، كما يستفاد من جمله لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ أَن الْوَقْتِ كَانَ لَيْلًا بَارِدًا.

و لم يرد في الآيه كلام عن حاله زوجه موسى، و لكن المشهور أَنَّها كانت حاملًا- كما في كثير من التفاسير و الروايات- و كانت تلك اللحظه قد أحست بالطلق و ألم الولاده.. و كان موسى قلقًا لحالها أيضًا.

فَلَمَّا آتَاهَا

أى أتى النار التي آنسها و رآها، و جدها نارًا لا كمثل النيران الأخر فهي غير مقترنه بالحراره و الحريق، بل هي قطعته من النور و الصفاء، فتعجب موسى من ذلك نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ .

«الشاطئ» معناه الساحل.

و«الوادي» معناه الطريق بين الجبلين، أو ممر السيول.

و«الأيمن» مشتق من «اليمين» خلاف اليسار، و هو صفة للوادي.

و«البقعه» القطعه من الأرض المعروفة الأطراف.

و لا شك أن الله سبحانه قادر على أن يجعل الأمواج الصوتيه في كل شيء، فأوجد في الوادي شجره ليكلّم موسى.. و موسى بشر له جسم و أذنان و لا بدّ له ليسمع الكلام من أمواج صوتيه.. و طبعي أن كثيرا من الأنبياء كان الوحي بالنسبه لهم إلهاما داخليا، و أحيانا يرون ما يوحي إليهم في «النوم» كما كان الوحي يأتيهم. أحيانا- عن طريق سماع الأمواج الصوتيه.

و على كل حال فلا مجال للتوهم بأنّ الله جسم، تعالى الله عن ذلك.

و في بعض الروايات ورد أن موسى عليه السلام حين اقترب من النار، دقق النظر فلاحظ أن النار تخرج من غصن أخضر و تضيء و تزداد لحظه بعد لحظه و تبدو

أجمل،فانحنى موسى و فى يده غصن يابس ليوقده من النار،فجاءت النار من ذلك الغصن الأخصر إليه فاستوحش و رجع إلى الوراء..ثم رجع إليها ليأخذ منها قبسا فأثته ثانيه..و هكذا مرّه يتجه بنفسه إليها و مرّه تتجه النار إليه،و إذا النداء و البشاره بالوحي إليه من قبل الله سبحانه.

و من هنا و مع ملاحظه قرائن لا تقبل الإنكار أتضح لموسى عليه السلام أنّ هذا النداء هو نداء إلهى لا غير.

و مع الالتفات إلى أنّ موسى عليه السلام سيتحمل مسئوليته عظيمه و ثقيله..فينبغى أن تكون عنده معاجز عظيمه من قبل الله تعالى مناسبة لمقامه النبوى،و قد أشارت الآيات إلى قسمين مهمين من هذه المعاجز:

الأولى قوله تعالى: **وَ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَ لَمْ يُعَقِّبْ .**

و يوم اختار موسى عليه السلام هذه العصا ليتوكأ عليها للاستراحه، و يهشّ بها على غنمه،و يرمى لها بهذه العصا أوراق الأشجار،لم يكن يعتقد أنّ فى داخلها هذه القدره العظيمه المودعه من قبل الله.و أن هذه العصا البسيطة ستتهز قصور الظالمين،و هكذا هى موجودات العالم،تتصور أنّها لا شىء،لكن لها استعدادات عظيمه مودعه فى داخلها بأمر الله تتجلى لنا متى شاء.

فى هذه الحال سمع موسى عليه السلام مرّه أخرى النداء من الشجره أَقْبِلْ وَ لَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ .

«الجان»فى الأصل معناه الموجود غير المرئى،كما يطلق على الحيات الصغار اسم(جان)أيضا؛لأنّها تعبر بين الأعشاب و الأحجار بصوره غير مرئيه..

كما عبر فى بعض الآيات عن العصا ب **تُجَبَانٌ مُّيِّنٌ** [سوره الأعراف الآيه ١٠٧ و سوره الشعراء الآيه ٣٢]

و قد قلنا سابقا:إنّ هذا التفاوت فى التعابير ربّما لبيان الحالات المختلفه

لتلك الحيه..التي كانت فى البدايه حيه صغيره،ثم ظهرت كأنها ثعبان مبین.

كما و یحتمل أن موسى علیه السّلام رآها فى الوادى بصوره حيه،ثم فى المرات الأخرى بدأت تظهر بشكل مهول تُعْبَانٌ مُبِينٌ و على كل حال،كان على موسى علیه السّلام أن يعرف هذه الحقيقه،و هى أنه لا ینبغى له الخوف فى الحضره الإلهیه؛لأنّ الأمن المطلق حاکم هناك،فلا مجال للخوف إذا.

كانت المعجزه الأولى آیه «من الرعب»،ثم أمر أن يظهر المعجزه الثانیه و هى آیه أخرى «من النور و الأمل»و مجموعهما سیکون ترکیبا من «الإنذار» و «البشاره» إذ جاءه الأمر أُسْلُكُ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ .

فالبياض الذى یكون على يده للناس لم یکن ناشئا عن مرض -كالبرص و نحوه- بل كان نورا الهیا جدیدا.

لقد هزّت موسى علیه السّلام مشاهدته لهذه الأمور الخارقه للعادات فى اللیل المظلم و فى الصحراء الخالیه..و من أجل أن یهدأ روع موسى من الرهب،فقد أمر أن یضع يده على صدره وَ اضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ .

قال بعضهم:هذه العبارة وَ اضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ كناية عن لزوم القاطعیه و العزم الراسخ فى أداء المسؤولیه بالنسبه لرسالته،و أن لا یخاف أو یرهب شیئا أو أحدا أو قوه مهما بلغت.

و قال بعضهم:حين ألقى موسى علیه السّلام عصاه فرآها كأنها «جان»أو تُعْبَانٌ مُبِينٌ رهب منها،فمدّ يده لیدافع عن نفسه و یطردھا عنه،لكن الله أمره أن یضم يده إلى صدره،إذ لا حاجة للدفاع فهى آیه من آیاته.

و التعبير ب«الجناح»[الذى یستعمل للطائر مكان الید للإنسان]

بدلا عن الید فى غایه الجمال و الروعه..و لعل المراد منه تشبیه هذه الحاله بحاله الطائر حين یدافع عن نفسه و هو أمام عدوّه المهاجم،و لكنه یعود إلى حالته الأولى و یضم

جناحه إليه عند ما يزول عنه العدو ولا يجد ما يرهبه!

و جاء موسى النداء معقبا: فذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَيَّ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِيهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ .

فهم طائفه خرجت عن طاعه الله و بلغ بهم الطغيان مرحله قصوى..فعليك- يا موسى- أن تؤدى وظيفتك بنصحهم،و إلا واجهتهم بما هو أشد.

هنا تذكر موسى عليه السلام حادثه مهمه وقعت له فى حياته بمصر،و هى قتل القبطى،و تعبته القوى الفرعونه لإلقاء القبض عليه و قتله.

و بالرغم من أن موسى عليه السلام كان يهدف عندها الى انقاذ المظلوم من الظالم الذى كان فى شجار معه،فكان ما كان..إلا أن ذلك لا معنى له فى منطق فرعون و قومه،فهم مصممون على قتل موسى إن وجدوه..لذلك فإن موسى: قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ .

و بعد هذا كله فإنى وحيد و لسانى غير فصيح وَ أَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَيِّدُ فَنِنِّي أَنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ .

كلمه «أفصح» مشتقه من «الفصيح»و هو فى الأصل كون الشىء خالصا،كما تطلق على الكلام الخالص من كل حشو و زياده
كلمه «الفصيح» أيضا.

و«الردء»معناه المعين و المساعد.

و على كل حال فلأن هذه المسؤوليه كانت كبيره جدا،و لثلا يعجز موسى عن أدائها،سأل ربه أن يرسل معه أخاه هارون أيضا.

فأجاب الله دعوته،و طمأنه بإجابته ما طلبه منه و قَالَ سَيَسْجُدُ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَ نَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَالسلطه و الغلبه لكما فى جميع المراحل.

و بشرهما بالنصر و الفوز،و أنه لن يصل إليهما سوء من أولئك: إذ قال سبحانه:

فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيَاتِنَا

فبهذه الآيات و المعاجز لن يستطيعوا قتلكما أو الإضرار بكما أنتمما و من اتبعكمما الغائبون .

فكان ما أوحى الله إلى موسى أملا كبيرا و بشاره عظمى اطمأن بها قلبه، و أصبح راسخ العزم و الحزم، و سنجد آثار ذلك في الصفحات المقبلة حين نقرأ الجوانب الأخرى من قصه موسى عليه السلام إن شاء الله (1).

ص: ٢٢٩

١ - ١) - كانت لنا بحوث عديدة في هذا المجال، فراجعها إن شئت في «تفسير سورة الأعراف» و «تفسير سورة طه» و «تفسير سورة الشعراء». و في بعض السور الأخرى.

اشاره

فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرَىٰ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٣٦) وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧)

التفسير

اشاره

موسى فى مواجهه فرعون:

نواجه المقطع الثامن من هذه القصصه العظيمه..لقد تلقى موسى عليه السلام من ربه الأمر بأن يصدع بالنبوه و الرساله فى تلك الليله المظلمه و الأرض المقدسه، فوصل إلى مصر، و أخبر أخاه هارون بما حمل..و أبلغه الرساله الملقاه عليهما..

فذهبا معا إلى فرعون ليبلغاه رساله الله، و بعد عناء شديد استطاعا أن يصلا إلى فرعون و قد حف به من فى القصر من جماعته و خاصته، فأبلغاه الدعوه إلى الله و وحدانيته..و لكن لمر ما جرى هناك فى قصر فرعون-مع موسى و أخيه.

يقول القرآن فى أول آيه من هذا المقطع: فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرَىٰ .

و أنكروا أن يكونوا سمعوا مثل ذلك ^{مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَىٰ} .

فواجهوا موسى متوسلين بحربه توسيل بها جميع الجبابره و الضالون على طول التاريخ، حين رأوا المعاجز من أنبيائهم.. و هى حربه «السحر» لأنّ الأنبياء يأتون بأمر خارقه للعادات، و «السحر» خارق للعاده «لكن اين هذا من هذه»؟ السحره أناس منحرفون و أهل دنيا و عبيد لها و أساس عملهم قائم على تحريف الحقائق، و يمكن معرفتهم جيدا بهذه العلامه.. فى حين أنّ دعوه الأنبياء و محتواها شاهد على صدق معجزهم..

ثم إنّ السحره طالما يعتمدون على قدره البشرىه فإنّ عملهم محدود، أما الأنبياء الذين يعتمدون على قوه الهيه، فإن معجزهم عظيمه و غير محدوده!..

التعبير ب«الآيات البينات» عن معاجز موسى عليه السلام بصيغه الجمع، ربّما يراد به أن معاجز أخرى غير المعجزتين هاتين، أو أن كل معجزه من معجزتيه مركبه من عدّه معاجز.

فتبدل العصا إلى ثعبان عظيم معجزه، و عوده الثعبان إلى عصا معجزه أخرى.

و التعبير ب«مفتري» مأخوذه من «فريه» بمعنى التهمه و الكذب لأنهم قصدوا أنّ موسى يكذب على الله!.

و التعبير ب ^{مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَىٰ} مع أن نداء الأنبياء و دعوتهم من أمثال نوح و إبراهيم و يوسف عليهم السلام كانا من قبل موسى عليه السلام فى هذه الأرض، فجميعهم دعوا إلى عباده الله سبحانه. هذا التعبير أساسه طول المدّه و بعد العهد عليهم، أو أنّهم يريدون أن يقولوا: إنّ آباءنا- أيضا- لم يذعنوا لدعوه الأنبياء قبلك!.

لكن موسى عليه السلام أجابهم بلهجه التهديد و الوعيد، حيث يكشف لنا القرآن هذا الحوار ^{قَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٰ أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ}

إشاره إلى أنّ الله يعلم حالى، و هو مطلع علىّ بالرغم من اتهامكم إِيَّاي بالكذب.. فكيف يمكن أن يمكننى الله من الأمور الخارقة للعادات لكى أضل بها عباده؟ فعلمه بحالى و منحه لى هذه القدره على الإتيان بالمعجزات دليل على حقانيه دعوتى.

ثمّ بعد هذا، الكاذب قد يقضى فتره بين الناس بالكذب و الخديعه، لكن سرعان ما يفتضح أمره، فانتظروا لتشهدوا من تكون له العاقبه و الإنتصار.. و لمن يكون الخزى و الاندحار؟! و لو كان كلامى كذبا فأنا ظالم و إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ .

و هذا التعبير يشبه تعبيرا آخر فى الآية (٦٩) من سوره «طه» إذ جاء بهذه الصيغه «وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى» .

و هذه الجملة لعلها إشاره إلى الفراعنه المعاندين و المستكبرين ضمنا، و هى أنكم مقتنعون بمعاجزى و دعوتى الحقّه، و لكنكم تخالفوننى ظلما.. فعليكم أن تعرفوا أنّكم لن تنتصروا أبدا، و العاقبه لى فحسب.

و التعبير بَعَاقِبُهُ الدَّارِ رَبِّمَا كَانَ إشاره لعاقبه الدار الدنيا، أو لعاقبه الدار الآخره، أو لعاقبه الدارين جميعا، و بالطبع فَإِنَّ المعنى الثالث أجمع و أنسب حسب الظاهر.

بهذا المنطق المؤدب أنذر موسى عليه السلام فرعون و قومه بالهزيمه فى هذه الدنيا و فى الأخرى!.

اشاره

وَ قَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَ
إِنِّي لَمَاطْنُهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨) وَ اسْتَكْبَرَ هُوَ وَ جُنُودُهُ فِي الْمَأْرَضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا- يُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَ جُنُودَهُ
فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَ جَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ (٤١) وَ اتَّبَعْنَاهُمْ
فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢)

التفسير

اشاره

كيف كان عاقبه الظالمين؟

نواجه هنا المقطع التاسع من هذا التاريخ الملىء بالأحداث و العبر.

هذا المقطع يعالج مسأله صنع فرعون البرج-أو بنائه الصرح المعروف- للبرهنه على وهميه دعوه موسى عليه السلام.

و نعرف أن من سنن الساسه القدماء فى أعمالهم أنه كلما وقعت حادثه مهمه

على خلاف رغباتهم و ميولهم (و من أجل التمويه و إيهام الناس) يبادرون إلى خلق جوّ جديد ليلفتوا أنظار الناس إليه، و ليصرفوهم عن تلك الحادثة المطلوبه.

و يبدو أنّ بناء «الصرح العظيم» حدث بعد ما جرى لموسى من مواجهته السحره ما جرى..لأنّه يستفاد من سوره «المؤمن» أن هذا العمل «بناء البرج» تمّ حين كان الفراعنه يخططون لقتل موسى عليه السّلام، و كان مؤمن آل فرعون يدافع عنه..

و نعرف أنّه قبل أن يواجه موسى عليه السّلام السحره لم يكن مثل هذا العمل و لا مثل هذا الحديث، و حيث أن القرآن الكريم تحدّث عن مواجهه موسى عليه السّلام للسحره فى سوره «طه، و الأعراف، و يونس، و الشعراء» فإنّه لم يتطرق إليها هنا. و إنّما تحدث هنا و فى سوره المؤمن عن بناء البرج.

و على كل حال فقد شاع خبر انتصار موسى عليه السّلام على السحره فى مصر، و إيمان السحره بموسى زاد فى الأمر أهميه، كما أن موقع الحكومه الفرعونيّه أصبح فى خطر جدّى شديد.

و احتمال تيقظ الجماهير التى فى أسر الذل كان كبيرا جدّا.. فيجب صرف أفكار الناس بأيه قيمه كانت، و اشغالهم بسلسله من المشاغل الذهنيه مقرونه ببذل من الجهاز الحكومى، لإغفال الناس و تحميقهم! و فى هذا الصدد يتحدث القرآن الكريم عن جلوس فرعون للتشاور فى معالجه الموقف، إذ نقرأ فى أوّل آيه من هذا المقطع: **وَ قَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي .**

فأنا إلهكم فى الأرض.. أمّا إله السماء فلا- دليل على وجوده، و لكننى سأتحقق فى الأمر و لا أترك الاحتياط، فالتفت إلى وزيره هامان و قال: **فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ ثُمَّ أصدِر الأوامر ببناء برج أو قصر مرتفع جدّا لأصعد عليه و استخبر عن إله موسى.**

فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَ إِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ

لم لم يذكر فرعون اسم الآجر، و اكتفى بالقول: فَأَوْقَدْ لِي لِيَاءَ هَامَانَ عَلَى الطَّيْنِ؟ قال بعضهم: هذا دليل على أن الآجر لم يكن متداولاً حتى ذلك الحين، وإنما ابتكره الفراعنة من بعد.. في حين أن بعضهم يرى أن هذا التعبير أو هذا البيان فيه نوع من التكبر و موافق لسنّه الجبابره.

و قال بعضهم: إنّ كلمه «آجر» ليست فصيحته، لذلك لم يستعملها القرآن، و إنما استعمل هذا التعبير المتقدم على لسان فرعون!.

هنا ناقش جماعه من المفسرين كالفخر الرازى و الآلوسى مسأله «الصرح»، و هل بنى فرعون «الصرح» حقاً أم لا؟! و يبدو أن الذى شغل فكر المفسرين هو أن هذا العمل لم يكن متزناً بأيّ وجه و أى حساب.

ترى..! لم يكن الناس قد صعدوا الجبال من قبل فأروا منظر السماء كما هو على الأرض؟.

و هل البرج الذى بينه البشر أكثر ارتفاعاً من الجبل؟.

و أى أحق يصدق أنه يمكن الوصول إلى السماء بواسطه مثل هذا البرج؟! و لكن أولئك الذين يفكرون مثل هذا التفكير غفلوا عن هذه المسأله، و هى أن مصر لم تكن أرضاً جبلية، و بعد هذا كله نسوا أنّ الطبقة العامه لأهل مصر بسطاء و يخدعون بشتى الوسائل.

حتى فى عصرنا الذى يسمى عصر العلم و عصر النور، نجد مسائل تشبه ما وقع فى العصور الماضيه ينخدع بها الناس.

و على كل حال، فطبقاً لما ورد فى بعض التواريخ، فإنّ هامان أمر بأرض واسعة ليبنى عليها الصرح أو البرج، و هياً خمسين ألف رجل من العمال و المهندسين لهذا العمل المضنى، و آلاف العمال لتهيئه الوسائل اللازمه لهذا البناء، و فتح أبواب الخزائن و صرف أموالاً طائله فى هذا السبيل، و اشغل عمالاً كثيرين

فى هذا البناء..حتى أنه ما من مكان إلا و تسمع فيه أصوات هذا البناء أو أصداؤه!

و كلما اعتلى البناء أكثر فأكثر كان الناس يأتون للتفرج،و ما عسى أن يفعل فرعون بهذا البناء و هذا البرج.

صعد البناء إلى مرحله بحيث أصبح مشرفا على جميع الأطراف.و كتب بعضهم: إنَّ المعمارين بنوا هذا البرج بناء بحيث جعلوا حوله سلاالم حلزونية يمكن لراكب الفرس أن يرتقى الى أعلى البرج.

و لما بلغ البناء تمامه و لم يستطع البناؤون أن يعلوه أكثر من ذلك..جاء فرعون بنفسه يوما و صعدته بتشريفات خاصة..فنظر إلى السماء فوجدها صافيه كما كان ينظرها من الأرض لم تتغير و لم يطرأ عليها جديد.

المعروف أنه رمى سهمها إلى السماء،فرجع السهم مخضبا بالدم على أثر إصابته لأحد الطيور أو أنها كانت خديعه من قبل فرعون من قبل..فتزل فرعون من أعلى القصر و قال للناس:اذهبوا و اطمأنوا فقد قتلت إله موسى (١).

و من المسلم به أن جماعه من البسطاء الذين يتبعون الحكومه اتباعا أعمى و أصم،صدّقوا ما قاله فرعون و نشروه فى كل مكان،و شغلوا الناس بهذا الخبر لإغفالهم عن الحقائق!.

و نقلوا هذا الخبر أيضا،و هو أنّ البناء لم يدم طويلا«و طبعاً لا يدوم»أجل لقد تهدم البناء و قتل جماعه من الناس..و نقلوا فى هذا الصدد قصصا أخرى، و حيث أن لم تتضح صحتها لنا فقد صرفنا عنها النظر.

و الذى يلفت النظر أن فرعون فى كلامه هذا مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي كان قد استعمل نهايه الخبث و منتهى الشيطنه..إذ كان يرى من المسلم به أنه إله!!..و كان مدار بحثه:هل يوجد إله غيره؟!..ثم ينفى أن يكون هناك إله سواه إله؛لعدم وجود الدليل!!

ص: ٢٣٦

و فى المرحلة الثالثه و الأخيره، و من أجل أن يقيم الدليل على عدم وجود إله غيره بنى ذلك الصرح!

كل هذه الأمور تؤكد جيدا أنه كان يعرف تلك المسائل، إلا أنه كان يضلل الناس و يصرف أفكارهم عن الحق، ليحفظ موقعه و حكومته!

بعد هذا كله يتحدث القرآن عن استكبار فرعون و من معه، و عدم إذعانهم لمسألتي «المبدأ و المعاد» بحيث كان فرعون يرتكب ما يشاء من إجرام و جنايات بسبب انكار هذين الأصلين فيقول: **وَ اسْتَكْبَرَ هُوَ وَ جُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمِ إِنَّا لَا نُزَجِّعُونَ .**

هذا الإنسان الضعيف الذى لا يستطيع أن يبعد عن نفسه بعوضه، و ربما قتله ميكروب لا يرى بالعين المجردة كيف يمكن له أن يدعى العظمه و الألوهية!؟.

ورد فى الحديث القدسى أن الله سبحانه يقول: «الكبرياء ردائي، و العظمه إزارى، فمن نازعنى واحدا منهما ألقيته فى النار» (١).

و من البديهي أن الله لا يحتاج إلى أوصاف كهذه.. و لكن حاله الطغيان و العدوان تستولى الإنسان حينما ينسى نفسه، و تملأ ریح الكبر و الغرور فكره! لكن لننظر إلى أين وصل هذا الغرور بفرعون و جنوده؟! يقول القرآن الكريم: **فَأَخَذْنَا هُوَ وَ جُنُودَهُ فَتَوَدَّعُوا فِي الْيَمِّ .**

أجل، لقد جعلنا سبب موتهم فى مصدر معيشتهم، و جعلنا النيل الذى هو رمز عظمتهم و قوتهم مقبره لهم!.

من الطريف أن القرآن يعبر ب«نبذناهم» من ماده «نبذ» على زنه «نبض» و معناه رمى الأشياء التى لا قيمه لها و طرحها بعيدا، ترى ما قيمه هذا الإنسان الأنانى المتكبر المتجبر الجانى المجرم؟! أجل، لقد نبذنا هؤلاء الذين لا قيمه لهم من المجتمع البشرى، و طهرنا

ص: ٢٣٧

(١-١) - تفسير روح المعاني، التفسير الكبير، للفخر الرازى، تفسير الميزان و تفاسير آخر ذيل الآيه محل البحث.

الأرض من لوث وجودهم.

ثم، يختتم الآية بالتوجه إلى النبي صلى الله عليه وآله قائلاً: فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ .

هذا النظر ليس بعين «البصر» بل هو بعين «البصيرة»، وهو لا يخص ظلمه الماضى و فراعنه العهد القديم، بل إن ظلمه هذا العصر ليس لهم من مصير سوى هذا المصير المشؤوم!

ثم يضيف القرآن قائلاً فى شأنهم: وَجَعَلْنَا هُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ .

هذا التعبير أوجد إشكالا لدى بعض المفسرين، إذ كيف يمكن أن يجعل الله أناسا أئمة للباطل؟! ولكن هذا الأمر ليس معقدا.. لأنه أولاً.. إن هؤلاء هم فى مقدمه جماعه من أهل النار، وحين تتحرك الجماعات من أهل النار، فإن هؤلاء يتقدمونهم إلى النار! فكما أنهم كانوا فى هذه الدنيا أئمة الضلال، فهم فى الآخرة- أيضاً- أئمة النار، لأن ذلك العالم تجسم كبير لهذا العالم!.

ثانياً.. كونهم أئمة الضلال- فى الحقيقة- نتيجة أعمالهم أنفسهم، و نعرف أن تأثير كل سبب هو بأمر الله، فهم اتخذوا طريقا يودى بهم إلى الضلال و ينتهى بهم إلى أن يكونوا أئمة الضالين، فهذه حالهم فى يوم القيامة!.

و لمزيد التأكيد يصور القرآن صورتهم و ماهيتهم فى الدنيا و الآخرة! وَ أَتَّبَعْنَا هُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ! (١) لعنه الله معناها طردهم من رحمته، و لعنه الملائكة و المؤمنين هى الدعاء عليهم صباحا و مساء.. و فى كل وقت. و أحيانا تشملهم اللعنه العامه. و أحيانا يأتى اللعن خاصه

ص: ٢٣٨

١- ١) - «المقبوح» مشتق من «القبح» و معناه السوء. ما فسره بعضهم بأن المقبوح معناه المطرود أو المفزوح أو المغضوب عليه و ما شاكلها، فهو من التفسير بلازم المعنى، و إلا فالمقبوح معناه واضح.

لبعضهم. حيث أنّ كل من يتصفح تاريخهم يلعنهم، ويتنفر من أعمالهم.

و على كل حال فإنّ سوء أعمالهم في هذه الدنيا، هو الذى قبح وجوههم فى الدار الآخرة «يوم القيامة»، لأنه يوم البروز و يوم هتك الحجب.

ملاحظه!

اشاره

أئمة «النور» و أئمة «النار»

هناك طائفتان من الأئمة فى منطق القرآن الكريم، فأئمة للمتقين يهدونهم إلى الخيرات، كما ورد فى شأن الأنبياء عليهم الصلاه و السلام: **وَ جَعَلْنَا هُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (١)**.

فهؤلاء أئمة أصحاب مناهج واضحة، لأنّ التوحيد الخالص و الدعوه إلى الخير و العمل الصالح و الحق و العدالة، تشكّل متن مناهجهم.. فهم أئمة النور، و خطهم متصل بسلسله الأنبياء و الأوصياء الى خاتم النبيين محمّد صلى الله عليه و آله و سلم و أوصيائه عليهم السلام.

و هناك أئمة للضلال.. و قد عبّرت عنهم الآيات محل البحث بأئمة: **أئمة يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ!**

و من خصائص هاتين الطائفتين من الأئمة، كما

ورد عن الإمام الصادق عليه السلام ما يلى: «إِنَّ الْأئِمَّةَ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِمَامَانِ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى: وَ جَعَلْنَا هُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَا بِأَمْرِ النَّاسِ يَقْدَمُونَ أَمْرَ اللَّهِ قَبْلَ أَمْرِهِمْ، وَ حَكَمَ اللَّهُ قَبْلَ حُكْمِهِمْ، قَالَ: وَ جَعَلْنَا هُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ يَقْدَمُونَ أَمْرَهُمْ قَبْلَ أَمْرِ اللَّهِ، وَ حَكَمَهُمْ قَبْلَ

ص: ٢٣٩

حكم الله، و يأخذون بأهوائهم خلاف كتاب الله» (١).

و بهذا المعيار يتضح معرفه هاتين الطائفتين من الأئمة.. ففي يوم القيامة الذي تمتاز فيه الصفوف، كل جماعه تمضى خلف إمامها، فأهل النار إلى النار، و أهل الجنة إلى الجنة.. كما يقول القرآن الكريم: يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِإِمَامِهِمْ (٢).

و قلنا مرارا: إن يوم القيامة تجسم عظيم عن هذا العالم «الصغير» و أولئك الذين ارتبطوا بإمام معين و اقتفوا أثره، فهم سائرون خلفه هناك أيضا.

ينقل «بشر بن غالب» عن الإمام أبي عبد الله الحسين عليه السلام أنه سأله عن تفسير الآية يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِإِمَامِهِمْ

فقال عليه السلام: «إمام دعا إلى هدى فأجابوه إليه، و إمام دعا إلى ضلاله فأجابوه إليها، هؤلاء في الجنة، و هؤلاء في النار.. و هو قوله عز و جل فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَ فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (٣).

من الطريف أن فرعون الذي تقدم قومه في هذه الدنيا و أغرقهم بمعيتته في أمواج النيل، يقدم قومه يوم القيامة -أيضا- يخزيهم بمعيتته في نار جهنم، إذ يقول القرآن في شأنه: يَتَقَدَّمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَ بَشَسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ (٤).

و نختم هذا البحث

بحديث الإمام على عليه السلام في شأن المنافقين حيث يقول عليه السلام:

«ثم بقوا بعده فتقربوا إلى أئمة الضلالة و الدعا إلى النار بالزور و البهتان، فولّوهم الأعمال، و جعلوهم حكاما على رقاب الناس» (٥).

ص: ٢٤٠

١-١ - تفسير الصافي ذيل الآيات مورد البحث.

٢-٢ - الإسراء، ٧١.

٣-٣ - أمالي الصدوق لما ورد في نور الثقلين، ج ٣، ص ١٩٢.

٤-٤ - سورة هود، ٩٨.

٥-٥ - راجع نهج البلاغه، الخطبه ٢١٠.

اشاره

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بِصَائِرٍ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ
الْعُرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًّا فِي أَهْلِ
مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحِمَهُ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَاهُمْ مِنْ
نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦)

التفسير

اشاره

الأخبار الغيبية هي من عند الله وحده..

نصل في هذا القسم من الآيات إلى «المقطع العاشر» وهو القسم الأخير من الآيات التي تتعلق بقصة موسى و ما تحمله من معان
كبيرة!

و هي تتحدث عن نزول الأحكام، و التوراه، أى إنها تتحدث عن انتهاء الدور السلبي «الطاغوت» و بدايه «الدور الإيجابي» و البناء!

يبدأ هذا المقطع بالآيه التاليه وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً لِّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ .

و الكلام فى أنّ المقصود من «القرون الأولى» أى الأقسام السابقين.. من هم؟! قال بعض المفسرين: هو إشاره إلى الكفار من قوم نوح و عاد و ثمود و أمثالهم.. لأنه بتقدم الزمان و مضيّه تمحى اثار الأنبياء السابقين، و يلزم من ذلك وجود كتاب سماوى جديد فى أيدي البشر!

و قال بعض المفسرين: هو إشاره إلى هلاك قوم فرعون الذين كانوا بقايا الأقسام السابقين، لأنّ الله سبحانه آتى موسى كتاب «التوراه» بعد هلاكهم.

و لكنّه لا مانع من أن يكون المقصود بالقرون الأولى فى الآيه شاملا لجميع الأقسام.

و «البصائر» جمع «بصيره» و معناها الرؤيه، و المقصود بها هنا الآيات و الدلائل التى تستوجب إناره قلوب المؤمنين.. و «الهدى» و «الرحمه» أيضا من لوازم البصيره.. و على أثرها تتيقظ القلوب (1).

ثمّ يبين القرآن الكريم هذه الحقيقه، و هى أنّ ما ذكرناه لك «يا رسول الله، فى شأن موسى و فرعون و ما جرى بينهما بدقائقه، هو فى نفسه دليل على حقائيه القرآن، لأنّك لم تكن «حاضرا» فى هذه «الميادين» التى كان يواجه موسى فيها فرعون و قومه! و لم تشهدا بعينيك.. بل هو من الطاف الله عليك، إذ أنزل عليك هذه الآيات لهدايه الناس.. يقول القرآن: وَ مَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغُرُبَىٰ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ أَى الْأَمْرَ بِالنَّبُوَّةِ وَ مَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ .

الذى يجلب الانتباه و يستلفت النظر هنا أنّ موسى عليه السلام حين سار من مدين إلى مصر مرّ فى طريق سيناء، و كان بهذا الاتجاه يسير من الشرق نحو الغرب.

ص: ٢٤٢

١ - ١) - «البصائر» جمع «بصيره» و أمّا «البصر» فجمعه «أبصار».

و على العكس من ذلك مسير بنى إسرائيل حين جاءوا من مصر إلى الشام و مروا عن طريق سيناء، فإنهم يتجهون بمسيرهم من الغرب نحو الشرق..و لذلك يرى بعض المفسرين أن المراد من الآية «٦٠» فَأَتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ فِي سوره الشعراء التي تتحدث عن متابعه فرعون و قومه لبنى إسرائيل، هو إشاره إلى هذا المعنى! ثم يضيف القرآن وَ لَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ و تقادم الزمان حتى اندرست آثار الأنبياء و هدايتهم في قلوب الناس، لذلك أنزلنا عليك القرآن و بينا فيه قصص الماضين ليكون نورا و هدى للناس.

ثم يضيف القرآن الكريم وَ مَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ [أى على أهل مكه]

آيَاتِنَا (١) وَ لَكِنَّا كُنَّا مُزْسِلِينَ ..و أوحينا إليك هذه الأخبار الدقيقه التي تتحدث عن آلاف السنين الماضيه..لتكون عبره للناس و موعظه للمتقين (٢).

و تأكيداً على ما سبق بيانه يضيف القرآن الكريم قائلاً: وَ مَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ (٣) إِذْ نَادَيْنَا إِي نَادِينَا موسى بأمر النبوه، و لكننا أنزلنا إليك بهذه الاخبار رحمه من الله عليك وَ لَكِن رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ .

و خلاصه الكلام: أن الله أخبرك يا محمّد بالحوادث التي فيها إيقاظ و إنذار لما جرى في الأقسام السابقين، و لم تكن فيهم من الشاهدين، لتتلو كل ذلك على

ص: ٢٤٣

١-١) -«ثاوى» مشتق من (ثوى) و معناه الإقامة المقرونه بالاستقرار، و لذا سمى المستقر و المكان الدائم بالثوى.

٢-٢) - كان بين ظهور موسى عليه السلام و ظهور النبي (محمّد) صلى الله عليه و آله حدود ألفى عام.

٣-٣) - قال بعض المفسرين: يحتمل أن يكون المراد من «نادينا» هنا هو النداء الثانى عند ما جاء موسى و سبعون رجلا من قومه إلى الطور، فجاهه النداء من الله، و لكن هذا الاحتمال بعيد جداً؛ لأن هذه الآيات تشير إلى المسائل التي أخبر عنها النبي في الآيات المتقدمه في حين أنه لم يكن حاضراً هناك و لم يكن من الشاهدين، و نعرف أن الآيات المتقدمه تتحدث عن حركة موسى من مدين باتجاه مصر، و سماعه النداء من قبل الله لأول مره في وادى الطور «فلاحظوا بدقه».

قومك الذين هم على ضلال لعلهم يهتدون و لعلهم يتذكرون.

هنا ينقدح هذا السؤال: كيف يقول القرآن: لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِّنْ نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ [أى العرب المعاصرين للنبي محمد صلى الله عليه و آله]

فى حين أننا نعرف أن الأرض لا تخلو من حجه لله، و كان بين العرب أوصياء للأنبياء السابقين (كأوصياء عيسى عليه السلام).

و فى الجواب على ذلك نقول: المقصود من ذلك هو إرسال رسول يحمل إلى قومه كتابا سماويًا بينا.. لأن بين عصر عيسى عليه السلام و ظهور نبي الإسلام صلى الله عليه و آله قرونا مديده، و لم يأت بين عيسى و النبي محمد صلى الله عليه و آله و سلم نبي من أولى العزم، و لذلك فقد كان هذا الموضوع ذريعه للملحدين و المفسدين.

يقول الإمام على عليه السلام فى هذا الصدد «إن الله بعث محمدا صلى الله عليه و آله و ليس أحد من العرب يقرأ كتابا و لا يدعى نبوه، فساق الناس حتى بوأهم محلثهم و بلغهم منجاتهم» (١).

ص: ٢٤٤

١-١) - نهج البلاغه، الخطبه ٣٣.

اشاره

وَ لَوْ لَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْ لَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْ لَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَ قَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ (٤٨) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٩) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًىٰ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠)

التفسير

اشاره

ذريعه للفرار من الحق:

حيث أن الآيات-آنفه الذكر- كانت تتحدث عن إرسال النبي صلى الله عليه و آله لينذر قومه، ففي هذه الآيات يبين القرآن ما ترتب من لطف الله على وجود النبي في

قومه فيقول: إننا و قبل أن نرسل إليهم رسولا إذا أردنا أنزال العذاب عليهم بسبب ظلمهم و سيئاتهم قالوا: لما ذا لم ترسل لنا رسول يبين لنا أحكامك لنؤمن به و لو لا أن تصيبهم مصة بيته بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لو لا أرسلت إلينا رسولا فتتبع آياتك و نكون من المؤمنين (١).

هذه الآية تشير إلى موضوع دقيق، و هو أن طريق الحق واضح و بين... و كل «عقل» حاكم ببطلان الشرك و عبادة الأصنام.. و قبح كثير من الأعمال التي تقع نتيجة الشرك و عبادة الأصنام- كالمظالم و ما شاكلها- هي من مستقلات حكم العقل، و حتى مع عدم إرسال الرسل، فإن العقوبة على مثل هذه الأمور ممكنة.

و لكن الله سبحانه حتى في هذا المجال و مع وضوح حكم العقل فيه أرسل الرسل مع الكتب السماوية و المعاجز الساطعة، إتماما للحجج و نفيا للعدر، لئلا يقول أحد: إنما كان شقاؤنا بسبب عدم وجود الدليل، إذ لو كان فينا قائد إلهي لكننا من أهل الهداية و من الناجين.

و على كل حال فإن هذه الآية من الآيات التي فيها دلالة على لزوم اللطف عن طريق إرسال الأنبياء و الرسل! و تدل على أن سنه الله قائمه على عدم تعذيب أيه أمه قبل إرسال الرسل إليها، و نقرأ في سورة النساء الآية (٦٥) أيضا رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل و كان الله عزيزا حكيما.

ثم تتحدث الآيات عن معاذير أولئك، و تشير إلى أنهم- بعد إرسال الرسل- لم يكفوا عن الحيل و الذرائع الواهية، و استمروا على طريق الانحراف، فتقول الآية: فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لو لا أوتى مثل ما أوتى موسى.

ص: ٢٤٦

١- ١) - يصرح كثير من المفسرين أن جواب «لولا» الأولى محذوف و تقديره «لما أرسلنا رسولا» أو «لما وجب إرسال الرسل».. و بديهي أن التعبير الثاني أكثر دقة و وضوحا.. و على كل حال فهذا الكلام مربوط بأحكام يدركه العقل مستقلا.. و إلا فإن إرسال الرسل ضروري بدلائل أخرى، على أن واحدا من فوائد إرسال الرسل- أيضا- هو تأكيد الأحكام العقلية كبطلان الشرك و قبح الظلم و الفساد.. «فلاحظوا بدقه».

فلم تكن عصا موسى في يده؟ ولم لا تكون يده بيضاء «كيد موسى»؟ ولم لا ينشق البحر له كما انشق لموسى؟! ولم لم... إلخ.

فيجيب القرآن على مثل هذه الحجج، ويقول: أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلِ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا أَيُّ مَوْسَىٰ وَ هَارُونَ، تعاونوا فيما بينهما ليضلونا عن الطريق وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ .

والتعبير ب«سحران» بدلا عن «ساحران» هو لشده التأكيد، لأنّ العرب حين تريد التأكيد على شخص في خصله ما تقول: هو العدل بعينه، أو بعينه، أو السحر و هكذا.

كما يرد هذا الاحتمال-أيضا- هو: إنّ مقصودهم المعجزتين العظيمتين لموسى عليه السّلام و هما عصاه و يده البيضاء! و إذا قيل: ما علاقته هذا الإنكار بمشركي مكه، فهذه الأمور متعلقه بفرعون و قومه السابقين؟ فالجواب على ذلك واضح.. و هو أن التذرع بالحجج الواهيه ليس أمرا جديدا.. فجميعهم من نسيج واحد، و كلامهم يشبه كلام السابقين تماما، و خطهم و طريقتهم و منهجهم على شاكله واحده.

التفسير الواضح للآيه ما قلناه آنفا، إلا أن بعض المفسرين فسروا الآيه تفسيرا آخر و قالوا: إنّ المقصود بقوله تعالى: سِحْرَانِ تَظَاهَرَا هو «النبي موسى و نبي الإسلام العظيم محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله» لأنّ مشركي العرب كانوا يقولون: إن كليهما ساحران... و إنّنا بكلّ كافرون.

و قد نقلوا في هذا الصدد حادثه تاريخيه، و هي أنّ أهل مكه بعثوا جماعه منهم إلى اليهود في بعض أعيادهم، و سألوهم عن نبي الإسلام «محمّد» صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله أ هو نبيّ حقّا؟! فأجابوا: إنّهم وجدوا مكتوبا عندهم في التوراه «بأوصافه»!. فرجع

المبعوثون إلى مشركى مكه و نقلوا لهم ما جرى بينهم و بين اليهود، فقالوا:

سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ

و لكن بملاحظه هاتين النقطتين يبدو هذا التفسير بعيدا جدًا:

الأولى: أنه قل أن يرى فى التاريخ و الروايات أن مشركى العرب يتهمون موسى بكونه ساحرا.

الثانية: كيف يمكن لأحد أن يدعى أن موسى و محمدا صلى الله عليه و آله ساحران يعين أحدهما الآخر مع وجود فاصله زمنيه بينهما تقدر بالفى عام.

ترى هل يمكن لساحر قبل آلاف السنين أن يعرف من سيأتى فى المستقبل؟! و ماذا سيقول؟! و على كل حال فإن مشركى مكه المعاندين كانوا يصرون على أنه لم يأت النبى صلى الله عليه و آله بمعجز كمعاجز موسى، و من جهه أخرى لم يكونوا يعترفون بما يجدونه فى «التوراه» من علائمه و أوصافه و لا- يؤمنون بالقرآن المجيد و آياته العظيمه...لذا يخاطب القرآن النبى محمدا صلى الله عليه و آله ليتحداهم بأن يأتوا بكتاب أسمى من القرآن!! قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

و بتعبير آخر: إنهم كانوا يبحثون عن كتاب هدايه و عن معجز!! فأى كتاب هدايه أعظم من القرآن؟! و أية معجزه أسمى منه؟! و لو لم يكن عند النبى شىء آخر سوى القرآن لكان كافيا فى إثبات دعوته الحقه! و لكنهم لم يكونوا طلاب حق، بل أصحاب حجج واهيه فحسب! ثم يضيف القرآن فإن لم يَسْتَجِيبُوا لَكَ فاعلم أَنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ لَأَنَّ أَيَّ إِنْسَانٍ إِذَا لَمْ يَتَّبِعْ هَوَاهُ فَإِنَّهُ سِيدَعْن لِهَذَا الْاِقْتِرَاحِ، لكن أولئك لم يكونوا على صراط مستقيم، و لذلك يرفضون كل مقترح بذريعه جديده!.

و لكن من أضيع منهم وَ مَنْ أَضَلَّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

و لو كانوا طلاب حقّ و قد أضلوا سبيلهم، فإنّ لطف الله سيضملمهم بمقتضى الآية الكريمة وَ الَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَ لَكَنَّهُمْ ظالمون لأنفسهم و لمجتمعهم الذى يعيشون فيه، فلا هدف لهم سوى اللجاجة و العناد... فكيف يهديهم الله و يعينهم؟!

ملاحظه

اشاره

اتباع الهوى مدعاه للظلال:

فى الآيات المتقدمه بيّنت العلاقة بين الهوى و الضلال بصراحه، و قد عبّر فيها عن المتبعين هواهم بأضلّ النَّاسِ، و أنّهم لم يحظو بهدايه الله.

هوى النفس حجاب كبير أمام نظر العقل.

هوى النفس يشدّ الإنسان بالشىء و يجعل قلبه متعلقا به إلى درجه تفقده القدره على فهم الحقائق و دركها.. لأنّ التسليم المطلق إزاء الواقعيّات، و تركّ التعلق بالشىء و التسرّع بالحكم، شرط لدرك الحقائق.. التسليم دون قيد أو شرط إزاء الواقع الخارجى، مرا كان أم عذبا، موافقا لرغبات النفس أم مخالفا، منسجما مع المصالح و المنافع الشخصيه أم غير منسجم... لكن هوى النفس لا يتفق مع هذه الأصول!.

و فى هذا المجال كان لنا بحث مسهب فى ذيل الآيه (٤٣) من سوره الفرقان.

و من الطريف هنا أنّ روايات عديده تفسّر الآيه بأنّ المراد منها من ترك إمامه

ص: ٢٤٩

و قائده الإلهى و اتبع هواه (١).

و هذه الروايات المنقوله عن الإمام الباقر عليه السّلام و الإمام الصادق عليه السّلام و بعض الائمه الطاهرين عليهم السّلام..هى من قبيل المصداق البارز..و بتعبير آخر: إنّ الإنسان محتاج لهدايه الله...هذه الهدايه تاره تنعكس فى كتاب الله،و اخرى فى وجود النبى و سنته،و اخرى فى و أوصيائه المعصومين،و اخرى فى منطق العقل.

المهم أن يكون الإنسان فى خطّ الهدايه الإلهيه غير متبع لهواه،ليستطيع أن يستضىء بهذه الأنوار.

ص: ٢٥٠

١-١) - هذه الروايات فى أصول الكافى و بصائر الدرجات طبقا لما فى نور الثقلين، ج ٤، ص ١٣٢.

اشاره

وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِذَا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ الْسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥)

سبب النزول

نقل المفسِّرون و رواه الأخبار روايات كثيرة و مختلفه فى شأن نزول الآيات المتقدمه، و الجامع المشترك فيها واحد، و هو إيمان طائفه من علماء اليهود و النصرارى و الأفراد الذين يتمتعون بقلوب طاهره-بالقرآن و نبى الإسلام صلى الله عليه و آله.

فعن «سعيد بن جبیر» أن هذه الآيات نزلت فى سبعين قسماً مسيحياً بعثهم النجاشى من الحبشه إلى مكه للتحقيق و الاطلاع على دين النبى محمد صلى الله عليه و آله، فلما

قرأ عليهم نبي الإسلام سورة «يس» دمعت عيونهم شوقا و أسلموا (١).

و قال بعضهم: هذه الآيات نزلت في نصارى نجران «مدينة في شمال اليمن» جاءوا إلى النبي فسمعوا آيات القرآن فأمنوا به (٢).

و قال آخرون: بل نزلت في النجاشي و قومه. (٣)

كما يرى بعضهم أنها نازله في «سلمان الفارسي» و جماعه من علماء اليهود، كعبد الله بن سلام و تميم الداري و الجارود العبدى و أضرابهم (٤).

و أخيرا فإن بعضهم يرى أن الآيات تشير إلى أربعين عالما مسيحيا من ذوى الضمائر حيّه و النيره، جاء اثنان و ثلاثون منهم مع جعفر بن أبي طالب من الحبشه، و ثمانية آخرون من الشام، من بينهم «بحيرا» الراهب الى النبي صلى الله عليه و آله فأسلموا. (٥)

و بالطبع فإن الروايات الثلاث تتناسب مع نزول الآيات في مكّه، كما أنّها تدعم قول من يرى بأن جميع آيات هذه السوره مكيه. و لكن الروايه الرابعه و الروايه الخامسه تدلان على أن هذه الآيات الأنفه نزلت بالمدينه استثناء، كما أنّهما تدعمان قول القائلين على أن الآيات المتقدمه مدنيه لا مكيه.

و على كل حال فإن هذه الآيات «شواهد بليغه» تدل على أن جماعه من علماء أهل الكتاب أعلنوا إسلامهم حين سمعوا آيات القرآن... لأنه لا يمكن لنبي الإسلام صلى الله عليه و آله أن يقول مثل هذا. و لم يكن أحد من أهل الكتاب قد آمن به بعد لأنّ المشركين كانوا ينهضون فورا و يقومون بالصياح و الضجيج لتكذيب النبي صلى الله عليه و آله.

ص: ٢٥٢

١-١) - تفسير في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٥٧، و ٣٥٨.

٢-٢) - المصدر السابق.

٣-٣) - المصدر السابق.

٤-٤) - مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٥٨.

٥-٥) - المصدر السابق.

طلاب الحق من أهل الكتاب آمنوا بالقرآن:

حيث أنّ الآيات السابقه كانت تتحدث عن حجج المشركين الواهيه أمام الحقائق التي يقدمها القرآن الكريم، فإنّ هذه الآيات محل البحث تتحدث عن القلوب المهتأه لقبول قول الحق و التي سمعت هذه الآيات اهتدت الإسلام و بقى أصحابها متمسكين بالإسلام أوفياء له فى حين أنّ قلوب الجاهليين المظلمه لم تتأثر بها.، يقول القرآن فى هذا الصدد: لقد أنزلنا لهم آيات القرآن تباعا و لقد وصلنا لهم القول لعلمهم يتذكرون (١).

هذه الآيات نزلت عليهم نزول المطر المتصله قطراته و جاءت الآيات على أشكال متنوعه، و كفيات متفاوته، فتاره تحمل الوعد بالثواب، و تاره الوعيد بالنار، و أخرى الموعظه و النصيحه، و أخرى تنذر و تهدد. و أحيانا تحمل استدلالات عقليه، و أحيانا تحمل قصص الماضين و تأريخهم الملىء بالعبر، و خلاصه كامله من الأحداث المتجانسه التي يؤمن بها أى قلب فيه أقل استعداد للإيمان، حيث أنّها تجذب القلوب إليها... إلا أن عمى القلوب لم يدعونا لها.

إلا- أنّ (اليهود و النصرى) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ. لأنهم يرونه منسجما مع ما ورد فى كتبهم السماويه من علامات و دلائل!.

و من الطريف هنا أنّهم كانوا جماعه من «أهل الكتاب»، إلا أن الآيات المتقدمه تحدثت عنهم بأنهم «أهل الكتاب» دون قيد أو تبعيض أو أى شىء آخر، و لعلها تشير إلى أنّهم أهل الكتاب حقًا، أمّا سواهم فلا.

ص: ٢٥٣

١- (١) - «وصّينا» مأخوذ من ماده «وصل» أى ربط، و حيث أنّها جاءت من باب التفعيل، فهى تدل على الكثره، و يستفاد منها التأكيد أيضا..

ثُمَّ يَضِيفُ الْقُرْآنَ فِي وَصْفِهِمْ قَائِلًا: وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا .

أجل: كانت تلاوه الآيات عليهم كافيته لأن يقولوا «آمنّا»... ثم يضيف القرآن متحدثا عنهم: إننا مسلمون لا في هذا اليوم فحسب، بل إنا كنا من قبلة مسلمين إننا وجدنا علائم النبي صلى الله عليه وآله في كتبنا السماوية و تعلقت قلوبنا به، و انتظرناه بفارغ الصبر - في أول فرصه وجدنا بها ضاللتنا أمسكتنا بها - و قبلناه «بقلوبنا و أرواحنا».

ثم يتحدث القرآن الكريم عن هذه الجماعه التي آمنت بالنبي من غير تقليد أعمى، و إنما طلبا للحق، فيقول: أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا .

فمزه لإيمانهم بكتابهم السماوي الذي كانوا صادقين أوفياء لعهدهم معه...

و مزه أخرى لإيمانهم بنبي الإسلام العظيم صلى الله عليه وآله النبي الموعود المذكور عندهم في كتبهم السماويه.

و يحتمل - أيضا - كما هو مستفاد من الآيات المتقدمه، إنما يؤتون أجرهم مرتين؛ لأنهم آمنوا بنبي الإسلام قبل ظهوره، و حين ظهر لم يكفروا به بل آمنوا به كذلك.

و هؤلاء بذلوا جهدا و صبروا زمانا طويلا ليؤدوا ما عليهم من وظيفه و مسئوليته... و لم يرض بأعمالهم المنحرفون من اليهود و لا النصراني، و لم يسمح لهم تقليد السابقين و الجوّ الاجتماعي أن يتركوا دينهم و يسلموا، إلا أنهم وقفوا و صبروا و تجاوزوا هوى النفس و المنافع الذاتيه، فنالوا ثواب الله و أجره مرتين.

ثم يشير القرآن الكريم إلى بعض أعمالهم الصالحه من قبيل «دفع السيئه بالحسنه» و «الإنفاق ممّا رزقهم الله» و «المرور الكريم باللغو و الجاهلين» و كذلك الصبر و الاستقامه، و هي خصال أربع ممتازه.

حيث يقول في شأنهم القرآن الكريم: وَ يَذْرُؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ .

يدرءون بالكلام الطيب الكلام الخبيث، و بالمعروف المنكر، و بالحلم الجهل و الجاهلين، و بالمحبه العداوه و البغضاء، و بصله الرحم من يقطعها، و الخلاصه أنهم بدلا من أن يدفعوا السيئه بالسيئه فإنهم يذرونها بالحسنه السيئه!

و هذا أسلوب مؤثر جدا في مواجهه المفسد و مبارزتها، و لا سيما في مواجهه اللجوجين و المعاندين.

و قد أكد القرآن الكريم على هذا الأسلوب مرارا و كرارا، و قد سبق أن بحثنا في هذا المجال بشرح مبسط في ذيل الآيه (٢٢) من سوره الرعد و ذيل الآيه (٦٩) من «سوره المؤمنون».

و الخصله الأخرى في هؤلاء الممدوحين بالقرآن أنهم وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ .

و ليس الإنفاق من الأموال فحسب، بل من كل ما رزقهم الله من العلم و القوى الفكرية و الجسميه و الوجاهه الاجتماعيه، و جميع هذه الأمور من مواهب الله و رزقه فهم ينفقون منها في سبيل الله!

و آخر صفة ممتازة بينها القرآن في شأنهم قوله: وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ .

و لم يردوا الجهل بالجهل و اللغو باللغو، بل قَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَ لَكُمْ أَعْمَالُكُمْ .

فلا تحاسبون بجريره أعمالنا، و لا نحاسب بجرمكم و جريره أعمالكم، و لكن ما أسرع ما سيجد كل منا نتيجة عمله.

ثم يضيف القرآن في شأنهم حين يواجهون الجاهلين الذين يتصدون لإثارة المؤمنين باللغو و ما شاكله، حيث يقولون: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ .

فلسنا أهلا للكلام البذيء، و لا أهلا للجهل و الفساد، و لا نبتغي ذلك، إنما

نبتغى العلماء و أصحاب الضمائر الحَيَّة و العاملين المؤمنين الصادقين.

و على هذا فبدلاً من أن يهدروا قواهم فى مواجهه الجاهلين عمى القلوب و أهل الكلام البذى، يمرون عليهم كراما ليؤدوا أهدافهم و مناهجهم الأساسية.

الجدير بالذكر أنّ هؤلاء حين يواجهون الجاهلين، لا يسلمون عليهم سلام تحيه و استقبال، بل سلام وداع.

ملاحظه!

اشاره

القلوب المهيأه للإيمان:

رسمت الآيات المتقدمه للقلوب التى تقبلت بذور الإيمان رسماً جميلاً و بليغاً.

فهى ليست من نسيج الأشخاص الانتهازيين الذين ملئت قلوبهم من التعصب و الجهل، و الكلام البذى السىء الفارغ، و البخل و الحقد، و ما إلى ذلك!!

إنّ هؤلاء العظماء من الرجال و النساء حطموا قبل كل شىء القيود التى فرضها التقليد الأعمى، ثم أصغوا بكلّ دقّه إلى نداء التوحيد، و حين وجدوا الدلائل الحقه بقدر كاف استجابوا له!.

و لا شكّ أن على هؤلاء أن يدفعوا ثمننا غالياً، لأنّهم خرجوا عن طوق التقليد الأعمى و حطموا أغلاله، و تحرروا عن محيطهم المنحرف، و عليهم أن يتحملوا الكثير من المشاكل و المتاعب فى هذا السبيل و لكنّهم يتمتعون بصبر و استقامه فى سبيل هدفهم الكبير ما يعينهم على تحمل تلك الشدائد و المصاعب..

فهؤلاء ليسوا حاقدين، و لا يردون السوء بالسوء، و لا هم بخلاء و لا خسيسون، ليجعلوا المواهب الإلهيه خاصه بهم!.

إنّهم أناس عظام بعيدون عن الكذب و الانشغال غير الصحيح، و الكلام

ص: ٢٥٦

الفارغ الركيك، والمزاح وغيره.

لهم ألسنه طيبه و قلوب أطيّب، و لا يضيعون طاقتهم في الردّ على الجهلاء..

بل في كثير من الأحيان يفضلون السكوت على الكلام و الردّ على الجهّال!.

و يفكرون في أعمالهم و مسؤولياتهم، و يمضون كأنهم الظماء إلى النبع.

الظماء إلى العلم و المتشوّقون لحضور مجالس العلماء و الفقهاء.

أجل هؤلاء العظام هم الذين يستطيعون أن يستوعبوا رساله الإيمان في نفوسهم، ليؤتوا أجرهم.. لا مرّه واحده، بل يؤتيهم الله أجرهم مرّتين بما صبروا!.

هؤلاء أمثال سلمان الفارسي و النجاشي و بحيرا الراهب الذين هم في خط واحد و في جبهه واحده، و الذين بذلوا جهدا و قاوموا أنواع الصعاب ليصلوا إلى معنى «الإيمان».

و من الطريف أننا نقرأ

حديثا للإمام الصادق عليه السّلام في هذا الصدد يقول: «نحن صبر و شيعتنا أصبر منّا و ذلك أنا صبرنا على ما نعلم و صبروا على ما لا يعلمون» تأملوا لو أن شخصين من المؤمنين توجهوا إلى ميدان الجهاد، أحدهما يعلم بانتهاء الأمر و أن عاقبه جهاده النصر، و الآخر لا يعلم، ألا يكون صبر الثاني أكثر من صبر الأول؟!.

أو نقول-مثلا- أنّ القرائن تدل على أن كلا منهما سيشرب من كأس الشهاده، لكن أحدهما يعلم ما في شهادته من أسرار خفيه و ماذا ستحرك من أمواج على مدى الأعصار و القرون المتماديه، و أنّه سيكون أسوه و قدوه للأحرار... أمّا الثاني فلا يعرف شيئا عن ذلك، فلا شك أن الثاني أصبر من الأول في هذا الصدد.

و في حديث آخر ورد في تفسير علي بن ابراهيم قال: «اللغو» الكذب، «اللهو» الغناء، و المعرضون عن اللغو و «المتقون» هم الأئمه عليهم السّلام يعرضون عن

ذلك كله (١).

و واضح أنّ الحديثين من قبيل المصداق البارز، وإلا فإنّ مفهوم «اللغو» أوسع و يشمل غير ما ذكرنا، و«المعرضون عن اللغو» أيضا هم جميع المؤمنين الصادقين، و إن كان الأئمة عليهم السّلام في طليعتهم!

ص: ٢٥٨

١-١ - تفسير القمي، ج ٢، ص ١٤٢.

اشاره

إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦) وَقَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجِيبِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧)

التفسير

اشاره

الهدايه بيد الله وحده!..

بالرغم من أن بحوثا كثيره و روايات وردت في الآيه الأولى من هاتين الآيتين المتقدمتين و شأن نزولها، إلا أنها- كما سنرى- روايات غير معتبره و لا- قيمه لها، حتى كأنها رويت لأغراض و مقاصد خاصه، و لذلك رأينا أن نفسير الآيه من القرآن نفسه ثم نعالج الزوايات المشكوكه أو المجعوله.

و مع الالتفات إلى أن الآيات السابقه كانت تتحدث عن طائفتين: طائفه من مشركى أهل مكه المعاندين، كان رسول صلى الله عليه و آله شديد الإصرار على هدايتهم، لكنهم لم يهتدوا و لم يدعنا نور الإيمان. و طائفه من أهل الكتاب و الأفراد البعيدين عن مكه، تلقوا هدايه الله برحابه صدر و بعشق وضحوا في سبيل الإسلام، و آثروا

على أنفسهم مصلحة الإسلام، و لم يكثرثوا بعناد قومهم الجاهلين الأنانيين، و لم يستوحشوا من الضغوط و العزله و ما إلى ذلك!.

فمع الالتفات إلى كل هذه الأمور، نلاحظ أن الآية الأولى من هاتين الآيتين تكشف الستار عن هذه الحقيقة فتقول: إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ .

فالله يعلم من هم الجديرون بالإيمان.. و آية قلوب تطلب الحق و هو يعرف العاشقين له.

أجل، هو يعرف هؤلاء و يوفقهم بلطفه ليسيروا نحو الإيمان.

أما الذين أظلمت قلوبهم و ساءت سيرتهم و عادوا الحق في الخفاء و نهضوا بكل ما عندهم من قوة بوجه رسل الله، و قد تلوث قلوبهم في حياتهم إلى درجة لم يكونوا جديرين بنور الإيمان فالله سبحانه لا يضع مصباح التوفيق في طريقهم أبدا.

إذن، و بناء على ما تقدم، ليس المقصود من الهداية «إراءه الطريق»، لأن إراءه الطريق هي من وظيفة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله، و تشمل جميع الناس دون استثناء، بل المقصود من الهداية هنا هو «الإيصال للمطلوب و الهدف»، و الإيصال إلى المطلوب و إلى الهدف هو بيد الله وحده، الذي يغرس الإيمان في القلوب، و ليس هذا العمل اعتباطا و دون حساب، فهو تعالى ينظر إلى القلوب المهيأة و المستعدة ليهبها نور السماء! و على كل حال، فإن هذه الآية بمثابة التسليه و التثبيت لقلب النبي ليطمئن إلى هذه الحقيقة، و هي إنه لا- إصرار المشركين و عنادهم و إن كانوا من أهل مكّة، و لا- إيمان أهل الحبشه و نجران و غيرهما أمثال سلمان الفارسي و بحيرا الراهب من دون دليل و سب.

فعليه أن لا يكثرث لعدم إيمان الطائفه الأولى، فإن الله يقذف نوره في

القلوب المهياه للنور و يبسط عليها خيمته!

و نظير هذا المضمون كثير فى آيات القرآن!

إذ نقرأ فى الآيه (٢٧٢) من سوره البقره قوله تعالى: لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ .

و فى الآيه (٣٧) من سوره النمل إِنَّ تَحْرِصَ عَلَيَّ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ .

و فى الآيه (٤٣) من سوره يونس أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمَىٰ وَ لَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ .

كما نقرأ أيضا فى الآيه (٤) من سوره إبراهيم ما هو بمثابة القانون العام فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

فالآيه الأخيره تدلّ دلالة واضحه على أن المشيئه الإلهيه فى شأن هاتين الطائفتين «جماعه الهدى و جماعه الضلال» ليست دون حساب، بل هى طبقا للجداره و اللياقه و سعى الأفراد أنفسهم... فالله يهب توفيقه على هذا الأساس، و يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم، و يسلب الهدى ممن يشاء فيضلون السبيل.

و فى الآيه الثانيه- من الآيتين محل البحث- يتحدث القرآن الكريم عن طائفه اعترفوا بالإسلام فى واقعهم و أيقنت به قلوبهم، إلا أنهم لم يظهرُوا إيمانهم بسبب منافع شخصيه و ملاحظات ذاتيه، حيث يقول: وَ قَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا (١)

ورد فى كتب التفسير أن الذى قال: إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ إلخ.. هو «الحارث بن نوفل»، حيث قال للنبي صلى الله عليه و آله: إِنَّا نعرف أن ما تقوله حق، لكن الذى يمنعنا من اتباعك و الإيمان بك، خوفنا من هجوم العرب علينا ليطردونا من

ص: ٢٤١

١ - ١) - كلمه «معك» فى الآيه الآنفه متعلقه ب«نتبع»، و يحتمل أن تكون كلمه «معك» متعلقه ب«الهدى» و يكون التفاوت فى المعنى يسيرا..

أرضنا، و لا طاقه لنا على ردهم (١) .

هذا الكلام لا يقوله إلا من يستضعف قدره الله و يرى أن قدره حفنه من العرب الجاهليين عظيمه!! و هذا الكلام لا يصدر إلا من قلب لا يعرف عنياه الله و حمايته، و لا يعرف كيف ينصر الله أوليائه و يخذل أعداءه، لذلك يقول القرآن رداً على مثل هذه المزاعم أ و لَمْ نُمْكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجِبِّي إِلَيْهِ ثَمَرَاتٌ كُلَّ شَيْءٍ (٢) ... وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

الله الذي جعل هذه الأرض المالحة و المليئه بالصخور و الخاليه من الأشجار و الأنهار، جعلها حرماً تهفوا إليه القلوب، و يؤتى إليه بالثمرات من مختلف نقاط العالم، كل ذلك بيد قدرته القاهره.

فإن من له هذه القدره على اقرار «الأمن» و جوابه «النعم» إلى هذا المكان و هؤلاء يرون ذلك بأعينهم، كيف لا يكون قادراً على أن يحفظكم من هجوم حفنه من الجاهليين عبياد الأوثان؟! فقد كنتم في زمان الكفر مشمولين بنعمتي الله العظيمتين «الأمن و المواهب المعاشيه» فكيف يمكن أن يحرمكم الله منهما بعد الإسلام؟! لتكن قلوبكم قويه و آمنوا بما انزل إليكم فإن رب الكعبه و رب مكه معكم.

هنا، ينقدح هذا السؤال، و هو: إن التأريخ يدل على أن حرم مكه لم يكن آمناً للمسلمين للغايه، أ لم تعذب طائفه من المسلمين في مكه؟! أ لم يرموا النبي صلى الله عليه و آله بالأحجار الكثيره؟! أ لم يقتل بعض المسلمين في مكه؟! أ لم يهاجر جماعه من المسلمين من مكه مع جعفر بن أبي طالب رضى الله عنه و جماعه آخرون مع النبي صلى الله عليه و آله آخر الأمر لعدم الأمن في مكه؟!

ص: ٢٤٢

١-١) -مجمع البيان- ذيل الآيه محل البحث...

٢-٢) -«يجبى» مشتق من ماده «جبايه» [و نمكن] فى الآيه بمعنى نجعل] و الجبايه معناها الجمع، لذلك يطلق على الحوض الذى يجمع فيه الماء جبايه... و نصب كلمه «حرم» على أنها مفعول لنمكن.

فنبول ؤوابا على ذلك:

أولاً: مع ؤممع هذه الأمور ما تزال مكّه أكثر أمنا من النقاط الأخرى.. و كان العرب يحترمونها و يقدسونها، و بالرغم من أنّهم كانوا يقدمون على جرائم متعدده فى أماكن أخرى، إلا أنّهم كانوا يحجمون عن الإتيان بمثلها فى مكّه.

و الخلاصه: فمع عدم الأمن العام و الكلى كانت مكّه تتمتع بالأمن النسبى و لا سيما أن الأعراب خارجها كانوا يراعون أمنها و قداستها.

ثانياً: صحيح أن هذه الأرض التى جعلها الله حرما آمنا أضحت لفته و جيزه غير آمنه على أيدي جماعه... إلا أنّها سرعان ما تحولت إلى مركز كبير للأمن و تواتر النعم الكثيره المتعدده، فعلى هذا لم يكن تحمل هذه الصعاب المؤقته من أجل الوصول للنعم العظيمه، أمرا عسيرا و معقدا.

و على كل حال، فإنّ كثيرا ممن يقلقون على منافعهم الشخصيه، كالحارث بن نوفل، لا يسلكون سبيل الهدايه و الإيمان... فى حين أنّ الإيمان بالله و التسليم لأمره، لا يؤمن المنافع المعنويه لهم فحسب، بل يؤمن لهم المحيط الصحيح و المنافع الماديه المشروعه و ما إلى ذلك. و عدم الأمن و الغارات و الحروب التى نجدها فى عصر التمدن- كما يصطلح عليه- و فى الدنيا البعيده عن الإيمان و الهدايه، كل هذه الأمور شاهد حى على هذا المدعى!.

و من الضرورى الالتفات إلى هذه النقطه الأساسيه، و هى أنّ الله سبحانه أول ما يذكر من نعمه نعمه الأمن، ثم يذكر جلب الثمرات و الأرزاق و غير ذلك من جميع الأنحاء إلى مكّه، و يمكن أن يكون هذا التعبير مبينا هذا الواقع، و هو: طالما كان الأمن حاكما فى بلد كان اقتصاده جيدا، و إلا فلا، «قد بينا هذا الأمر فى بحثنا للآيه ٣٥ سورة إبراهيم».

كما أنّ الجدير بالذكر أنّ «يجبى» جاءت على صيغه الفعل المضارع الذى يدل على الاستمرار فى الحال و الاستقبال، و نحن اليوم و بعد مرور أربعه عشر

قرنا، نرى بأم أعيننا مفهوم هذا الكلام و استمرار جبايه جميع أنواع المواهب إلى هذه الأرض المباركه، فالذين يحجّون مكّه و يزورون بيت الله الحرام، يرون بأعينهم هذه الأرض الجرداء الحاره التي لا تنبت شيئاً، كم فيها من النعم! فكأن مكّه غارقه بها، و لعل أيه نقطه من العالم ليس فيها ما فى مكّه من هذه النعم الوفيره.

ملاحظه

اشاره

إيمان أبى طالب و الضجيج حوله:

هذا الموضوع يبدو عجيباً لمن كان من أهل البحث و المطالعه.. فكيف يصرّ جماعه من رواه الأخبار على أن يزعموا أنّ أباً طالب عليه السّلام عم النّبي كان مشركاً و غير مؤمن و أنّه مات كافراً!! و هو يجمع المسلمين كان من الذين بذلوا تضحيات منقطعه النظر، و حمى نبيّ الإسلام صلّى الله عليه و آله و ضحّى من أجله؟! و لم لا يكون هذا الإصرار بالنسبه للآخرين الذين لا حظّ لهم فى تاريخ الإسلام؟! هنا نعرف أنّ المسأله ليست مسأله عاديه.. ثمّ بأقل ملاحظه و تدقيق نصل إلى هذه النتيجة، و هى أنّ وراء هذه البحوث التاريخيه و الروائيه لعبه سياسيه خطيره من أعداء على عليه السّلام و مناوئيه! فقد كانوا يصرّون على سلب كل فضيله له، حتى جعلوا أباه المضحّى و الفادى للنبي و المؤثر له على نفسه يموت كافراً بزعمهم!!.

و من المؤكّد أنّ بنى أميه و مرديهم فى عصرهم، و قبل أن يصلوا إلى دفة الحكومه، سعوا ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً لإثبات مدعاهم بالشواهد و الحجج الواهيه.

ص: ٢٦٤

و نحن بقطع النظر عن هذه الأمواج السياسيه المنحرفه و الملوته،التي هي بنفسها تستحق المطالعه من جهات متعدده...نبحث المسأله على أساس أنها مسأله بنفسها تستحق المطالعه من جهات متعدده...نبحث المسأله على أساس أنها مسأله تاريخيه و تفسيريه بحته،بشكل موجز و مضغوط (كما يقتضيه وضع الكتاب)ليُتضح أن ليس وراء هذا الضجيج أى سند معتبر،بل هناك شواهد حثه ضده!

١- إن الآيه محل البحث إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ليس لها علاقه بأبي طالب كما بينا،و قلنا: إن الآيات التي جاءت قبلها تدل بصوره واضحه أنها في شأن جماعه من أهل الكتاب المؤمنين،في مقابل مشركي مكه.

الطريف أن الرازي الذي يزعم أن الآيه نزلت في أبي طالب عليه السّلام يا جماع المسلمين!!يصرّح بأن الآيه ليس فيها أقل دلاله على كفر أبي طالب (١).

و لكن مع هذه الحال فلما ذا يصرون فيها على أن يكون أبو طالب عليه السّلام مشركا؟فهذه مسأله غريبه و مدعاه للدهشه!..

٢- و أهم دليل لديهم في هذا المجال أنهم ادعوا إجماع المسلمين على أن أبا طالب مات مشركا!!

في حين أن مثل هذا الإجماع كذب محض لا أساس له،و هو عار عن الصحه.

فالمفسّر المعروف «الألوسي»-و هو من علماء السنه-صرح في تفسير روح المعاني أنّ هذه المسأله ليست إجماعيه،و حكايه الإجماع من قبل المسلمين أو المفسّرين على أنّ الآيه المتقدمه نزلت في أبي طالب تبدو غير صحيحه...لأنّ علماء الشيعه و جمع كثير من المفسّرين يعتقدون بإسلام أبي طالب،و ادّعى أنّهم أهل البيت عليهم السّلام الإجماع على ذلك،إضافه إلى أن أكثر قصائد

ص: ٢٦٥

أبي طالب تشهد على إيمانه (١).

٣-التدقيق و البحث يدل على أن هذا الإجماع المزعوم هو من قبل أخبار الآحاد الذين لا اعتبار لهم،و فى سند هذه الروايات أفراد مشكوك فيهم كذابون.

و من هذه الروايات ما نقله ابن «مردويه» بسنده عن ابن عباس أن آية إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ نزلت فى شأن أبي طالب،و قد أصرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله عَلَيْهِ أَنْ يُؤْمِنَ فَلَمْ يُؤْمِنَ (٢).

فى حين أنّ فى سند هذه الرواية «أبو سهل السرى»الذى عرف بين كبار أصحاب علم الرجال بآئه من الكذابين الوضّاع السارقين للحديث. كما أنّ فى سند هذه الرواية «عبد القدوس أبو سعيد الدمشقى» و هو من الكذابين أيضا (٣).

و ظاهر تعبير الحديث يدل على أن ابن عباس ينقل هذا الحديث من غير واسطه و كان شاهدا على ذلك،فى حين أنّنا نعرف أن ابن عباس ولد قبل الهجره بثلاث سنوات،فعلى هذا كان لا يزال رضيعا عند ما مات أبو طالب عليه السّلام...و من هنا نستنتج أنّ واضعى الحديث حتى فى هذا العمل كانوا مبتدئين و ناشئين!!

و هناك حديث آخر فى هذا المجال

ينقله «أبو هريره»إذ يقول: حين دنت وفاه أبى طالب قال له النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله:يا عم قل:لا إله إلا الله،لأشهد لك يوم القيامة عند الله بالتوحيد،فقال أبو طالب:لو لا أن قرىشا تقول إن أبأ طالب أظهر الإيمان حال الموت خوفا،لكنت أشهد بالتوحيد و أقرّ عينيك،فتزل قوله تعالى: إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ (٤).

و يبدو من ظاهر هذا الحديث أن أبأ هريره كان شاهدا على هذه القضية،فى حين أنّنا نعرف أن أبأ هريره أسلم سنه فتح خيبر،بعد الهجره بسبع سنين،فأين

ص: ٢٦٦

١-١) -روح المعانى، ج ٢، ص ٨٤ ذيل الآيه محل البحث.

٢-٢) -الدر المنثور، ج ٥، ص ١٣٣.

٣-٣) -الغدیر، ج ٨، ص ٢٠.

٤-٤) -الدر المنثور، ج ٥، ص ١٣٣.

أبو هريره من وفاه أبي طالب التي حدثت قبل الهجره...؟! و إذا قيل أن ابن عباس و أبا هريره لم يكونا شاهدين على هذه القضية، و سمعا هذه القصه من شخص آخر فإننا نسأل من هو هذا الشخص؟! فالذى نقل هذا الحديث لهذين الشخصين -إذا- مجهول، و مثل هذا الحديث يعرف عند أهل الحديث بالمرسل، و الجميع يعلمون بأن لا اعتبار للمراسيل! و من المؤسف أن جماعه من رواه الأخبار و المفسرين نقلوا هذا الحديث بعضهم عن بعض دون تدقيق فى كتبهم، و شيئاً فشيئاً كُونوا إجماعاً لهذا الحديث! و لكن أى إجماع هذا؟ أم أى حديث معتبر؟! ٤- و بعد هذا كله، فإنّ متن هذه الأحاديث الموضوعه يدل على أن أبا طالب عليه السّلام كان مؤمناً بحقانيه النّبي، غايه ما فى الأمر لم يجر ذلك على لسانه لملاحظات خاصه... و نحن نعرف أن الإيمان هو بالقلب، و أمّا اللسان فهو طريق القلب، و فى بعض الأحاديث الإسلاميه شبه أبو طالب بأصحاب الكهف الذين كانوا مؤمنين و إن لم يقدرُوا على إظهار الإيمان على ألسنتهم (١).

٥- ثم هل يمكن القناعه بروايه مرسله عن أبي هريره أو ابن عباس فى مثل هذه المسأله المهمه، فلم لا يؤخذ بإجماع أئمه أهل البيت عليهم السّلام و إجماع علماء الشيعه، و هم أعرف بحال أسرهِ النّبي و أهله!! إنّنا اليوم نحفظ بأشعار كثيره لأبى طالب توضح إيمانه بالإسلام و رساله النّبي (محمّد) صلّى الله عليه و آله، و قد نقل هذه الأشعار طائفه من العلماء و الأفاضل فى كتبهم (و قد نقلنا طائفه منها فى ذيل الآيه ٢٦ من سوره الأنعام من مصادر سنينه معروفه!).

٦- مع غض النظر عن جميع ما تقدم، فإنّ تاريخ حياه أبى طالب و تضحياته العظيمه للنّبي صلّى الله عليه و آله و علاقته النّبي صلّى الله عليه و آله و المسلمین الشديده به إلى درجه

ص: ٢٦٧

١- (١) -راجع فى هذا الصدد تفسير الصافى و تفسير البرهان ذيل الآيه محل البحث.

أنّ النبي سمي عام وفاته ب«عام الحزن» كل ذلك يدل على أنّه كان يعشق الإسلام، ولم يكن دفاعه عن النبي على أنّه أحد أرحامه، بل دفاع رجل مؤمن مخلص و عاشق نظيف و جنسدى مضحّ عن قائده و إمامه.. فمع هذه الحاله، كم يبلغ الجهل و الغفله و الظلم و عدم الشكر بطائفه أن تصرّ على أنّ هذا الرجل المخلص المؤمن الموحد مات مشركا (1).

ص: ٢٤٨

١-١) - هناك بحث مفصل أوردناه لدى تفسير الآيه ٣٦ من سوره الأنعام.

اشاره

وَ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَنَلَمَكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكِنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَ كُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨) وَ مَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكًا الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَ مَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَ أَهْلُهَا ظَالِمُونَ (٥٩) وَ مَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ زِينَتُهَا وَ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَ أَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٠)

التفسير

اشاره

لا تخدعنكم علائق الدنيا:

كان الحديث في الآيات المتقدمه يدور حول ما يدعيه أهل مكه، و قولهم: إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا بهجوم العرب علينا، و تتكدر حياتنا و يختل وضعنا المعاشي و الاقتصادي.. و قد أجابت الآيات السابقه على هذا الكلام بردّ بليغ.

و في هذه الآيات مورد البحث ردّان آخران على كلامهم:

الأول: يقول.. على فرض أنّكم لم تؤمنوا، و حيثم في ظل الشرك مرفهين

مادياً، ولكن لا تنسوا أن تعتبروا بحياه من قبلكم ف كَم أَهْلَكُنَّا مِنْ قَوْمِهِ بِطَرْتِ مَعِيشَتِهَا .

أجل، إنَّ الغُيُورِ دعاهم إلى أن يبطروا من النعم، و البطر أساس الظلم، و الظلم يجزّ حياتهم إلى النار... فَتِلْكَ مَسَاكِينُهُمْ لَمْ تُسَيِّكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا .

بلى... بقيت بيوتهم خاليه خربه متهدمه مظلمه لم يزرها و لم يسكنها أحد إلا لفتهه قليله وَ كُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ .

فيا مشركى مكّه... أ تريدون أن تعيشوا حياه البطر و الكفر كما عاشه أولئك، و تكون عاقبتكم كعاقبتهم، فأى نفع فى ذلك؟! كلمه «بطرت» مشتقّه من «بطر» على زنه «بشر» و معناه الطغيان و الغرور على أثر وفره النعم.

و التعبير ب«تلك» التى هى اسم إشاره للبعيد، و تستعمل غالبا للأمر التى يمكن مشاهدتها، و يحتمل أن يكون المقصود بها أرض «عماد و ثمود و قوم لوط» التى لا- تبعد كثيرا عن أهل مكّه، و هى فى أرض الأحقاف بين اليمن و الشام، أو فى وادى القرى، أو فى أرض سدوم، و جميع هذه المناطق فى مسير قوافل التجار العرب الذين كانوا يمضون من مكّه إلى الشام، و كانوا يرون تلك البيوت بأى أعينهم خاليه خاويه لم تسكن إلا قليلا.

و جملةً إِلَّا قَلِيلًا التى جاءت بصيغته الاستثناء، فيها ثلاثة احتمالات:

الاحتمال الأول: أن الاستثناء عن الساكنين.

و الاحتمال الثانى: أنه عن المساكن.

و الاحتمال الثالث: أنه عن السكن.

ففى الصورة الأولى يكون مفهومها أن جماعه قليله سكنتها «أى سكنت تلك المساكن».

و فى الصورة الثانيه يكون مفهومها أن فتره قليله كان بها السكن فى هذه

«المساكن» لأن من يسكن في هذه المساكن المشؤومه سرعان ما تنطوى فيها صفحه حياته.

و بالطبع فإن إرادته المعاني الثلاثة من النص السابق لا يوجد لنا أى مشكله، و إن كان المفهوم الأول أظهر.

كما أن بعض المفسرين قال: إن المقصود من هذه الآيه هو الإشاره إلى السكن المؤقت للمسافرين الذاهبين و الآئيين حيث يستريحون فيها لا أكثر، و فسرهما آخرون بأنها إشاره لسكن الحيوانات الوحشيه.

و القدر المسلم به أن هذه المساكن التى كانت ملوثة بالإثم و الشرك أصبحت غير صالحه للسكن فهى خاويه و خاليه! و التعبير ب وَ كَذَا نَحْنُ الْوَارِثِينَ إشاره إلى خلّوها من الساكنين، كما هى إشاره إلى أن مالکها الحقيقى هو الله سبحانه المالك لكل شىء، و إذا ما أعطى ملكا «اعتباريا» لأحد، فإنه لا يدوم له طويلا حتى يرثه الله أيضا.

و الآيه الثانيه فى الحقيقه جواب عن سؤال مقدر، و هو: إذا كان الأمر كذلك، بأن يهلك الله الطغاه، فلم لم يهلك المشركين من أهل مكّه و الحجاز، الذين بلغوا حدّا عظيما من الطغيان، و لم يكن إثم و لا جهل إلا و ارتكبه، و لم لم يعذبهم الله بعذابه الأليم؟ يقول القرآن فى هذا الصدد وَ مَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا .

أجل.. لا يعذب الله قوما حتى يتم عليهم حجّته و يرسل إليهم رسله، و حتى بعد إتمام الحجّه، فما لم يصدر ظلم يستوجب العذاب فإن الله لا يعذبهم، و هو يراقب أعمالهم، وَ مَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَ أَهْلِهَا ظَالِمُونَ .

و التعبير ب مَا كُنَّا أَوْ وَ مَا كَانَ رَبُّكَ دليل على أن سنه الله الدائمه و الأبدية التى كانت و لا زالت، هى أن لا يعذب أحدا إلا بعد إتمام الحجّه الكافيه.

والتعبير بـ حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَّهَاتِ رُسُلًا- إشاره إلى عدم لزوم إرسال الرسل إلى جميع المدن، بل يكفي أن يبعث في مركز كبير من مراكزها التي تنشر العلوم والأخبار رسولا- يبلغهم رسالا-ته! لأن أهل تلك المناطق في ذهاب وإياب مستمر إلى المركز الرئيسي، لحاجتهم الماسه، وما أسرع أن ينتشر الخبر الذي يقع في المركز إلى بقية الأنحاء القريبه و البعيده، كما انتشرت أصداء بعثه النبي صَلَّى الله عليه و آله التي كانت في مكه- و بلغت جميع أنحاء الجزيره العربيه في فتره قصيره! لأن مكه كانت أم القرى، و كانت مركزا روحانيا في الحجاز، كما كانت مركزا تجاريا أيضا.. فانتشرت أخبار النبي صَلَّى الله عليه و آله، و وصلت جميع المراكز المهمه في ذلك الحين و في فتره قصيره جدا.

فعلى هذا تبين الآيه حكما كلياً و عاماً، و ما يدعيه بعض المفسرين من أنها إشاره إلى «مكه» لا دليل عليه، و التعبير بـ فِي أُمَّهَاتِ هُوَ تعبير عام كلي أيضاً..

لأن كلمه «أم» تعنى المركز الأصلي، و لا يختص هذا بمكه فحسب (١).

و آخر آيه من هذا المقطع محل البحث تحمل الرد الثالث على أصحاب الحجج الواهيه، الذين كانوا يقولون للنبي صَلَّى الله عليه و آله: **إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نَخْطِفُ مِنْ أَرْضِنَا** و **يَبْعِدُنَا الْعَرَبُ مِنْ دِيَارِنَا**، و هو قوله تعالى: **وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ زِينَتِهَا** و **مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَ أَبْقَى** مما عندكم من النعيم الفانى.. إذ أن نعم الدنيا تشوبها الأكدار و المشاكل المختلفه، و لس من نعمه ماديه خاليه من الضرر و الخطر أبدا.

إضافه إلى ذلك فإن النعم التي عند الله «الباقية» لا تقاس مع النعم الدنيويه الزائله، فنعم الله-إذن-خير و أبقى!.

فبموازنه بسيطه يعرف كل إنسان عاقل أنه لا ينبغي أن يضحى بنعم الآخره

ص: ٢٧٢

(١-١) - في أن الآيه هل تشمل المستقلات العقليه أم لا، بحثنا في ذلك بحثا مناسبا في ذيل الآيه (١٥) من سوره الإسراء.

من أجل نعم الدنيا، و لذلك تختتم الآية بالقول: أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟.

يقول «الفخر الرازي» نقلا عن أحد الفقهاء أنه قال: لو أوصى أحد بثلث ماله إلى أعقل الناس، فإنني أفتى أن يعطى هذا المال لمن يطيع أمر الله، لأن أعقل الناس من يعطى المتاع القليل، (الفاني) ليأخذ الكثير (الباقى) ولا يصدق هذا، إلا في من يطيع الله.

ثم يضيف الفخر الرازي.. قائلا: فكأنما استفاد هذا الحكم من الآية محل البحث (1).

ص: ٢٧٣

(١ - ١) - التفسير الكبير للفخر الرازي، ج ٢٥، ص ٦.

اشاره

أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَآفِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١) وَيَوْمَ يَنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِنَانَا يَعْبُدُونَ (٦٣) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُم فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأُوا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يُهْتَدُونَ (٦٤)

التفسير

اشاره

أنهم عبده الهوى:

كان الحديث في الآيات المتقدمه عن الذين فضّلوا الكفر على الإيمان بسبب منافعهم الشخصيه-و رجّحوا الشرك على التوحيد،و في الآيات التي بين أيدينا بين القرآن حال هذه الجماعه يوم القيامه قبال المؤمنين الصادقين.

ففي بدايه هذه الآيات يلقي القرآن سؤالاً يقارن فيه بين المؤمنين

و الكافرين، و يثير الوجدان و يجعله حكما فيقول: أ فَمَنْ وَعِدْنَاهُ وَعِيدًا حَسِينًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ لِمَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ .

و لا شك أن وجدان يقظ يرجح وعود الله و مواهبه العظيمة الخالده، على نعم الدنيا التي لا تطول إلا أياما و تتبعها آلام و شقاء خالد؟! جمله فَهُوَ لَاقِيهِ تأكيد على أن وعد الله لا يتخلف أبدا و لا بد أن يكون كذلك، لأن تخلف الوعد إما ناشئ عن الجهل أو العجز، و كلاهما مستحيل على ذات الله المقدسه.

و جمله هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ إشاره إلى الإحضار في محضر الله يوم القيامة للحساب، و فسرنا البعض بالإحضار في نار جهنم، و لكن التفسير الأول أنسب كما يبدو، و على كل حال فإن هذا التعبير يدل بصوره واضحه على أن المجرمين يساقون مكرهين، و على غير رغبه منهم إلى تلك العرصات المخوفه، و ينبغي أن يكون الأمر كذلك... لأن وحشه الحساب و القضاء يوم القيامة و مشاهدها تغمر وجودهم هناك!.

و التعبير ب الْحَيَاةِ الدُّنْيَا التي تكررت في سور مختلفه من القرآن الكريم، إشاره إلى حقايره هذه الحياه بالنسبه للحياه الأخرى و الخلود فيها و عدم الزوال و الاضمحلال، لأن كلمه «دنيا» في الأصل مأخوذه من «دنو» على زنه «غلو» و معناها القرب في المكان أو الزمان أو المنزله و المقام، ثم توسع هذا المفهوم ليلفظ «دنيا أو أدنى» على الموجودات الصغيره التي تحت اليد في مقابل الموجودات الكبيره، و قد يطلق هذا اللفظ على الموضوعات التي لا قيمه لها في مقابل الأشياء ذات القيمه العاليه، و ربما استعمل في القرب في مقابل البعد.

و حيث أن هذه «الحياه» في مقابل العالم الآخر صغيره و لا قيمه لها و قريبه أيضا، فإن تسميتها بالحياه الدنيا تسميه مناسبه جدا.

بعد هذا، يأتي الكلام عن عرصات يوم القيامة و مشاهدتها ليجسده أمام الكفار، مشاهد يقشع منها البدن حين يتصورها الإنسان، فيقول القرآن: وَ يَوْمَ يناديهم فيقول أَيْنَ شركائى الذين كنتم تزعمون .

و بديهي أن هذا السؤال سؤال توبيخ و إهانته، لأن يوم القيامة يوم كشف الحجب و الأستار، فلا مفهوم للشرك، و لا المشركون فى ذلك اليوم باقون على عقيدتهم و«شركهم».

فهذا السؤال فى الحقيقة فيه نوع من الإهانته و التوبيخ و العقوبه! و لكنهم بدلا من أن يجيبوا بأنفسهم، فإن معبوديهم هم الذين يردون الجواب، و يتبرءون منهم، و يتنفرون من عباده المشركين إياهم.

و نعرف أن معبودات المشركين و آلهتهم على ثلاثة أنواع: فإما أن يكونوا أصناما «و أحجارا و خشبا» أو من المقدسين كالملائكة و المسيح، و إما أن يكونوا من الشياطين و الجنّ. فالذين يردون على السؤال و يجيبون هم النوع الثالث، كما حكى عنهم القرآن قال الذين حقّ عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغويتنا هم كما غويتنا تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون .

فعلى هذا تكون الآيه السابقه شبيهه بالآيه (٢٨) من سوره يونس إذ تقول:

وَ قال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون .

فعلى هذا يرد المعبودون الغواه على عبدتهم و يتبرءون منهم، كما يبرأ فرعون و نمرود و الشياطين و الجن من عبدتهم و قومهم و يتنفرون منهم، و يدافعون عن أنفسهم، حتى أنهم ينسبون الضلاله لمن تبعهم و يقولون: إنهم تبعونا طوعا... إلخ.

و لكن -من البديهي- ليس لهذا النفي أثر، و لا تنفع البراءه منهم، فالعابد

والمعبود معا شريكا «فى النار» (١).

الطريف الذى يستلفت النظر، هو أنّ كل واحد من المنحرفين يتبرأ فى ذلك اليوم من الآخر و كل يسعى لأن يلقى تبعه ذنبه على صاحبه.

و هذا يشبه تماما ما قد نراه فى هذه «الدنيا» من اجتماع رهط على أمر ما حتى إذا وقعوا فى مخالفه القانون، و ألقى القبض عليهم، و أحضروا إلى المحكمه، يتبرأ كل واحد من الآخر و يلقى بعضهم الجريمه على صاحبه، فهكذا هى عاقبه المنحرفين و الضالين فى الدنيا و الآخره! كما نجد مثل هذا فى الآيه (٢٢) من سوره إبراهيم و قَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَ مَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَ لُومُوا أَنْفُسَكُمْ .

و نقرأ فى الآيه (٣٠) من سوره الصافات فى شأن المشركين الذين يتحاجون فى يوم القيامه مع أتباعهم فيقولون: وَ مَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ .

و على كل حال، فتعقيبا على السؤال عن آلهتهم. و عجز المشركين عن الجواب. يطلب أن يدعوهم لنصرتهم و قيل ادعوا شُرَكَاءَكُمْ (٢) .

و حيث يعلم المشركون أن دعاءهم غير نافع، و أن المعبودين «الشركاء» لا يمكن أن يفعلوا شيئا من شدّه الهلع و الوحشه، أو استجابه لأمر الله الذى يريد

ص: ٢٧٧

١ - ١) - و يحتمل فى الآيه الآنفه - أيضا - أن القائلين جوابا على سؤال الله هم رؤوساء المشركين «أى جماعه من عبده الأصنام» فهم من أجل أن يفروا عن الجواب يتحدثون عن أتباعهم، و يقولون: ربنا إنّنا غوينا فمضينا فى طريق الشرك، و هؤلاء اتبعونا طوعا فأغويناهم، و لكنهم لم يطيعونا «العباده فى الآيه الآنفه معناها الطاعه» و إنّما أطاعوا هواهم، و لكن التفسير السابق أظهر.

٢ - ٢) - التعبير ب«شركاءكم» مع أن هؤلاء الشركاء كانوا قد جعلوا شركاء الله سبحانه، هو اشاره إلى أن هؤلاء الشركاء من صنعكم و هم متعلقون بكم لا بالله...

أن يفضح المشركين و الشركاء أمام أعين الخلق، يتوجهون إلى الشركاء و يدعونهم كما يقول القرآن الكريم: فَدَعَوْهُمْ .

و من الواضح أنه لا أثر لهذا النداء و الطلب، و لا يقال لهم «ليكن».. فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ .

فحينئذ لا ينفعهم شيء و رَأَوْا الْعَذَابَ .

و يتمنون لو أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ! . (١)

ص: ٢٧٨

١ - ١) - بحث المفسِّرون في الآية لَمَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ بحوثاً شتى، فكثير منهم قالوا بأن «لو» حرف شرط هنا، فبحثوا عن الجزاء، فقالوا: يستفاد من جملة رَأَوْا الْعَذَابَ و تقدير الجملة يكون هكذا: «لو أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ لرَأَوْا العذاب في الدنيا بعين اليقين». و هذا يشبه قوله تعالى لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ في سورة التكاثر الآية السادسة. كما يرى البعض أن التقدير هكذا لو أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ في الدنيا لما رَأَوْا العذاب في الآخرة. و زعم بعضهم أن الجزاء غير ما تقدم «يطول بها البحث هنا». لكنَّ بعضهم يعتقد أن جواب الشرط «الجزاء» غير محذوف أساساً، و جملة و رَأَوْا الْعَذَابَ هي الجواب المتقدم، و ما بعده جملة الشرط، فيكون المعنى هكذا: لو كانوا يرون و يهتدون لرَأَوْا العذاب لكنهم لم يهتدوا!... لكن وراء كل هذه المعاني معنى آخر ذكرناه في بيان الآية آنفاً، و هو أن نفسر معنى لو ب «تمنوا، فلا بأس بمراجعته الكتب اللغوية و الأدبية «كمغنى اللبيب» و غيره!.

اشاره

وَيَوْمَ يَنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَلْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ (٦٦) فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (٦٧) وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْخِزْيَانَةُ وَالْأُولَىٰ وَالْآخِرَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠)

التفسير

تعقب الآيات محل البحث، على ما كان في الآيات السابقة في شأن المشركين و ما يسألون يوم القيامة.

فبعد أن يسألوا عن شركائهم و معبوديهم، يسألون عن مواقفهم و ما أبدوه من عمل إزاء أنبيائهم و يومَ يناديهم فيقول ماذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ .

و من المسلم به أنَّ هؤلاء «المشركين» لا يملكون جوابا لهذا السؤال، كما لم يملكوا للسؤال السابق جوابا.

ترى: أ يقولون بأننا لبينا دعوه المرسلين؟ فهذا كذب محض! والكاذب خاسر فى ذلك اليوم، أم يقولون بأننا كذبتناهم، واتهمناهم، وقلنا لهم بأنكم سحره و مجانين و حاربناهم و قتلناهم مع اتباعهم؟...

ما عسى أن يقولوا هناك؟! فكل ما يقولون كاشف عن فضيحتهم و شقائهم!.

حتى أن الأنبياء و المرسلين فى ذلك اليوم يجيئون ربهم حين يسألون ما ذا أُجبتُمْ قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب . (١)

ما الذى يقوله فى ذلك اليوم و فى ذلك المكان عمى القلوب من المشركين؟! لذلك يكشف القرآن عن حالهم هناك فيقول: فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ أى يسأل بعضهم بعضا و لا يعرفون جوابا!.

و الذى يستلفت النظر أن العمى نسب فى الآية للأنبياء لا- للمشركين فلا يقول عمى المشركون هناك بل يقول: «عميت عليهم الأنبياء».. لأنه كثيرا ما يحدث أن يكون الإنسان غير عالم بالخبر، لكنه يصله بانتشاره على أفواه الناس، كما يتفق لنا أن نكون جاهلين بالشىء أحيانا فنعرف به حين ينتشر بين المجتمع، لكن فى يوم القيامة، لا الناس مطلعون، و لا الأخبار تنتشر!.

فعلى هذا تعمى الأخبار، فلا- يملكون جوابا هناك على قوله تعالى: ﴿مَا ذَا أُجِبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ فيحيط بهم الصمت من قرانهم إلى أقدامهم.

و حيث أن أسلوب القرآن هو ترك الأبواب مفتوحة بوجه الكافرين و الآثمين دائما، لعلهم يتوبون و يرجعون إلى الحق فى أى مرحلة كانوا من الإثم، فإنه يضيف فى الآية التى بعدها: ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ .

فسبيل النجاه- حسب ما يوضحه القرآن- يتلخص فى ثلاث جمل هى العوده و التوبه إلى الله، و الإيمان، و العمل الصالح، و عاقبتهما النجاه و الفلاح حتما.

ص: ٢٨٠

والتعبير بعسى «من أفعال الرجاء» مع أن الذى آمن وعمل صالحا فهو من أهل الفلاح حتما-ربما كان لأن الإيمان والعمل الصالح مشروطان بالبقاء والدوام عليهما، وحيث أن التائبين لا يبقى جميعهم على التوبة، بل قد يعود بعضهم لعمله السابق، عبر القرآن بقول: فَعَسَى . . إلخ.

قال بعض المفسرين: التعبير ب«عسى» حين يكون من شخص كريم، فإنه يدل على المفهوم القطعى، والله سبحانه أكرم الأكرمين.

والآية التى بعدها فى الحقيقة دليل على نفى الشرك و بطلان عقيدة المشركين، إذ تقول: وَ رَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ (١) .

فالخلق بيده، والتدبير والإختيار بيده أيضا، وهو ذو الإرادة، وليس لأحد سواه أن يفعل ما يشاء، فكيف بالأصنام؟! فاختيار الخلق بيده، والشفاعه بيده، وإرسال الرسل بيده أيضا. والخلاصه أن اختيار كل شىء متعلق بمشيئته وإرادته المقدسه، فعلى هذا لا يمكن للأصنام أن تعمل شيئا، ولا حتى الملائكه والأنبياء، إلا أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى! وعلى كل حال فإطلاق الإختيار دليل على عموميته.. بمعنى أن الله سبحانه صاحب الإختيار فى الأمور التكوينية والأمر التشريعيه أيضا.. فجميعها يتعلقان به.

فمع هذه الحال، كيف يسلك هؤلاء طريق الشرك و يتجهون نحو غير الله؟ لذلك فإن الآيه تنزه الله عن الشرك و تقول: سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ .

و فى الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام فسرت الآيه المتقدمه باختيار الأئمة المعصومين من قبل الله سبحانه- و جملة ما كان لهم الخيرة أيضا وردت فى هذا المعنى، و هى فى الواقع من قبيل بيان المصداق الواضح، لأن

ص: ٢٨١

١ - ١) - «ما» فى جملة «ما كان لهم الخيره» نافيه، و لكن البعض يحتمل أنها موصوله و معطوفه على المفعول المحذوف «ليختار» لكن هذا الاحتمال بعيد جدا...

مسأله حفظ الدين و المذهب و اختيار القائد المعصوم لأجل هذا الهدف، لا تكون إلا من قبل الله تعالى (١).

أما الآيه التي بعدها فتحدث عن علم الله الواسع، و هي في الحقيقة تأكيد أو دليل على الإختيار الواسع في الآيه السابقه، إذ تقول هذه الآيه: وَ رَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَ مَا يُعْلِنُونَ .

فإحاطته بكل شيء دليل على اختياره لكل شيء، كما هي -ضمننا- تهديد للمشركين، لئلا يظنوا أن الله غير مطلع على سرائرهم و نياتهم و«مؤامراتهم».

و الآيه الأخيره من هذا المقطع- هي نتيجة الحكم، و توضيح للآيات السابقه في مجال نفى الشرك، و هي ذات أربعه أوصاف من أوصاف الله، و جميعها فرع على خالقيته و اختياره.

فالأول: أَنَّهُ هُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .

فكيف يمكن أن يكون معبود آخر سواه، و هو الخالق وحده و جميع الإختيارات بأمره و بيده. فمن يتوسل بالأصنام لتشفع له عند الله فهو من المضلين الخاطئين.

و الثاني: أن جميع النعم دنيويه كانت أم أخروييه هي منه، و هي من لوازم خالقيته المطلقه، لذلك يقول القرآن في هذا الصدد لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَ الْآخِرَةِ .

الثالث: أَنَّهُ وَ لَهُ الْحُكْمُ فَهُوَ الْحَاكِمُ فِي هَذَا الْعَالَمِ، وَ فِي الْعَالَمِ الْآخِرِ.

و الرابع: وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ لِلْحِسَابِ وَ الثَّوَابِ وَ الْعِقَابِ.

فالله الخالق، و هو المطلع، و هو الحاكم يوم الجزاء، و بيده الحساب و الثواب و العقاب.

ص: ٢٨٢

١-١) -اصول الكافي. و تفسير على بن إبراهيم«طبقا لتفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ١٣٦».

اشاره

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَمْ لَأَنْتُمْ أَنْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَمْ لَأَنْتُمْ أَنْتُمْ إِنْ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَيْسَ كُنُوفًا فِيهِ وَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) وَ يَوْمَ يَنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤) وَ نَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٧٥)

التفسير

اشاره

نعمتا «الليل و النهار» العظيمنتان:

هذه الآيات-محل البحث-تتحدث عن قسم كبير من مواهب الله سبحانه، التي تدل على التوحيد و نفي الشرك من جهة، كما أنّها تكمل البحث السابق..

و تذكر مثلاً- للنعم التي تستوجب الحمد و الشاء..الحمد المشار إليه في الآيات المتقدمه، كما هي في الوقت ذاته شاهد على اختيار الله و تديره في نظام الخلق من جهه أخرى!

ففي الآيه الأولى من هذه الآيات إشاره إلى نعمه النهار و النور الذي هو أساس لأيه حركه،فتقول الآيه: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَمْ لَا تَسْمَعُونَ (١).

هنا عبر عن النهار بالضياء،لأن الهدف الأصلي من النهار هو الضياء و الانبلاج،ذلك الضياء الذي تتعلق به حياه كل الموجودات الحيه،فلولا ضياء الشمس لما تنسمت «زهرة»و لا نمت «شجره»و لا طار «طائر»و لا بقي «إنسان» و لا هطل مطر.

«السرمد»معناه الدائم المتواصل،و يرى البعض بأنه المتتابع،و أصله «سرد» و يرون أن ميمها زائده..لكن الظاهر أنها كلمه مستقله تعطى معنى الدوام و الاستمرار. (٢)

كما تتحدث الآيه الأخرى عن نعمه الظلمه فتقول: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِاللَّيْلِ تَشْكُرُونَ فِيهِ أَمْ لَا تُبْصِرُونَ .

أما الآيه الثالثه فتحكى عن نتيجة النعمه المشار إليها في الآيتين السابقتين فيقول وَ مِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ لِتَشْكُرُوا فِيهِ وَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أجل،إن سعه رحمه الله تستوجب أن تضمن جميع عوامل حياتكم،فأنتم -

ص: ٢٨٤

(١ - ١) - «أ رأيتم»جمله تأتي بمعنى«أخبروني»عاده، كما فسروها،و لكن كما قلنا سابقا تأتي أحيانا بمعنى:هل علمتم؟!
(٢ - ٢) -قال أهل اللغه:إن كلمه«سرمدي»تطلق على ما ليس له بدايه و لا نهايه،و«الأزلي»ما ليس له بدايه، و«الأبدى»ما ليس له نهايه...
نهايه...

من جانب-بحاجه إلى السعى و الحركة، و كل ذلك لا بدّ لهما من الليل! لقد ثبت-في هذا العصر-علميًا أن جميع أجهزه البدن تكون فعالة و نشطه مع وجود النور، إذ تنشط الحركة الدمويه و الجهاز التنفسي و حركة القلب و سائر الأجهزه، و إذا استمر النور أكثر من المعتاد تعبت خلايا الجسم و تحول النشاط إلى خمول! و بالعكس فإنّ الخلايا تهدأ في الليل و تستريح استراحه عميقه تستعيد نشاطها و قواها«شرحنا هذا المعنى في الجزء السادس ذيل الآيه ٦٧ من سوره يونس و الآيه(١٢) من سوره الاسراء»، الطريف هنا أن الآيه حين تتحدث عن سرمدية الليل تخاطب الناس قائله:

أَفَلَا تَسْمَعُونَ

...و حين تتحدث عن سرمدية النهار تخاطبهم قائله: أَفَلَا تُبْصِرُونَ و لعل هذا التعبير لأجل أن الحسّ المناسب لليل هو السمع و الأذن، و ما يناسب النهار هو البصر و العين.. إلى هذه الدرجه نلاحظ الدقه في القرآن الكريم.

كما أنّ من الجدير الالتفات إلى أنّ الآيه هنا بعد ذكر مسألتى السمع و البصر أو الليل و النهار، تختتم الحديث بالقول: لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ الشكر إزاء النظام المحسوب النور و الظلمه، الشكر الذى يوصل الإنسان إلى معرفه المنعم و الشكر الذى يكون باعثا على الإيمان فى المباحث الاعتقاديّه!.

و مرّه أخرى-بعد ذكر جانب من دلائل التوحيد و نفى الشرك-يعود القرآن الكريم على السؤال الأوّل الذى أثير فى الآيات السابقه ليقول: وَ يَوْمَ يَتَذَكَّرُونَ لَمَّا بَلَغُوا أَسْرَارَهُمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ .

و هذه الآيه مكرره فى السوره نفسها، إذ وردت بنصّها فى الآيه ٦٢، و لعل هذا التكرار ناشئ عن السؤال مرتين فى يوم القيامه، مرّه بصوره انفراديه ليعودوا إلى وجدانهم فيخجلوا من أنفسهم، و مرّه بصوره عامّه فى محضر الشهود، و هو ما أشير إليه فى الآيه التى بعدها.. ليخجلوا أيضا من حضورهم.

لذلك تأتي الآية التي بعدها فتقول: وَ نَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا (١) فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ الضالون.

و حين تنكشف المسائل و تتجلى الأمور لا تبقى خافية فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

هؤلاء الشهود هم الأنبياء بقربنه الآيات الأخرى فى القرآن، إذ أن كل نبي شاهد على أمته، و نبي الإسلام صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله الذى هو خاتم الأنبياء هو شهيد على جميع الأنبياء و الأمم، كما نقرأ ذلك فى الآية (٤١) من سورة النساء فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا .

فعلى هذا، ينعقد يوم القيامة مجلس كبير بحضور الأنبياء، و يؤتى بالمشركين المعاندين عمى القلوب، و هناك يعرفون الفاجعه العظمى للشرك، و حقانيه الله، و ضلال الأصنام... بجلاء.

و من الطريف أن القرآن يعبر ب ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ أى إن تصوراتهم و اعتقاداتهم فى الأصنام تمحى عنهم يوم القيامة، لأنَّ عرصه القيامة عرصه الحق، و لا مكان للباطل هناك، فالباطل يضل هناك و يمحى من الوجود!.

فإذا كان الباطل يغطى وجهه هنا(فى هذا العالم) بستار من الحق ليخدع الناس أيا ما، فهناك تنكشف الحجب و لا يبقى سوى الحق.

نقرأ فى روايه عن الإمام الباقر عليه السلام فى تفسير وَ نَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا

قوله: «و من هذه الأمة إمامها» (٢) .

و هذا الكلام إشاره إلى أنه لا بدّ فى كل عصر و زمان من شاهد معصوم للأمة، و الحديث آنف الذكر من قبيل بيان مصداق هذا المفهوم القرآنى.

ص: ٢٨٦

١-١) -التعبير ب«نزعنا» التى تعنى جذب الشىء من مقرّه، هى إشاره إلى إحضار الشهود من بين كل جماعه و أمه...

٢-٢) -تفسير الميزان، ج ١٦، ص ٢٠.

اشاره

إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبِ بِهِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٤) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَ أَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨)

التفسير

اشاره

الثرى الاسرائيلى البخيل:

جاء تفصيل قصه موسى عليه السلام العجيبه و مواجهاته و مواقفه مع فرعون فى قسم كبير من الآيات السابقه فى هذه السوره..و ذكرنا الأقوال فيها،و كان الكلام إلى حد ما كافيا عليها.

و فى القسم الآخر من آيات هذه السوره،وقع الكلام على مواجهه بنى

إسرائيل مع رجل ثرى منهم يدعى «قارون».

قارون هذا كان مظهرا للثراء المقرون بالكبر و الغرور و الطغيان.

و أساسا، فإنّ موسى عليه السّلام واجه في طول حياته ثلث قوى استكباريه طاغوتيه:

١- «فرعون» الذى كان مظهرا للقوّه «و القدره فى الحكومه».

٢- «قارون» الذى كان مظهرا للثروه و المال! ٣- «السامرى» الذى كان مظهرا للنفاق و الصناعه.

و بالرغم من أنّ أهمّ مواجهات موسى عليه السّلام هى مواجهته لفرعون و «حكومته» إلا أنّ مواجهته الأخيرتين لهما أهميّة كبيره أيضا، و فيهما دروس ذات عبر و محتوى كبير!

المعروف أنّ «قارون» كان من أرحام موسى و أقاربه «ابن عمه أو ابن خالته» و كان عارفا بالتوراه، و كان فى بدايه أمره مع المؤمنين، إلاّ أنّ غرور الثروه جرّه إلى الكفر و دعاه إلى أن يقف بوجه موسى عليه السّلام و أماته ميتة ذات عبره للجميع، حيث نقرأ شرح ذلك فى الآيات التاليه:

يقول القرآن فى شأنه أولا: إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ و سبب بغيه و ظلمه إنّه كان ذا ثروه عظيمه، و لأنّه لم يكن يتمتع بإيمان قوى و شخصيه متينه فقد غرّته هذه الثروه الكبيره و جرّته إلى الانحراف و الاستكبار.

يصف القرآن ما عنده من ثروه فيقول: وَ آتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ .

«المفتاح» جمع «مفتاح» على زنه «مكتب» معناه المكان الذى يدخّر فيه الشىء، كالصندوق الذى يحفظ فيه المال، و هو ما يسميه بعض التجار ب «القاصه».

فيكون المعنى: إنّ قارون كان ذا مال كثير و وفير من الذهب و الفضة، بحيث

كان يصعب حمل صناديقها على الرجال الأشداء أولى القُوَّة .

و مع ملاحظه كلمه «عصبه» التي تعنى الجماعه المتآزره يدا بيد على الأمر المهم، يتّضح حجم الذهب و الفضة و المعادن الثمينه التي كانت عند قارون، قال بعضهم: العصبه هي من عشره رجال إلى أربعين رجلا.

و كلمه «تنوء» مشتقّه من «النوء» و معناه القيام بمشقه و ثقل، و تستعمل في حمل الأثقال التي لها ثقل و وزن كبير، بحيث لو حملها الإنسان لمال إلى أحد جانبيه!.

و هذا الذي بيّناه في «المفتاح» اتفق عليه جماعه من المفسرين.

في حين أنّ بعضهم يرى أنّها جمع «مفتح» على زنه «منبر» و هو المفتاح الذي تفتح به الخزائن، يقولون: إن خزائن قارون كانت من الكثره إلى درجه إن مفاتيحها ينوء بحملها الرجال الأشداء.

و الذين ذهبوا إلى هذا المعنى أتبعوا أنفسهم كثيرا في توجيهه، إذ كيف يمكن تصور عدد هذه «المفتاح» بشكل هائل حتى لا يمكن حملها إلاّ بمشقه و عناء بالغين.. و على كل حال فإنّ التفسير الأوّل أقرب للنظر و أوضح بيانا. لأننا و إن سلّمنا على أنّ «مفتح» بكسر الميم» تعنى آله الفتح أى «المفتاح» فإنّ أهل اللغه ذكروا لهذا الوزن (مفتح) معانى أخرى منها «الخزانة» التي يجمع فيها المال، فالمعنى الأوّل أقرب للواقع و بعيد عن المبالغه. فلا ينبغي الخلط بين «المفتاح» التي تعنى الخزائن. و «المفاتيح» التي تعنى آلات الفتح، و هي جمع «مفتاح» (١).

فلنتجاوز هذا البحث لنرى ما قال بنوا إسرائيل لقارون، يقول القرآن في هذا الصدد: إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٢).

ص: ٢٨٩

١ - ١) - فسّر بعضهم «المفتاح» تفسيرا آخر، و هو أنّ الإتيان بالمفتاح لحفظ الأموال و جمعها كان صعبا على الرجال الأشداء، و لكن هذا التفسير بعيد جدّا «فلا بأس بمراجعته لسان العرب لزياده الإيضاح».

٢ - ٢) - كلمه «الفرحين» جمع الفرح، و تعنى من يكون مغرورا على أثر تملكه الشيء و متكبرا بطرا منتشيا من ربح النَّصر.

ثمّ يقدمون له أربع نصائح قيمه أخرى ذات تأثير مهم على مصير الإنسان، بحيث تتكامل لديه حلقة خماسيه من النصائح مع ما تقدم من قولهم له:

لَا تَفْرُخْ

فالنصيحه الأولى قولهم له: وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَهَذَا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْمَالَ وَالشَّرْهَ لَيْسَ أَمْرًا سَيِّئًا كَمَا يَتَصَوَّرُهُ بَعْضُ الْمُتَوَهِّمِينَ، الْمَهْمُ أَنْ تَعْرِفَ فِيمَ يَسْتَعْمَلُ الْمَالَ، وَفِي أَيِّ طَرِيقٍ يَنْفَقُ، فَيَاذَا ابْتَغَى بِهِ الدَّارَ الْآخِرَةَ فَمَا أَحْسَنَهُ! أَوْ كَانَ وَسِيلَهُ لِلْعِبِّ وَالْهَوَى وَالظُّلْمِ وَالتَّجَاوُزِ، فَلَا شَيْءَ أَسْوَأَ مِنْهُ! وَهَذَا هُوَ الْمُنْطَقُ الَّذِي

ورد على لسان أمير المؤمنين عليه السلام في كلام معروف «من أبصر بها بصّرته و من أبصر إليها أعمته» (١).

و كان قارون رجلا ذا قدره على الأعمال الاجتماعيه الكبيره بسبب أمواله الطائله، و لكن ما الفائدة منها و قد أعماه غروره عن النظر إلى الحقائق.

و النصيحه الثانيه قولهم له: وَ لَا تَنْسَ نَصِيحَةَ رَبِّكَ مِنَ الدُّنْيَا وَالْآيَةَ تَشِيرُ إِلَى مَسْأَلِهِ وَاقِعِيَّةٍ، وَ هِيَ أَنَّ لِكُلِّ فَرْدٍ مِنْهَا نَصِيحًا مِنَ الدُّنْيَا، فَالْأَمْوَالُ الَّتِي يَصْرِفُهَا عَلَى بَدَنِهِ وَ ثِيَابِهِ لِيُظْهِرَ بِمُظْهِرٍ لَا تُقَى هِيَ أَمْوَالٌ مَحْدُودَةٌ، وَ مَا زَادَ عَلَيْهَا لَا تَزِيدُ مَظْهَرَهُ شَيْئًا، وَ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ لَا يَنْسَى هَذِهِ الْحَقِيقَةَ!... فَالْإِنْسَانُ... كَمْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَأْكُلَ مِنَ الطَّعَامِ؟ وَ لَمْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَلْبَسَ مِنَ الثِّيَابِ؟ وَ كَمْ يُمْكِنُ أَنْ يَحُوزَ مِنَ الْمَسَاكِنِ وَ الْمَرَاقِبِ؟ أَوْ إِذَا مَاتَ وَ كَمْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَأْخُذَ مَعَهُ مِنَ الْأَكْفَانِ؟! فَالْبَاقِي -إِذَنْ- رَضَى أَمْ أَبِي هُوَ مِنَ نَصِيحِ الْآخِرِينَ.

و ما أجمل

قول الإمام على عليه السلام: «يا ابن آدم ما كسبت فوق قوتك فأنت فيه خازن لغيرك» (٢).

و هناك تفسير آخر لهذه الجملة في الروايات الإسلاميه و كلمات المفسرين،

ص: ٢٩٠

١-١) - نهج البلاغه، خطبه ٨٢.

٢-٢) - نهج البلاغه، الكلمات القصار جمله ١٩٢.

و يمكن التوفيق بين هذا التفسير و التفسير السابق (لأن استعمال اللفظ فى أكثر من معنى جائز).

إذ ورد فى تفسير وَ لَا تَنْسَ نَصِيْبَكَ مِنَ الدُّنْيَا

عن الإمام على ابن أبى طالب عليه السّلام أنّه قال: «لا تنس صحتك و قدرتك و فراغك و شبابك و نشاطك أن تطلب بها الآخرة» (١).

و طبقا لهذا التفسير فالعبارة المتقدمه بمثابه التنبيه لجميع الناس، لئلا يضيعوا أوقاتهم و فرصهم فإنها تمر مرّ السحاب.

و النصيحة الثالثه هى وَ أَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ .

و هذه حقيقه أخرى، و هى أن الإنسان يرجو دائما نعم الله و إحسانه و خيره و لطفه، و ينتظر منه كل شىء. فبمثل هذه الحال كيف يمكن له التغاضى عن طلب الآخرين الصريح أو لسان حالهم.. و كيف لا يلتفت إليهم!

و بتعبير آخر: كما أنّ الله تفضل عليك و أحسن، فأحسن أنت إلى الناس.

و شبيه هذا الكلام نجده فى الآية (٢٢) من سوره النور فى شأن العفو و الصفح، إذ تقول الآية: وَ لِيُغْفُوا وَ لِيُغْفُوا أَلَّا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ .

و يمكن تفسير هذه الجملة بتعبير آخر، و هو أنّ الله قد يهب الإنسان مواهب عظيمه لا يحتاج إليها جميعا فى حياته الشخصيه فقد و هبه العقل و القدره التى لا تدير فردا واحدا فحسب، بل تكفى لإداره بلد أيضا و و هبه علما لا يستفيد منه إنسان واحد فقط، بل ينتفع به مجتمع كامل.

أعطاه مالا و ثروه لتنفيذ المناهج الاجتماعيه.

فهذه المواهب الإلهيه مفهومها الضمنى أنّها لا تتعلق بك وحدك -أيها الإنسان- بل أنت و كيل مخوّل من قبل الله لنقلها إلى الآخرين، أعطاك الله هذه المواهب لتدير بها عبادته!

ص: ٢٩١

و النصيحه الرابعه و الأخيره أن لا- تغرنك هذه الأموال و الامكانيات الماديه فتجرك الى الفساد. وَ لَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ .

و هذا أيضا حقيقه واقعيه أخرى، إن كثيرا من الأثرياء و على أثر جنون زياده المال-أحيانا-أو طلبا للاستعلاء، يفسدون في المجتمع، فيجرون إلى الفقر و الحرمان، و يحتكرون جميع الأشياء في أيديهم، و يتصورون أن الناس عبيدهم و مماليكهم، و من يعترض عليهم فمصيره الموت، و إذا لم يستطيعوا اتهامه أو الإساءه إليه بشكل صريح، فإنهم يجعلونه معزولا- عن المجتمع بأساليبهم و طرائقهم الخاصه...

و الخلاصه: إنهم يجرون المجتمع إلى الفساد و الانحراف.

و في كلام جامع موجز نصل إلى أن هؤلاء الناصحين سعوا أولا إلى أن يكبحوا غرور قارون!.

ثم نبهوه أن الدنيا إنما هي وسيله- لا هدف- في مرحلتهم الثانيه.

و في المرحله الثالثه أذروه بأن ما عندك تستفيد من قسم قليل منه، و الباقي لغيرك.

و في المرحله الرابعه أفهموه هذه الحقيقه، و هي أن لا ينسى الله الذي أحسن إليه فعليه أن يحسن إلى الآخرين..و إلا فإنه يسلب مواهبه منك.

و في المرحله الخامسه حذروه من أن مغبه الفساد في الأرض الذي يقع نتيجة نسيان الأصول الأربعه آنفه الذكر.

و ليس من المعلوم بدقه من هم الناصحون لقارون يومئذ و لكن القدر المسلم به أنهم رجال علماء متقون، أذكياء، ذوو نجهه و شهامه، عارفون للمسائل الدقيقه الغامضه!.

و لكن الاعتقاد بأن الناصح لقارون هو موسى عليه السلام بعيد جدا، لأن القرآن يعبر عن من قدم النصيح بصيغه الجماعه إذ قال له قومه .

و الآن لنلاحظ ما كان جواب هذا الإنسان الباغى و الظالم الإسرائيلى لجماعته الواعظين له!.

فأجابهم قارون بتلك الحاله من الغرور و التكبر الناشئه من ثروته الكبيره، و قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَيَّ عِلْمٍ عِنْدِي .

هذا لا يتعلق بكم، و ليس لكم حق أن ترشدونى إلى كيفية التصرف بمالى، فقد أوجدته بعلمى و اطلاعى.

ثم إن الله يعرف حالى و يعلم أنى جدير بهذا المال الذى أعطانيه، و علمنى كيف أتصرف به، فلا حاجه إلى تدخلكم!.

و بعد هذا كله فقد تعبت و بذلت جهودا كبيره فى سبيل جمع هذا المال، فإذا كان الآخرون جديرين بالمال، فلم لا يتعبون و يجهدون أنفسهم؟ فلست مضايقا لهم، و إذا لم يكونوا جديرين، فليجوعوا و ليموتوا فهو أفضل لهم (١).

هذا المنطق العفن المفضوح طالما يردده الأثرياء الذين لا حظ لهم من الإيمان أمام من ينصحهم.

و هذه اللطيفه جديره بالالتفات و هى أن القرآن لم يصرح بالعلم الذى كان عند قارون و أبقاه مبهما، و لم يذكر أى علم كان عند قارون حتى استطاع بسببه على هذه الثروه الطائله!.

أهو علم الكيمياء، كما فسره بعضهم.

أم هو علم التجاره و الصناعه و الزراعه.

أم علم الإدارة الخاص به، الذى استطاع بواسطته أن يجمع هذه الثروه العظيمه.

أم جميع هذه العلوم!

ص: ٢٩٣

١- ١) -جمله إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَيَّ عِلْمٍ عِنْدِي تصلح للمعانى الثلاثه المتقدمه جميعا، كما أنها تصلح لاي واحد منها كما فسروا(فتأملوا بدقه).

لا يبعد أن يكون مفهوم الآيه واسعا و شاملا لجميع هذه العلوم «بالطبع بصرف النظر عن أن علم الكيمياء علم يستطاع بواسطته قلب النحاس و أمثاله ذهباً، و هل هو خرافه أم حقيقه واقعيه»؟ و هنا يجيب القرآن على قول قارون و أمثاله من المتكبرين الضالين، فيقول:

□
أَوْ لَمْ يَعْلَمِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَ أَكْثَرُ جَمْعًا

أتقول: إني أوتيتُهُ عَلَيَّ عِلْمٍ عِنْدِي و نسيت من كان أكثر منك علما و أشدَّ قوّه و أثرى مالا، فهل استطاعوا أن يفروا من قبضه العذاب الإلهي؟! لقد عبّر أولو الألباب و الضمائر الحيّه عن المال بقولهم لقارون: فيمَا آتَاكَ اللَّهُ، و لكن هذا الغافل غير المؤدّب ردّ على قولهم بأن ما عنده من مال فهو بواسطه علمه!! لكن الله سبحانه عبّر عن حقاره قوّته و قدرته أمام إرادته و مشيئته جلّ و علا بالعباره المتقدمه آنفا.

و في ختام الآيه إنذار ذو معنى كبير آخر لقارون، جاء في غايه الإيجاز:

□
وَ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ

فلا مجال للسؤال و الجواب، فالعذاب واقع -لا محاله- بصوره قطعيه و مؤلمه، و هو عذاب فجائي مدمر!.

و بعباره أخرى أن العلماء من بنى إسرائيل نصحوا قارون هذا اليوم و كان لديه مجال و الجواب، لكن بعد إتمام الحجّه و نزول العذاب الإلهي، عندئذ لا مجال للتفكير و الجواب، فإذا حلّ العذاب الالهي بساحته فهو الهلاك الحتمي.

□
هنا يرد سؤال حول الآيه التي تقول: وَ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ أى سؤال هذا الذي نفاه الله أهو في الدنيا أم في الآخرة؟! قال بعض المفسرين: إنّ المقصود بعدم السؤال هو في الدنيا، و قال بعضهم:

بل المقصود أنه في الآخرة! لكن لا مانع من أن يكون عدم السؤال في الدارين «الدنيا والآخرة».

أى لا يسألون حال نزول العذاب في الدنيا، لثلا يدافعوا عن أنفسهم و يبرئوا ساحتهم، و يظهر الأعداء تلوا الأعذار. و لا يسألون يوم القيامة- أيضا- لأن يوم القيامة لا يبقى فيه شيء خافيا، فكل شيء واضح، و كما يعبر القرآن تعبيرا دقيقا في هذا الصدد يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيْمَاهُمْ . (١)

و كذلك فإن الآيه-محل البحث- وَ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ منسجمه تمام الانسجام مع الآيه من سوره الرحمن إذ تقول: فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ .

هنا ينقدح سؤال آخر، و هو كيف ينسجم هذا التعبير في القرآن مع قوله تعالى: فَو رَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . (٢)

و يمكن الإجابة على هذا السؤال عن طريقين:

الأول: إنَّ المواقف في يوم القيامة متعدده، ففي بعضها يقع السؤال و الجواب و في بعض المواقف لا حاجه للسؤال، لأنَّ الحجب مكشوفه، و كل شيء واضح هناك.

الثاني: إنَّ السؤال عاده نوعان.. «سؤال تحقيق» و «سؤال توبيخ» فليس في يوم القيامة سؤال للتحقيق، لأنَّ كل شيء هناك مكشوف عيانا و واضح دون لبس.

و لكن يوجد هناك سؤال توبيخ و هو بنفسه نوع من العذاب النفسى للمجرمين.

و ينطبق هذا تماما في ما لو سأل الأب ابنه غير المؤدب: أ لم أقدم لك كل هذه الخدمات... أ هذا جزاء ما قدمت؟ أفى حين أن كلا من الأب و الابن يعرفان الحقيقه، و أن قصد الأب من سؤاله لابنه هو التوبيخ لا غير!

ص: ٢٩٥

١-١) -سوره الرحمن، الآيه ٤١.

٢-٢) -سوره الحجر، الآيه ٩٢.

اشاره

فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا كُنَّا لَمِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَعَذُو حَظٌّ عَظِيمٌ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلِكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَن آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيُكَانُّ اللَّهُ يَنْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ لَا أَنَّ مِنَ اللَّهِ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيُكَانَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢)

التفسير

اشاره

جنون الثروه:

المعروف أن أصحاب الثروه يبتلون بأنواع الجنون... و واحد منها «جنون عرض الثروه و إظهارها» فهؤلاء يشعرون باللذذ عند ما يعرضون ثروتهم على الآخرين، و حين يعبرون على مركب غال وثير و يمرون بين حفاة الأقدام فيتصاعد الغبار و الاتربه ليتشتر على وجوههم، و يحقرونهم بذلك، فحينئذ

يشعرون بالراحه النفسيه و النشوه تدغدغ قلوبهم..

و بالرغم من أن عرض الثروه هذا غالبا ما يكون سببا للبلاء عليهم،لأنه يربى الأحقاد فى الصدور و يعبئ الحساسيات ضده،و كثيرا ما ينهى هذا العمل الردىء حياه الإنسان،أو يزيل ثروته مع الريح!

و لعل هذا الجنون يحمل هدفا من قبيل إغراء الطامعين و تسليم الأفراد المعاندين و لكن الأثرياء غالبا ما يقومون بهذا العمل دون هدف،لأنه نوع من الهوى و الهوس و ليس خطه أو برنامجا معيناً.

و على كل حال فإن قارون لم يكن مستثنى من هذا القانون،بل كان يعدّ مثلاً بارزاً له،و القرآن يتحدث عنه فى جملة موجزه فى بعض آياته فيقول: فَخَرَجَ عَلَيَّ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ .امام قومه من بنى إسرائيل.

و التعبير ب«فى زينته»ناطق عن هذه الحقيقه،و هى أنه أظهر جميع قدرته و قوته ليبدى ما لديه من زينه و ثروه.

و معلوم طبعاً إنّ رجلاً بهذه المثابه من الثروه ما ذا يستطيع أن يفعل؟! و ينقل فى التاريخ فى هذا الصدد قصص كثيره-مقرونه بالأساطير أحياناً، فإنّ بعضهم يكتب أنّ قارون خرج فى استعراض كبير،و قد أركب أربعة آلاف نفر على أربعة آلاف فرس حمر«غاليه القيمه»مغطاه بالقماش الفاخر،و قد ملأها زينه من الذهب و الجواهر الأخرى،فمرّ بهذا الاستعراض على بنى إسرائيل..

و قد أثار هذا المنظر الناس،إذ رأوا أربعة آلاف من الخدم ابيض يلبسون ثياباً حمراً مع زينتهم.

و قال بعضهم:بل بلغ عدد هؤلاء«الخدم و الحشم»سبعه آلاف نفر،و ذكروا أخباراً أخرى فى هذا الصدد.

و لو فرضنا أن كل ذلك مبالغ فيه،إلاّ أنّه لا يمكن إنكار هذه الحقيقه،و هى أن قارون لديه ثروات مهمه أظهرها فى زينته!

هنا أصبح الناس طائفتين -بحسب العاده فطائفه و هم الأكثرية- من عبده الدنيا- أثارهم هذا المشهد، فاهترت قلوبهم و تأوهوا بالحسرات و تمنوا لو كانوا مكان قارون و لو يوما واحدا و لو ساعه واحده و حتى و لو لحظه! واحده...

فأية حياه عذبه جميله هذه الحياه التى تهب اللذات و النشاط... قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ .

هنيئا لقارون و لثروته العظيمة!.. و ما أعظم جلاله و عزّته.. و لا نظن فى التاريخ أحدا أعطاه الله ما أعطى قارون.. و ما إلى ذلك من الكلمات.

و هنا جاء دور الامتحان الالهى العظيم فمن جانب نجد قارون عليه أن يؤدى امتحانه فى غروره و طيشه! و من جانب آخر من بهرهم مشهده الذين أحاطوا به- من بنى إسرائيل -.

و بالطبع فإنّ العقاب الأليم هو العقاب الذى سيقع بعد هذا العرض المثير، و هو أن يهوى قارون من أوج العظمه إلى قعر الأرض إذ تنخسف به الأرض على حين غرّه!

لكن أمام هذه الطائفه التى ذكرناها آنفا طائفه أخرى من العلماء و المتقين الورعين، سمت آفاقهم عن مثل هذه المسائل، و كانوا حاضرين حينئذ و«المشهد» يمرّ من أمامهم.

هؤلاء الرجال لا يقوّمون الشخصيه بالذهب و القوّه، و لا يبحثون عن القيم فى الأمور الماديه. لا تبهرهم هذه المظاهر، بل يسخرون منها و يتبسمون تبسم استهزاء و ازدراء! و يحقّرون هذه الرؤوس الفارغه.

فهؤلاء كانوا هناك، و كان لهم موقف آخر من قارون، و كما يعبر عنهم القرآن وَ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيُؤْتُونَ تَوَابَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ أُرْدِفُوا مُؤَكِّدِينَ وَ لَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ .

أولئك الذين لا تهزّهم زخارف الدنيا و زبارجها، و يقفون فى استقامه-

برجوله و شهامه-امام الحرمان،و لا يطأطئون رؤوسهم للأراذل و يقفون كالجبال الرواسى فى الامتحان الإلهى-امتحان الشروه و المال و الخوف و المصيبه...

و هؤلاء هم الجديرون بثواب الله سبحانه!.

و من المسلم به أنه المقصود بجملة الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ هم علماء بنى إسرائيل،و من بينهم «يوشع»و هو من كبار رجالهم.

غير أن الطريف فى الأمر أن القرآن عبّر عن الطائفه الأولى بجملة الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لکنه لم يعبر عن الطائفه الثانيه بآتهم«الذين يريدون الحياه الاخره»بل عبر عنهم ب الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ فحسب،لأن العلم هو أساس كل شىء و جذر الإيمان و الاستقامه و العشق للثواب الإلهى و الدار الآخره..

كما أن التعبير ب الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ هو جواب دامغ-ضمننا-لقارون الذى يدعى العلم،فالقرآن يريد أن يبين أن العلماء هم هؤلاء الذين لا يريدون الحياه الدنيا،أما أنت يا قارون فمغرور و طائش!.

و هكذا نرى مره أخرى أن أساس البركات و الخيرات هو العلم الحقيقى.

لقد أوصل قارون بعمله هذا طغيانه و عناده إلى الدرجه القصوى غير أن ما ورد فى التواريخ حكايه منقوله عن قارون تدل على منتهى الخسه و عدم الحياء! ننقلها هنا حسب تفصيلها!.

فقال له موسى عليه السلام إن الله أمرنى أن آخذ الزكاه فأبى فقال:إن موسى يريد أن يأكل أموالكم جاءكم بالصلاه و جاءكم بأشياء فاحتملتموها فتحتملوه أن تعطوه أموالكم؟قالوا:لا نحتمل فما ترى؟فقال لهم:أرى أن أرسل إلى بغى من بغايا بنى إسرائيل فترسلها اليه فترميه بأنه أرادها على نفسها فأرسلوا إليها فقالوا لها:

نعطيك حكمك على أن تشهدى على موسى أنه فجر بك قالت نعم.

فجاء قارون إلى موسى عليه السلام قال:اجمع بنى إسرائيل فأخبرهم بما أمرك ربك قال:نعم،فجمعهم فقالوا له:بم أمرك ربك؟قال:أمرنى أن تعبدوا الله و لا تشركوا

به شيئاً و أن تصلوا الرحم و كذا و كذا و قد أمرني في الزاني إذا زني و قد أحصن أن يرحم. قالوا: و إن كنت أنت؟ قال: نعم. قالوا: فإنك قد زنت، قال: أنا؟ فأرسلوا إلى المرأة فجاءت فقالوا: ما تشهدين على موسى؟ فقال لها موسى عليه السلام أنشدتك بالله إلا ما صدقت. قالت: أمّا إذا نشدتنى فإنهم دعوني و جعلوا لي جعلاً على أن أقذفك بنفسى و أنا أشهد أنك برىء و أنك رسول الله.

فخرّ موسى عليه السلام ساجدا يبكي فأوحى الله إليه: ما يبكيك؟ قد سلطناك على الأرض فمرها فتطيعك، فرفع رأسه فقال: خذهم فأخذتهم إلى أعقابهم فجعلوا يقولون: يا موسى يا موسى فقال: خذهم فأخذتهم إلى أعناقهم فجعلوا يقولون:

يا موسى يا موسى فقال: خذهم فغيبتهم فأوحى الله:

«يا موسى سألك عبادى و تضرّعوا إليك فلم تجبهم فوعزّتى لو أنّهم دعونى لأجبتهم».

يقول القرآن الكريم فى هذا الصدد فَخَسَفْنَا بِهِ وَ بَدَارِهِ الْأَرْضَ .

أجل حين يبلغ الطغيان و الغرور و تحقير المؤمنين الأبرياء و المؤامره ضد نبي الله أوجها، تتجلى قدره الله تعالى و تطوى حياه الطغاه... و تدمرهم تدميرا يكون عبره للآخرين.

مسأله «الخسف» هنا التى تعنى انشقاق الأرض و ابتلاع ما عليها، حدثت على مدى التاريخ عدّه مرات... إذ تتزلزل الأرض ثم تنشقّ و تبتلع مدينه كامله أو عمارات سكنيه داخلها، لكن هذا الخسف الذى حدث لقارون يختلف عن تلك الموارد... هذا الخسف كان طعمته قارون و خزائنه فحسب!.

يا للعجب!.. ففرعون يهوى فى ماء النيل!.. و قارون فى أعماق الأرض!.

الماء الذى هو سرّ الحياه و أساسها يكون مأمورا بهلاك فرعون.

و الأرض التى هى مهاد الاطمئنان و الدعه تنقلب قبرا لقارون و اتباعه! و من البديهي أنّ قارون لم يكن لوحده فى ذلك البيت فقد كان معه أعوانه و ندماءه و من أعانه على ظلمه و طغيانه، و هكذا توغلوا فى اعماق الأرض جميعا.

فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِتْنَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُتَّصِرِينَ

...

فلم يخلصه أصدقاؤه، ولا الذين كانوا يحملون أمتعته و لا أمواله و لا أى أحد من عذاب الله، و مضى قارون و أمواله و من معه فى قعر الأرض! أميا آخر آيه-محل البحث-فتحكى عن التبدل العجيب لأولئك الذين كانوا يتفرجون على استعراض قارون بالأمس و يقولون: يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون، و ما شابه ذلك! و إذا هم اليوم يقولون: واهى له، فإن الرزق بيد الله و أصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون وَيَكَاَنَّ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ .

لقد ثبت عندنا اليوم أن ليس لأحد شىء من عنده! فكل ما هو موجود فمن الله، فلا عطاؤه دليل على رضاه عن العبد، و لا منعه دليل على تفاهه عبده عنده!.

فالله تعالى يمتحن بهذه الأموال و الثروه عباده أفرادا و أقواما، و يكشف سريرتهم و نياتهم.

ثم أخذوا يفكرون فى ما لو أوجب دعاؤهم الذى كانوا يصرون عليه، و أعطاهم الله هذا المال، ثم هووا كما هوى قارون، فما ذا يكون قد نفعهم المال؟ لذلك شكروا الله على هذه النعمه و قالوا: لَوْ لَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَاَنَّه لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ .

فالآن نرى الحقيقه بأعيننا، و عاقبه الغرور و الغفله و نهايه الكفر و الشهوه!.

و نعرف أن أمثال هذه الحياه المثيره للقلوب بمظاهرها الخداعه، ما أوحشها و ما أسوأ عاقبتها!.

و يتضح من الجمله الأخيره فى هذه القصه-ضمنا-أن قارون المغرور مات كافرا غير مؤمن، بالرغم من أنه كان يعد عارفا بالتوراه قارئا لها، و عالما من بنى إسرائيل و من أقارب موسى.

ص: ٣٠١

١- نماذج قارونية بالأمس و اليوم!

قصه قارون- هذا الثرى المغرور- التى ذكرها القرآن فى سبع آيات بينات- بأسلوب جذاب- تكشف الحجب عن حقائق كثيره فى حياه الناس! هذه القصة الثيره توضح هذه الحقيقه، وهى أن غرور الثروه و نشوتها قد ينجر بهما الإنسان- أحيانا- إلى أنواع الجنون.. جنون إظهار الثروه و عرضها..

و لفت أنظار الآخرين.. إلى التلذذ من تحقير الفقراء و المساكين.

كما أن هذا الغرور و هذه النشوه و العشق المطلق للفضه و الذهب، قد تكون سببا لأنّ يجرأ الإنسان أحيانا إلى ارتكاب أقيح الذنوب و أخسها، كالإساءه إلى النبى و مناهظه الحق و الحقيقه.. و اتهام أطهر الأفراد، و استخدام الثروه لإنفاقها على الفواحش فى سبيل الوصول إلى الغرض المطلوب.

أن الغرور و النشوه الناشئين من كثره الثروه، لا يسمحان للإنسان أن يسمع نصيحه الآخرين، و يستجيب لمن يريد له الخير!.

و هؤلاء المغرورون الجهله يتصورون أنّهم أعلم الناس و أكثرهم اطلاعا، و فى اعتقادهم أن ثروتهم التى وقعت فى أيديهم، و ربّما تقع عن طريق الغصب أحيانا، هى دليل على عقلهم و ذكائهم... و أن جميع الناس جهله كما يظنون، و أنّهم- وحدهم- العلماء فحسب!.

و يبلغ بهم الأمر حدّا أن يظهرها قدرتهم أمام الخالق، و كأنّهم مستقلّون، و يدّعون أنّ ما وصلهم هو عن طريق ابتكارهم و ذكائهم، و استعدادهم و خلاقيتهم و معرفتهم التى لا نظير لها! و رأينا عاقبه هؤلاء المغرورين المنحرفين، و كيف ينتهون، و إذا كان قارون و أتباعه و ثروته جميعا قد خسفت بهم الأرض فهووا إلى قعرها، فإنّ الآخرين يفنون بأشكال مختلفه.. و أحيانا تبتلع الأرض حتى ثروتهم العظيمة بشكل

آخر..أو يبذلون ثروتهم الكبيره بالقصور و البساتين و الأراضي الشاسعه ثم لا يستفيدون منها أبدا..و قد يشترون الأراضي الموات و البائره،على أمل تقسيمها صغيره لتباع كل قطعه بسعر باهض!...و هكذا تبتلع الأرض ثروتهم.

أمثال هؤلاء الأفراد من سقى العقول حين لا يجدون طريقا لصرف ثروتهم العظيمة يتوجهون إلى القيم الخياليه...و ينفقون أموالهم على الخزف المتكسّر على أنه من التراث القديم كالأ-كواز و الأقداح الخزفيه،و الطوابع،و الأوراق النقدية المتعلقة بالسنوات القديمه،و يحافظون عليها في مكان حريز من بيوتهم على أنها أغلى التحف،و هي لا تستحق أن توضع إلا في المزابل لو نظرنا إليها بعين البصيره و الاعتبار! أولئك الذين يحيون مثل هذه الحياه الناعمه الخياليه قد يتفق أن يرى في مدينتهم أو في مناطقهم-و أحيانا في جيرانهم-من لا عهد له بالشعب،و يسهرون لياليهم على الطوى جائعين،و من العجيب أنهم يرون هذه الحاله فلا تهتز لها ضمائرهم، و لا يتأثر لأجلها وجدانهم!.

كما يتفق لحيواناتهم أن تعيش حياه الرفاه،و تستفيد من رعايه الأطباء و الأدوية الخاصه!في حين أن أناسا محرومين يعيشون في ظروف صعبه و سيئه إلى جوارهم،و ربّما يرقدون في المستشفى،و يئنّون و لا من مصرخ لهم،و لا من علاج لمرضهم!.

جميع هذه البحوث تنطبق أحيانا على بعض الأفراد في مجتمع ما،و قد تنطبق على دوله معينه قبال دول الدنيا كلها،أى قد نجد دوله قارونيه مستكبره أمام الدول الضعيفه،كما نلاحظ في العصر الحاضر في شأن الدول الاستكباريه كأمرিকা و كثير من الدول الأورويه.

لقد هيا هؤلاء حياه التنعّم و الرفاه-في أرقى صورها-باستثمار أبناء العالم الثالث و الدول الفقيره العزلاء...بحيث أنهم يرمون فضلات طعامهم في المزابل،

و لو قدر أن تجمع بصوره صحيحه،لأمكن عندئذ تغذيه الملايين المحرومه الجائعه من هذه المواد الغذائيه الإضافيه.

و ما نقوله من أن بعض الدول فقيره هي في الحقيقه ليست دولاً فقيره،بل هي دول منيت بسرقة خيراتها و أغير عليها...و ربّما كان لديها أعلى المصادر و المعادن تحت الأرض،لكن هؤلاء المغيرين ينهبون هذه الخيرات و يتركون أهلها على الأرض السوداء الجرداء.

فهؤلاء القارونيون يشيدون قواعد قصورهم الظالمه على أكواخ المستضعفين المهذّمه..و إذا لم يتّحد المستضعفون يدا بيد ليقذفوا بالمستكبرين إلى قعر الأرض كما فعل بقارون،فإنّ حاله الدنيا ستبقى هكذا.

فأولئك يشربون الخمر و يضحكون منتشين،و هؤلاء يجلسون على بساط الفقر و الحرمان باكين.

٢-من أين جاء قارون بهذه الثروه العريضه؟

الطريف أننا نقرأ في الآيتين (٢٣)و(٢٤)من سوره المؤمن ما نستفيد منه بوضوح أنّ رساله موسى عليه السلام كانت من البدايه لمبارزه ثلاثه أشخاص! «فرعون»،و وزيره «هامان»،و «قارون»الثرى المغرور. وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَ سُلْطَانٍ مُّبِينٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَ هَامَانَ وَ قَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ .

و نستفيد من النصّ القرآني المتقدم أن قارون كان من جماعه فرعون،و كان على خطه؛كما أننا نقرأ في التواريخ أنه كان ممثلاً لفرعون في بنى إسرائيل من جهه (١)،و أنه كان أمين الصندوق عند فرعون،و المسؤول على خزائنه من جهه أخرى (٢).

ص: ٣٠٤

١-١) -تفسير الفخر الرازى، ج ٢٥، ص ١٣،و تفسر مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٦٦- ذيل الآيه محل البحث...

٢-٢) -مجمع البيان، ج ٨، ص ٥٢٠ ذيل الآيه ٢٤ من سوره المؤمن.

و من هنا تتضح هويته قارون..فإنّ فرعون من أجل إذلال بني إسرائيل و سلب أموالهم اختار رجلا منافقا منهم، و أودعه أزمته أمورهم، ليستثمر أموالهم لخدمته نظامه الجبار، و ليجعلهم حفاه عراه، و يكتسب من هذه الطريقه ثروه ضخمة منهم!.

و القرائن تشير إلى أنّ مقداراً من هذه الثروه العظيمه و كنوز الأموال بقيت بعد هلاك فرعون عند قارون، و لم يطلع موسى عليه السلام-إلى تلك الفتره-على مكان الأموال لينفقها على اتباعه الفقراء.

و على كل حال، فسواء كانت هذه الثروه قد حصل عليها قارون في عصر فرعون، أو حصل عليها عن طريق الإغاره على خزائنه بعد هلاكه، أو كما يقول البعض قد حصل عليها عن طريق علم الكيمياء أو التجاره...أو معرفته بأصول استثمار أموال المستضعفين.

مهما يكن الأمر فإنّ قارون آمن بموسى بعد انتصار موسى على فرعون، و بدّل وجهه بسرعه، و أصبح من قراء التوراه و علماء بني إسرائيل...في حين أنّ من البعيد أن تدخل ذره من الإيمان في مثل قلب هذا المنافق!.

و أخيراً فحين أراد موسى عليه السلام أن يأخذ من قارون زكاه المال، خدع به الناس، و عرفنا كيف كانت عاقبته.

٣-موقف الإسلام من الثروه!

لا ينبغي أن نستنبط من المسائل التي ذكرناها آنفاً أنّ الإسلام يقف من الثروه موقفاً سلبياً، و أنّه يخالف خط الشراء، و لا ينبغي أن نتصور أنّ الإسلام يريد حياه الفقر و الفقراء، و يعدّ حياه الفقر من الكلمات المعنويه!.

بل على العكس من ذلك، فإنّ الإسلام يعد الثروه عاملاً مهمّاً نحو الآخره! و قد عبّر القرآن عن المال بالخير في الآيه (١٨٠) من سوره البقره إنّ تَرَكَ

خَيْراً أَى مَالاً.

و نقرأ

فى حديث عن الإمام الباقر عليه السلام فى هذا الصدد «نعم العون الدنيا على طلب الآخرة» (١).

بل حتى الآيات-محل البحث-التي تدمم قارون أشدّ الذم، لأنه اغتر بالمال، هى شاهد بليغ على هذا الموضوع. غاية ما فى الأمر أنّ الإسلام يقبل بالثروه التي بواسطتها تبغى الدار الآخرة، كما قال علماء بنى إسرائيل لقارون وَ ابْتِغِ فِيْمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ .

و الإسلام يرضى بالثروه التي نرى فيها «أحسن كما أحسن الله إليك» و لكن للجميع!

و الإسلام يوافق على ثروه يتحقق فيه القول «لا تنس نصيبك من الدنيا» و يمدحها.

و أخيراً فإنّ الإسلام لا يطلب ثروه ينبغى بها الفساد فى الأرض و تنسى بها القيم الإنسانية.. و تكون نتيجتها الابتلاء بمسابقه جنون التكاثر، أو أن ينفصل الإنسان عن ذاته و يحتقر الآخرين، و ربّما تجرّه إلى مواجهه الأنبياء كما فعل قارون فى مواجهته لموسى عليه السلام!.

يريد الإسلام الثروه لتكون وسيله لملء الفراغ الاقتصادى، و أن يستفيد منها الجميع، و لتكون ضماداً لجراح المحرومين، و للوصول بها إلى إشباع الحاجات الاجتماعيه و حلّ مشاكل المستضعفين...

فالعلاقة بين هذه الثروه و هذه الأهداف المقدّسه ليست علاقته دنيويه، أو ارتباطاً بالدنيا، بل هى علاقته أخرويه.

كما نقرأ

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أن أحد أصحابه جاءه شاكياً أمره، و قال: و الله إنّنا لنظلى الدنيا و نحبّ أن نؤتاها. فقال عليه السلام: «تحبّ أن تصنع بها

ص: ٣٠٦

ما ذا؟» قال: أعود بها على نفسى و عيالى، و أصل بها و أتصدق بها و أحج و أعتمر فقال الامام الصادق عليه السّلام: «ليس هذا طلب الدنيا، هذا طلب الآخرة» (١).

و من هنا يتّضح فساد عقيدته طائفتين فى هذا المجال:

طائفة من المسلمين، أو بتعبير أدق: ممن يتظاهرون بالإسلام، و بعيدون عن تعاليمه، فيعرّفون الإسلام على أنّه محام عن المستكبرين. و طائفة من الأعداء المغرضين الذين يريدون أن يمسخوا وجه الإسلام الأصيل، و يجعلوه معاديا للثروه، و أنّه يقف الى جانب الفقراء فحسب.

و أساسا فإنّ أمّه فقيره لا تستطيع أن تعيش وحدها مرفوعه الرأس حرّه كريمه!

فالفقر وسيله للارتباط بالاجنبى و التبعية و الفقر أساس الخزى فى الدنيا و الآخرة! و الفقر يدعو الإنسان إلى الإثم و الخطيئه.

كما نقرأ

فى حديث للإمام الصادق فى هذا الصدد «غنى يحجزك عن الظلم، خير من فقر يحملك على الإثم» (٢).

إنّ على المجتمعات الإسلاميه أن تسعى -مهما استطاعت- نحو التقدم لتكون غنيه غير محتاجه، و لتبلغ مرحله الاكتفاء الذاتى، و أن تقف على أقدامها و أن لا تضحى باستقلالها و عزّتها و شرفها من أجل الفقر المذلّ الموجب للتبعية و تعلم أن منهج الإسلام الأصيل هو هذا لا غير.

ص: ٣٠٧

١-١) -«وسائل الشيعه، ج ١٢، ص ١٩ الحديث الثالث الباب السابع من أبواب مقدمات التجاره.

٢-٢) -«وسائل الشيعه، ج ١٢، ص ١٧، الحديث السابع الباب السادس من أبواب مقدمات التجاره.

اشاره

تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين (٨٣) من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزي الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون (٨٤)

التفسير

اشاره

نتيجة حبّ التسلط و الفساد في الأرض:

بعد البيان المثير لما حدث لثرى مستكبر و متسلط، و هو قارون، تبدأ الآية الأولى من هذا المقطع ببيان استنتاج كلى لهذا الواقع و هذا الحدث، إذ تقول الآية تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً.

أجل، فهم غير مستكبرين و لا مفسدين في الأرض و ليس هذا فحسب، بل قلوبهم مطهّره من هذه المسائل، و أرواحهم منزّهه من هذه الأوساخ! فلا يريدون ذلك و لا يرغبون فيه.

و في الحقيقة إنّ ما يكون سببا لحرمان الإنسان من مواهب الدار الآخرة، هو هذان الأمران: «الرغبة في العلو» أي الاستكبار و «الفساد في الأرض» و هما

الذنوب.. لأن كل ما نهى الله عنه فهو على خلاف نظام خلق الإنسان و تكامل وجوده حتما، فارتكاب ما نهى الله عنه يدمر نظام حياة الإنسان، لذا فهو أساس الفساد فى الأرض! حتى مسأله الاستعلاء-بنفسها-هى أيضا واحده من مصاديق الفساد فى الأرض، إلا أن أهميته القصوى دعت إلى أن يذكر بالخصوص من بين جميع المصاديق للفساد فى الأرض!.

و قد رأينا فى قصه «قارون» و شرح حاله أن السبب الأساس فى شقوته و هلاكه هو العلوّ و «الاستكبار».

و نجد فى الروايات الإسلاميه اهتماما بهذه المسأله حتى أننا نقرأ

حديثا عن الإمام أمير المؤمنين على عليه السلام يقول: «إن الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحتها» (١).

(و هذا أيضا فرع صغير من الاستعلاء).

و من الطريف أن صاحب «تفسير الكشاف» يعلق بعد ذكر هذا الحديث فيقول: بعض الطامعين ينسبون «العلو» فى الآيه محل البحث لفرعون بمقتضى قوله: إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ، (٢) و الفساد لقارون بمقتضى قوله: تَبِعَ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ ، (٣) و يدعون بأن من لم يكن كمثل فرعون و قارون فهو من أهل الجنه و الدار الآخره، و على هذا فهم يبعدون فرعون و قارون و أمثالهما من الجنه فحسب، و يرون الباقيين من أهل الجنه، إلا أنهم لم يلاحظوا ذيل الآيه وَ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ بدقه- كما لاحظها الإمام على عليه السلام (٤).

و ما ينبغى إضافته على هذا الكلام هو أن هؤلاء الجماعه أخطئوا حتى فى معرفه قارون و فرعون.. لأن فرعون كان عاليا فى الأرض و كان من المفسدين

ص: ٣٠٩

١-١) -تفسير جوامع الجامع، ذيل الآيه محل البحث.

٢-٢) -سوره القصص، الآيه ٤.

٣-٣) -سوره القصص، الآيه ٧٧.

٤-٤) -تفسير الفخر الرازى، ذيل الآيه محل البحث.

إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ، (١) و قارون أيضا كان مفسدا و كان عاليا بمقتضى قوله: فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ . (٢)

و نقرأ فى حديث آخر عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه كان يسير فى الأسواق أيام خلافته الظاهرية، فيرشد التائبين إلى الطريق و يساعد الضعفاء، و كان يمرّ على الباعة و الكسبه و يتلوا الآية الكريمة تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا. ثم يضيف سلام الله عليه:

«نزلت هذه الآية فى أهل العدل و التواضع من الولاء و أهل القدره من الناس» (٣).

و معنى هذا الكلام، أنه كما لم يجعل الخلافه و الحكومه وسيله للاستعلاء، فلا ينبغى أن تجعلوا أموالكم و قدرتكم وسيله للتسلط على الآخرين، فإنّ العاقبه لأولئك الذين لا يريدون علوا فى الأرض و لا فسادا و كما يقول القرآن فى نهايه الآية وَ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ .

و«العاقبه» بمفهومها الواسع هى النتيجة الصالحه، و هى الانتصار فى هذه الدنيا، و الجنه و نعيمها فى الدار الأخرى... و قد رأينا أنّ قارون و أتباعه إلى أين وصلوا و أيه عاقبه تحمّلوا! مع أنّهم كانوا مقتدرين و لكن حيث كانوا غير متقين فقد ابتلوا بأسوأ العاقبه و المصير!

و نختم كلامنا فى شأن هذه الآية بحديث للإمام الصادق عليه السلام و هو

أنّ الإمام الصادق حين تلا هذه الآية أجهش بالبكاء و قال: «ذهبت و الله الأمانى عند هذه الآية» (٤).

و بعد ذكر هذه الحقيقه الواقعيه، و هى أن الدار الآخره ليست لمن يحب

ص: ٣١٠

١- ١) -سوره القصص، الآية ٤.

٢- ٢) -سوره القصص، الآية ٧٩.

٣- ٣) -نقل هذه الروايه زاذان عن أمير المؤمنين «مجمع البيان» (ذيل الآية محل البحث).

٤- ٤) -تفسير على بن إبراهيم ذيل الآية محل البحث.

السلطه و المستكبرين، بل هي للمتقين المتواضعين و طلبه الحق، تأتي الآيه الثانيه لتبين قانونا كلياً و هو مزيج بين العداله و التفضل، و لتذكر ثواب الإحسان فتقول: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا .

و هذه هي مرحله التفضل، أى أنّ الله سبحانه لا يحاسب الناس كما يحاسب الإنسان نظيره بعين ضيقه، فإذا أراد الإنسان أن يعطى أجر صاحبه فإنه يسعى أن يعطيه بمقدار عمله، إلا أنّ الله قد يضاعف الحسنه بعشر أمثالها و قد يضاعفها بمئات الأمثال و ربّما بالآلاف، إلا أن أقلّ ما يتفضل الله به على العبد أن يجازيه عشره أضعاف حسناته، حيث يقول القرآن فى الآيه (١٦٠) من سوره الأنعام:

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا .

أما الحدّ الأكثر من ثواب الله و جزائه فلا يعلمه إلا الله، و قد جاءت الإشاره إلى جانب منه - وهو الإنفاق فى سبيل الله - فى الآيه ٢٦١ من سوره البقره... إذ يقول سبحانه فى هذا الصدد... مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٍ وَ اللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ .

و بالطبع فإنّ مضاعفه الأجر و الثواب ليس أمراً اعتباطياً، بل له ارتباط وثيق ببقاء العمل و ميزان الإخلاص و حسن التيه و صفاء القلب، فهذه هي مرحله التفضل الإلهي فى شأن المحسنين.

ثم يعقب القرآن ليدكر جزاء المسيئين فيقول: وَ مَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

و هذه هي مرحله العدل الإلهي، لأنّ المسيء لا يجازى إلا بقدر إساءته، و لا تضاف على إساءته أية عقوبه!

الطريف هنا عند ذكر جزاء السيئه أن القرآن يعبر عن الجزاء بالعمل نفسه إلا - كما كانوا يعملون أى إن أعمالهم التي هي طبقاً لقانون بقاء الموجودات فى

عالم الوجود، تبقى و لا- تتغير، و تبرز في يوم القيامة متجسمة دون خفاء، فهو (يوم البروز) في شكل يناسب العمل، و هذا الجزء يرافق المسيئين و يعذبهم!

ملاحظات

١- لم تكرر ذكر «السيئه» في هذه الآيه مرتين؟ من المحتمل أن يكون ذكر السيئه مرتين في الآيه، لأن الله يريد أن يؤكد على هذه المسأله، و هي أن السيئه لا جزاء لها إلا نفسها.

٢- هل تشمل الحسنه الإيمان و التوحيد؟ فإذا كان كذلك فما معنى هذه الجملة مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا؟! و هل هناك خير من الإيمان و التوحيد؟! و في الإجابة على هذا السؤال نقول- بدون شك و تردد- إن للحسنه معنى واسعاً فهي تشمل المناهج الاعتقاديه و الأقوال و الأعمال الخارجيه، و ما هو أفضل من الاعتقاد بتوحيد الله فهو رضا الله سبحانه الذي يكون ثواباً للمحسنين، فنحن نقرأ في الآيه (٧٢) من سوره التوبه قوله تعالى: وَ رِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ! ٣- لم عبر القرآن عن الحسنه بصيغه الأفراد، و عن السيئات بصيغه الجمع؟! يعتقد بعض المفسرين أن هذا التعبير عائد إلى كثره المسيئين و قله المحسنين (١).

كما و يحتمل أيضاً أن الحسنات تتلخص في حقيقه التوحيد، و أن جميع الحسنات تعود إلى «جذر» واحد و هو توحيد الله، في حين أن السيئات ترجع إلى الشرك الذي هو مصداق التثت و التعدد و الكثره.

ص: ٣١٢

١- ١) -روح المعاني، الألو سي ذيل الآيه.

اشاره

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨٥) وَ مَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ (٨٦) وَ لَا يَصُدُّنَكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بِعَدٍّ إِذْ أَنْزَلَتْ إِلَيْكَ وَ أَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَ لَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَ لَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨)

سبب النزول

نقل جماعه من المفسرين-سببا لنزول الآيه الأولى من الآيات أعلاه عن ابن عباس مضمونه ما يلي:

حين كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله متوجها من مكه إلى المدينه في سفر الهجره و بلغ «الجحفة» و هي لا- تبعد عن مكه كثيرا...تذكر و طنه «مكه» هذه البقعه التي هي حرم الله و آمنه و فيها البيت العتيق «الكعبه» التي تعلق بها قلب النبي و روحه تعلقا لا يقبل الانفكاك..ظهرت آثار الشوق على وجه النبي الكريم مزيجه بالحزن

والتأثر، فنزل أمين الوحي جبريل على رسول الله وقال: أ تشتاق الى بلدك و هو مولدك؟! فقال النبي صلى الله عليه و آله و سلم: نعم... فقال جبرئيل عليه السلام: فإن الله يقول: إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيَّ مَعَادٍ (١) يعنى مكّه...

و نعلم أنّ هذا الوعد العظيم تحقق أخيراً، و دخل النبي صلى الله عليه و آله بجيشه القوى و قدرته و عظمته الكبيره مكّه ظافراً، و استسلمت مكّه و الحرم الآمن دون حرب للنبي صلى الله عليه و آله.

فعلى هذا تعدّ الآيه آنفه الذكر من الإخبار الإعجازى السابق لوقوعه، إذ أخبر القرآن عن رجوع النبي صلى الله عليه و آله إلى مكّه بصوره قطعيه و دون أى قيد و شرط، و لم تطل المدّه حتى تحقق هذا الوعد الإلهى الكبير!

التفسير

إشارة

الوعد بعوده النبي إلى حرم الله الآمن:

هذه الآيات التى هى آخر الآيات فى سوره القصص تخاطب نبي الإسلام صلى الله عليه و آله و تبشره بالنصر، بعد أن جاءت الآيات الأولى لتبين قصه موسى و فرعون و ما جرى له مع قومه، كما أنّ هذه الآيات فيها ارشادات و تعليمات مؤكده لرسول الإسلام صلى الله عليه و آله.

قلنا: إنّ الآيه الأولى من هذه الآيات طبقاً لما هو مشهور بين المفسرين نزلت فى «الجحفة» فى مسير النبي صلى الله عليه و آله، إلى المدينة إذ كان متوجهاً إلى يثرب لتتحول بوجوده إلى «مدينة الرسول»... و أن يبذر النواه الأصيله... «لحكومه إسلاميه» فيها و يجعلها مقرّاً لحكومه إلهيه واسع، و يحقق فيها أهدافها.

لكن هذا الحنين و الشوق و التعلق بمكّه يؤلمه كثيراً، و ليس من اليسير عليه الابتعاد عن حرم الله الآمن.

ص: ٣١٤

١-١) -راجع تفسير الميزان، تفسير القرطبي، و مجمع البيان «التفسير الكبير» للفتوح الرازى، و تفاسير غيرها.

و هنا يشرق فى قلبه الطاهر نور الوحى، و يبشّره بالعوده إلى وطنه الذى ألفه فيقول: إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَيَّ مَعَادٍ .

فلا تكثرث و لا تذهب نفسك حشرات، فالله الذى أعاد موسى إلى أمّه هو الذى أرجعه أيضا إلى وطنه بعد غياب عشر سنوات فى مدين، ليشعل مصباح التوحيد و يقيم حكومه المستضعفين و يقضى على الفراعنه و دولتهم و قوتهم.

هو الله سبحانه الذى يردك إلى مكّه بكلّ قوّه و قدره، و يجعل مصباح التوحيد على يدك مشرقا فى هذه الأرض المباركه.

و هو الله الذى أنزل عليك القرآن، و فرض عليك إبلاغه، و أوجب عليك أحكامه.

أجل، إنّ ربّ القرآن و ربّ السماء و الأرض العظيم، يسير عليه أن يردّك إلى معادك و وطنك «مكّه».

ثمّ يضيف القرآن فى خطابه للنبيّ صلّى الله عليه و آله، أن يجيب على المخالفين الضالين بما علّمه الله قلّ ربّي أعلم منّ جاء بالهدى و منّ هو فى ضلالٍ مبين .

إنّ طريق الهدايه واضح، و ضلالهم بين، و هم يتعبون أنفسهم عبثا، فالله يعرف ذلك جيدا، و القلوب التى تعشق الحق تعرف هذه الحقيقه أيضا.

و بالطبع فإنّ التفسير الواضح للآيه كما بيّناه آنفا، إلّا- أن جمعا من المفسّرين لديهم احتمالات أخرى فى كلمه «معاد».. من قبيل «العوده للحياه بعد الموت» «المحشر» او «الموت». كما فسّروه «بالجنّه» أو مقام «الشفاعه الكبرى»... أو «بيت المقدس» الذى عرج النبيّ منه أول مره، و غير هذه المعانى.

إلّا أنّه مع الالتفات إلى محتوى مجموع هذه السوره- القصص - و ما جاء فى قصّه موسى و فرعون و بنى إسرائيل، و ما سقناه من شأن نزول الآيه، فيبعد تفسير المعاد بغير العوده إلى مكّه كما يبدو!

أضف إلى ذلك أن المعاد فى يوم القيامه لا يختصّ بالنبيّ وحده، و الحال أن

الآية تتحدث عن النبي -هنا- وتخطبه وحده. ووجود هذه الآية بعد الآية التي تتحدث عن الثواب و الجزاء في يوم القيامة، لا دلالة فيها على هذا المعنى، بل على العكس من ذلك، لأن الآية السابقة تتحدث عن الانتصار في الدار الآخرة، و من المناسب أن يكون الحديث في هذه الآية عن الانتصار في هذه الدنيا.

أمّا الآية التالية فتتحدث عن نعمه أخرى من نعم الله العظيمه على النبي صلى الله عليه و آله فتقول: وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ (١).

كان كثير من الناس قد سمعوا بالبشاره بظهور الدين الجديد، و لعل طائفه من أهل الكتاب و غيرهم كانوا ينتظرون أن ينزل عليهم الوحي و يحملهم الله هذه المسؤولية، و لكنك -أيها النبي- لم تكن تظن أنه سينزل عليك الوحي و مَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ .. إلا أن الله رآك أجدر بالأمر، و أن هذا الدين الجديد ينبغي أن ينتشر و يتسع على يدك في هذا العالم الكبير!.

و بعض المفسرين يرون هذه الآية منسجمه مع آيات سابقه كانت تتحدث عن موسى عليه السلام، و تخاطب النبي -أيضا- كقوله تعالى: وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْعُرْبِ إِذْ قَضَيْنَا إِلَيْكَ الْوَعْدَ إِلَىٰ مُوسَىٰ الْأَمْرَ .. وَمَا كُنْتَ تَأْوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ... وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَ لَكِن رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ .

فعلى هذا يكون المقصود بالكتاب هنا هو قصص الأنبياء السابقين.. إلا أن هذا التفسير لا منافاه فيه مع التفسير المتقدم! بل يعدّ قسما منه في الواقع!.

ثم يضيف القرآن في خطابه للنبي صلى الله عليه و آله أن طالما كنت في هذه النعمه فلا تكوننّ ظهيرا للكافرين .

و من المسلم به أن النبي صلى الله عليه و آله و سلم لم يكن ظهيرا للكافرين أبدا، إلا أن الآية جاءت في مقام التأكيد على النبي صلى الله عليه و آله و سلم و بيان المسؤولية للآخرين، و أن

ص: ٣١٦

١ - ١) قال بعضهم: إن «إلا» هنا تفيد الاستثناء، فاضطروا إلى أن يقولوا بحذف كلمه و التقدير لها من عندهم و هو تحكّم... إلا أن البعض الآخر فسّر «إلا» بمعنى «لكن» و أنّها تفيد الإستدراك، و هذا الوجه أقرب للنظر!...

وظيفتهم أن يتأسوا بالنبي و لا يكون أى منهم ظهيرا للكافرين.

و هذا الموضوع ينسجم تماما مع الموضوع الذى قرأناه فى شأن موسى عليه السلام، إذ قال: رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً
لِلْمُجْرِمِينَ .. و بينا معناه فى شأن إعانه الظالمين فى الآية (١٧) من سوره القصص، أما الآيتان اللتان تختتم بهما سوره القصص، فهما
تأكيد على مسأله التوحيد بتعابير و استدلالات متعدده - و مختلفه.

التوحيد الذى هو أساس جميع المسائل الدينيه...التوحيد الذى هو الأصل و هو الفرع و هو الكلّ و هو الجزء!.

و فى هاتين الآيتين أربعه أوامر من الله لنبيه صلى الله عليه و آله، و أربعه صفات لله تعالى، و بها يكتمل ما ورد فى هذه السوره
من أبحاث.

يقول أولا: وَلَا يَصِيْدُكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعِيدَ إِذْ أَنْزَلْتُ إِلَيْكَ و بالرغم من أن النهى موجه إلى الكفار، إلا أن مفهوم الآية عدم
تسليم النبي صلى الله عليه و آله أمام صد الكافرين، و إحباطهم و مؤامراتهم، و هذا تماما يشبه ما لو قلنا مثلا: لا ينبغي أن يوسوس
لك فلان، فمعناه: لا تستسلم لوسوسته!

و بهذا الأسلوب يأمر الله النبي صلى الله عليه و آله أن يقف راسخ القدم عند نزول الآيات و لا يتردد فى الأمر، و أن يزيل الموانع
من قارعه الطريق مهما بلغت، و ليسر نحو هدفه مطمئنا، فإن الله حاميه و معه أبدا.

و يقول ابن عباس: و إن كان المخاطب هو النبي صلى الله عليه و آله، إلا أن المراد عموم الناس، و هو من قبيل المثل العربى
المعروف «إياك أعنى و اسمعى يا جاره!».

و بعد هذا الخطاب الذى فيه جنبه نهى، يأتى الخطاب الثانى و فيه سمه إثبات فيقول: وَ ادْعُ إِلَى رَبِّكَ .. فالله الذى خلقك و هو
الذى ربّاك و رعاك ...

و الأمر الثالث، بعد الأمر بتوحيد الله، هو نفي جميع أنواع الشرك و عباده الأصنام و لا تُكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ... فإن طريق التوحيد
واضح بينه، و من

ساروا عليها فهم على صراط مستقيم!

و الأمر الزابع تأكيد آخر على نفى جميع أنواع الشرك، إذ يقول تعالى:

وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ

و هذه الأوامر المتتابعه كل واحد منها يؤكد الآخر، يوضح أهميه التوحيد فى المنهج الإسلامى، إذ بدونه يكون كل عمل زيفا و وهما.

و بعد هذه الأوامر الأربعة تأتى أوصاف أربه لله سبحانه، و هى جميعا تأكيد على التوحيد أيضا.

فالأول قوله: لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .

و الثانى قوله: كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ .

و الوصف الثالث: لَهُ الْحُكْمُ و الحاكميه فى عالمى التشريع و التكوين.

و الرابع: أَنْ مَعَادِنَا إِلَيْهِ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

و الأوصاف الثلاثة الأخيره يمكن أن تكون دليلا- على إثبات التوحيد و ترك جميع أنواع عباده الأصنام، الذى أشير إليه فى الوصف الأول! لأنه طالما كنا هالكين جميعا و هو الباقى.

و طالما كان التدبير لنظام الوجود بيده و الحكم له! و طالما كان معادنا إليه و إليه نرجع!...فما عسى أن يكون دور المعبودات غيره، و أى أحد يستحق العباده سواه؟! و المفسرون الكبار لديهم آراء مختلفه فى تفسير جمله كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ تدور حول محور كلمتى «وجه» و «هالك».

لأنّ الوجه يطلق- من حيث اللغة- على المحيّا أو ما يواجهه الإنسان من الشخص المقابل، و لكن الوجه حين يطلق على الخالق فإنّه يعنى عندئذ ذاته المقدسه!

و كلمه «هالك» مشتقه من ماده «هلك» و معناه الموت و العدم، فعلى هذا

يكون معنى الجملة المتقدمه فناء جميع الموجودات عدا ذات الخالق المقدسه...

و هذا الفناء بالنسبه للموجودات الممكنه غير منحصر بفناء هذا العالم و انتهائه، فالموجودات الآن فانيه قبال الذات المقدسه، و هى تحتاج إلى فيضه لحظه بعد لحظه، و ليس لديها فى ذاتها أى شىء، و كل ما لديها فمن الله! ثم بعد هذا كله فإن موجودات هذا العالم جميعها متغير و فى معرض التبدل، و حتى طبقا لفلسفه «الحركه الجوهرية» فذاتها هى التغير بعينه، و نحن نعرف أن الحركه و التغير معناهما الفناء و العوده الدائمه، فكل لحظه تموت موجودات العالم و تحيا!.

فعلى هذا فإن الموجودات هالكه و فانيه الآن- أيضا- غير أن الذات التى لا طريق الفناء إليها و لا تهلك، هى الذات المقدسه! كما نعلم أن الفناء أو العدم يتجلى بصوره واضحه فى نهايه هذا العالم، و كما يقول القرآن: كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ . (١)

و لا يخص الفناء ما على الأرض، بل يشمل حتى أهل السماء وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ . (٢)

فهذا التفسير منسجم مع ظاهر الآيه و الآيات الأخرى فى القرآن، غير أن بعض المفسرين ذكروا تفاسير أخرى غير ما تقدم بيانه، و منها:

١- أن المقصود من كلمه (وجه) هو العمل الصالح، و مفهوم هذه الآيه يكون حينئذ أن جميع الأعمال تمضى مع الرياح سوى ما يكون خالصا لله.

و قال بعضهم: إن المراد بالوجه هو انتساب الأشياء إلى الله، فيكون مفهوم الآيه أن كل شىء معدوم ذاتا إلا من ناحيه انتمائه إلى الله! و قال بعضهم: المراد بالوجه هو الدين، فيكون مفهوم الآيه أن المذاهب كلها

ص: ٣١٩

١- ١) - سورة الرحمن، الآيتان ٢٦ و ٢٧.

٢- ٢) - سورة الزمر، الآيه ٦٨.

باطله سوى دين الله.

و جمله لَه الْحُكْمُ هِي كما فسروها بآنها الحاكميه التشريعيه. و هو تأكيد على التفسير السابق!.

كما أن جمله وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ فسروها بالرجوع إلى الله في أخذ الشريعة عنه! و هذا تأكيد آخر على هذا المعنى (١).

و هذه التفاسير مع ما بيناه آنفا لا نجد بينها منافاه في الحقيقه!... لأننا حين عرفنا أن الشيء الوحيد الذي يبقى في هذا العالم هو الذات المقدسه لله فحسب! فيتضح أن ما يرتبط بذات الله بنحو من الأنحاء فإنه يستحق البقاء و الابدیه.

فدين الله الصادر منه أبدى، و العمل الصالح الذي له أبدى... و القاده الإلهيون الذين يرتبطون يتسمون بالخلود.

و الخلاصه، كل ما هو مرتبط بالله- و لو بنحو من الأنحاء- فهو غير فان «فلاحظوا بدقه».

مسألان

اشاره

١- كيف تفنى جميع الأشياء!؟

من جمله الأسئلة التي أثيرت في ذيل الآيه، هو أنه إذا كان لا بدّ من فناء جميع الأشياء في نهايه العالم، فلا محيص من أن تتلاشى الأتربه التي تكونت من أبدان الناس، في حين أن القرآن يصرح مرارا بأن الله سيجمع هذه الأتربه و ينشر الناس منها، و أن الناس سينشرون في يوم القيامة من قبورهم!

و طبقا لظاهر الآيات- أيضا- فإن الجنّه معدّه، و النار معدّه و مهياه من قبل،

ص: ٣٢٠

١- ١) -وردت روايات متعدده في تفسير «نور الثقلين» في ذيل الآيات فسّرت بعضها الوجه بدين الله، و بعضها برسل الله و ما هو منسوب لله.

كما جاء التعبير عن الجَنَّةِ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ أو ما شابه ذلك، و هي إشارة لخلق الجَنَّةِ و أنها مهياة للمتقين.. و قد ورد هذا التعبير في موضعين من آيات القرآن «الآية ١٢٣ من سورة آل عمران و الآية ٢١ من سورة الحديد».

كما ورد التعبير عن النَّارِ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ في موضعين من القرآن أيضا «البقرة الآية ٢٤ و آل عمران الآية ١٣١».

فهل ستفنى الجَنَّةُ و النار في انتهاء العالم؟! ثم بعد هذا كله فنحن نعتقد بالحياة البرزخية للإنسان، و نستفيد ذلك من آيات القرآن في شأن الأرواح، فهل ستفنى تلك أيضا؟! و الجواب على جميع الأسئلة يتضح بما يلي:

إن كثيرا ما يتفق أن يكون المراد من الهلاك و العدم هو تداخل النظام و دماره، لا تلاشيهِ و فناءه فلو أن عماره مثلا تهدمت بسبب الزلزاله فهنا يصدق عليها الفناء و الهلاك، في حين أن مواد العماره لا تزال موجوده، غير أن نظامها قد أختل و انعدم فحسب!.

و نعرف أن في نهايه هذا العالم ستنطفئ الشمس، و يظلم القمر، و تندك الجبال، و تموت الموجودات الحيّة، فهذا معنى هلاكها! هذا من جهه!.

و من جهه أخرى فإنّ الفناء متعلق بهذه الدنيا، و ما في هذه الدنيا... أما الجَنَّةُ و النَّارُ فسواء كانتا داخل هذا العالم أو خارجه، فليستا جزءا من هذه الدنيا ليشملهما حكم الفناء و العدم لنظامهما، فهما متعلقتان بالآخره لا بالدنيا! و من جهه ثالثه، فإننا ذكرنا آنفا أنّ الهلاك -أو الفناء- بالنسبه للموجودات الممكنه غير منحصر بانتهاء هذا العالم.. فهي هالكه و فانيه الآن أيضا، لأنّها لا تملك شيئا في داخل ذاتها، و كل ما عندها فمن غيرها، فهي متغيره و دائمه الحركه، و معنى ذلك الفناء التدريجي و المركب من الوجود و العدم! و مع بيان ما تقدم يتضح الجواب على الأسئلة السابقه تماما!

٢- التفسير المنحرف لجمله وَ لَا نَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ!

يستدل جماعه من الوهابيين أحيانا على أن مسأله «التوسل و الشفاعه» لا تنسجم مع حقيقه التوحيد، بالآيه الآنفه و آيات أخرى مشابهه لها.

إذ يقول أولئك: إِنَّ الْقُرْآنَ نَهَى عَنْ عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ بِصَرِيحِ الْعِبَارَةِ، كَمَا نَهَى أَنْ نَدْعُوَ أَسْمَاءَ سِوَى اللَّهِ، إِذْ قَالَ: **فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا**. (١)

و الحال أن المقصود من هذه الآيات ليس هو أن لا ندعو أشخاصا آخرين، بل المقصود كما هو مستفاد من الآيه مَعَ اللَّهِ أى أن من يعتقد أن ما كان لله يمكن طلبه من غير الله و يراه مستقلا فى إنجازه، فإنه مشرك.

و لكننا إذا اعتقدنا بأن جميع القدرات هى خاصه بالله، و لا نعتقد بأن أحدا معه يكون مبدأ الأثر... و نعتقد بأن لله أولياء يشفعون بإذنه و أمره، فتتوسل بهم إلى الله ليشفعوا لنا عند الله، فهذا هو التوحيد بعينه، و هذا هو ما أشارت إليه آيات القرآن مرارا.

ترى هل كان قول إخوه يوسف لأبيهم: **يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا شُرَكَاءَ؟** (سوره يوسف الآيه ٩٧).

و هل -حين يقول القرآن: **وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا**، (٢) يكون قول القرآن هذا دعوه نحو الشرك!! إِنَّ حَقِيقَةَ الشَّفَاعَةِ وَ التَّوَسُّلِ -أيضا- ليس شيئا سوى ما أشرنا إليه آنفا (٣)! رَبَّنَا أَلْهِم قُلُوبَنَا نُورَ التَّوْحِيدِ وَ الْمَعْرِفَةِ، لِنَلَا نُرَى سِوَاكَ، وَ لَا نَطْلُبُ سِوَاكَ، وَ لَا نَرْجُو سِوَاكَ!

ص: ٣٢٢

١-١ - سوره الجن، الآيه ١٨.

٢-٢ - سوره النساء، الآيه ٦٤.

٣-٣ - لمزيد التوضيح يراجع تفسير الآيه ٣٥ المائده، و تفسير ذيل الآيه (٤٨) من سوره البقره!

اللهم وثق ارتباطنا بذاتك المقدسه يوما بعد يوم ارواحنا تحظى بقبس من بقاء و خلود ذاتك الخالده! اللهم أبعد حبّ الدنيا و الاستعلاء و الفساد فى الأرض عن ارواحنا، و اجعلنا فى صفوف المتقين، وَ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ .

آمين ربّ العالمين انتهاء سوره القصص

ص: ٣٢٣

سوره العنكبوت

اشاره

مكيه و عدد آياتها تسع و ستون آيه

ص: ۳۲۵

محتوى سوره العنكبوت!

المشهور بين جمع من المحققين أنّ جميع آيات هذه السوره نازله بمكّه، فيكون محتواها منسجما مع محتوى السور المكيه.

إذ ورد فيها الكلام على المبدأ و المعاد، و قيام الأنبياء السابقين العظام، و وقوفهم بوجه المشركين و عبده الأصنام و الجبابره و الظالمين، و انتصارهم و انهزام هذه الجماعه الظالمه! و كذلك تتحدث هذه السوره عن الدعوه الى الحق و الامتحان الالهى للبشر، و ذرائع الكفار فى مجالات مختلفه.

غير أنّ جماعه من المفسّرين يرون بأن إحدى عشره آيه منها نازله بالمدينه، و هى الآيات الأولى من السوره، و لعلّ ذلك - كما سنرى - ناتج عن سبب نزول بعض الآيات التى تتحدث عن الجهاد، و الإشاره إلى موضوع المنافقين، و هذا ما يناسب السور المدينه!

و لكن سنرى بعدئذ أنّ هذه الأمور لا تنافى كون السوره مكيه.

و على كل حال، فتسميه السوره هذه ب«العنكبوت» مأخوذه من الآيه (٤١) من هذه السوره، التى تشبّه عبده الأوثان من دون الله بالعنكبوت، التى تبني بيتها من نسيجها، و هو أوهن البيوت!!

و بصوره إجماليه، يمكن أن يقال: إن أبحاث هذه السوره تتلخص فى أربعة أقسام:

١- فالقسم الأول من السوره يتحدث عن مسأله «الامتحان»، و موضوع

«المنافقين»، و هذان الأمران متلازمان لا يقبلان الانفكاك!! لأنَّ معرفه المنافقين غير ممكنه إلا في طوفان الامتحانات.

٢- والقسم الثانی من هذه السوره-في الحقيقه-هو لتسليه قلب النَّبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ الْمُؤْمِنِينَ الْقَلَّةِ الْأَوَائِلِ، عن طريق بيان جوانب من حياه الأنبياء العظام السابقين، أمثال نوح و إبراهيم و لوط و شعيب عليهم السَّلام و عواقبهم! إذ واجهوا أعداء الدَّاء أمثال نمرود و طواغيت المال البخلاء.

و قد بيّن هذا القسم من السوره كيفيه مواجهه، و عدّتها، و عاقبتها للمؤمنين لتطمئن قلوبهم، و لتكون هذه الآيات إنذاراً للمشركين و عبده الأوثان، الذين لهم قلوب كالحجاره أو أشدَّ قسوه، و الظالمين الذين عاصروا النَّبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.

٣- والقسم الثالث من هذه السوره، و هو ما ورد في نهايه السوره بوجه خاص، يتحدث عن التوحيد و دلائل الله في عالم خلقه، و مواجهه مع المشركين، و يدعوا الفطره و الوجدان إلى الاحتكام و القضاء الحق!.

٤- أمّا القسم الرابع من هذه السوره، ففيه مباحث متنوعه عن عجز الأصنام المصنوعه التي تعبد من دون الله، و عبادها الذين مثلهم كمثل العنكبوت، و بيان عظمه القرآن، و دلائل حقانيه نبي الإسلام، و لجاجه المخالفين، كما تتعرض لسلسله من المسائل التربويه أمثال: الصلاه، و العمل الصالح، و الإحسان إلى الوالدين، و أسلوب مناقشه المخالفين، و ما إلى ذلك.

فضيله هذه السوره!

ورد في تفسير مجمع البيان عن الرسول الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَآلِهِ فِي فَضِيلَةِ هَذِهِ السُّورَةِ مَا يَلِي: «من قرأ سورة العنكبوت كان له عشر حسنات بعدد كل المؤمنين و المنافقين».

و لتلاوه سورتي العنكبوت و الروم في شهر رمضان في الليله الثالثه

و العشرين منه فضيله قصوى، حتى أننا نقرأ فى هذا الصدد

حديثاً للإمام الصادق عليه السلام يقول: «من قرأ سورة العنكبوت و الروم فى شهر رمضان ليله ثلاث و عشرين فهو و الله من أهل الجنة، لا استثنى فيه أبدا... ولا أخاف أن يكتب الله على فى يمينى إثماً، و إن لهاتين السورتين من الله مكاناً». (١)

و لا شك أن محتوى هاتين السورتين الغزير، و الدروس العمليه المهمه منها فى التوحيد، و ما إلى ذلك، كله كاف لأن يسوق أى إنسان ذى لب و فكر و عمل إلى الجنة و الخلود فيها.

بل لو استلهمنا من بدايه سورة العنكبوت و آياتها الأولى العظه فلعلنا نكون مشمولين فى قسم الإمام الصادق عليه السلام... تلك الآيه التى تعرض الامتحان لعامة الناس دون استثناء ليفتضح المبطلون و الكاذبون... فكيف يمكن أن يصدق الإنسان بهذا الامتحان العظيم و هو لم يهيه نفسه له؟! و لم يكن من أهل التقوى و الورع!

ص: ٣٢٩

١ - ١) - «ثواب الأعمال» طبقاً لتفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ١٤٧، من الجدير بالذكر أننا نكتب هذا القسم من هذا التفسير فى بدايه ليله ٢٣ من شهر رمضان لسنة ١٤٠٣ هجرية...

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْم (١) أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣)

سبب النزول

طبقا لما نقل بعض المفسرين، أنّ الآيات الإحدى عشره الأولى من بدايه سوره العنكبوت نزلت في المدينه في شأن المسلمين الذين كانوا في مكّه و غير راغبين بالهجره إلى المدينه..و كانوا قد تلقوا رسائل من إخوه لهم في المدينه جاء فيها:«إن الله لا يقبل إقراركم بالإيمان حتى تهاجروا إلى المدينه»فصمموا على الهجره و خرجوا من مكّه،فتبعهم جماعه من المشركين و التحموا بالقتال فقتل منهم جماعه و جرح آخرون«و ربّما سلّم بعضهم نفسه و رجعوا إلى مكّه».

و قال بعض: إنّ الآيه الثانيه من هذه السوره في شأن«عمار بن ياسر» و جماعه من المسلمين الأوائل،الذين آمنوا برسالة النبي صلى الله عليه و آله و لاقوا صنوف التعذيب من الأعداء.

كما قال بعضهم: إنّ الآيه الثامنه نزلت في إسلام«سعد بن أبي وقاص»! غير أنّ التدقيق في الآيات يكشف عن أنّه لا دليل على ارتباط الآيات مع

هجره أولئك،سوى أنّ الآيات تبين الضغوط على المؤمنين فى ذلك الوقت من قبل أعدائهم و أحيانا من الآباء المشركين و الأممات المشركات ضدّ أبنائهم المؤمنين.

فهذه الآيات تشجّع المسلمين على الثبات و الرجولة و الاستقامه أمام أمواج الضغوط من قبل الأعداء..و إذا ورد الحديث فيها على الجهاد فالمراد منه-أيضا-الجهاد فى هذا المجال،لا الجهاد المسلّح الذى تقوم به الجماعه،فذلك شرع فى المدينه.

و إذا ورد الحديث عن المنافقين فى هذه الآيات،فلعلّه إشاره إلى المسلمين الضعاف فى إيمانهم،الذى كان يتفق وجودهم بين المسلمين فى مكّه أحيانا...

فتاره هم مع المسلمين و تاره مع المشركين،و كانوا يميلون مع الكفه الراجحه منهما.

و على كل حال،فارتباط الآيات بعضها ببعض و انسجامها توجب أن تكون هذه السوره «جميعها»مكيه،و ما ذكرناه من الروايات المتقدمه المتناقضه فى ما بينها،لا يمكن أن تقطع هذا الارتباط!

التفسير

إشاره

الامتحان الإلهى سنه خالده:

نواجه فى بدايه هذه السوره الحروف المقطعه [ألف-لام-ميم]

أيضا..و قد بيّنا تفسيرها عدّه مرات من وجوه مختلفه (1).

و بعد هذه الحروف المقطعه يشير القرآن إلى واحده من أهم مسائل الحياه البشريه،و هى مسأله الشدائد و الضغوط و الامتحان الإلهى.

ص: ٣٣١

(١-١) -يراجع بدايه تفسير سوره البقره و بدايه سوره آل عمران و بدايه تفسير سوره الأعراف من التفسير الأمثل.

فيقول أولًا: أ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . (١)

ثم يذكر القرآن هذه الحقيقة-بعد الآيه المتقدمه مباشره،و هي أن الامتحان سنه الهيه دائميّه،فالامتحان لا يختص بكم-أيها المسلمين-بل هو سنه جاريه في جميع الأمم المتقدمه،إذ يقول: وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ .

و هكذا ألقينا بهم أيضا في أفران الامتحانيه الشديده الصعبه...و وقعوا أيضا -تحت تأثير ضغوط الأعداء القساو و الجهله المعاندين..فساحه الامتحان كانت مفتوحه دائما،و اشترك فيها جماعه كثيرون.

و ينبغي أن يكون الأمر كذلك،لأنه في مقام الادعاء يمكن لكل أحد أن يذكر عن نفسه أنه أشرف مجاهد و أفضل مؤمن و أكثر الناس تضحيه..فلا بد من معرفه قيمه هذه الادعاءات بالامتحان،و ينبغي أن تعرف النيات و السرائر إلى أي مدى تنسجم مع هذه الادعاءات.؟! أجل فليعلمن الله الذين صدقوا و ليعلمن الكاذبين .

من البديهي أن الله يعرف جميع هذه الأمور جيدا-قبل أن يخلق الإنسان- إلا- أن المراد من العلم هنا هو التحقق العيني للمسائل..و وجودها الخارجى، و بتعبير آخر:ظهور الآثار و الشواهد العمليه..و معناه أنه ينبغي أن يرى علم الله في هذه المجموعه عمليا في الخارج،و أن يكون لها تحقق عيني،و أن يكشف كلّ عمّا في نفسه و داخله...هذا هو العلم حين يطلق على مثل هذه المسائل و ينسب إلى الله!.

و الدليل على هذه المسأله واضح-أيضا-لأنّ التيات و الصفات الباطنيه إذا لم تحقق في عمل الإنسان و تكون عينيّه،فلا مفهوم للثواب و الجزاء و العقاب!.

و بعبارة أخرى:فإنّ هذا العالم مثله كمثل «المدرسه» أو «المزرعه»

ص: ٣٣٢

١ - ١) -«يفتنون» مشتق من «الفتنه» و هي في الأصل وضع الذهب في النار لمعرفة مقدار خلوصه،ثم أطلق هذا التعبير على كل امتحان ظاهري و معنوي..«لمزيد الإيضاح يراجع تفسير الآيه (١٩٣) من سوره البقره».

(و التشبيهاً هذه وارده في متون الأحاديث الإسلاميه)و المنهج هو أن تفتح الاستعدادات و تربي القابليات و تكون فعليه بعد ما كانت بالقوه.

و ينبغي أن تنمو البذور في هذه المدرسه و أن تطلع البراعم من تحت الأرض فتحاط بالرعايه و العنايه لتكون شجيرات صغيره، ثم تكون أشجارا ذوات أصول قويه و أغصان و مثمره على تعاقب الزمن..و هذه الأمور لا تكون إلا بالامتحان و الاختبار. و من هنا نعرف أن الامتحانات الإلهيه ليست لمعرفة الأفراد، بل هي من أجل تربيه الاستعدادات و رعايتها، لتفتح و تكون بصوره أحسن.

فعلي هذا.. لو أردنا نحن أن نمتحن شيئاً، فهو لأجل كشف المجهول، لكنّ امتحان الله ليس لكشف المجهول، لأنّه أحاط بكل شيء علماً... بل هو لتربيه الاستعدادات و إيصال مرتبه «القوه» إلى «الفعل» (1).

بحث

اشاره

الامتحانات في وجوه مختلفه:

و بالرغم من أن بيان عموميه الامتحان لجميع الأمم و الأقوام كان له أثر كبير فعّال بالنسبه لمؤمنى مكّه، الذين كانوا يمثلون الأقلية في ذلك العصر، و كان التفاتهم إلى هذه الحقيقه سبباً في وقوفهم بوجه الأعداء بصبر و استقامه... إلا أن ذلك لم يكن منحصرأ في مؤمنى مكّه، بل إن كل جماعه و طائفه لها نصيب من هذه السنه الإلهيه فهم شركاء فيها، إلا أن الامتحانات الإلهيه لهم تأتى بصور مختلفه.

ص: ٣٣٣

١-١) -لمزيد الإيضاح في مسأله الامتحان الإلهي و جوانبها المختلفه، يراجع التفسير الأمثل ذيل الآيه (١٥٧) من سوره البقره حيث بيّناه بتفصيل!...

فالجماعه الذين يعيشون فى محيط ملوث بالمفاسد و الوسوس تحيط بهم من كل جانب، فإن امتحانهم الكبير فى مثل هذا الجو و الظروف، هو أن لا يتأثروا بلون المحيط و أن يحفظوا أصالتهم و نقاءهم.

و الجماعه الذين يعيشون تحت ضغط الحرمان و الفقر، يرون بأنهم لو صمموا على ترك رأس مالهم الأصيل «الإيمان» فإنهم سرعان ما يتخلصوا من الفقر و الحرمان لكن ثمن ذلك هو فقدانهم للإيمان و التقوى و الكرامه و الحريه و الشرف، فهنا يكمن امتحانهم..

و جماعه آخرون على عكس أولئك غرقى فى اللذائذ و النعم، و الإمكانيات الماديه متوفره لديهم من جميع الوجوه... ترى هل يؤدون فى مثل هذه الظروف الشكر على النعم.. أم سيقون غرقى فى اللذائذ و الغفله و حب الذات و الأنانيه...

غرقى الشهوات و الاغتراب عن المجتمع و عن أنفسهم! و جماعه منهم كالمتغربين فى عصرنا، يرون بعض الدول بعيده عن الله و الفضيله و الأخلاق حقًا، و لكنّها تتمتع بالتمدن المادى المذهل و الرفاه الاجتماعى. هنا تجذب هؤلاء المتغربين قوه خفيه إلى سلوك هذا النوع من الحياه أو سحق جميع القيم و الأصول و الأعراف التى يعتقدون بها، و يبيعون أنفسهم أذلاء عملاء لتلك الدول، ليوفروا لهم و لمجتمعهم مثل هذه الحياه... و هذا نوع آخر من الامتحان.

المصائب، و الآلام و الهموم، و الحروب و النزاعات، و القحط و الغلاء، و ما تثيره الحكومات الأنانيه لتجذبهم إليها و تستعبدهم به و أخيرا الأمواج النفسيه القويه و الشهوات، كلّ منها و سيله للامتحان فى طريق عباد الله، و السائرين فى الميادين التى تتميز فيها شخصيه الأفراد و تقواهم و إيمانهم و طهارتهم و أمانتهم و حريتهم.. إلخ.

و لكن لا طريق للانتصار فى هذه الامتحانات الصعبه لاجتيازها إلا الجّد

السعى المستمر، والاعتماد على لطف الله سبحانه.

و من الطريف أننا نقرأ حديثاً عن أحد المعصومين في أصول الكافي في تفسير الآية أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَ هُمْ لَا يُفْتَنُونَ يقول فيه:

«يفتنون كما يفتن الذهب، ثم قال يخلصون كما يخلص الذهب» (١).

و على كل حال، فإن طالبي العافية الذين يظنون أن إظهار الإيمان كاف بهذا المقدار ليكونوا في صفوف المؤمنين و في أعلى عليين في الجنة مع النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين، فهم في خطأ كبير.

و على حدّ تعبير

أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة: «و الذي بعثه بالحق لتبليبن بلبله و لتغربلن غربله، و لتساطن سوط القدر حتى يعود أسفلكم أعلاكم و أعلاكم أسفلكم» (٢).

قال عليه السلام: هذا الكلام و الناس جديد و عهد بيعته، و ينتظرون ما سيفعل بيت المال، أ يقسمه حسب الجاه و المقامات بحسب المعايير السابقة، فيعوض في المال، فيعطي الكثير لبعضهم بحسب المقام، و القليل للبعض الآخر!... أم سيسير معهم بالعدل المحمدي؟

ص: ٣٣٥

١-١ - أصول الكافي، طبقاً لما نقل في تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ١٤٨.

٢-٢ - نهج البلاغة، خطبه ١٦.

اشاره

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَنَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٤) مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ
(٥) وَمَنْ جَاهِدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَ
لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٧)

التفسير

اشاره

لا مهرب من سلطان الله:

كان الكلام فى الآيات السابقه عن امتحان المؤمنين الشامل، و الآيه الأولى من الآيات أعلاه تهديد شديد للكفار و المذنبين، لثلا يتصوروا أنهم حين يضيقون على المؤمنين و يضغطون عليهم و لا- يعاقبهم الله فورا، فإن الله غافل عنهم أو عاجز عن عذابهم، تقول الآيه هذه: أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَنَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ .

فلا ينبغي أن يغرهم إمهال الله إياهم فهو امتحان لهم، كما أنه فرصه للتوبه

و العوده إلى ساحة الله تعالى.

و ما ذهب إليه بعض المفسرين من أنّ هذه الآية هي إشاره إلى المؤمنين المذنبين، فلا يناسب هذا التفسير سياق الآيات بأى وجه، بل جميع القرائن تدل على أنّ المقصود بالآيه هم المشركون و الكفار.

ثمّ يتحدث القرآن مرّه أخرى عن سير المؤمنين و مناهجهم، و يقدم النصح لهم، فيقول: مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَعَلَيْهِ أَنْ يَعْمَلَ مَا فِي وَسْعِهِ عَلَى امْتِثَالِ الْأوامر الإلهيه و الأحكام الشرعيه، لأنّ الوقت المعين سيأتي حتماً فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ (١).

أجل، إنّ وعد الله هذا لا يقبل التخلّف، هو طريق لا بدّ من اجتيازّه، ثمّ إنّ الله سبحانه يسمع أحاديثكم، و هو مطلع على أعمالكم و نياتكم... لأنه هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .

و في معنى قوله تعالى: لِقَاءَ اللَّهِ و ما المقصود منه؟ فسّره بعض المفسرين بملاقاه الملائكه، كما فسّره البعض بملاقاه الحساب و الجزاء.. و بعض بملاقاه الحكم و أمر الحق.. و آخرون بأنّه كناية عن يوم القيامة.. في حين أنّه لا دليل على أن تفسّر هذه الآية بهذه المعاني المجازيه.

و ينبغي القول أن «لقاء الله» في يوم القيامة ليس لقاء حسيّاً بل نوعاً من الشهود الباطني، لأنّ الستائر الضخمه لعالم الماده تنكشف عن عين روح الإنسان، و تبدو في حاله الشهود للإنسان! و كما يقول العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان: إنّ المقصود من لقاء الله، هو أنّ العباد يكونون في موقف لا يكون بينهم و بين الله حجاب، لأنّ طبيعه يوم القيامة هي ظهور الحقائق كما يقول القرآن: وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ

ص: ٣٣٧

١ - ١) - هذه الجملة - في الحقيقة - فيها حذف، و التقدير «من كان يرجو لقاء الله فيبادر بالطاعة قبل أن يلحقه الأجل» أو «من كان يرجو لقاء الله و يقول آمنت بالله فليقله مستقيماً صابراً عليه فإنّ أجل الله لآت».

أمّا الآيه التي تليها، فهي في الحقيقة-تعليل لما سبق بيانه في الآيه الآنفه، إذ تقول: إن على المؤمنين الذين يرغبون في لقاء الله السعى بما أوتوا من قدره وقابليه من أجل ذلك فإن نتیجه كل ذلك السعى و الجهاد و تحمل الشدائد ترجع ثمارها للعامل نفسه: وَ مَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ .

إن خطه الامتحان الالهى هي الجهاد، جهاد النفس و هواها، و جهاد الأعداء الألداء، لحفظ الإيمان و التقوى و الطهاره، و نفع ذلك يعود للإنسان...و إلا- فإن الله وجود غير متناه من جميع الوجوه، و غير مفتقر لأى شىء حتى يتم بواسطه طاعه الناس أو عبادتهم جبرانه، و لا ينقصه شىء حتى يكمله الآخرون، فكل ما عندهم فمنه، و ليس لهم شىء من أنفسهم!.

و يتضح هنا من هذا البيان أن الجهاد لا يعنى بالضروره جهاد العدو المسلح، بل يحمل معناه اللغوى الذى يشمل كل أنواع السعى و الجهد لحفظ الإيمان و التقوى، و تحمل أنواع الشدائد، و المواجهات «الموضعيه» للأعداء الألداء و الحاقدين.

و الخلاصه أنّ جميع منافع هذا الجهاد ترجع للشخص المجاهد نفسه، و هو الذى يفوز بخير الدنيا و الآخره فى جهاده، و حتى إذا كان المجتمع يستفيد من بركات هذا الجهاد، فهو فى مرحله أخرى بعده.

فعلى هذا، متى ما وفق أى إنسان إلى الجهاد فنال نصيب منه، فعليه أن يشكر الله على هذه النعمه!.

و آخر آيه-محل البحث-توضيح لما تقدم ذكره فى الآيه السابقه بشكل مبهم تحت عنوان الجهاد، فهنا يكشف القرآن حقيقه الجهاد فيقول: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ .

ص: ٣٣٨

إذن أول فائده كبيره لهذا الجهاد الكبير و هو الإيمان و العمل الصالح هي تكفير الذنوب و سترها على الإنسان، كما أن الثواب سيكون من نصيبهم، كما يقول القرآن في نهايه هذه الآيه أيضا: **وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ** .

كلمه «نكفر» مشتقه من ماده «تكفير» و معناها فى الأصل التغطية و الستر، و المقصود بتغطية الذنوب هنا عفو الله و صفحه! و التعبير ب **أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ** مع أن الله يجزى على الأعمال الصالحه-حسنه كانت أم أحسن لعله إشاره إلى أننا نجازى جميع أعمالهم الصالحه و الحسنه بأحسن الجزاء، أى إذا كانت بعض أعمالهم أحسن و بعضها حسنا، فنحاسب الجميع بالأحسن، و هذا هو معنى تفضل الله سبحانه.

و فى آيات أخرى من القرآن، كآيئه (٣٨) من سوره النور وردت الإشاره إلى ذلك أيضا **لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَ يَزِيدَهُم مِّنْ فَضْلِهِ** .

ص: ٣٣٩

اشاره

وَصَيَّنَا لِلنَّاسِ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ
(٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (٩)

سبب النزول

وردت روايات مختلفه فى شأن نزول الآيه الآنفه الذكر، و مضمون الجميع واحد و هى أنّ بعض الرجال الذين كانوا فى مكّه و أسلموا (١)، حين سمعت أمهاتهم بذلك صممن على أن لا يتناولن طعاما و لا يشربن ماء حتى يرجع أبناؤهن عن الإسلام، و بالرغم من أن آيه واحده من هؤلاء الأمهات لم تف بقولها، و رجعت عن إضرابها عن الطعام، إلا أنّ الآيه المتقدمه نزلت لتوضح للجميع أسلوب المعامله بين الأبناء و الآباء و الأمهات، فى مجال الكفر و الإيمان.

ص: ٣٤٠

١-١) -ورد فى بعض الروايات اسم (سعد بن أبى وقاص) و فى بعضها اسم (عياش بن أبى ربيعه المخزومى).

أفضل الوصايا بالنسبة للوالدين:

إنّ واحدا من أهم الامتحانات الإلهية، هي مسأله «التضاد» بين خط الإيمان و التقوى و بين علاقه العاطفيه و القرابه..و القرآن فى هذا المجال- يوضح وظيفه المسلمين بجلاء! فى البدايه يتحدث عن قانون كلى يستمد من جذور العواطف الإنسانيه وردّ الجميل فيقول: وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ .

و بالرغم من أنّ هذا حكم تشريعى، و لكن هذه المسأله قبل أن تكون «لازما» تشريعيًا، لها وجود فى فطره الإنسان بشكل قانون تكويني. و خاصّه أن التعبير ب«الإنسان» هنا يلفت النظر.. فهذا القانون لا يختصّ بالمؤمنين، بل كلّ من كان جديرا بأن يحمل اسم الإنسان ينبغى أن يكون عارفا بحق الأبوين...

و أن لا ينسى تكريمهما و احترامهما و الإحسان إليهما طيله عمره.. و إن كان كل ذلك لا يفي بحقوقهما!.

بعد ذلك، و من أجل أن لا يتبادر إلى الذهن أنّ العلاقه العاطفيه بالوالدين يمكن أن تكون حاكمه على العلاقه بين الإنسان و ربّه و إيمانه، يأتى استثناء صريح- ليوضح هذا الموضوع فى الآيه، فيقول تعالى: وَ إِنِّ جَاهِدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا .

و التعبير ب «جَاهِدَاكَ» مفهومه بذل قصارى جهدهما و إصرارهما و منتهى سعيهما للحيلولة بين الولد و بين الإيمان بالله.

و التعبير ب «مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ» إشاره إلى عدم منطقيه الشرك، لأنّ الشرك لو كان صحيحا واقعا لكان عليه دليل بين.

و بتعبير آخر: متى ما لم يعلم الإنسان بشيء فلا ينبغى أن يتبعه فكيف إذا كان يعلم ببطلانه؟

فهذا الاتباع هو أتباع للجهل، فلو أن الوالدين أمراك باتباع الجهل فلا تطعهما.

و أساساً فإنّ التقليد الأعمى خطأ حتى ولو كان في مورد الإيمان، فكيف إذا كان هذا التقليد للكفر و الشرك!.

و هذه الوصيه وردت-أيضاً-في سوره لقمان مع اضافته وَ صَاحِبُهُمْ فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا فمع عدم قبول دعوتهما للشرك، ينبغي عليك احترامهما و الإحسان إليهما و الارتفاع بهما.

و لا ينبغي أن يتصور أحد أن وجوب مخالفه الأبوين فيما لو دعوا ولديهما الى الشرك دليل على جواز الاساءه لهما، فهذا يؤكد منتهى تأكيد الإسلام على احترام الأبوين.

و بهذا-يستفاد من هذا المنطلق أصل كلي: أى إن شيئاً لا يمكن أن يكون حاكماً على علاقه الإنسان بالله، لأنها مقدمه على كل شيء، حتى على علاقه بأبويه التي هي أقرب العلاتق إليه.

و

الحديث المعروف «لا طاعه لمخلوق في معصيه الخالق» (١) .. الذى نقل عن أمير المؤمنين على عليه السلام يعطينا معياراً واضحاً لهذه المسائل!.

ثم يضيف تعالى في نهايه الآيه إِلَى مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ و أجازيكم دون غمط و نقص في الثواب أو العقاب.

و هذه الجملة-في الحقيقه تهديد لأولئك الذين يسيرون في طريق الشرك، و الذين يدعون الآخرين إلى هذا الطريق.. لأنها تقول بصراحه: إن الله يرى أعمالكم و يحفظهما ثم يعيدها إليكم «في معادكم».

و الآيه التي بعدها تؤكد الحقيقه في أولئك المؤمنين الذين يعملون الصالحات، و تكرر هذا المضمون أيضاً

ص: ٣٤٢

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ

و أساسا فإن عمل الإنسان يترك في الإنسان أثره.. فالعمل الصالح يصبغ الإنسان بلونه و يدخله في زمرة «الصالحين».

كما أن العمل السيء يدخله في زمرة «الخاطئين و المسيئين».

و لكن ما الغايه من هذا التكرار؟! قال بعضهم: في الآيات السابقه إشاره إلى أولئك الذين يسلكون طريق الحق، أمّا هذه الآيه فهي إشاره إلى أولئك الذين هم الأدلاء و الهداه الى طريق التوحيد، لأنّ التعبير ب«الصالحين» ورد في كثير من الأنبياء، إذ كانوا يطلبون من الله أن يدخلهم في الصالحين.

كما يحتمل أيضا، أنّ الكلام في الآيات المتقدمه كان عن غفران الذنوب و تكفير السيئات و ما يستحقه المؤمنون من الجزاء، إلاّ أنّه هنا إشاره عن مقامهم الرفيع الذي هو في نفسه ثواب آخر! فهم في صف الصالحين، صف الأنبياء و الصديقين و الشهداء، و هم جلساؤهم و رفاؤهم في الجنان.

ملاحظه

إشاره

الإحسان إلى الوالدين:

ليست هذه هي المره الأولى التي يشير فيها القرآن إلى هذه المسأله الإنسانيه المهمه، فقد أشار إليها في سوره الإسراء الآيه (٢٣) من قبل، و سترد الإشاره إليها بعد في سوره لقمان الآيتين (١٤) و (١٥) و سوره الأحقاف الآيه (١٥) أيضا.

و في الحقيقه إنّ الإسلام يدعو إلى احترام الوالدين في أسمى مراتبه، حتى مع كونهما مشركين، أو عند دعوتهما إلى الشرك الذي هو أبغض الأشياء في نظر

ص: ٣٤٣

الإسلام، فإنَّ الإسلام يوجب احترامهما في الوقت الذي يمنع من إطاعتها في قبول الشرك و الاستجابة إلى ذلك!.

و هذا في الواقع واحد من الامتحانات الإلهية العظيمة..التي أشير إليها في بدايه هذه السوره،لأنَّهما قد يبلغان من العمر أحيانا يصعب معه تحمّلهما..فهنّا ينبغي على الأبناء أن يؤدوا امتحانهم في مجال ردّ الإحسان و إطاعه أمر الله..و أن يحافظوا على والديهما بأحسن وجه!.

نقرأ

في حديث عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله أَنْ رجلا جاء إليه فقال: «يا رسول الله، من أبرّ؟ قال: أمّك: قلت: ثم من؟ قال: أمّك. قلت: ثم من؟ قال: ثم أمّك. قلت: ثم من؟ قال: ثم أباك ثم الأقرب فالأقرب» (١).

و

في حديث آخر- هو وارد في كثير من الكتب- أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله قال: «الجَنَّة تحت أقدام الأمّهات» (٢) . فلا بدّ للوصول إلى الجَنَّة من الخضوع و التذلل في مقابلها كتراب الأقدام.

ص: ٣٤٤

١-١) -مجمع البيان ذيل الآيات محل البحث...

٢-٢) -المصدر السابق.

اشاره

وَ مِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠) وَ لَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (١١) وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَ لَنَحْمِلَ خَطَايَاكُمْ وَ مَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٢) وَ لِيَحْمِلَسْنَاهُمْ أَثْقَالَهُمْ وَ اتَّقِ اللَّهَ مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَ لَيَسْئَلَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣)

التفسير

اشاره

شركاء في الانتصار أما في الشده فلا!

حيث أنّ الآيات المتقدمه تحدثت عن المؤمنين الصالحين و المشركين بشكل صريح، ففي الآيات الأولى من هذا المقطع يقع الكلام على الفريق الثالث - أي المنافقين - فيقول القرآن فيهم: وَ مِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ فَلَا يَصْبِرُونَ عَلَى الْأَذَى وَ الشدائد،

و يحسبون تعذيب المشركين لهم و أذى الناس أنه عذاب من الله وَ لَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ فَنَحْنُ مَعَكُمْ فِي هَذَا الْاِفْتِخَارِ وَ الْفَتْحِ.

ترى هل يظنون أن الله خفي عليه ما في أعماق قلوبهم فلا يعرف نياتهم أ وَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ .

و لعل التعبير ب«آمنا» بصيغه الجمع، مع أن الجملة التي تليه جاءت بصيغه المفرد، هو من جهة أن هؤلاء المنافقين يريدون أن يقحموا أنفسهم في صف المؤمنين، فلذلك يقولون «آمنا» أي آمنا كسائر الناس الذين آمنوا.

و التعبير ب أُوذِيَ فِي اللَّهِ معناه أُوذِيَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أي إنهم قد يتعرض لهم العدو - أحيانا - و هم في سبيل الله و الإيمان فيؤذيهم.

الطريف هنا أن القرآن يعبر عن مجازاه الله ب«العذاب» و عن إيذاء الناس ب«الفتنة» و هذا التعبير إشاره إلى أن إيذاء الناس ليس عذابا - في حقيقه الأمر - بل هو امتحان و طريق إلى التكامل.

و بهذا فإن القرآن يعلمهم أن لا يقايسوا بين هذين النوعين «العذاب» و «الإيذاء» و لا ينبغي أن يتنصّلوا من «الإيمان» بحجة أن المشركين و المخالفين يؤذيهم فإن هذا الإيذاء جزء من منهج الامتحان الكلي في هذه الدنيا.

و هنا ينقدح سؤال و هو: أي نصر جعله الله حليف المسلمين و نصيبيهم، ليدعى المنافقون أنهم شركاء في هذا النصر مع المسلمين؟! و نقول في الجواب: إن الجملة الآنفه الذكر جاءت بصيغه «الشرط» و نعلم أن الجملة الشرطية لا دليل فيها على وجود الشرط، بل مفهومها هو أنه لو اتفق أن كان النصر حليفكم في المستقبل، فإن هؤلاء المنافقين - ضعاف الإيمان - يرون أنفسهم شركاء في هذا النصر! إضافة إلى كل ذلك فإن المسلمين في مكة كانت لهم انتصارات على المشركين غير عسكريه بل انتصارات في التبليغ و «الإعلام» و نفوذ في الأفكار

العامه و توغل الإسلام فى طبقات المجتمع...

ثم بعد هذا كله فإنّ التعبير بالإيذاء مناسب لمحيط مكّه...و إلاّ فقلّ أن اتفق مثل هذا الإيذاء فى محيط المدينة.

وقد تنوّر و اتضح-ضمنا-هذا الموضوع الدقيق،و هو أن التعبير بالمنافق لا- يختص بمن ليس فى قلبه ايمان إطلاقا و يدعى الإيمان،بل حتى الافراد من ضعاف الإيمان الذين يتراجعون عن عقيداتهم نتيجة الضغوط و التأثير بفلان و فلان فهؤلاء أيضا يعدون من المنافقين.. و الآيه محل البحث- كما يظهر- تتحدث عن هذا النوع من المنافقين،و تصرح بأنّ الله مطلع على نياتهم و عليم بسرائرهم.

و فى الآيه التاليه-لمزيد التأكيد-يضيف القرآن قائلا: **و لَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ .**

فلو تصوروا أنّهم إذا أخفوا الحقائق فإنّهم سيكونون فى منأى عن علم الله فهم فى خطأ كبير جدا.

و نكرر هنا-مرّه اخرى أنّ التعبير بالمنافقين ليس دليلا على أنّ هذه الآيات نزلت فى المدينة،صحيح أنّ مسأله النفاق تقع عاده بعد انتصار جماعه و الاستيلاء على الحكومه..حيث يغير المخالفون أفتعتهم و يعملون فى الخفاء حينئذ،إلاّ أن للنفاق-كما قلنا- معنى واسع،و يشمل حتى الافراد ضعاف الإيمان الذين يبدلون عقيدتهم لأدنى مكروه يصيبهم.

و الآيه الأخرى بعدها تشير إلى منطق المشركين الخاوى و الملتوى،الذى لا يزال موجودا فى طبقات المجتمع الواسعه فتقول: **و قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَ لَنَحْمِلَ خَطَايَاكُمْ (١).**

ص: ٣٤٧

١-١) -جمله «و لنحمل»فعل دالّ على الأمر،و قد ولد هذا التعبير إشكالا عند بعض المفسرين،و هو:هل يمكن أن

و اليوم نرى كثيرا من الخبثاء يقولون للآخرين عند دعوتهم إلى أمر: إن كان فيه ذنب فعلى رقابنا!

في حين أننا نعلم أنه لا يمكن لأحد أن يتحمل وزر أحد، وأساسا فإنّ هذا العمل ليس معقولا و ليس منطقيا....فأالله عادل سبحانه و لا يؤاخذ أحدا بجرم الآخر.

ثمّ بعد كل ذلك فإنّ الإنسان لا تسقط عنه المسؤولية في العمل بمثل هذه الكلمات، و لا يمكن له التنبّل منها... و خلافا لما يتوهمه بعض الحمقى فإنّ مثل هذه التعبيرات لا تنقص من عقابهم حتى بمقدار رأس الإبره.

و لذلك فلا يعتدّ بمثل هذا الكلام في أيه محكمه كانت و لا يقبل من المذنب أن يقول: إن فلانا تحمّل عنيّ الوزر و جعله في رقبته!

صحيح أن ذلك الإنسان حثه على الإِجرام و دفعه إلى اقترافه، فهو شريكه، إلاّ- أن هذا الاشتراك في الجريمة لا- يخفف عنه المسؤولية! لذلك فإنّ القرآن يقول بصراحه في الجمله التاليه و مَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ .

هنا ينقدح السؤال التالي..«إنّ الصدق و الكذب هما في موارد الجمل الخبريه، في حين أن هذه الجمله إنشائية» و لنحمل خطاياكم» و ليس في الجمله الإنشائية صدق أو كذب، فلم عبر القرآن عنهم بأنهم «كاذبون»؟! و الجواب على هذا السؤال يتّضح من البيان الذي ذكرناه سابقا، و هو أن الجمله الأمريه هنا تتحول إلى جمله شرطيه، و مفهومها أنه إن اتبعتمونا حملنا خطاياكم و آثامكم، و مثل هذه الجمله تقبل الصدق و الكذب (1).

(1)

-يأمر الإنسان نفسه؟! ثمّ قالوا في رد هذا الإشكال. إنّ هذا الأمر في حكم القضييه الشرطيه أي «إن اتبعتمونا حملنا خطاياكم»- كما في تفسير الرّازي- إلاّ- أنه في اعتقادنا لا يمنع أن يأمر الإنسان نفسه، و الأمر و المأمور شخص واحد، إلاّ أنه ذو اعتبارين...«فتأمل بدقّه».

ص: ٣٤٨

(1- 1) -لدينا طريق آخر على الجواب على هذا السؤال، لأننا نعتقد وجود الصدق و الكذب في الجمله الإنشائية أيضا،

و بعد ذلك، و من أجل أن لا يتصور أن هؤلاء الدعاه للكفر و الشرك و عباده الأصنام و الظلم، لا شىء عليهم من العقاب لهذا العمل، فإنّ القرآن يضيف فى الآيه التاليه قائلا: وَ لِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَ أَنْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ .

و ثقل الذنب هذا... هو ثقل ذنب الإغراء و الإغواء و حث الآخرين على الذنب، و هو ثقل السنّه التى عبّر عنها

النّبى صّلّى الله عليه و آله فقال: «من سنّ سنه سيئه فعليه وزرها و وزر من عمل بها من غير أن ينقص من وزره شىء!» (١).

المهم أنّهم شركاء فى آثام الآخرين، و إن لم ينقص من وزر الآخرين و إثمهم مقدار من رأس الإبره.

و تختتم الآيه بالقول: وَ لَيَسْتَلَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

و ينقدح هنا سؤال آخر و هو: ما المراد من هذا الافتراء الذى يسألون عنه؟! و لعل ذلك إشاره إلى الافتراءات التى نسبوها إلى الله، و كانوا يقولون: «إن الله أمرنا أن نعبد الأصنام!».

أو أنّه إشاره إلى كلامهم الذى كانوا يقولون: «و لنحمل خطاياكم».

لأنّهم كانوا يدّعون أن مثل تلك الأعمال لا يترتب عليها إثم... و إن هذا الكلام كان افتراء، و ينبغى أن يجيوا على ما يسألون بصدده! أو أنّه يقال لهم على نحو الحقيقه و الواقع يوم القيامه: هلموا لتحملوا أثقال الآخرين، فيمتنعون من ذلك و يظهر كذبهم و افتراءهم... أو أنّ ظاهر كلامهم كان يعنى أن كلّ إنسان يمكن أن يتحمل وزر الأخر و يكون مسئولا عنه، فى حين أن هذا الكلام كذب و افتراء محض أيضا، و كل إنسان مسئول عن عمله!.

(١)

و يلاحظ هذا فى التعبيرات العرفيه أيضا... لأنّ الشخص -مثلا- إذا أمر بشىء ما فهو دليل على تعلقه به، و حين نقول: إنّه يكذب، فمعناه أنّه لم يطلبه «فلاحظوا بدقه».

ص: ٣٤٩

١- السنن الحسنه و السنن السيئه:

التخطيط لعمل ما-أو لمنهج ما-في المنطق الإسلامى له أثره..و يحمل صاحبه المسئوليه عنه-شاء أم أبى-و يكون مشاركا للآخرين الذين يعملون بما خططه و سنّه،لأنّ أسباب العمل هي من مقدمات العمل،و نعرف أن كل شخص يكون دخيلا في مقدمه عمل إنسان آخر فهو شريكه أيضا،فحتى لو كانت المقدمه بسيطه،إلا أن ذلك الشخص شريك مع ذى المقدمه.

و الشاهد على هذا الكلام حديث منقول عن الرسول الأكرم صلّى الله عليه و آله و هو أن سائلا جاء و التّبي صلّى الله عليه و آله في طائفه من صحابته فطلب العون فلم يجبه أحد،ثمّ قام اليه رجل و ناوله شيئا فقام:الآخرون و رغبوا في إعانته

فقال التّبي صلّى الله عليه و آله: «من سنّ خيرا فاستن به كان له أجره و من أجور من تبعه غير منتقص من أجورهم شيئا،و من سنّ شرا فاستن به كان عليه وزره و من أوزار من تبعه غير منتقص من أوزارهم شيئا» (١).

و قد ورد نظير هذا الحديث بعبارات مختلفه في مصادر الحديث عند الشيعة و السنه و هو حديث مشهور.

٢- جواب على سؤال:

أثار بعضهم هنا هذا السؤال،و هو أننا نلاحظ أحيانا في القوانين الإسلاميه أن الديه تقع على شخص آخر...فمثلا- في حاله قتل «الخطأ المحض» تقع الديه على العاقله «و المراد بالعاقله أقارب الرجل الذكور من طرف الأب...الذين تتوزع فيما بينهم ديه قتل الخطأ المحض،و يدفع كلّ منهم قسما حتى تتمّ الديه!».

أو ليست هنا منافاه بين هذه المسأله و بين الآيات المتقدمه؟

ص: ٣٥٠

و فى الجواب على هذا السؤال نقول: إن «ضمان العاقله» فى الحقيقه نوع من التأمين الإلزامى المتقابل بين أعضاء العشيره الواحده.
فالإسلام- من أجل أن لا- يتحمل الفرد الواحد العبء الثقيل للديه- ألزم أفراد العشيره بأن يضمن بعضهم بعضا فى ديّه قتل
الخطأ، و أن يقسموا المبلغ فيما بينهم فيدفع كل فرد منهم حصّه.

فقد يخطئ اليوم أحدهم، و غدا قد يرتكب هذا الخطأ شخص آخر من العشيره... «المزيد الإيضاح نوكل المراجعه إلى الكتب
الفقيهيه، بحث الديات».

و على كل حال، فإنّ هذا المنهج نوع من التعاون فى سبيل حفظ المنافع المتقابله، و لا يعنى بأى وجه تحمل وزر الآخرين، خاصه
و أنّ ديه قتل الخطأ ليست أصلا جريمه ذنب، بل هى تعويض عن الخساره! «فتأمل بدقه».

ص: ٣٥١

اشاره

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سِنٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١٤) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ
السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً لِلْعَالَمِينَ (١٥) وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا
تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَ
أَشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) وَإِنْ تَكذَّبْتُمْ فَتَقَدَّرَ فَكْرُكُمْ فَتُؤْتُونَ النَّاسَ مَا لَا يَأْتِيهِمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا يَرْثُونَ إِلَّا خِلْفًا مِمَّا وَرَّثُوا بِغَيْرِ
يُدْيَةٍ مِنَ اللَّهِ أَصْفًى ثُمَّ يُعِيدُهُمْ فِي آيَاتِنَا أَنْ يَسْمَعُوا آيَاتِنَا وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اعْبُدِ اللَّهَ إِنَّهُ الْبَاقِي
يُبْدِي اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩)

التفسير

لقصتي نوح و إبراهيم:

لما كان الكلام في البحوث السابقه عن الامتحانات العامه في الناس، فإن

الكلام هنا-و فى ما بعد-يقع على الامتحانات الشديده للأنبياء،و كيف أنهم كانوا تحت ضغط الأعداء و إيدائهم،و كيف صبروا و كانت عاقبه صبرهم النصر!يكون هذا الكلام تسليه لقلوب أصحاب النبى صلى الله عليه و آله الذين كانوا تحت وطأه التعذيب الشديد من قبل الأعداء-من جانب-و تهديدا للأعداء لينتظروا عاقبتهم الوخيمه من جانب آخر.

تبدأ الآيات أولاً بالكلام على أول نبى من أولى العزم و هو «نوح» عليه السلام، و تتحدث عنه بعبارات موجزه،لتجمل قسمًا من حياته التى تناسب-كثيرا-الواقع الراهن للمسلمين-آنثذ-فتقول: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا .

كان نوح مشغولا ليل نهار بالتبليغ و دعوه قومه إلى توحيد الله-فردى و مجتمعين،مستفيدا من جميع الفرص فى هذه المده الطويله(أى تسعمائه و خمسين عاما)يدعوهم إلى الله..و لم يشعر بالتعب و النصب من هذا السعى المتتابع و لم يظهر عليه الضعف و الفتور.

و مع كل هذا الجهد الجهد لم يؤمن به إلا جماعه قليله فى حدود الثمانين شخصا كما تنقل التواريخ(أى بمعدّل نفر واحد لكل اثنتى عشره سنه!).

فعلى هذا لا تظهروا الضعف و التعب فى سبيل الدعوه إلى الحق و مواجهه الانحرافات،لأنّ منهجكم أمام منهج «نوح»سهل للغاية.

لكن لاحظوا كيف كانت عاقبه قوم نوح الظالمين الألداء: فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَ هُمْ ظَالِمُونَ .

و هكذا انطوى «طومار» حياتهم الدليله،و غرقت قصورهم و أجسادهم و آثارهم فى الطوفان و أمواجه.

و التعبير ب ألف سنيه إلا خمسين عاماً مع إمكان القول «تسعمائه و خمسين سنه»من البدايه،هو إشاره إلى عظمه المده و طول الزمان،لأنّ عدد

«الألف» و أَى ألف؟ ألف سنه! يعدّ مهما و عددا كبيرا بالنسبه لمده التبليغ.

و ظاهر الآيه الآنفه أنّ هذا المقدار لم يكن هو عمر نوح عليه السّلام بتمامه (و إن ذكر ذلك في التوراه الحديثه، في سفر التكوين الفصل التاسع) بل عاش بعد الطوفان فتره أخرى، و طبقا لما قاله بعض المفسّرين فقد كانت الفتره هذه ثلاثمائه سنه! طبعاً... هذا العمر الطويل بالقياس إلى أعمار زماننا كثير جدا و لا يعدّ طبيعياً أبداً، و يمكن أن يكون ميزان العمر في ذلك العصر متفاوتا مع عصرنا هذا... و بناء على المصادر التي وصلت إلى أيدينا فإنّ قوم نوح كانوا معمرين، و عمر نوح بينهم أيضا كان أكثر من المعتاد، و يشير هذا الأمر ضمنا إلى هيئه تركيب أجسامهم كانت تمكّنهم من أن يعمرّوا طويلا.

إنّ دراسات العلماء في العصر الحاضر تدلّ على أن عمر الإنسان ليس له حد ثابت، و ما يقوله بعضهم بأنّه محدود بمائه و عشرين سنه، و أكثر أو أقل، فلا أساس له... بل يمكن أن يتغير بحسب اختلاف الظروف.

و اليوم و بواسطه التجارب استطاع العلماء أن يضاعفوا عمر قسم من النباتات أو الموجودات الحيّه، إلى اثني عشر ضعفا على العمر الطبيعي، و حتى في بعض الموارد -و لا تتعجبوا- أو صلوا هذه الفتره للنباتات أو غيرها إلى تسعمائه مرّه ضعف عمرها الطبيعي... و إذا حالفهم التوفيق فيمكنهم أن يضاعفوا عمر الإنسان، فيمكن أن يعمرّ الإنسان عندئذ آلاف السنين. (1)

و ينبغي الالتفات ضمنا إلى أن كلمه «الطوفان» في الأصل معناها كل حادثه تحيط بالإنسان، و هي مشتقّه من ماده «الطواف»، ثمّ استعمل هذا التعبير للماء الغزير أو السيل الشديد الذي يستوعب مساحه كبيره من الأرض و يغرقها، كما يطلق على كل شيء كثير و شديد و فيه حاله الاستيعاب، سواء كان ريحا أو نارا

ص: ٣٥٤

١ - ١) - لمزيد التوضيح في مسأله طول العمر، بمناسبة الأبحاث المتعلقة بطول عمر المهدي عليه السّلام، يراجع كتاب «المهدي تحول كبير».

أو ماء، فيسمى كلُّ منها طوفانا... كما قد يرد بمعنى ظلمه الليل الشديده أيضا. (١)

الطريف أنّ القرآن يقول: وَ هُمْ ظَالِمُونَ أَي إِنَّهُمْ حِينَ وَقُوعِ الْعَذَابِ «الطوفان» كانوا لا يزالون في ظلمهم أيضا.

و هذا إشاره إلى أنّهم لو تركوا تلك الأعمال، و ندموا على ما فعلوا، و توجَّهوا إلى الله، لما ابتلوا بمثل هذه العاقبه أبدا.

و يضيف القرآن الكريم في الآية الأخرى فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَ جَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (٢).

ثمَّ يعقّب على قصّه نوح و قومه التي وردت بشكل مضغوط، و يأتي بقصّه إبراهيم عليه السّلام، ثانياً الأنبياء الكبار من أولى العزم فيقول: وَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٣).

هنا بيّن القرآن منهجين مهمين من مناهج الأنبياء العمليه و الاعتقاديّه، و هما الدعوه إلى توحيد الله و التقوى في مكان واحد- ثمَّ يختتم القول: أن لو فكرتم جيدا لكان ذلك خيرا لكم عند اتباعكم لمذهب التوحيد و التقوى، إذ ينجيكم من دنياكم الملوّثه بالذنوب و الشقاء، و تكون آخرتكم هي السعاده الأبدية.

ثمَّ يذكر إبراهيم عليه السّلام أدله بطلان عباده الأصنام و الأوثان، و يبيّن في تعابير مختلفه يتضمّن كل منها دليلا على فساد مذهبهم و بطلانه فيقول أولا: إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا .

هذه الأوثان هي الأصنام الخاليه من الروح.. الأصنام التي ليس لها إراده،

ص: ٣٥٥

(١-١) -المفردات للراغب.

(٢-٢) -القول في ما هو مرجع الضمير في «جعلناها» للمفسرين احتمالات كثيره، فبعضهم قال: هو إشاره إلى مجموع هذه الواقعة و الحادثه، و قال بعضهم: هي نجاه نوح عليه السّلام فحسب- مع أصحابه- و أشار بعضهم إلى أن المراد من «جعلناها» هي السفينه، و ظاهر العبارة المتقدمه- أيضا- تؤيد هذا الاحتمال الأخير، و حقا كانت هذه السفينه آيه من آيات الله في ذلك العصر، و في تلك الحادثه العظيمه.

(٣-٣) -الظاهر أنّ إبراهيم معطوف على كلمه «نوح» و فعله «أرسلنا»، و بعضهم عطفه على مفعول (أنجيناه) و بعضهم جعله مفعولا لفعل محذوف تقديره «اذكر».

و لا عقل، و هي فاقده لكل شىء، بحيث أن شكلها بنفسه هو دليل على بطلان عقيدته «عباده الأوثان» (لاحظوا أن «الأوثان» هي جمع لكلمه «وثن» على زنه «صنم» و معناها «الحجاره المنحوتة» الموضوعه للعباده!).

ثم يتوسع فى حديثه و يمضى إلى مدى أبعد فيقول: ليست هذه الأوثان بهيئتها تدل على أنها لا تستحق العباده فحسب، بل أنتم تعلمون بأنكم تكذبون و تضعون اسم الآلهه على هذه الأوثان: وَ تَخْلُقُونَ إِفْكَاً .

فأى دليل لديكم على هذا الكذب سوى حفته من الأوهام و الخرافات الباطله.

و حيث أن كلمه «تخلقون» مشتقه من الخلق، و تعنى أحيانا الصنع و الإبداع، و أحيانا تأتي بمعنى الكذب، فإن بعض المفسرين ذكر تفسيراً آخر لهذه الجملة غير ما بيناه آنفاً... و قالوا إن المقصود من هذا التعبير هو أنكم تنحتون هذه الأوثان... المعبودات الباطله المزوره بأيديكم، و تصنعونها (فيكون المراد من الإفك هنا هو المعبودات المزوره) و الخلق هو النحت هنا (1).

ثم يبين الدليل الثالث و هو أن عبادتكم لهذه الأوثان إما لأجل المنافع الماديه، أو لعاقبتكم فى «الأخرى» و كلا الهدفين باطل... و ذلك: إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا .

و أنتم تعتقدون بأن هذه الأصنام لم تكن خلقتكم، بل الخالق هو الله، فالذى يتكفل بالرزق هو الله فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ .

و لأنه هو الذى يرزقكم فتوجهوا إليه وَ اعْبُدُوهُ وَ اشْكُرُوا لَهُ .

و بتعبير آخر، فإن واحداً من أسباب العباده و بواعثها هو الإحساس بالشكر

ص: ٣٥٦

١ - ١) - «الإفك» يطلق فى الأصل على كل شىء مختلف عن حقيقته، و لذلك يطلق على الكذب -خاصه الكذب الكبير- أنه إفك، كما تطلق هذه الكلمه على الرياح المخالفه لاتجاهها و مسيرها فيقال «رياح مؤتفكه».

للمنعم الحقيقي، و تعرفون أن المنعم الحقيقي هو الله، فالشكر و العباده يختصان - أيضا - بذاته المقدسه.

و إذ كنتم تبتغون الدار الأخرى فإنه إليه تُرْجَعُونَ .

فالأصنام لا تصنع شيئا هنا و لا هناك!.

و بهذا الأدله الموجزه و الواضحه ألجم منطقهم الواهى و أفحمهم.

ثم يلتفت إبراهيم عليه السّلام مهّددا لهم و مبديا عدم اكترائه بهم قائلا: وَ إِن تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَّمٌ مِّن قَبْلِكُمْ كَذَبُوا أَنبياءهم فنالوا الخزى بتكذيبهم و العاقبه الوخيمه وَ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ سواء استجاب له قومه، أم لم يستجيبوا له دعوته و بلاغه! و المقصود بالأمم قبل أمه إبراهيم عليه السّلام، أمه نوح عليه السّلام و ما بعده من الأمم و بالطبع فإن ارتباط هذه الآيات يوجب أن تكون هذه الجملة من كلمات إبراهيم عليه السّلام، و هذا ما يذهب إليه كثير من المفسّرين عند تفسيرهم للنص، أو يحتملون ذلك!.

و الاحتمال الآخر: إنّ الخطاب فى هذه الآيه للمشركين من أهل مكّه المعاصرين للنبي صلى الله عليه و آله و جمله كَذَّبَ أُمَّمٌ مِّن قَبْلِكُمْ فيها تناسب أكثر مع هذا الاحتمال.

أضف إلى ذلك، فإنّ نظير هذا التعبير الذى ورد فى الآيه ٢٥ من سوره الزمر، و الآيه (٢٥) من سوره فاطر، هو أيضا فى شأن نبي الإسلام صلى الله عليه و آله و المشركين العرب فى مكّه. و لكن - و على أى حال - أيّا من التفسيرين كان ذلك، فليس هناك تفاوت فى النتيجة!.

و القرآن يترك قصّيه إبراهيم هنا مؤقتا، و يكمل البحث الذى كان لدى إبراهيم فى صدد التوحيد و بيان رسالته بدليل المعاد، فيقول: أَوْ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ .

و المراد بالرؤية هنا هي الرؤية «القلبية» و العلم، أى كيف لا- يعرف هؤلاء خلق الله؟ فالذى له القدره على الإيجاد أولا قادر على إعادته أيضا، فالقدره على شىء ما هي قدره على أمثاله و أشباهه أيضا.

كما يأتى هذا الاحتمال، و هو أنّ الرؤية هنا هي الرؤية «البصريه» و المشاهده بالعين... لأنّ الإنسان يرى بعينه كيف تحيا الأرض و تنمو النباتات، و تتولد الدجاجه من البيض، و الأطفال من النطف... فمن له القدره على هذا الأمر قادر على أن يحيى الموتى من بعد أيضا.

و يضيف فى آخر الآيه على سبيل التأكيد إنّ ذلك على الله يسير. لأنّ تجديد الحياه قبال الإيجاد الأول يعدّ أمرا بسيطا.

و طبيعى أنّ هذا التعبير يناسب منطق الناس و فهمهم، و إلا- فإنّ اليسير و العسير لا مفهوم لهما عند من قدرته غير محدوده و المطلقه... فهذه قدراتنا التى أوجدت مثل هذا «المفهوم»، و مع الالتفات إلى إنجازها... ظهرت لدينا أمور يسيره و أخرى عسيره.

اشاره

قُلْ سَيِّرُوا فِي الْأَرْضِ فَأَنْظُرُوا كَيْفَ يَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٢٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِالآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَكْفُرُونَ بِرَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣)

التفسير

اشاره

الآيسون من رحمه الله:

هذه الآيات تواصل البحث في المعاد أيضا، على صورته جمل معترضه في قصه إبراهيم عليه السلام.

و ليست هذه أول مره نواجه فيها مثل هذا الأسلوب... فهذه هي طريقه القرآن دائما، فعند ما يبلغ مرحله حساسه من ذكر قصه ما، يترك بقيه القصه مؤقتا للاستنتاج أكثر، ثم يعطى النتائج اللازمه.

و على كل حال، فإن القرآن يدعو في الآيه الأولى من هذا المقطع الناس إلى

«السير في الآفاق» في مسأله المعاد... في حين أن الآيه السابقه كانت السمه فيها «السير في الأنفس» أكثر! يقول القرآن: قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ انظروا الى أنواع الموجودات الحيه، والأقوام و الأمم المتنوعه و المختلفه، و كيف أن الله تعالى خلقها أولاً، ثم أن الله نفسه الذي أوجدها في البدايه من العدم قادر ايضا على إيجادها في الآخره ثم الله يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ .

□
و لأنه أثبت قدرته على كل شيء حين خلق الخلق أولاً، إذن ف إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

فهذه الآيه و الآيه التي قبلها-أيضا- أثبتتا بواسطه قدرته الواسعه إمكان المعاد.. مع فرق أن الآيه الأولى تتحدث عن الإنسان نفسه و خلقه و ما حوله! و الآيه الثانيه تأمر بمطالعه حالات الأمم و الموجودات الأخرى، ليروا الحياه الأولى في صور مختلفه و ظروف متفاوته تماما، و ليطلعوا على عموميه قدره الله، و ليستيقنوا قدرته على إعادة هذه الحياه!.

كما أن إثبات التوحيد يتم-أحيانا-عن طريق مشاهدته «الآيات في الأنفس» و أحيانا عن طريق «الآيات في الآفاق» فكذلك يتم إثبات المعاد عن هذين الطريقتين أيضا.

و في عصرنا هذا يمكن أن تبين هذه الآيات للعلماء معنى أعمق و أدق، و هو أن يمضوا و يلاحظوا الموجودات الحيه الأولى التي هي في أعماق البحار على شكل فسائل و نباتات و غيرها، و في قلب الجبال، و بين طبقات الأرض، و يطلعوا على جانب من أسرار بدايه الحياه على وجه الأرض، و يدر كوا عظمه الله و قدرته، و ليعلموا أنه قادر على إعادة الحياه أيضا (1).

ص : ٣٦٠

١- ١) -سبق أن تعرضنا إلى بحث حول «السير في الأرض» و آثاره، غير أن البحث الفائت كانت فيه جوانب من دروس العبره في مجال قصص الأمم الماضيه و طغاتها. التفسير الأمثل ذيل الآيه (١٣٧) سورة آل عمران، فلا بأس بمراجعتها.

هذا و إن كلمه «النشأ» فى الأصل، تعنى إيجاد الشىء و تربيته، و قد يعبر أحيانا عن الدنيا بالنشأ الأولى، كما يعبر عن الأخرى بالنشأ الآخره!.

□
و هذه اللطيفه جديره بالملاحظه، و هى أنّ فى ذيل الآيات السابقه ورد التعبير «إن ذلك على الله يسير» و ورد التعبير هنا إنّ الله على كل شىء قديرٌ .

و لعل منشأ التفاوت و الاختلاف هو أن الآيه الأولى تعالج مطالعه محدوده، أما الثانيه فتعالج و تبين مطالعه وسيعه جدًا.

□
ثمّ يتعرض القرآن الكريم إلى إحدى المسائل المتعلقة بالمعاد، و هى مسأله الرحمه و العذاب، فيقول: يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ مَنْ يَشَاءُ وَ يَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَ إِلَيْهِ تُقَلَّبُونَ .

و مع أنّ رحمه الله مقدمه على غضبه، إلاّ أن الآيه هنا تبدأ أولاً بذكر العذاب ثمّ الرحمه، لأنها فى مقام التهديد، و ما يناسب مقام التهديد هو هذا الأسلوب!.

هنا ينقدح السؤال التالى:

كيف يتحدث القرآن أولاً عن العذاب و الرحمه، ثمّ يتحدث عن معاد الناس إليه و إليه تُقَلَّبُونَ؟ فى حين أن القضييه على العكس من ذلك، ففى البدايه يحضر الناس عند ساحته، ثمّ يشملهم العذاب أو الرحمه.. و ربّما كان هذا هو السبب فى أن يعتقد بعضهم أن العذاب و الرحمه المذكورين هنا هما فى هذه الدنيا.

و نقول جواباً على مثل هذا السؤال: إن العذاب و الرحمه -بقرينه الآيات السابقه و اللاحقه- هما عذاب القيامة و رحمتها، و جملته و إليه تُقَلَّبُونَ إشاره إلى الدليل على ذلك: أى: بما أنّ معادكم إليه و كتابكم و حسابكم لديه، فالعذاب و الرحمه -أيضاً- بإرادته و تحت أمره!.

و لا يبعد أن يكون العذاب و الرحمه فى هذه الآيه لهما معنى واسع، بحيث

يشمل العذاب و الرحمة فى الدارين.

كما يتضح أنّ المراد بقول: مَنْ يَشَاءُ ۖ هُوَ الْمَشِيئَةُ الْإِلَهِيَّةُ الْمَقْرُونَةُ بِحُكْمَتِهِ، أى كل من كان جديرا و مستحقا لذلك..فإن مشيئته الله ليست عبثا،بل منسجمه مع الاستحقاق و الجداره!.

و جملة «تقلبون» من ماده «القلب» و معناها فى الأصل: تغيير الشىء من صورته إلى صورته أخرى،و حيث أن الإنسان فى يوم القيامة يعود إلى هيئته الموجود الحى الكامل بعد أن كان ترابا لا روح فيه،فقد ورد هذا التعبير فى إيجاده ثانية أيضا.

و يمكن أن يكون هذا التعبير إشارة إلى هذه اللطيفه الدقيقه-أيضا-و هى أن الإنسان يتبدل فى الدار الأخرى و يتغير تغيرا ينكشف باطنه به و تتجلى أسراره الخفيه،و بهذا فهى تنسجم مع الآيه (٩) من سوره الطارق يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ .

و إكمالا- لهذا البحث الذى يبين أن الرحمة و العذاب هما بيد الله و المعاد إليه، يضيف القرآن: إذا كنتم تتصورون أنّكم تستطيعون أن تهربوا من سلطان الله و حكومته و لا يمسّكم عذابه،فأنتم فى خطأ كبير...فليس الأمر كذلك! و مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (١) .

و إذا كنتم تتصورون أنّكم تجدون من يدافع عنكم و ينصركم هناك،فهذا خطأ محض أيضا و مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ .

و فى الحقيقه،فإنّ الفرار من قبضه الله و عذابه،إمّا بأن تخرجوا من حكومته، و إمّا بأن تعتمدوا مع بقائكم فى حكومته على قدره الآخرين لتدافعوا عن أنفسكم،فلا الخروج ممكن،لأنّ البلاد كلّها له و عالم الوجود كلّ ملكه الواسع،

ص: ٣٦٢

١ - ١) - كلمه «معجزين» مشتقّه من ماده «عجز»،و معناها فى الأصل التخلف و التأخر عن الشىء،و لذلك تستعمل هذه الكلمه فى الضعف الباعث على التخلف و التأخر،«المعجزه»معناه الذى يجعل الآخر عاجزا،و حيث أن الأفراد الذين يفرون من سلطان أحد و قدرته،يعجزونه عن ملاحقتهم،لذلك استعملت كلمه «معجز»فى هذا الصدد أيضا...

و لا يوجد أحد يستطيع أن يقف أمام قدرته و ينهض للدفاع عنكم.

يبقى هنا سؤالان:-

أولاً: مع الالتفات إلى هذه الحقيقه، و هي أن مقصود الآيه هو فى الكفار و المشركين، و هم سكنه الأرض، فما معنى قوله تعالى: وَ لَا فِي السَّمَاوَاتِ أَي مَفْهُوم لَه هِنَا؟! و ينبغى أن يقال فى الجواب، أن هذا التعبير هو نوع من التأكيد و المبالغه، أى إنكم لا تستطيعون أن تخرجوا من قدره الله و سلطانه فى هذه الأرض، و لا فى السماوات، إذ حتى لو فرضنا أنكم تستطيعون أن تصعدوا فى السماء، فما زلتم تحت قدرته و سلطانه.

أو إنه: لا تستطيعون أن تعجزوا الله فى مشيئته بواسطه من فى الأرض، و لا بواسطه من تعبدون فى السماوات، من أمثال الملائكه و الجن (و التفسير الأول أكثر مناسبه-طبعاً-) ثانياً: ما الفرق بين الولى و النصير؟! يرى العلامة «الطبرسى» فى «مجمع البيان» و قيل: إن الولى الذى يتولى المعونه بنفسه و النصير يتولى النصرة تاره بنفسه بأن يأمره غيره به» (١).

بل يمكن القول مع ملاحظه الكلمتين هاتين، أن الولى إشاره إلى من يعين دون طلب (من عليه الولايه)، و النصير هو المستصرخ الذى يأتى لإعانه الإنسان بعد استصراخه.

و هكذا يغلق القرآن جميع أبواب الفرار بوجه هؤلاء المجرمين..

لذالك يقول فى الآيه التى بعدها بشكل قاطع: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَ لِقَائِهِ أُولَئِكَ يَسُؤُوا مِنْ رَحْمَتِي

ص: ٣٤٣

ثم يضيف مؤكدا: وَ أَوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

هذا «العذاب الأليم» هو لزم اليأس من رحمه الله.

و المراد بـ «آيات الله» إيماء هي «الآيات التكوينية» أى آثار عظمه الله فى نظام خلقه و إيجاده، و فى هذه الصورة فهى إشارة إلى مسأله التوحيد، فى حين أن كلمه «لقائه» إشارة إلى مسأله المعاد، أى إنهم منكرون للمبدأ و للمعاد كليهما.

أو أنّ المراد من آيات الله هي «الآيات التشريعية» أى هي الآيات التي أنزلها الله على أنبيائه، التي تتحدث عن المبدأ و عن النبوه و عن المعاد، و فى هذه الحال يكون التعبير بـ «لقائه» من قبيل ذكر الخاص بعد العام.

كما يمكن أن يكون المقصود من آيات الله هي جميع الآيات فى عالم الوجود و التشريع.

و ينبغى ذكر هذه المسأله -أيضا- و هي أن «يئسوا» فعل ماض و الهدف منه هو الاستقبال -أى فى يوم القيامة- و العرب عادة إذا تحدثوا عن أمر مستقبلى بصوره التأكيد عبروا عنه بصيغه الماضى، للدلاله على تحققه قطعا و حتما.

ص: ٣٦٤

اشاره

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَبِئَعُضٌ يَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٥) فَمَا مَن لَّهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧)

التفسير

اشاره

أسلوب المستكبرين في جوابهم لإبراهيم:

و الآن علينا أن نعرف ماذا قال هؤلاء القوم الصّالون لإبراهيم عليه السّلام ردّا على أدلته الثلاثة في مجال التوحيد و النّبوه و المعاد؟! إنهم قطعاً لم يكن لديهم جواب منطقي و كجميع الأقوياء المستكبرين فقد توسّلوا بقدراتهم الشيطانية و أصدروا أمراً بقتله، حيث يصرّح بذلك القرآن الكريم فيقول: فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ! .

و يستفاد من هذا التعبير أن جماعه كانوا يميلون إلى حرق إبراهيم بالنار، في حين كانت جماعه أخرى تقترح أن يقتل بالسيف أو ما شاكله! و أخيرا رجح الرأى الأول، لأنهم كانوا يعتقدون أن أشد حالات الإعدام هو الإحراق بالنار.

كما و يحتمل أيضا أنهم جميعا كانوا يفكرون في قتله بالوسائل الطبيعیه، غير أنهم اتفقوا أخيرا على إحراقه بالنار، و أن يبذلوا قصارى جهدهم في هذا الأمر.

و في هذه الآيه الكريمة لم يرد كلام عن كيفية إحراق إبراهيم عليه السلام بالنار سوى هذا المقدار الذى استكملت به الآيه الكريمة، و هو فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ .

غير أن تفصيل ما جرى عليه من الإحراق ورد في سورة الأنبياء (الآيات ٦٨-٧٠) و قد بينا ذلك هناك، فلا بأس بمراجعته! و يضيف القرآن في الختام إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

و لم تكن علامه و آيه واحده في هذا الصدد و في هذه الحادته، بل علائم و آيات... فمن جانب فإنَّ عدم تأثير النار في جسد إبراهيم بنفسه معجزه واضحه، و تبدل النار إلى روضه و«سلام» على إبراهيم كما هو معروف معجزه أخرى، و عدم استطاعه هذه الجماعه القويه التغلب على شخص واحد- و هو أعزل من كل وسيله بحسب الظاهر- كان معجزه ثالثه أيضا.

كما أنَّ عدم تأثير هذا الحادث العجيب الخارق للعادة في أولئك المظلمه قلوبهم، آيه من آيات الله، إذ يسلب التوفيق من أمثال هؤلاء الأفراد المعاندين الألداء، بحيث لا تؤثر فيهم أعظم الآيات!.

و قد ورد في بعض الروايات أنه لما التقى بإبراهيم الخليل مكتوف اليدين و الرجلين في النار، فإن الشىء الوحيد الذى احترق منه هو الجبل الذى كان مشدودا و موثقا به (١).

ص: ٣٦٦

أجل، إن نار الجهل و جناية المنحرفين إنما أحرقت وسائل الأسر، فتحرر إبراهيم عليه السلام منها... و هذه بنفسها تعد آية أخرى.

و ربّما كان-لهذه الأسباب- أن عبّر القرآن عن قصّه نوح و سفينته بقوله:

جَعَلْنَاهَا آيَةً بَصِيغَةَ الْإِفْرَادِ، و لكنّه عبّر هنا بقوله: لآيَاتٍ بَصِيغَةَ الْجَمْعِ!.

و على كل حال فإنّ إبراهيم عليه السّلام نجّى من النّار بصوره خارقه للعادة و بلطف الله سبحانه، غير أنّه لم يترك أهدافه.. بل نهض بالأمر و ازداد همّه و أعطى لأهدافه حراره أكثر.

ثمّ توجه إبراهيم إلى المشركين و قال إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا و لكن هذه المودّه و المحبّه تتلاشى في الآخرة ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ و يَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا و مَا أَوْكُمُ النَّارُ و مَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ .

كيف تكون الأوثان أساسا للمودّه بين عبده الأوثان؟! هذا السؤال يمكن الإجابة عليه من عدّه طرق:

الأول: أن عباده الصنم أو الوثن كانت رمزا للوحده لكل قوم و لكل قبيله، لأنّ كل جماعه اختارت لنفسها وثنا، كما ذكروا في شأن أصنام الجاهليه، إذ كان كل صنم يعود لقبيله من القبائل العربيه، فصنم «العزّى» كان لقريش، و«اللائت» كان خاصا بثقيف، أمّا «منات» فكان خاصا بالأوس و الخزرج!.

الثاني: أن عباده الأوثان تربط بينهم و بين أسلافهم و غالبا ما كانوا يعتذرون بمثل هذا العذر و يقولون: إنّ هذه الأوثان كان عليها السلف و نحن نتبع السلف و نمضى على دين آبائنا.

ثمّ بعد هذا كلّه فإنّ سراه (1) الكفار كانوا يدعون أتباعهم إلى عباده الأوثان، و كان هذا الأمر بمثابة «حلقة الاتصال» بين السراه و الأتباع.

ص: ٣٦٧

و لكن هذه العلائق و الوشائج و الارتباطات الخاويه تتقطع جميعها يوم القيامة، و كل فرد يلقي التبعه و الذنب على رقبه الآخر، و يلعنه و يتبرأ منه و من عمله، حتى المعبودات التي كانوا يتصورون أنها الوسيله إلى الله، و كانوا يقولون في شأنها مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ، (١) - تتبرأ منهم.

و كما يصور القرآن هذه الحاله في سوره مريم الآيه ٨٢ يقول: كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا .

فعلى هذا، يكون المراد من قوله تعالى: يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَ يَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا هو أنهم يتبرأ بعضهم من بعض في ذلك اليوم، و ما كان أساسا لعلاقه الموده الكاذبه في الدنيا يكون مدعا للعداوه و البغضاء في الآخره.. كما يعبر القرآن عن ذلك في الآيه (٦٧) من سوره الزخرف فيقول: أَلَّا خَلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ .

و استفاد من بعض الروايات أن هذا الحكم غير مختص بعبده أو ثان، بل هو لجميع أولئك الذين اختاروا «إماما باطلا» لأنفسهم، فاتبعوه و تعاهدوا معه على الموده، ففي يوم القيامة يكونون أعداء فيما بينهم، و يتبرأ بعضهم من بعض و يلعن بعضهم بعضا. (٢) في حين أن علاقته المحبه بين المؤمنين قائمه على أساس التوحيد و عباده الله و إطاعه أمر الحق في هذه الدنيا و هذه علاقته سيكتب لها الدوام، و في الآخره تكون أكثر تماسكا.. حين إنه استفاد من بعض الروايات أن المؤمنين يستغفر بعضهم لبعض و يتشفع بعضهم لبعض في يوم القيامة.. في وقت يتبرأ فيه المشركون بعضهم من بعض و يلعن بعضهم بعضا (٣).

و في الآيه التي بعد تلك الآيه إشارة إلى إيمان لوط و هجره إبراهيم، إذ تقول:

ص: ٣٦٨

١-١) -سوره الزمر، الآيه ٣.

٢-٢) -أصول الكافي، طبقا لما ورد في تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ١٥٤.

٣-٣) -كتاب الصدوق، طبقا لما ورد في تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ١٥٤.

«لوط» نفسه من الأنبياء العظام، وكانت له مع إبراهيم علاقته قريبي «يقال إنه كان ابن أخت إبراهيم عليه السلام» وحيث أن أتباع شخص عظيم-لإبراهيم-بمنزله أفراد أمه كامله فقد تحدث سبحانه-خاصه-عن إيمان «لوط» وشخصيته الكبرى المعاصره لإبراهيم عليه السلام، ليتضح أنه إذ لم يؤمن الآخرون، فإن ذلك ليس مهماً.

و يبدو أنه كانت في أرض بابل قلوب مهياًه لقبول دعوه إبراهيم الخليل عليه السلام، وقد التفوا حوله بعد مشاهدته تلك المعجزه العظيمه، غير أنه من المسلم به أنهم كانوا «أقلية».

ثم تضيف الآيه عن هجره إبراهيم عليه السلام فتقول: **وَ قَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .**

ومن الواضح بمكان أنه حين يؤدي القاده الإلهيون رسالتهم في محيط ما، ويكون هذا المحيط ملوثاً و تحت تأثير الجبابره، بحيث لا تتقدم دعوتهم أكثر، فينبغي أن يهاجروا إلى منطقه أخرى لتتسع دعوه الله في الأرض!.

فلذلك تحرك إبراهيم عليه السلام و زوجته ساره-بمعني لوط-من بابل إلى أرض الشام مهد الأنبياء و التوحيد، ليستطيع أن يكتسب جماعه هناك و يوسع دعوه التوحيد!.

من الطريف أن إبراهيم عليه السلام يقول في هذا الصدد: **إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي لَأَنَّ ذَلِكَ الطَّرِيقَ كَانَ طَرِيقَ اللَّهِ، طَرِيقَ رِضَاهِ، وَ طَرِيقَ دِينِهِ وَ مِنْهَاجِهِ.**

و بالطبع فإن بعض المفسرين احتمل أن يكون الضمير في قوله تعالى: **وَ قَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ عَائِدٌ عَلَىٰ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَيْ إِنَّ لُوطًا قَالَ: إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي، وَ ظَاهِرُ الْجُمْلَةِ مَنْسَجَمٌ مَعَ هَذَا الْمَعْنَى أَيْضًا، إِلَّا أَنَّ الشَّوَاهِدَ التَّارِيخِيَّه تَدلُّ عَلَىٰ أَنَّ الضَّمِيرَ يَعُودُ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَ كَانَتْ هَجْرَهُ لُوطٌ بِمَعْنَى إِبْرَاهِيمَ.**

و الشاهد على هذا الكلام قول إبراهيم عليه السلام فى الآيه (٩٩) من سوره الصافات إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَّهْدِينِ . (١)

و فى آخر آيه من هذا المقطع يقع الكلام على المواهب الأربع التى منحها الله لإبراهيم عليه السلام بعد الهجره العظيمة:

الموهبه الأولى: الأبناء الصالحون، من أمثال إسحاق و يعقوب، ليسرجوا مصباح الإيمان و النبوه فى بيته و أسرته و يحافظوا عليه، إذ يقول القرآن: وَ هَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ هُمَا نَبِيَّانِ كَبِيرَانِ وَ اصْلَ كُلِّ مَنَّهُمَا السَّيْرَ عَلَىٰ مَنَاجِإِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُحْطَمِ الْأَصْنَامِ.

الموهبه الثانية: وَ جَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَ الْكِتَابَ وَ لَمْ تَكُنِ النَّبُوَّةُ فِي إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ وَ يَعْقُوبَ حَفِيدَهُ فَحَسَبَ، بل استمر خط النبوه فى ذريه إبراهيم عليه السلام و أسرته حتى نبوه خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه و آله و سلم متعاقبون من ذريه إبراهيم، نوروا العالم بضياء التوحيد.

الموهبه الثالثة: وَ آتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا فما هو هذا الأجر الذى لم يوجهه القرآن؟ لعله إشاره إلى أمور مختلفه مثل الاسم الحسن، و لسان الصدق و الثناء بين جميع الأمم، لأن الأمم كلها تحترم إبراهيم عليه السلام على أنه نبى عظيم الشأن، و يفتخرون بوجوده و يسمونه «شيخ الأنبياء».

عماره أرض مكه كانت بدعائه، و جذب قلوب الناس جميعا نحوه، لتتذكر ذكريات التجلى و الإيمان كل سنه فى مناسك الحج، كل ذلك من هذا الأجر المشار اليه فى القرآن.

الموهبه الرابعة: هِيَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لِمَنْ الصَّالِحِينَ وَ هَكَذَا تَشَكَّلَ هَذِهِ

ص : ٣٧٠

١ - ١) - هناك بحث مفصل فى هجره إبراهيم عليه السلام من بابل إلى الشام فى ذيل الآيه (٧١) من سوره الأنبياء من التفسير الأمثل، فلا بأس بمراجعته.

ملاحظات

اشاره

١- أكبر الفخر!...

«الدخول في الصالحين» بالشكل الذي يستنتج من كثير من آيات القرآن هو أوج الفخر، وقد يحظى به انسان معين فيكون من نصيبه. و لذلك فإن كثيرا من الأنبياء كانوا يسألون الله أن يدخلهم في زمرة عباده الصالحين.

فيوسف عليه السلام بعد وصوله إلى أبرز الانتصارات الظاهرية يسأل الله فيقول:

تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ . (١)

و كذلك نبي الله سليمان عليه السلام مع ما لديه من جاه و حشمه و جلاله، يطلب من الله أَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (٢) و شعيب عليه السلام، ذلك النبي العظيم، حين وقع العقد على استئجار موسى قال له:

سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ . (٣)

و إبراهيم عليه السلام أيضا يطلب لنفسه من الله أن يكون في زمرة الصالحين رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ . (٤)

كما يطلب من الله أن يرزقه أبناء صالحين فيقول: رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ . (٥)

ص: ٣٧١

١- ١) -سوره يوسف، الآية ١٠١.

٢- ٢) -سوره النمل، الآية ١٩.

٣- ٣) -سوره القصص، الآية ٣٧.

٤- ٤) -سوره الشعراء، الآية ٨٣.

٥- ٥) -سوره الصافات، الآية ١٠٠.

كما نلاحظ في كثير من الآيات أن الله سبحانه حين يمدح أنبياء العظام في كتابه، يصفهم بأنهم «من عباده الصالحين».

و يستفاد من مجموع هذه الآيات-بصوره جيدة-أن أسمى مراحل تكامل الإنسان هو أن يكون عبدا صالحا.

ما معنى الصلاح؟! و بعبارته أجلى: ما معنى أن يكون الإنسان صالحا؟! معناه: أن يكون جديرا بالاعتقاد و الإيمان، جديرا بالعمل، جديرا بالقول، جديرا بالأخلاق! أما ما يقابل الصالح فهو الفاسد، و نعرف أن «الفساد في الأرض» تعبير يشمل جميع أنواع الظلم و الأعمال السيئة.

و في القرآن الكريم يستعمل الصلاح-أحيانا-في مقابل الفساد، و يستعمل - أحيانا- في مقابل السيئة، و تعني «الذنب» و ما لا يليق.

٢- مواهب إبراهيم العظيمة

قال بعض المفسرين: إنَّ في الآيه الأنفه لطيفه دقيقه.. هي أنّ الله بدل جميع الأمور و الأحوال التي تؤدي بإبراهيم إلى الاستياء، إلى الضدّ.

فعبده الأوثان في بابل أرادوا إحراقه بالنار، فتبدلت روضه و سلاما.

و أرادوه أن يبقى منفردا معزولا عن الناس، فوهب الله له أمه عظيمه و جعل النبوه في ذراريه.

و كان بعض أقاربه ضالا و عابدا للصنم كما هي الحال في «آزر» فأعطاه الله مكانه أبناء مهتدين و هادين للآخرين.

و لم يكن لإبراهيم عليه السلام في بدايه حياته مال و لا جاه، فوهب له الله مالا و جاها عظيما.

و كان إبراهيم عليه السلام في بدايه أمره مجهولا لا يعرفه الناس حتى أن عبده الأوثان في بابل حين أرادوا تعريفه قالوا سَجِّعْنَا
فَتَى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبرَاهِيمُ .

لكن الله سبحانه رفع مقامه و أعلى صيته، حتى أنه إذا ذكر قيل في حقّه «شيخ الأنبياء» أو «شيخ المرسلين» (١).

ص: ٣٧٣

(١ - ١) - تفسير الرازي، بشيء من التصرف.

اشاره

وَ لُو طًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٨) أ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَ تَقَاطَعُونَ السَّبِيلَ وَ تَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (٣٠)

التفسير

اشاره

المنحرفون جنسيا:

بعد بيان جانب مما جرى لإبراهيم عليه السلام يتحدث القرآن عن قسم من قصه حياه النبي المعاصر لإبراهيم «لوط» عليه السلام فيقول: وَ لُو طًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ . (١)

«الفاحشه» كما بينها من قبل، مشتقه من ماده «فحش» و هي في الأصل تعنى كل فعل أو كلام سيء للغاية، و المراد بها هنا الانحراف الجنسي. (اللواط).

و يستفاد من جمله مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ بصوره جليته أن

ص: ٣٧٤

١ - ١) - يمكن أن تكون كلمه «لوطا» عطفًا على كلمه (نوحا) فتكون بمنزله المفعول «لأرسلنا» و يمكن أن يكون مفعولا- لفعل محذوف تقديره «و اذكر لوطا».

هذا العمل السيء و المخزى لم يسبق له -على الأقل بشكل عام و جماعى- أن يقع فى آيه أمه أو قوم كما وقع فى قوم لوط.

ذكروا فى أحوال قوم لوط أن واحدا من عوامل تلوثهم بهذا الذنب هو أنهم كانوا قوما بخلاء جدا، ولما كانت مدنهم على قارعه الطريق التى تمرّ بها قوافل الشام، فقد كانوا يظهرون هذا العمل «الانحراف» لبعض ضيوفهم أو العابرين لينفروهم و كى لا يضيفوهم، إلا أنهم تعودوا على هذا العمل القبيح، و قويت فيهم رغبة اللواط، فسقطوا فى الوحل المخزى شيئا فشيئا.

على كل حال، سينثون بحمل ذنوبهم و ذنوب من يعمل عملهم، دون أن ينقص من ذنوب الآخرين شىء أبدا و ليحملن أثقالهم و أثقالا مع أثقالهم!

لأنهم كانوا مؤسسى هذه السنه المشؤومه، و نحن نعرف أن من سنّ سنه ما فهو شريك فى عمل من يعمل بها أيضا.

لوط عليه السلام هذا النبى العظيم، كشف أخيرا ما فى نفسه و قال لقومه أ إِنَّكُمْ لَتِيَأْتُونَ الرَّجَالَ أ فتريدون أن تقطعوا النسل و تَقَطُّعُونَ السَّبِيلَ (١) .

و لا ترعون عن الأعمال المخزيه فى مجالسكم العامه و تَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرَ .

«النادى» مشتق من «النداء» و هو يعنى المجلس العام، كما يأتى أحيانا بمعنى مكان التنزه، لأنّ الأفراد هناك ينادى بعضهم بعضا و ترتفع أصواتهم.

و القرآن لم يبين هنا بتفصيل آيه منكرات كانوا يأتونها فى مجالسهم و نواديهم.. لكنّها قطعاً كانت متناسبه مع عملهم السيء المخزى.. و كما ورد فى

ص: ٣٧٥

١-١) -يرى جماعه من المفسرين وجوها و احتمالات أخرى لجملة «و تقطعون السبيل» منها ما فسروه بقطع الطريق على الناس فى سفرهم مع الالتفات إلى ماضيهم و تاريخهم المعروف، لأنّ القوافل تضطر أن تأخذ طريقا غير مطروق من أجل أن تسلم من شرّ هؤلاء و لئلا تبلى بهم، كما فسّره بعضهم بسرقة أموال المسافرين فى القافله و لكن التفسير الأوّل المشار إليه فى المتن أنسب لآيه كما يبدو للنظر، لأنّ واحدا من أسرار تحريم اللواط و فلسفته هو خطر قطع النسل كما صرحت به الروايات.

بعض التواريخ، فإنهم كانوا يتسابون بكلمات الفحش والابتذال، أو يضرب أحدهم الآخر على ظهره. أو يلعبون القمار، أو يعيثون كالأطفال و خاصة الترامى بالحجاره الصغيره فيما بينهم أو على العابرين، و يستعملون أنواع الآلات الموسيقية، و يكشفون عوراتهم فى مجتمعهم و يغدون عراه... إلخ (١).

فى حديث عن النبى صلى الله عليه و آله كما تنقله «أم هانى» أنه قال مفسرا لمعنى:

وَ تَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرَ

أنهم «كانوا يخذفون من يمرّ بهم و يسخرون منه» (٢) أى يرمون من يمرّ بهم بالحجاره و يسخرون منه.

و الآن فلنلاحظ ما ذا كان جواب هؤلاء القوم الضالين المنحرفين، على كلمات النبى لوط عليه السلام المنطقيه.

يقول القرآن: فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ .

أجل هكذا، كان جواب هؤلاء المفتونين فاقدى العقل و الدرايه إذ أجابوا به من منطلق السخرية و الاستهزاء إزاء دعوه لوط عليه السلام المنطقيه و المعقوله.

كما يستفاد جيدا من هذا الجواب أنّ لوطا عليه السلام كان قد هدّدهم بعذاب الله، بالإضافة إلى كلامه البين ذى الدليل الواضح فى ما لو استمروا بهذا العمل القبيح، إلا أنهم تركوا جميع مواعظه و تمسكوا بتهديده بالعذاب، فقالوا: إِنَّتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ عَلَى سَبِيلِ الاستهزاء و السخرية!!... كما أشير إلى هذا الموضوع فى سورة القمر الآيه (٣٦) بقوله تعالى: وَ لَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتْنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ .

و يستشف -ضمنا- من تعبير هؤلاء القوم أنهم كانوا يريدن أن يستنتجوا من عدم نزول العذاب على كذب لوط عليه السلام، فى حين أن رحمه الله هى التى تمهلهم و تعطيهم الفرصه لمراجعه أنفسهم و إعاده النظر!

ص: ٣٧٤

١-١) -سفينه البحار، ج ٢، ص ٥١٧.

٢-٢) -تفسير القرطبى ذيل الآيات محل البحث.

و هنا لم يكن للوط عليه السلام بدّ إلا أن يلتفت إلى الله بقلب حزين مهموم... وَقَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ .

القوم المنحرفين، المتمادين في الأرض فسادا، والذين تركوا تقواهم و أخلاقهم الإنسانيه و ألقوا العفه و الطهاره خلف ظهورهم، و سحقوا العدل الاجتماعى تحت أقدامهم، و مزجوا عباده الأوثان بفساد الأخلاق و الظلم، و هددوا نسل الإنسان بالفناء و الزوال، فيا رب انصرنى على هؤلاء القوم المفسدين.

ملاحظه

اشاره

بلاء الانحراف الجنسى:

الانحراف الجنسى -سواء كان فى أوساط الرجال «اللواط» أم فى أوساط النساء «المساحقه»- لهو من أسوأ الانحرافات الأخلاقية، و مصدر المفسد الكثيره فى المجتمع.

و أساسا فإنّ طبيعه «كلّ من الرجل و المرأة» مخلوقه بشكل يمنح الهدوء و الإشباع الصحيح السالم فى العلاقه الجنسيه بين الرجل و المرأة «عن طريق الزواج المشروع» و أى نوع من الميول الجنسيه فى غير هذه الصوره هو انحراف عن طبع الإنسان الصحيح، و هو نوع من الأمراض النفسية الذى لو قدر له أن يستمرّ لاشتد خطره يوما بعد يوم، و تكون نتيجه البرود الجنسى بالنسبه ما بين الرجل و المرأة، و الإشباع غير الصحيح من «الجنس المماثل» أى «اللواط» أو «السحاق».

و لهذا النوع من العلائق غير المشروعه أثر مدمرّ فى جهاز البدن، بل حتى فى سلسله الأعصاب و الروح. إذ يسقط الرجل من رجولته و المرأة من أنوثتها!

ص: ٣٧٧

بحيث أن أمثال هؤلاء الرجال و النساء المنحرفين جنسيا يتلون بضعف جنسى شديد، و لا يستطيعون أن يكونوا آباء و أمهات صالحين لأبنائهم فى المستقبل، و ربّما كانوا غير قادرين حتى على الإنجاب بصورة كليّه «بسبب هذا الانحراف».

إن المنحرفين جنسيا يعدون بالتدريج متزوين منعزلين عن المجتمع، و يحسون بالغربه فى مجتمعهم و فى أنفسهم أيضا، كما يتلون بنفصام الشخصيه، و إذا لم يهتموا بإصلاح أنفسهم، فمن الممكن أن يبتلوا بأمراض جسميه و نفسيه مختلفه.

و لهذا السبب-و لأسباب أخلاقيه و اجتماعيه أخرى-حرّم الإسلام الانحراف الجنسى تحريما شديدا بأى شكل كان و فى أيه صوره، كما قرر للذى يقوم بهذا العمل عقابا صارما يبلغ أحيانا إلى درجه الإعدام و القتل!.

و الموضوع المهم هو أن الانفلات الاخلاقى و التمّع الجنسى و الابتذال للعالم المتمدن و الحضاره الماديه قد جرّت كثيرا من الفتيان و الفتيات إلى الانحراف الكبير.

فى البدايه يرغبون الفتيان فى أن يلبسوا ثياب النساء و أن يظهروا بمظهر خاص، و يدعون النساء أن يلبسن ثياب الرجال، و تبدأ من هنا قضيه الانحراف الجنسى حتى تصل إلى أقبح الأعمال الوقحه فى هذا المجال، و تأخذ شكلا قانونيا بحيث يعدون هذا الأمر عاديا لا يستحق أى نوع من العقاب أو التبعه، و لا يسع القلم إلا أن يستحى و يخجل من وصف ذلك (1).

ص: ٣٧٨

١-١) - كان لنا فى صدد الانحراف الجنسى بحث مفصل فى ذيل الآيه (٨١)سوره هود...

إشاره

وَ لَمَّا جَاءَتْ رُسُلَنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرِى قَالُوا إِنَّا مَهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا إِمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢) وَ لَمَّا أَنَّ جَاءَتْ رُسُلَنَا لُوطًا سِتَّىءَ بِهِمْ وَ ضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَ قَالُوا لَا تَخَفْ وَ لَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيُونَ وَ أَهْلَكَ إِلَّا إِمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) وَ لَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيْنَهُ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٣٥)

التفسير

إشاره

و هذه هي عاقبه المنحرفين:

لقد أستجيب دعاء لوط أخيراً، و صدر الأمر من الله تعالى بالعقاب الصارم و الشديد لهؤلاء القوم المنحرفين و المفسدين، فمّر الملائكة المأمورون بعذاب قوم لوط بالأرض التي فيها إبراهيم عليه السلام لأداء رساله أخرى قبل أن ينزلوا العقاب بقوم لوط، و هذه الرساله التي سبقت العذاب، هي بشارتهم لإبراهيم عليه السلام بالولد:

«بشروه بإسحاق و من وراء إسحاق يعقوب».

و الآيات المتقدمه تذكر أولاً قصه مرورهم بإبراهيم عليه السّلام فتقول: وَ لَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ .

و التعبير ب«هذه القرية» يدل على أن مدن قوم لوط كانت قريبه من أرض إبراهيم عليه السّلام و التعبير بالظالمين هو لأجل كونهم يظلمون أنفسهم باتخاذهم سبيل الشرك و الفساد الأخلاقي و عدم العفه، و ظلمهم الآخرين حتى شمل العابرين و القوافل التي كانت تمرّ على طريقهم.

فلما سمع «إبراهيم» هذا النبأ حزن على لوط النبي العظيم و قال إِنَّ فِيهَا لُوطًا .

فما عسى أن تكون عاقبته؟! إلاّ- أنهم أجابوه على الفور، قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا فلا- تحزن عليه، لأننا لا- نحرق «الأخضر و اليابس» معاً، و خطتنا دقيقه و محسوبه تماما... ثم أضافوا لِنُنَجِّيَنَّه وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ .

و يستفاد من هذه الآيه جيذا أن أسره واحده فقط في جميع تلك المدن و القرى كانت مؤمنه و غير مدنّسه، و قد نجاها الله في ذلك الحين أيضا... كما نقرأ مثل ذلك في الآيه (٣٦) من سوره الذاريات: فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ و مع ذلك فإنّ امرأه لوط كانت خارجه عن جماعه المؤمنين، فشمّلها العذاب.

و التعبير ب«العابرين» جمع «غابر» و معناه المتخلف عن جماعته الماضين في الطريق، فالمرأه التي كانت في عائله النبوه لا ينبغي لها أن تنفصل عن المؤمنين و المسلمين... غير أنّ الكفر و الشرك و عباده الأوثان- كل ذلك- دعاها إلى الانفصال!.

و يتضح من هنا أن انحرافها كان من جهة العقيدة، و لا يبعد أن يكون هذا الانحراف متأثراً بسبب محيطها... و كانت في بدايه الأمر مؤمنه موحده، و بهذا فلن يرد أى إشكال على لوط عليه السّلام فى أنه لم تزوّج بمثل هذه المرأه؟! و إذا كان جماعه من المؤمنين الآخرين قد آمنوا بلوط، فمن المؤكّد أنّهم كانوا قد هاجروا عن تلك الأرض المدنّسه قبل هذا الحادث، ما عدا لوطا و أهله، فإنّه كان عليه أن يبقى إلى آخر ساعه هناك، لاحتمال تأثير تبليغه و إنذاره.

هنا ينقدح هذا السؤال: ترى هل كان «إبراهيم» يحتمل أن عذاب الله سيشمل لوطا، فأظهر تأثره أمام الملائكه، غير أنّهم طمأنوه بنجاه لوط؟! و الجواب الواضح على هذا السؤال، و هو أن إبراهيم كان يعرف الحقيقه، و إنّما سأل ليطمئن قلبه، نظير هذا السؤال ما كان من هذا النّبى العظيم فى شأن المعاد و إحياء الموتى، إذ جسد له الله ذلك فى إحياء أربعه من الطير «ليطمئن قلبه».

إلا أنّ المفسّر الكبير العلامه الطباطبائى يعتقد أنّ المراد من سؤال إبراهيم هو أن وجود «لوط» بين هؤلاء القوم سيكون دليلا على رفع العذاب عنهم...

و يستعين بالآيات (٧٤) - (٧٦) من سوره هود على هذا المقصد، لأنّ هذه الآيات تبين: أنّه عليه السّلام كان يريد بقوله: إِنَّ فِيهَا لُوطًا أن يصرف العذاب بأن فيها لوطا و إهلاك أهلها يشمله، فأجابوه بأنهم لا يخفى عليهم ذلك بل معه غيره ممن لا يشملهم العذاب و هم أهله إلا امرأته. (١)

لكننا نعتقد أنّ هذا الجواب من الملائكه - فى صدد نجاه لوط و أهله - يدلّ بوضوح أن الكلام فى هذه الآيات هو على لوط فحسب، و لكن آيات سوره هود تتحدث عن موضوع منفصل، و كما قلنا آنفا فإنّ إبراهيم كان ليطمئن قلبه أكثر

ص: ٣٨١

انتهى كلام الملائكة مع إبراهيم هنا، و توجهوا إلى ديار لوط عليه السلام و قومه، يقول القرآن فى هذا الشأن: وَ لَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَ ضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا .

و كان كلّ استيائه و عدم ارتياحه بسبب أنه لم يعرفهم...فقد جاؤوا إليه بهيئه فتيان ذى وجوه مليحه، و مجيء أمثال هؤلاء الضيوف فى مثل هذا المحيط الملوّث، ربّما كان يجزّ على لوط الوبال، و أن يذهب ماء وجهه أمامهم، لذلك فكر مليئا: ما عسى أن يكون ردّ فعل هؤلاء القوم الضالين الوقحين الذين لا- حياء لهم قبال هؤلاء الضيوف؟! «سىء» مشتقّه من «ساء» و معناه سوء الحال، و «الذرع» معناه «القلب» «الخلق»، فعلى هذا يكون معنى ضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا أى ضاق قلبه و انزعج.

و قال بعض المفسّرين: إنّ هذه الكلمه فى الأصل تعنى «الفاصله بين أطراف البعير أثناء السير» و حيث أنّهم إذا وضعوا على البعير حملا ثقيلًا قصير خطاه و ضيق الفاصله، عبروا بجملة «ضاق ذرعا» كناية عن الحادته الثقيله «الصعبه» التى لا تطاق! إلا أنّ الضيوف حين أدركوا عدم ارتياحه كشفوا عن «هويّتهم» و عرفوا أنفسهم و رفعوا عنه الحزن: وَقَالُوا لَا- تَخَفْ وَلَا- تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَ أَهْلَكَ إِلَّا أُمَّرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ .

و يستفاد بالطبع من الآيات التى فى سوره هود أن أولئك القوم الأراذل، حين عرفوا بوجود الضيوف عند لوط عليه السلام أسرعوا إليه، و كان فى نيتهم أن يعتدوا عليهم، و حيث أن لوطا كان لا يزال غير عارف بحقيقه الملائكه فقد كان متأثرا جدّا، و كان تاره ينصحهم و اخرى يهدّدهم و مرّه يقول لهم: أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ فيحرك ضمائرهم و تاره يقترح عليهم الزواج من بناته، و أراد أن يمنعهم

من الوصول إلى أضيافه، لكن هؤلاء المنحرفين الذين لا حياء لهم لم يقتنعوا بأى شىء و لم يفكروا إلا بهدفهم المخزى.

و لكن رسل الله عرفوا أنفسهم للوط عليه السّلام، و أعموا أبصار هؤلاء القوم الذين أرادوا الهجوم على الملائكة و اثلجوا قلب ذلك النّبي العظيم عليه السّلام. (١)

و ما ينبغى الالتفات إليه أن رسل الله قالوا للوط: لَا تَخَفْ وَ لَا تَحْزَنْ فما الفرق بين كلمتى «الخوف» و «الحزن»؟ ورد فى تفسير الميزان أن الخوف يقع على الحوادث غير المستساغة احتمالا.. أما الحزن فيقع فى الموارد القطعية.

و قال بعضهم: الخوف يطلق على الحوادث المستقبلية، أمّا الحزن فعلى ما مضى! كما يرد هذا الاحتمال و هو أن الخوف فى المسائل الخطره، أمّا الحزن فهو فى المسائل الموجهه، و إن لم يكن فيها أى خطر!..

و هنا يتقدح هذا السؤال، و هو أنه طبقا لآيات سوره هود فإنّ لوط و خوفه لم يكن على نفسه، بل كان يخشى أن يضايقوا «ضييفه» (٢) غير أن جواب الملائكة يتعلق بنجاه لوط و أهله، و هذان الأمران غير منسجمين.

و الجواب على هذا السؤال يستفاد إجمالا من الآيه (٨١) من سوره هود، لأنّ القوم المنحرفين حين مدّوا أيديهم إلى الضيوف قال الملائكة: يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِطُّوا إِلَيْكَ أى مسألتنا سهله... و لن يصل إليك سوء و أذى منهم أيضا، فعلى هذا كان الملائكة يرون النجاه بالنسبه لهم من المسلمّ بها، و إنّما ركزوا على البشاره للوط و أهله فحسب.

و بعد هذا، و لكى تتضح خطه عملهم فى شأن عاقبه هؤلاء القوم المنحرفين

ص: ٣٨٣

١- ١) - ذكرنا تفصيل هذا الحادث فى ذيل الآيات ٧٧-٨١ من سوره هود فلا بأس بمراجعتها.

٢- ٢) - «الضييف» يطلق على المفرد و الجمع، و جمعه: ضيوف و أضياف. (المصحح).

أكثر، أضافوا: إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ .

و المراد بالقريه هي «سدوم» و ما جاورها من القرى و المدن التي كان يسكنها قوم لوط، و قد أوصل بعضهم عدد هؤلاء إلى سبعمائه ألف نفر (١) .

و المراد من «الرجز» هنا هو العذاب، و معناه الأصلي الاضطراب، ثم عبروا عن كل شيء يوجب الاضطراب بالرجز، و لذلك استعمل العرب كلمه الرجز في كثير من المعانى كالبلايا الشديده، و الطاعون أو اليرد، و الأصنام، و وساوس الشيطان، و العذاب الإلهي.. إلخ.

و جمله بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ هي سبب عقابهم الشديد، لأنهم لم يطيعوا الله، و التعبير بالفعل المضارع «يفسقون» دليل على استمرارهم و دوامهم على العمل القبيح!

و هذا التعبير يبين هذه الحقيقه، و هي لو أن أولئك لم يستمروا على الذنب، و كانوا يتوبون و يعودون إلى طريق الحق و التقوى، لم يبتلوا بمثل هذا العذاب و كانت ذنوبهم الماضيه مغفوره.

و هنا لم يذكر القرآن كيفيه العذاب الأليم، سوى أنه قال: وَ لَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .

إلا أن في سورة هود الآيه (٨٢) منها، و كذلك سورة الأعراف الآيه ٨٤ منها، تفصيلا في بيان العذاب، و هو أنه أصابت قراهم في البدايه زلزه شديده فجعلت عاليها سافلها، ثم أمطرت عليها حجاره من السماء بحيث توارت بيوتهم و قراهم و أجسادهم تحتها!

و التعبير ب«الآيه البينه» أى العلامه الواضحه، هو إشاره إلى الآثار الباقيه من مدينه «سدوم» التي كانت في طريق قوافل أهل الحجاز طبقا «لآيات القرآن»...

ص: ٣٨٤

و كانت باقيه حتى ظهور النّبي صلّى الله عليه و آله. كما نقرأ فى الآيه (٧٦) من سوره الحجر وَ إِنهٗا لَبَسِيْلٍ مُّقِيْمٍ ، و كما نقرأ فى سوره الصافات الآيتين (١٣٧) و (١٣٨):

وَ اِنَّكُمْ لَتَمُرُّوْنَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِيْنَ وَ بِاللَّيْلِ اَفْلا تَعْقِلُوْنَ .

ص: ٣٨٥

اشاره

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِينِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَبِّدْهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨) وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩) فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)

التفسير

اشاره

تنوع العذاب للظالمين:

بعد بيان قصه لوط و قومه يقع الكلام عن أقوام آخرين أمثال قوم شعيب و عاد و ثمود، وقارون و فرعون، وقد أشير في هذه الآيات-محل البحث-إلى كلِّ

منهم إشارة موجزه «مكثفه» للاستنتاج و العبره! فى البدايه تقول الآيه: وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا (١).

و التعبير بكلمه «أخاهم» كما قلنا مرارا، هو إشارة إلى منتهى محبه هؤلاء الأنبياء إلى أمهم، و إلى عدم طلبهم السلطه، و بالطبع فإن هؤلاء الأنبياء كانت لهم علاقه قرابه بقومهم أيضا.

و «مدين» مدينه واقعه جنوب غربى الأردن، و تدعى اليوم ب«معان» و هى فى شرق خليج العقبه، و كان شعيب عليه السلام و قومه يقطنون فيها (٢).

و شعيب كسائر أنبياء الله العظام، بدأ بالدعوه الى الاعتقاد بالمبدأ و المعاد، و هما أساس كل دين و طريقه فقال يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ .

فالإيمان بالمبدأ يكون سببا لإحساس الإنسان بأن الله يراقبه مراقبه دقيقه بشكل دائم و يسجل أعماله؛ و الإيمان بالمعاد يذكر الإنسان بمحكمه عظيمه يحاسب فيها عن كل شئ و كل عمل مهما كان تافها... و من المسلم أن الاعتقاد بهذين الأصلين له أثره البالغ على تربيته الإنسان و إصلاحه!

و المبدأ الثالث هو بمثابة خطه عمل جامعه، تحمل بين طياتها جميع الخطط الاجتماعيه، إذ قال: وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ .

و للفساد مفهوم واسع يشمل كل نقص انحراف، و تدمير، و ظلم.. إلخ.. و يقابله الصلاح و الإصلاح، و مفهومهما يشمل جميع الخطط البتاءه!

أمّا كلمه «تعثوا» فهى من ماده «عثى» و معناه إحداث الفساد أو الإفساد، غايه ما فى الأمر أن هذا التعبير كثيرا ما يستعمل فى الموارد التى تكون فيها «مفاسد أخلاقيه»، فعلى هذا يكون ذكر كلمه «مفسدين» بعدها تأكيداً على هذا

ص: ٣٨٧

١-١) - هذه الجملة معطوفه على جملة «و لقد أرسلنا نوحا».

٢-٢) -ورد الكلام على مدين فى ذيل الآيه (٢٣) من سوره القصص فى هذا الجزء بإسهاب.

إِلَّا أَنَّ تِلْكَ الْجَمَاعَةَ بَدَلًا مِنْ أَنْ تَصْغَى لِمَوَاعِظِهِ وَنَصَائِحِهِ بِأَذَانِ الْقُلُوبِ، خَالَفَتْهُ وَ لَمْ تَصْغِ إِلَيْهِ «فَكَذَّبُوهُ».

و كان هذا التّكذيب سببا في أن تصيبهم زلزاله شديده فأخذتْهُمْ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِثِينَ أَي مكبوين على وجوههم ميتين.

و«الجاثم» مشتق من «جثم» على زنه «سهم» ومعناه الجلوس على الركبه و التوقف في مكان ما..و لا يبعد أن يكونوا نائمين عند وقوع هذه الزلزاله الشديده..فهذا التعبير إشاره إلى أنّهم عند وقوع هذه الحادثه نهضوا و جثوا على الركب، إلا أنّ الحادثه لم تمهلهم حيث انهارت الجدران عليهم و نزلت عليهم الصاعقه التي تزامنت معها فماتوا (١).

أمّا الآيه التي بعده فتتحدث عن «عاد» و«ثمود» قومي (هود و صالح)، دون أن تذكر ما قاله نبيّاهما لهما، و ما ردّ عليهما قومهما المعاندون، لأنّهما مذكوران في آيات عديده من القرآن، و هما أي قوم هود و قوم صالح معروفان، فلذلك، تقول الآيه: وَ عَادًا وَ ثَمُودًا (٢).

ثمّ تضيف الآيه وَ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِينِهِمُ الْمُتَهْدِمَهُ وَ التي هي على طريقكم في منطقه الحجر و اليمن.

فأنتم في كل سنه تمرون في أسفاركم للتجاره بأرض «الحجر» التي تقع شمال جزيره العرب، و بالأحقاف التي تقع قريبا من اليمن و جنوبها، و ترون آثار المساكن المتهدمه و بقاياها من عاد و ثمود، فعلام لا تعتبرون؟! ثم تشير الآيه إلى السبب الأصلي لشقائهم و سوء حظهم، إذ تقول:

ص: ٣٨٨

١ - ١) - بيان هذه الحادثه المؤلمه فصلناه في تفسير «سوره هود» ذيل الآيات في شرح قصه «شعيب و قومه».

٢ - ٢) - «و عادا و ثمودا» مفعولان لفعل مقدر و هو «أهلكنا» و هو يستفاد من الآيه السابقه. و قال بعضهم: فعلهما المحذوف تقديره «اذكر».

وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانَ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ

و كانت فطرتهم على فطره الله و تقواه،و لم يأل الأنبياء جهدا فى هدايتهم، و بذلوا قدرا كافيا من النصح و الإرشاد لهم،لكنهم حادوا و كانوا مُسْتَبْصِرِينَ .

قال بعض المفسرين:إن جملة و كانوا مُسْتَبْصِرِينَ تعنى أنهم كانوا ذوى أعين بصيره،و عقل كاف.

و قال بعضهم:إنها تعنى أنهم كانوا على الفطره السليمه.

كما قال آخرون:إنها تعنى هدايه الأنبياء لهم.

و لا-يمنع اجتماع جميع هذه المعانى فى الآيه الكريمة،فهى إشاره إلى أنهم لم يكونوا جاهلين قاصرين،بل كانوا يعرفون الحق جيدا من قبل،و كانت ضمائرهم حيه و لديهم العقل الكافى،و أتم الأنبياء عليهم الحجّه البالغه،و لكن...

مع كل ما تقدم...من نداء العقل و الضمير،و دعوه الأنبياء،فقد انحرفوا عن السبيل و وسوس لهم الشيطان،و يوما بعد يوم يرون أعمالهم القبيحه حسنه،و بلغوا مرحله لا- سبيل لهم إلى الرجوع منها،فأحرق قانون الخلق و الإيجاد هذه العيدان اليابسه..و هى جديره بذلك! و الآيه الأخرى تذكر أسماء ثلاثه من الجابره الذين كان كل واحد منهم بارزا للقدرة الشيطانيه،فتقول: وَ قَارُونَ وَ فِرْعَوْنَ وَ هَامَانَ (١) .

فقارون كان مظهر الثروه المقرونه بالغرور و عباده«الذات»و الأنانيه و الغفله.

و فرعون كان مظهر القدره الاستكباريه المقرونه بالشيطنه.

و أمّا هامان،فهو مثل لمن يعين الظالمين المستكبرين!.

ثم يضيف القرآن وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ وَ الدلائل فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ فَاعتمد قارون على ثروته و خزائنه و علمه،و اعتمد فرعون و هامان على جيشهما و على القدره العسكريه،و على قوه إعلامهم و تضليلهم لطبقات

ص: ٣٨٩

الناس المغفلين الجهله.

لكن..برغم كل ذلك لم يفلحوا وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ .

فأمر الله الأرض التي هي مهد الاطمئنان و الدعه بابتلاع قارون.

و أمر الماء الذى هو مصدر الحياه بابتلاع فرعون و هامان.

و عبأ جنود السماوات و الأرض لإهلاكهم جميعا،بل ما كان مصدر حياتهم أمر الله أن يكون هو نفسه سببا لفنائهم (1).

كلمه «سابقين» تعنى من يتقدم و يكون أمام الآخرين، فمفهوم قوله تعالى:

وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ

أى إنهم لم يستطيعوا أن يهربوا من سلطان الله برغم ما كان عندهم من إمكانيات، بل أهلكهم الله فى اللحظة التى أراد، و أرسلهم إلى ديار الفناء و الذله و الخزى.

كما يذكر فى الآيه التى بعدها فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ .

و حيث أن القرآن ذكر «الطوائف الأربع» فى الآيتين المتقدمتين، و لم يبين عذابهم، و هم:

١-قوم هود«عاد».

٢-و ثمود«قوم صالح».

٣-قارون.

٤-فرعون و هامان.

فإنه يذكر فى هذه الآيه بحسب الترتيب أنواع عذابهم. فيقول: فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا .

و«الحاصب»معناه الاعصار الذى يحمل حصى كثيره معه، و«الحصباء» «الحصى الصغيره».

ص : ٣٩٠

١-١) -شرح قصه حياه قارون فى الآيات السبع ٧٦-٨٢ سورة القصص، و هلاك فرعون و جماعته فى تفسير سورة القصص، كما ورد فى سورة الأعراف أيضا.

و المقصود ب«منهم» هنا هم «عاد» قوم هود، و حسب ما جاء فى بعض السور كالذاريات و الحاقه و القمر، أصابهم اعصار شديد مهلك خلال ثمانية أيام و سبع ليال فدمرهم تدميرا.

يقول القرآن: سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَ ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صِرَعًا كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ «الحاقه».

وَ مِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ

و قلنا: إن الصيحة السماوية التي هي نتيجة الصاعقه التي تقترن مع الزلزاله فى زمان الوقوع، و هذا هو العذاب الذى عذب الله به ثمود «قوم هود» كما عذب آخرين... و يقول القرآن فى الآيه (٦٧) من سوره هود فى شأن ثمود وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ .

وَ مِنْهُمْ مَنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ

و هذا هو عقاب قارون الثرى المغرور المستكبر من بنى إسرائيل، و قد أشير إليه فى الآيه (٨١) من سوره القصص.

وَ مِنْهُمْ مَنْ أَعْرَفْنَا

و نعرف أنّ هذا الكلام إشارة إلى عقاب فرعون و هامان و جنودهما، و قد ذكرت هذه القصه فى سور متعدده من القرآن الكريم.

و على كل حال، فمع الالتفات لهذا البيان فإن أنواع العذاب الأربعة ذكرت هنا للطوائف الأربعة المذكورين فى الآيتين المتقدمتين. حيث اشارتا إلى ضلالهم و انحرافهم و ذنوبهم دون أن تذكر عقابهم.

و لكن من البعيد أن تشمل هذه الأنواع الأربعة من العذاب الواردة فى هذه الآيه أقواما آخرين، كما يقول بعض المفسرين. «كالغرق لقوم نوح، و إبطار الحجارة و الحصباء على قوم لوط» لأن عقابهم مذكور هناك و فى موارد ذكرهم و لا حاجة للتكرار هنا، و أمّا عقاب الفئات الأربعة فلم يذكر فى هذه السلسله من الآيات، و لذا بينه الله سبحانه فى الآيتين الأخيرتين.

و يبين فى ختام الآيه التأكيد على هذه الحقيقه، و هى أنّ ما أصابهم هو بسبب أعمالهم، و هم زرعوا فحصدوا وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَ لَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ

أجل، إنَّ عقاب هذه الدنيا و الآخرة هو تجسيد أعمالهم، حيث يخلقون جميع طرق الإصلاح في وجوههم. فالله أكثر عدلا و أسمى من أن يظلم الإنسان أدنى ظلم!.

و هذه الآيه-كسائر كثير من آيات القرآن-ثبتت أصل الحرية في الإرادة و الإختيار عند الإنسان، و تقرر أن التصميم في كل مكان يصدر من الإنسان نفسه. و قد خلقه الله حُرًا و يريد حُرًا..فعلى هذا يبطل اعتقاد أتباع مذهب «الجبر» الذين لهم وجود بين المسلمين-مع الأسف-بهذا المنطق القوي للقرآن الكريم.

اشاره

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢) وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (٤٣) خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٤٤)

التفسير

اشاره

دعامه واهيه كبيت العنكبوت:

بيئت الآيات السابقة ما آل إليه المشركون و المفسدون الظلمه و الأنانيون من مصير وخيم و عاقبه سوداء و عذاب أليم...و بهذه المناسبه،ففي الآيات التي بين أيدينا،يبين القرآن الكريم مثالا- بليغا و مؤثرا يعبدون غير الله و يتخذون من دونه أولياء!و كلما أمعنا النظر في هذا المثال و فكرنا فيه مليا انقذت في أذهاننا منه لطائف دقيقه،يقول تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .

كم هو بديع هذا المثال و طريف،و كم هو بليغ و دقيق هذا التشبيه!

تأملوا بدقّه... إنّ كل حيوان-و كل حشره-له بيت أو وكر و ما أشبه ذلك، لكن ليس فى هذه البيوت بيت أو هن من بيت العنكبوت! فكل بيت-عاده- يحتوى على سقف و باب و جدار، و هو يحفظ صاحبه من الحوادث، و يكون مكاناً أميناً لإيداع الأطمعه و الأشياء الأخرى و حفظها... فبعض البيوت لا سقف لها إلا أنّها على الأقل لها جدار، كما أنّ هناك بيوتاً لا جدار لها إلا أنّ لها سقفاً.

لكن بيت العنكبوت المنسوج من خيوط دقيقه واهيه، ليس له سقف و لا جدار و لا ساحه و لا باحه و لا باب، هذا من جانب... و من جانب آخر فإنّ مواد بنائه واهيه جدّاً و سرعان ما تتلاشى إزاء أيه حادثه بسيطه، فهى لا تقدر على المقاومه.

فلو هبّ نسيم عليل لتمزق هذا النسيج.

و لو سقطت عليه قطرات المطر لتلاشى و تلف.

و لو لامسته شعله خفيفه لاحترقته.

و حتى لو تراكم عليه الغبار لتركه أشلاء ممزقه معلقه.

فآلهه هؤلاء الجماعه و معبوداتهم «الكاذبه» كمثله هذا البيت لا تنفع و لا تضر و لا تحلّ مشكله، و لا تكون ملجأً لأحد فى المحنه و الشده!.

صحيح.. إنّ هذا البيت للعنكبوت-مع ما لها من أرجل طويله-هو محل استراحتها، و شرك لاصطياد الحشرات و الحصول على الغذاء إلا أنّ هذا البيت- بالقياس إلى البيوت الأخرى للحيوانات و الحشرات-فى منتهى الوهن و الانهيار!.

فمن يعتمد على غير الله و يتخذ من دونه ولياً، فقد اعتمد على بيت العنكبوت!!.

و الذين اختاروا سوى الله، اعتمدوا على بيوت العناكب، كعرش فرعون و تاجه، و الأموال المتراكمه عند قارون، و قصور الملوك و خزائنهم، جميع هذه

الأمر المذكور كمثل بيت العنكبوت!.

فهى لا تدوم، ولا يمكن الاعتماد عليها، ولا أساس لها حتى تكون راسخه أمام طوفان الحوادث.

والتاريخ يدل على أنه لا يمكن الاعتماد على أى من هذه الأمور حقًا.

أما الذين اعتمدوا على الله و توكلوا عليه، فقد اعتمدوا على سدّ حصين منيع.

والجدير بالذكر، أنّ بيت العنكبوت و نسيج خيوطه المضروب به المثل، هو نفسه من عجائب الخلق، و التدقيق فيه يعرف الإنسان على عظمه الخالق أكثر..، فخيوط العنكبوت «مصنوعه» و منسوجه من مائع لزج، هذا المائع مستقر فى حفر دقيقه و صغيره كراس الإبره تحت بطن العنكبوت، و لهذا المائع خصوصيه أو تركيب خاص هو أنه متى ما لامس الهواء جهد و تصلّب.

و العنكبوت تخرج هذا المائع بواسطه آليات خاصه و تصنع خيوطها منه.

يقال: إن كل عنكبوت يمكن لها أن تصنع من هذا المائع القليل جدًا ما مقداره خمسمائه متر من خيطها المفتول!.

و قال بعضهم: إنّ الوهن فى هذه الخيوط منشؤه دقتها القصوى، و لولا هذه الدقه فإنها أقوى من الفولاذ! لو قدر أن تفتل بحجم الخيط الفولاذى».

العجيب أنّ هذه الخيط تنسج أحيانا من أربع جدائل كل جديله هى أيضا منسوجه أو مصنوعه من ألف جديله! و كل جديله تخرج من ثقب صغير جدًا فى بدن العنكبوت، ففكروا الآن فى هذه الخيوط التى تتكون منها هذه الجديله كم هى ناعمه و دقيقه و ظريفه؟! و إضافه إلى العجائب الكامنه فى بناء بيت العنكبوت و نسجه، فإنّ شكل بنائه و هندسته طريف أيضا، فلو دققنا النظر فى بيوت العنكبوت لرأينا منظرا طريفا مثل الشمس و أشعتها مستقره على قواعد هذا «البناء النسيجي»، و بالطبع فإن هذا البيت مناسب للعنكبوت و كاف، و لكنّه فى المجموع لا يمكن تصور بيت

أوهن منه، وهكذا بالنسبة إلى آلهه الضالين و معبوديهم، إذ تركوا عباده الله و التجأوا إلى الأصنام و الأحجار و الأوثان!!

و مع الالتفات إلى أن العناكب ليست نوعا واحدا، بل - كما يدعى بعض العلماء - عرف منها حتى الآن عشرون ألف نوع، و كل نوع له خصوصياته التى تبين عظمه الخالق و قدرته فى خلق هذا الموجود الصغير بوضوح و جلاء.

التعبير بـ «الأولياء» جمع ولى مكان التعبير بالأصنام، ربّما كان إشاره ضمنيه إلى هذه اللطيفه، و هى أنه ليس الحكم مختصا بالأصنام و الآلهه المزعومه، بل حتى الأئمه و القاده الارضيين مشمولون بهذا الحكم أيضا.

و جملة لمؤ كَأَنْتُمْ يَغْلَمُونَ تتعلق بالأصنام و المعبودين من دون الله و لا- ترتبط بوهن بيت العنكبوت... لأنّ وهن بيت العنكبوت معلوم عند الجميع، فعلى هذا يكون مفهوم الجملة كالتالى: لو كانوا يعلمون وهن المعبودين من دون الله و ما ركناو إليه من دونه و اختاروه، لعلموا أنّهم فى الوهن و الضعف كما هى الحال فى بيت العنكبوت من الوهن!.

أما الآيه التاليه ففيها تهديد لهؤلاء المشركين الغفله الجهله.. إذ تقول: إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ! و لا يخفى على الله شركهم الظاهر و لا شركهم الخفى وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ عَلَى الْإِطْلَاق! و إذا أمهلهم، فليس بسبب العجز و الضعف، أو عدم العلم، أو أن قدرته محدوده، بل كل ذلك من حكمته التى توجب أن يمنحوا الفرصه الكافيه لتتم الحججه البالغه لله عليهم، فيهدى من هو جدير بالهدى!.

قال بعض المفسرين: إن هذه الجملة إشاره إلى حجج المشركين و إلى ادّعائهم أنّهم فى عبادتهم للأصنام لا يريدون بها الأصنام ذاتها، بل إنّ الأصنام عندهم مطهر و رمز للنجوم السماويه و الأنبياء و الملائكه، فهم - كما يزعمون - يسجدون لأوثكك لا للأصنام و خيرهم و شرهم و نفعهم و ضررهم بيدها أيضا.

فالقرآن يبين أن الله يعلم الأشياء التي تدعونها-كائنا من كان، و أى شىء كان-فكل أولئك المعبودين إزاء قدرته كمثل بيت العنكبوت، ولا يملكون لأنفسهم شيئاً كى يعطوه لكم،، والآيه الثالثه-من الآيات محل البحث-لعلها تشير إلى ما استشكله أعداء الإسلام على النبى صلى الله عليه وآله فى هذه الأمثله التى ضربها الله، وكانوا يقولون:الله الذى خلق السماوات والأرض كيف يضرب الأمثال بالعنكبوت والذباب والحشرات وما شاكلها؟ فيردّ القرآن بقوله: **وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ**.

إن أهميّه المثل و ظرافته لا- تكمن فى كبره و صغره، بل تظهر أهميته فى انطباق المثل على المقصود، فقد يكون صغر الشىء الممثل به أكبر نقطه فى قوته.

قالوا فى ضرب الأمثال:ينبغى عند الكلام عن الأشياء الضعيفه و التى فيها وهن أن يمثل لها فى ما لو اعتمد عليها بيت العنكبوت،فهو أحسن شىء ينتخب لهذا الوهن و عدم الثبات،فهذا المثل هو الفصاحه بعينها و البلاغه ذاتها،و لذا قيل: **إنه لا يعلم دقائق أمثله القرآن و لا يدركها إلا العلماء!**.

و فى آخر آيه-من الآيات محل البحث-يضيف القرآن الكريم: **خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ**. ليس فى عمل الله باطل أو عبث...فإذا التشبيه بالعنكبوت و بيته الخاوى هو أمر محسوب بدقه.و إذا ما اختار موجودا صغيرا للتمثيل به فهو لبيان الحق،و إلا فهو خالق أعظم المجرات و المنظومات الشمسيه و غيرها.

و من الطريف-هنا-أن نهايه هذه الآيات تنتهى بالعلم و الإيمان،ففى مكان يقول القرآن: **لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** و فى مكان آخر يقول: **وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ** و فى الآيه التى نحن فى صددها يقول: **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ**.

و هي إشاره إلى أن وجه الحق مشرق جلي دائما و لكنّه يثمر في الموارد المستعده...في قلب مطّلع باحث، و عقل يقظ مدّعن للحق...و إذا كان هؤلاء الذين عميت قلوبهم لا يرون جمال الحق، فليس ذلك لخفائه، بل لعماهم! و ضلالهم!

ص: ٣٩٨

اشاره

أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ
(٤٥)

التفسير

اشاره

إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر:

بعد الفراغ من بيان أقسام مختلفه من قصص الأمم السابقه و أنبيائهم العظام و ما عاملهم به قومهم من معامله سيئه مذمومه، و بيان نهايه هؤلاء الظالمين الاليمه، يتوجه الخطاب-على سبيل تسليه خاطر، و تقويه الروحيه، و إراءه الخط الكلى أو الخطوط العامه- للنبي صلى الله عليه و آله و يأمره بما ينبغى عليه أن يفعل.

فيبدأ أولاً بقوله: أتل ما أوحى إليك من الكتاب... أى اقرأ هذه الآيات فسوف تجد فيها ما تبتغيه و تطلبه من العلم و الحكمة و النصح، و معيار معرفه الحق من الباطل، و سبل تنوير القلب و الروح، و مسير حركه كل طائفه، أو مجموعه و اتجاهها!.

اقرأ.. و امض على نهجها فى حياتك، اقرأها و استلهم منها... اقرأها و نور قلبك بتلاوتها.

و بعد بيان هذا الأمر الذى يحمل-فى الحقيقه-طابعا تعليميا، يأتى الأمر

الثانى الذى هو محور أصيل للتربيه فيقول تعالى: وَ أقيم الصَّلَاةَ... .

ثم يبين فلسفه الصلاه الكبرى فيقول: إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ (١).

طبيعه الصلاه-حيث أنها تذكر بأقوى رادع للنفس، و هو الاعتقاد بالمبدأ و المعاد-فإنها تردع عن الفحشاء و المنكر، فالإنسان الذى يقف للصلاه، و يكتب، يرى الله أعلى من كل شىء و أسمى من كل شىء، و يتذكر نعمه فيحمده و يشكره، و يثنى عليه و ينعتة بأنه رحمان رحيم، و يذكر يوم الجزاء «يوم الدين» و يعترف بالعبوديه له، و يطلب منه العون، و يستهديه الصراط المستقيم، و يتعوذ به من طريق المغضوب عليهم، و يلتجئ إليه (مضمون سوره الحمد).

فلا شك أن قلب مثل هذا الإنسان و روحه سوف تدبّ فيها حركه نحو الحقّ، و اندفاع نحو الطهاره، و نهوض نحو التقوى.

يركع لله.. و يضع جبهته على الأرض ساجدا لحضرتة، و يغرق فى عظمتة، و ينسى أنانيته و ذاتياته جميعا.

و يشهد بوحدانيته و برسالة النبي صلى الله عليه و آله.

و يصلى و يسلم على نبيّه، و يرفع يديه متضرعا بالدعاء ليجمعه فى زمرة عباده الصالحين.

جميع هذه الأمور تمنح وجوده موجا من المعنويه، و تكون سدا منيعا بوجه الذنوب.

و يتكرر هذا العمل عدة مرّات «ليل نهار» فحين ينهض صباحا يقف بين يدي ربّه و خالقه ليناجيه...

ص: ٤٠٠

١-١) - بينا الفرق بين الفحشاء و المنكر فى تفسير الآيه (٩٠) من سوره النحل فى عبارته موجزه، و قلنا: إنه يمكن التفريق بينهما بأن الفحشاء هى إشاره للذنوب الكبيره الخفيه، و أما المنكر فهو الذنوب الكبيره الظاهره، أو أن الفحشاء هى الذنوب التى تنتج بغلبه القوى الشهوانيه، و المنكر من أثر القوى الغضبيه.

و عند منتصف النهار و بينما هو غارق فى حياته الماديه يفاجأ بصوت تكبير المؤذن، فيقطع عمله و يسرع إلى حضرته، بل فى آخر النهار بدايه الليل أيضا و قبل أن يدلف إلى فراش الدعوه و الراحة، يدعوه و يطلب منه حاجته، و يجعل قلبه مركز أنواره.

و بغض النظر عن كل ما تقدم فإنّ الإنسان حين يتهيأ لمقدمات الصلاه، يطهر بدنه و يبعد عنه مسائل الحرام و الغصب، و يتجه إلى الحبيب، فكلّ هذه الأمور لها تأثير رادع لنوازع الفحشاء و المنكر.

غايه ما فى الأمر أنّ كل صلاه-بحسب شروط الكمال و روح العباده لها- أثر رادع ناه عن الفحشاء و المنكر، فتاره تنهى نهيا كلياً و أخرى جزئياً..

و محدودا.

و لا يمكن لأحد أن يصلى و لا تدع الصلاه فيه أثرا حتى لو كانت الصلاه صوريه، و حتى لو كان ملوثا بالذنب! و بالطبع فإنّ مثل هذه الصلاه قليله الفائده و مثل هؤلاء الأفراد لو لم يصلّوا صلاه كهذه لكانوا أسوأ ممّا هم عليه.

و لنوضح أكثر فنقول: النهى عن الفحشاء و المنكر له سلسله درجات و مراتب كثيره، و كل صلاه مع رعايه الشروط لها نسبه من هذه الدرجات.

و ممّا بيّناه آنفا يتّضح أن تخطب بعض المفسّرين فى تفسير هذه الآيه، و انتخاب تفسيرات غير مناسبه لا وجه له! و ربّما فسّروها بتفسير غير مناسب، لأنّهم رأوا بعض الناس يصلون و يرتكبون الذنوب، فسّروا الآيه فى معناها المطلق دون سلسله المراتب، و أخذوا يشكّون و يترددون، فاختاروا طرقا أخرى فى تفسير الآيه.

فمنها ما قاله بعضهم: من أنّ الصلاه تنهى عن الفحشاء و المنكر ما دام الإنسان مشغولا بها. و هذا كلام عجيب، إذ لا تتميز الصلاه بهذا وحدها، فكثير من الأعمال على هذه الشاكلة.

ص: ٤٠١

وقال بعضهم: إنّ أعمال الصلاة و أذكارها بمثابة عبارات و جمل، كل جملة تنهى الإنسان عن الفحشاء و المنكر، فمثلا كل من التكبير و التهليل و التسييح.. كل منها يقول للإنسان: لا تذب و لكن هل أنّ هذا الإنسان يصغى لهذا النهى أم لا...

فهذا أمر آخر.

و لكن من ذهب الى هذا التفسير، غفل عن هذه الحقيقة، و هى أن النهى هنا ليس نهيا تشريعا فحسب، بل هو نهى تكويني، فظاهر الآيه أنّ الصلاة لها أثر ناه، و التفسير الأصيل هو ما قدمناه ذكره و بيانه آنفا.

و بالطبع فلا مانع من القول أنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء و المنكر نهيا تكوينيا و نهيا تشريعا أيضا.

«أحاديث» ينبغي الالتفات إليها

١-

فى حديث عن النبى الأكرم محمد صلى الله عليه و آله ورد أنّه قال: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء و المنكر لم يزد من الله إلا بعدا». (١)

٢-

فى حديث آخر عنه صلى الله عليه و آله أيضا: «لا صلاة لمن لم يطع الصلاة، و طاعه الصلاة أن ينتهى عن الفحشاء و المنكر» (٢).

٣- كما نقرأ

فى حديث ثالث عنه صلى الله عليه و آله أنّ شابا من الأنصار أذى الصلاة معه، و لكنّه كان ملوثا بالذنوب القبيحة، فأخبروا النبى صلى الله عليه و آله فقال: «إن صلاته تنهاه يوما» (٣).

٤- هذا الأثر للصلاة له أهميه قصوى إلى درجه أنّنا نجده فى الروايات الإسلاميه معيارا لقبول الصلاة و عدمها، إذ

ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

ص: ٤٠٢

١- ١) -مجمع البيان ذيل الآيه مح البحث«و الحديث الثانى يشعر بالنهى التشريعى».

٢- ٢) -المصدر السابق.

٣- ٣) -المصدر السابق.

«من أحب أن يعلم أقبلت صلاته أم لم تقبل، فلينظر هل منعت صلاته عن الفحشاء والمنكر؟ أفبقدر ما منعتة قبلت منه!» (١).

و يقول القرآن تعقبا على ما ذكره و من شأن الصلاة وَ لَذِكْرِ اللَّهِ أَكْبَرُ .

و ظاهر الجملة هو بيان غايه و حكمه أخرى فى الصلاة، أى أن أثرا آخر من آثار الصلاة و بركاتها أهم من كونها تنهى عن الفحشاء و المنكر هو تذكير الإنسان بربه، هذا الذكر هو أساس السعادة و الخير، بل العامل الأسمى للنهى عن الفحشاء و المنكر أيضا هو ذكر الله، و كونه أكبر لأنه العلة و الأساس للصلاة!

و أساسا... فإن ذكر الله فيه حياه القلوب و دعوتها، و لا شىء يبلغ مبلغه إلا بذكر الله تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ (٢).

و لا- ريب أن روح العباده بجميع أقسامها-صلاه كانت أم غيرها- هو ذكر الله، فأذكار الصلاه، و أفعالها و مقدماتها، جميعها فى الواقع تحيى ذكر الله فى قلب الإنسان! و ممّا يلفت النظر أن فى الآية (١٤) من سوره طه إشاره إلى هذه الحكمة الأساسيه من الصلاه، إذ نلاحظ فيها الخطاب لموسى قائلا: وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي .

إلا- أن المفسرَين الكبار ذكروا للجملة المتقدمه تفسيرات أخرى، و قد ورد فى الروايات الإسلاميه إشاره إليها أيضا... من ضمنها: إن المراد من الجملة المتقدمه، أن ذكر الله لكم برحمته أكبر من ذكركم لله بطاعته (٣).

و منها: إن ذكر الله أكبر من الصلاه و أعلى، لأن روح كل عباده «ذكر الله».

و هذا التفسير التى ورد بعضها فى الروايات الإسلاميه، ربّما كانت إشاره إلى

ص: ٤٠٣

١-١) -المصدر السابق.

٢-٢) -الرعد، الآية ٢٨.

٣-٣) -على ضوء هذا التفسير يكون لفظ الجلاله «الله» فاعلا فى المعنى، و على التفسير السابق يكون مفعولا.

بطون الآيه، وإلا- فإن ظاهرها منسجم مع المعنى الأول، لأنه في أغلب الموارد التي يرد التعبير فيها بـ«ذكر الله» أو «ذكروا الله» أو «اذكروا الله»... إلخ، يقصد بها ذكر الناس لله! والآيه المذكوره آنفا، يتداعى لها هذا المعنى، إلا أن ذكر الله لعباده يمكن أن يكون نتيجة مباشرة لذكر العباد لله، وبهذا يرتفع التضاد بين المعنيين.

في حديث عن معاذ بن جبل أنه قال: لا شيء من أعمال ابن آدم لنجاته من عذاب الله أكبر من ذكر الله، فسألوه: حتى الجهاد في سبيل الله؟! فقال: أجل، فالله يقول: وَ لَذِكْرِ اللَّهِ أَكْبَرُ .

و الظاهر أن «معاذ بن جبل» سمع هذا الكلام من رسول الله صلى الله عليه وآله لأنه نفسه ينقل إنه سأل رسول الله صلى الله عليه وآله و آله و سلم: أى الأعمال أفضل؟

فقال صلى الله عليه وآله و سلم: «أن تموت و لسانك رطب من ذكر الله».

و حيث أن نيات الناس، و ميزان حضور القلب منهم فى الصلاة و سائر العبادات، كل ذلك متفاوت جدا، فإن الآيه تختتم بالقول: وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ .

أى يعلم ما تصنعون من أعمال فى الخفاء أو العلن، و النيات التى فى قلوبكم أو الكلمات التى تجرى على ألسنتكم!.

بحث

إشارة

تأثير الصلاة فى تربيته الفرد و المجتمع:

بالرغم من أن فائده الصلاة لا تخفى على أحد، لكن التدقيق فى متون الروايات الإسلاميه يدلنا على لطائف و دقائق أكثر فى هذا المجال!.

١- إن روح الصلاة و أساسها و هدفها و مقدمتها و نتيجتها... و أخيرا حكمتها

ص: ٤٠٤

و فلسفتها (١)، هي ذكر الله، كما بينت في الآيه على أنها أكبر النتائج.

و بالطبع فإنّ الذكر المراد هنا، هو الذكر الذي يكون مقدمه للفكر، و الفكر الذي يكون باعثا على العمل، كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير جملة وَ لَمَذِكُرِ اللَّهِ أَكْبَرُ قال: «ذكر الله عند ما أحلّ و حرّم» أي على أن يتذكر الله فيتبع الحلال و يغيض أجهانه عن الحرام «بحار الأنوار، ج ٨٢، ص ٢٠٠».

٢- إنّ الصلاة و سيله لغسل الذنوب و التطهر منها، و ذريعه إلى مغفره الله، لأنّ الصلاة- كيف ما كانت- تدعوا الإنسان إلى التوبه و إصلاح الماضي، و لذلك فإننا نقرأ في حديث عن النبي الأكرم صلّى الله عليه و آله إذ سأل بعض أصحابه:

«لو كان على باب دار أحدكم نهر و اغتسل في كل يوم منه خمس مرات أ كان يبقى في جسده من الدرن شيء؟! قلت لا، قال: فإنّ مثل الصلاة كمثل النهر الجارى كلما صلّى كفرت ما بينهما من الذنوب» (٢).

و على هذا فإنّ الجراح التي تخلفها الذنوب في روح الإنسان، و تكون غشاوه على قلبه، تلتئم بضماد الصلاة و ينجلي بها صدأ القلوب! ٣- إنّ الصلوات سدّ أمام الذنوب المقبله، لأنّ الصلاة تقوى روح الإيمان في الإنسان، و تربّي شجيره التقوى في قلب الإنسان، و نحن نعرف أن الإيمان و التقوى هما أقوى سدّ أمام الذنوب، و هذا هو ما بينته الآيه المتقدمه عنوان «النهى عن الفحشاء و المنكر»، و ما نقرؤه في أحاديث متعدده من أن أفرادا كانوا مدنيين، فذكر حالهم لأنّهم الإسلام فقالوا: لا تكثرثوا فإنّ الصلاة تصلح شأنهم...

و قد أصلحتهم.

٤- إن الصلاة توقظ الإنسان من الغفله، و أعظم مصيبه على السائرين في طريق الحقّ أن ينسوا الهدف من إيجادهم و خلقهم، و يغرقوا في الحياه الماديه

ص: ٤٠٥

١- ١) - «الفلسفه» كلمه يونانيه معناها «الحكمه» فهي ليست عربيه لكنّها شاعت في العربيه أيضا.

٢- ٢) - وسائل الشيعه، ج ٣، ص ٧ (الباب الثانی من أبواب أعداد الفرائض الحديث ٣).

و لذائذها العابره! إلا أن الصلاه بما أنها تؤدي في أوقات مختلفه، و في كل يوم و ليله خمس مرات، فإنها تخطر الإنسان و تنذره، و تبين له الهدف من خلقه، و تنبهه إلى مكائته و موقعه في العالم بشكل رتيب، و هذه نعمه كبرى للإنسان بحيث أنها في كل يوم و ليله تحته و تقول له: كن يقظا.

٥- إن الصلاه تحطم الأنانيه و الكبر، لأن الإنسان في كل يوم و ليله يصلي سبع عشره ركعه، و في كل ركعه يضع جبهته على التراب تواضعا لله، و يرى نفسه ذره صغيره أمام عظمه الخالق، بل يرى نفسه صفرا بالنسبه إلى ما لا نهايه له!.

و لأمير المؤمنين على عليه السلام كلام معروف تتجسد فيه، فلسفه العبادات الإسلاميه بعد الإيمان بالله، فيبين أول العبادات و هي الصلاه مقرونه بهذا الهدف إذ

قال: «فرض الله الإيمان تطهيرا من الشرك، و الصلاه تنزيها عن الكبر» (١).

٦- الصلاه وسيله لتربيته الفضائل الخلقية و التكامل المعنوي للإنسان، لأنها تخرج الإنسان عن العالم المحدود و تدعوه إلى ملكوت السماوات، و تجعله مشاركا للملائكه بصوته و دعائه و ابتهاله، فيرى نفسه غير محتاج إلى واسطه إلى الله أو أن هناك «حاجبا» يمنعه... فيتحدث مع ربه و يناجيه!.

إن تكرار هذا العمل في اليوم و الليله- و بالاعتماد على صفات الله الرحمن الرحيم العظيم، خاصه بالاستعانه بسور القرآن المختلفه بعد سوره الحمد التي هي خير محفز للصالحات، و الطهاره- له الأثر في تربيته الفضائل الخلقية في وجود الإنسان! لذلك نقرأ في تعبير الإمام على أمير المؤمنين عليه السلام عن حكمتها

قوله: «الصلاه قربان كل تقى!» (٢).

ص: ٤٠٦

١- ١) - نهج البلاغه، الكلمات القصار ٢٥٢.

٢- ٢) - نهج البلاغه، الكلمات القصار، الجمله ١٣٦.

٧- إن الصلاة تعطى قيمه و الروح لسائر أعمال الإنسان؛ لأنّ الصلاة توقظ في الإنسان روح الإخلاص... فهي مجموعه من النيه الخالصه و الكلام الطاهر «الطيب» و الأعمال الخالصه... و تكرار هذه المجموعه في اليوم و الليله ينثر في روح الإنسان بذور سائر الأعمال الصالحه و يقوى فيه روح الإخلاص.

لذلك فإننا نقرأ في بعض ما

روى عن أمير المؤمنين عليه السّلام في ضمن وصاياه المعروفه بعد أن ضربه ابن ملجم بالسيف ففلق هامته، أنه قال: «اللّٰه اللّٰه في صلاتكم فإنها عمود دينكم» (١).

و نعرف أنّ عمود الخيمه إذا انكسر أو هوى، فلا أثر للأوتاد و الطنب مهما كانت محكمه... فكذلك ارتباط عباد اللّٰه به عن طريق الصلاة، فلو ذهبت لم يبق لأى عمل آخر أثر.

و نقرأ

عن الإمام الصادق عليه السّلام قوله: «أول ما يحاسب به العبد الصلاة، فإن قبلت قبل سائر عمله، و إن ردّت ردّ سائر عمله!».

و لعل الدليل على هذا الحديث هو أن الصلاة رمز للعلاقه و الارتباط بين الخالق و المخلوق! فإذا ما أدّيت بشكل صحيح، و كان فيها قصد القربه و الإخلاص «حيًا» كان وسيله القبول لسائر الأعمال، و إلّا فإنّ بقيه أعماله تكون مشوبه و ملوّثه و ساقطه من درجه الاعتبار.

٨- إنّ الصلاة- بقطع النظر- عن محتواها، و مع الالتفات إلى شرائط صحتها، فإنّها تدعوا إلى تطهير الحياه! لأننا نعلم أن مكان المصلّى، و لباس المصلّى، و بساطه الذى يصلى عليه، و الماء الذى يتوضأ به أو يغتسل منه، و المكان الذى يتطهر فيه «وضوء أو غسل» ينبغى أن يكون طاهرا من كل أنواع الغصب و التجاوز على حقوق الآخرين. فإنّ من كان ملوّثا بالظلم و الغصب و البخس فى الميزان و البيع و آكلا للرشوه و يكتسب أمواله من الحرام... كيف يمكن له أن يهوى

ص: ٤٠٧

مقدمات الصلاة!؟ فعلى هذا فإن تكرار الصلاة خمس مرات فى اليوم و الليله- هو نفسه-دعوه إلى رعايه حقوق الآخرين! ٩-إن للصلاه-بالإضافه إلى شرائط صحتها-شروط لقبولها، أو بتعبير آخر:

شروط لكمالها، و رعايتها-أيضا-عامل مؤثر و مهم لترك كثير من الذنوب!.

و قد ورد فى كتب الفقه و مصادر الحديث روايات كثيره تحت عنوان موانع قبول الصلاة، و منها«شرب الخمر» إذ

جاء فى بعض الروايات: لا تقبل صلاه شارب الخمر أربعين يوما إلا أن يتوب (١).

كما نقرأ فى روايات متعدده أن من جملة«من لا تقبل صلاته»الإمام الظالم» (٢).

كما صرح فى بعض الروايات بأن الصلاة لا تقبل من«مانع الزكاه».

كما أن هناك بعض الروايات تقول:«إن الصلاة لا تقبل ممن يأكل السحت و الحرام، و لا ممن يأخذ العجب و الغرور» و هكذا تتضح الحكمه و الفائده الكبيره من وجود هذه الشروط.

١٠-إن الصلاة تقوى فى الإنسان روح الانضباط و الالتزام، لأنها ينبغى أن تؤدى فى أوقات معينه، لأن تأخيرها عن وقتها أو تقديمها عليه موجب لبطلانها.

و كذلك الآداب و الأحكام الأخرى فى موارد النيه و القيام و الركوع و السجود و ما شابهها، إذ أن رعايتها تجعل الاستجابه للالتزام فى مناهج الحياه ممكنا و سهلا.

كل هذه من فوائد الصلاة-بغض النظر عن صلاه الجماعه-و إذا أضفنا إليها خصوصيه الجماعه، حيث أن روح الصلاة هى الجماعه، ففيها بركات لا تحصى و لا تعدّ، و لا مجال هنا لشرحها و بيانها، مضافا الى أن الجميع يدرك خيراتها و فوائدنا على الإجمال.

ص: ٤٠٨

١-١) -بحار الأنوار، ج ٨٤، ص ٣١٧ و ٣٢٠.

٢-٢) -بحار الأنوار، ج ٨٤، ص ٣١٨.

و نختتم كلامنا في مجال حكمه الصلاة و فلسفتها و أسرارها بحديث جامع منقول عن الإمام الرضا عليه السّلام إذ سئل عنها فأجاب بما يلي:

«إن عله الصلاة أنّها إقرار بالربوبية لله عزّ و جلّ، و خلع الأنداد، و قيام بين يدي الجبار جل جلاله بالذلّ و المسكنه و الخضوع و الاعتراف، و الطلب للإقالة من سالف الذنوب، و وضع الوجه على الأرض كل يوم إعظاما لله عزّ و جلّ و أن يكون ذاكرا غير ناس و لا بطر، و يكون خاشعا متذللا، راغبا طالبا للزيادة في الدين و الدنيا مع ما فيه من الإيجاب و مداومه على ذكر الله عزّ و جلّ بالليل و النهار، لئلا ينسى العبد سيده و مديره و خالقه فيبطر و يطغى، و يكون في ذكره لرّبّه و قيامه بين يديه زاجرا له عن المعاصي و مانعا له عن أنواع الفساد». (1)

ص: ٤٠٩

١ - ١) - وسائل الشيعة، ج ٣، ص ٤.

بدايه الجزء الحادى و العشرون من القرآن الكريم و يبدأ من بدايه الآيه ست و أربعون سوره العنكبوت

ص: ٤١١

اشاره

وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ (٤٧) وَمِمَّا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِأَنَّهَا الْمُطْبُوعُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (٤٩)

التفسير

اشاره

اتبعوا أحسن الأساليب في البحث و الجدال:

كان أكثر الكلام في الآيات المتقدمه في كيفية التعامل مع المشركين المعاندين و كان مقتضى الحال أن يكون الكلام شديد اللهجه حاداً،و أن يعدّ ما يعبدون من دون الله أوهى من بيت العنكبوت،أمّا في هذه الآيات-محل البحث- فيقع الكلام في شأن مجادله أهل الكتاب الذين ينبغي أن يكون الكلام معهم لطيفاً، إذ أنهم على الأقل قد سمعوا قسماً مما جاء به الأنبياء و الكتب

السماويه، و لديهم استعداد أكثر للتعامل المنطقي، إذ ينبغي أن يكلم كل شخص بمقدار علمه و عقله و أخلاقه.

فيقول القرآن في هذا الصدد: لَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ (١).

«تجادلوا» مشتق من «جدال» و معناه في الأصل قتل الحبل و إحكامه، كما تستعمل هذه المفردة في البناء المحكم و ما أشبهه، و حين يتناقش اثنان في بحث معين فكل واحد منهما- في الحقيقة- يريد أن يلوى صاحبه عن عقيدته و فكرته.. لذا فقد سمي هذا النقاش جدالاً. كما يرد هذا التعبير في النزاع أيضاً، و على كل حال فإنه المراد من قوله وَلَا تُجَادِلُوا المناقشات المنطقية.

و التعبير بِِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ تعبير جامع يشمل الأساليب و الطرق الصحيحة و المناسبة للتباحث أجمع، سواء كان ذلك في الألفاظ أو المحتوى، و سواء كان في طريقه الكلام، أو الحركات و الإشارات المصاحبه له.

فعلى هذا يكون مفهوم الجملة المتقدمه: إنَّ أَلْفَاظَكُمْ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ بِطَرِيقِهِ مُؤَدَّبَةً، و الكلام ذا مودّه، و المحتوى مستدللاً، و صوتكم هادئاً غير خشن، و لا متجاوزاً لحدود الأخلاق أو لهتك الحرمه، و كذلك بالنسبه لحركات الأيدي و العيون و الحواجب التي تكمل البيان، ينبغي أن تكون هذه الحركات ضمن هذه الطريقه المؤدبه... و كم هو جميل هذا التعبير القرآني، إذ أوجز عالماً من المعاني الدقيقة في جملة قصيره.

كل هذه الأمور لأجل أن الهدف من وراء النقاش و البحث ليس هو طلب التفوق و دحر الطرف الآخر، بل الهدف أن يكون الكلام حتى ينفذ في القلب و في أعماق الطرف الآخر... و خير السبل للوصول إلى هذا الهدف هو هذا الأسلوب القرآني.

ص: ٤١٤

(١-١) - «التي» هنا صفه لموصوف محذوف تقديره طريقه أو ما شاكلها...

و كثيرا ما يتفق أنه لو استطاع الإنسان أن يبين قول الحق بصورة يراه الطرف الآخر متطابقا لفكره و رأيه،فسرعان ما ينعطف إليه و ينسجم معه،لأن الإنسان ذو علاقة بفكره كعلاقته بأبنائه.

و هكذا فإنّ القرآن الكريم يثير الكثير من المسائل على صورته«السؤال و الاستفهام»لينتزع جوابه من داخل فكر المخاطب فيراه منه! و بالطبع فإنّ لكل قانون استثناء،و منها هذا القانون أو الأصل الكلى فى البحث و المجادله الإسلاميه،فقد يعدّ فى بعض الموارد ضعفا،أو يكون الطرف الآخر مغرورا الى درجه أن هذا التعامل الإنسانى يزيده جراه و عدوانا و تكبرا، لذلك فإنّ القرآن يضيف مستثنيا: إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ .

و هم الذين ظلموا أنفسهم و ظلموا الآخرين،و كتموا كثيرا من الآيات،لثلا يطلع الناس على أوصاف النّبي محمّد صلّى الله عليه و آله.

الظالمون الذين جعلوا أوامر الله التى لا تنسجم مع منافعهم الشخصيه تحت أقدامهم.

الظالمون الذين آمنوا بالخرافات فكانوا كالمشركين فى عقيدتهم إذ قالوا:

إن المسيح ابن الله،أو العزيز ابن الله.

و أخيرا فهم أولئك الذين ظلموا و تذرعوا بالسيف و القوّه بدلا من البحث المنطقى،و توسّلوا بالشیطنه و التآمر على النّبي صلّى الله عليه و آله و على الإسلام.

و يختتم الآيه بمصداق بارز من«المجادله بالتى هى أحسن»و يمكنه أن يكون قدوه لأى بحث؛فيقول القرآن الكريم: وَ قُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَ إِلَيْنَا وَ إِلَيْكُمْ وَاحِدٌ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ .

كم هو جميل هذا التعبير!و كم هو رائع هذا النغم و اللهجه!اللهجه الوحده و الإيمان بكل ما أنزل الله الواحد،و حذف جميع العصبیّات،و نحن و أنتم جميعا موحدون لله مسلمون له.

و هذا مثل واحد من المجادله بالتى هى أحسن التى ينجذب إليها كل من يسمعها،و يدلّ على أن الإنسان يجب أن يكون بعيدا عن التحزب أو طلب التفرقه،فنداء الإسلام هو نداء الوحده و التسليم لكل كلام حق.

و أمثله هذا البحث كثيره فى القرآن،و من ضمنها ما أشار إليه

الإمام الصادق عليه السّلام إذ قال: «أَمَّا الْجِدَالُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَهُوَ مَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ أَنْ يَجَادِلَ بِهِ مِنْ جِجْدِ الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَ إِحْيَاءِ لَهُ، فَقَالَ اللَّهُ حَاكِيَا عَنْهُ: قُلْ (يَا مُحَمَّدٍ) «يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ (١)» .

و الآيه الأخرى تؤكّد على الأصول الأربعة التى سبق ذكرها فى الآيه المتقدمه،فتقول: وَ كَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ أَيَّ الْقُرْآنِ.

أجل...نزل هذا القرآن على أساس توحيد المعبود،و توحيد دعوه جميع الأنبياء إلى الحق،و التسليم دون قيد أو شرط لأمر الله؛و المجادله بالتى هى أحسن!.

قال بعض المفسّرين: إنّ المراد من جمله وَ كَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ هو تشبيه نزول القرآن على النّبي محمّد صلّى الله عليه و آله أى كما أنزلنا كتبا من السماء على الأنبياء الماضين،فكذلك أنزلنا إليك الكتاب!.

إلا أنّ التّفسير السابق يبدو أكثر دقّه،و إن كان الجمع بين التّفسيرين ممكنا أيضا.

ثمّ يضيف القرآن الكريم: فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ يَعْتَقِدُونَ بِصِدْقِهِ.. إذ أنّهم وجدوا علائمه فى كتبهم، كما أن محتواه من حيث الأصول العامّه و الكليه منسجم مع كتبهم!.

و من المعلوم أن جميع أهل الكتاب(اليهود و النصارى)لم يؤمنوا بنبوّه

ص: ٤١٦

محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ «نبي الإسلام» فتكون هذه الجملة في خصوص تلك الجماعة المؤمنه منهم، و التي تبتغي الحق دون تعصب، فتكون جديره أن يطلق عليها «أهل الكتاب».

و يضيف القرآن بعدئذ: وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ (١) أى أهل مكّه و المشركون العرب.

ثمّ يقول القرآن في كفر الطائفتين من اليهود و النصارى وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ .

و مع الالتفات إلى أنّ مفهوم الجحود، هو أن يعتقد الإنسان بشيء بقلبه و ينكره بلسانه، فإنّ مفهوم الجملة المتقدمه أن الكفار يعترفون في قلوبهم بعظمه هذه الآيات، و يرون علامات الصدق عليها، و منهج النبي و طريقته و حياته النقيه، و أن أتباعه هم المخلصون، و يعدّون كل ذلك دليلا على أصالته، إلا أنّهم ينكرون ذلك عنادا و تعصبا، و تقليدا أعمى لأسلافهم و لأبائهم، و لحفظ منافعهم الشخصيه.

و على هذا فإنّ القرآن يحدد مواقف الأمم المختلفه إزاء هذا الكتاب و يصنفهم إلى قسمين:

فقسم هم أهل الإيمان، سواء من علماء اليهود و النصارى، أو المؤمنين بصدق، أو المشركين العطاشى إلى الحقّ الذين عرفوا الحق فتعلقت قلوبهم به.

و قسم آخر هم المنكرون المعاندون، الذين رأوا الحقّ إلاّ- أنّهم أنكروه و أخفوا أنفسهم عنه كالخفاش، لأنّ ظلمه الكفر كانت جزءا من نسيج وجودهم، فهم يستوحشون من نور الإيمان.

ص: ٤١٧

١ - ١) - قال بعض المفسّرين: إنّ جملة «الذين آتيناهم الكتاب» إشاره إلى المسلمين، و جملة «مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ» إشاره إلى أهل الكتاب، إلا أنّ هذا التّفسر بعيد- كما يبدو- جدّا لأنّ التعبير بِالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ و ما شابهه لم يأت في القرآن- بحسب الظاهر- إلاّ في خصوص اليهود و النصارى.

وَمِمَّا يَنْبَغِي الِاتِّفَاتِ إِلَيْهِ أَنَّ هَذَا الْقِسْمَ -أَوْ هَذَا الطَّائِفَةَ- كَانُوا كَفَرُوا مِنْ قَبْلِ، وَ لَكِنِ التَّأْكِيدَ عَلَى كَفَرَهُمْ مُمْكِنٌ أَيْضًا، وَ ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ لَمْ تَتَمَّ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِ، وَ لَكِنَّهُمْ بَعْدَ أَنْ تَمَّتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ، فَقَدْ أَصْبَحُوا كَافِرِينَ كَفَرُوا حَقِيقَتًا، وَ حَادُوا بِعِلْمِهِمْ وَ اطَّلَاعِهِمْ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَ خَطُوا فِي دُرُوبِ الضَّلَالِ!.

ثُمَّ يَضِيفُ الْقُرْآنَ مُشِيرًا إِلَى عِلْمِهِ أُخْرَى مِنْ عِلَائِمِ حَقَانِيَةِ دَعْوَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ الْجَلِيلِ وَ الْوَاضِحِ، وَ هِيَ تَأْكِيدُ عَلَى مَحْتَوَى آيَةِ السَّابِقَةِ، يَقُولُ: **وَ مَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَ لَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ وَ قَالُوا إِنَّ مَا جَاءَنَا بِهِ هَذَا النَّبِيُّ هُوَ حَصِيلُهُ مَطَالَعَاتِهِ لِكِتَابِ الْمَاضِينَ.**

وَ مَعْنَى هَذِهِ آيَةِ أَنَّكَ لَمْ تَذْهَبْ إِلَى مَدْرَسِهِ قَطُّ، وَ لَمْ تَكْتُبْ مِنْ قَبْلِ كِتَابًا قَطُّ، لَكِنَّكَ بِإِشَارِهِ مِنْ وَحْيِ السَّمَاءِ أَصْبَحْتَ تَعْرِفُ الْمَسَائِلَ أَفْضَلَ مِنْ مَائَةِ مَدْرَسٍ!.

كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَصْدُقَ أَنَّ شَخْصًا لَمْ يَقْرَأْ كِتَابًا وَ لَمْ يَرِ اسْتَاذًا وَ لَا -مَدْرَسَةً، أَنْ يَأْتِيَ بِكِتَابٍ يَتَحَدَّى بِهِ جَمِيعَ الْبَشَرِ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ، فَيَعْجَزُ جَمِيعُهُمْ عَنِ الْإِتْيَانِ بِمَا طَلَبَ.

أَلَيْسَ هَذَا دَلِيلًا -عَلَى أَنْ قُوَّتِكَ تَسْتَمِدُّ مِنْ قُوَّةِ الْخَالِقِ غَيْرِ الْمَحْدُودِ، وَ أَنَّ كِتَابَكَ وَحْيِ السَّمَاءِ أَلْقَاهُ اللَّهُ إِلَيْكَ؟! وَ يَنْبَغِي الْإِشَارَةَ إِلَى أَنَّهُ لَوْ سَأَلَ سَائِلٌ: مَنْ أَيْنَ نَعْرِفُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ لَمْ يَذْهَبْ إِلَى مَدْرَسَةٍ قَطُّ?!.

فَنَجِيبُ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ قَدْ عَاشَ فِي بَيْتِهِ الْمُتَقِفُونَ وَ الْمُتَعَلِّمُونَ فِيهَا مَعْدُودُونَ وَ مَحْدُودُونَ... حَتَّى قِيلَ أَنْ لَيْسَ فِي مَكَّةَ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعَةِ عَشَرَ رَجُلًا يَجِيدُونَ الْقِرَاءَةَ وَ الْكِتَابَةَ، فَفِي مِثْلِ هَذَا الْمَحِيطِ وَ هَذِهِ الْبَيْتِ، لَوْ قَدَّرَ لِأَحَدٍ أَنْ يَمْضِيَ إِلَى الْمَدْرَسَةِ فَيَتَعَلَّمَ الْقِرَاءَةَ وَ الْكِتَابَةَ، فَمَنْ الْمُسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ مَجْهُولًا، بَلْ يَكُونَ مَعْرُوفًا فِي كُلِّ مَكَانٍ. كَمَا يَعْرِفُ النَّاسُ اسْتَاذَهُ وَ دَرَسَهُ أَيْضًا.

فَكَيْفَ يُمْكِنُ لِمِثْلِ هَذَا الشَّخْصِ أَنْ يَدْعَى أَنَّهُ نَبِيٌّ صَادِقٌ وَ مَعَ ذَلِكَ يَكْذِبُ

هذه الكذبه المفصوحه و المكشوفه؟خاصه أن هذه الآيات نزلت في مكه، مهد نشأه النبى صلى الله عليه و آله و كذلك فى قبال الأعداء الألداء الذين لا تخفى عليهم أقل نقطه ضعف!!.

و فى الآيه التاليه علامه أخرى أيضا على حقانيه القرآن، إذ تقول: بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ .

و التعبير ب«الآيات البينات» كاشف عن هذه الحقيقه و هى أن دلائل حقانيه القرآن تتجلى بنفسها عيانا، و تشرق فى أرجائه، فدليلها معها.

و فى الحقيقه، إنَّها مثل الآيات التكوينيّه التى تجعل الإنسان يذعن بحقيقتها عند مطالعتها دون حاجه إلى شىء آخر، هذه الآيات التشريعيه-أيضا- من حيث ظاهرها و محتواها كذلك، إذ هى دليل على صدقها.

ثم بعد هذا كله، فإنَّ أتباع هذه الآيات و طلابها المشدوده قلوبهم إليها هم أولوا العلم و الاطلاع، بالرغم من أن أيديهم خاليه و أرجلهم حافيه!.

و بتعبير أوضح: إنَّ واحدا من طرق معرفه أصاله مذهب ما درسه حال المؤمنين به، فإذا كان الجهال المحتالون قد التفوا حول الشخص، فهو أيضا من نسيجهم، و لكن إذا كان من التفَّ حول الشخص هم الذين امتلأت صدورهم بأسرار العلوم و هم أوفياء له، فيكون هذا الأمر دليلا على حقانيه ذلك الشخص، و نحن نرى أن جماعه من علماء أهل الكتاب، و رجلا متقين أمثال أبى ذر و سلمان و المقداد و عمار بن ياسر، و شخصيه كبيره كعلى بن أبى طالب عليه السلام، هم حماه هذا المبدأ.

و فى روايات كثيره منقوله عن أهل البيت عليهم السلام، إنَّ المراد بالذين أوتوا العلم هم الأئمه من أهل البيت عليهم السلام و طبعا...فليس هذا المعنى منحصر فيهم، بل هم المصداق الجلى لهذه الآيه (1).

ص: ٤١٩

و إذا ما لاحظنا أن بعض الروايات تصرّح أنّ المراد من هذه العبارة المتقدمه هم الأئمّه عليهم السّلام، فإنّ ذلك في الحقيقة إشاره إلى المرحله الكامله لعلم القرآن الذي عندهم، ولا يمنع أن يكون للعلماء... بل لعامّه الناس الذين لهم نصيب من الفهم، أن يحظوا بقسط من علوم القرآن أيضا.

كما أنّ هذه الآيه تدلّ ضمنا على أن العلم ليس منحصرًا بالكتاب، أو بما يليقه الأستاذ على تلاميذه... لأنّ النبي صلّى الله عليه و آله - طبقا لصريح الآيات المتقدمه - لم يدرس في مدرسه و لم يكتب من قبل كتابا... إلّا أنّه كان خير مصداق للذين «أوتوا العلم».

فإذا فما وراء العلم «الرسمي» الذي نعهده، علم أوسع و أعظم، و هو علم يأتي من قبل الله تعالى على شكل نور يقذف في قلب الإنسان، كما ورد في الحديث «العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء». و هذا هو جوهر العلم، أمّا ما سواه فهو الصدف و القشر! و تختتم الآيه بقوله تعالى: **وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ**... لأنّ دليلها واضح، فالنبي الأُمّي الذي لم يقرأ و لم يكتب، هو الذي جاء بها... و العلماء المطلعون هم المؤمنون بها.

ثمّ بعد هذا كلّه، فإنّ الآيات نفسها مجموعه من الآيات البيّنات «كلمات ذوات محتوى جلي مشرق».

و قد وردت علائمها في الكتب المتقدمه.

و مع كل هذا ترى هل ينكر هذه الآيات إلّا الذين ظلموا أنفسهم و ظلموا مجتمعهم «و نكرر أن التعبير ب«بالجحد» يكون في مورد ما لو أن الإنسان يعتقد بالشئ و ينكره على خلاف ما يعلمه»!

١- الرسول صَلَّى الله عليه وآله وسلم.. الأُمِّي

صحيح أن القراءه و الكتابه تعدّان- لكل إنسان- كما لا.. إلاّ أنّه يتفق أحياناً- و في ظروف معينه- أن يكون من الكمال في عدم القراءه و الكتابه... و يصدق هذا الموضوع في شأن الأنبياء، و خاصه في نبوّه خاتم الأنبياء «محمّد» صَلَّى الله عليه وآله.

إذ يمكن أن يوجد عالم قدير و فيلسوف مَطَّلَع، فيدّعي النبوّه و يظهر كتاباً عنده على أنّه من السماء، ففي مثل هذه الظروف قد تثار الشكوك و الاحتمالات أو الوسوس في أنّ هذا الكتاب- أو هذا الدين- هو من عنده لا من السماء!.

إلاّ- أنّنا إذا رأينا إنساناً ينهض من بين أمته متخلفه، و لم يتعلم على يد أي أستاذ، و لم يقرأ كتاباً و لم يكتب ورقه- فيأتي بكتاب عظيم عظمه عالم الوجود، بمحتوى عال جداً... فهنا يمكن معرفه أن هذا الكتاب ليس من نسج فكره و عقله، بل هو وحي السماء و تعليم إلهي، و يدرك هذا بصورة جيده!.

كما أنّ هناك تأكيداً على أميه النبي صَلَّى الله عليه وآله في آيات القرآن الأخرى، و كما أشرنا آنفاً في الآية (١٥٧) من سوره الأعراف إلى أن هناك ثلاثه تفاسير لمعنى «الأُمِّي»، و أوضحها و أحسنها هو أنّه من لا يقرأ و لا يكتب.

و لم يكن في محيط الحجاز و بيئته- أساساً- درس ليقراً النبي صَلَّى الله عليه وآله، و لا معلم ليحضر عنده و يستفيد منه، و قلنا: إنّ عدد المثقفين الذين كانوا يقرءون و يكتبون في مكّه لم يتجاوز سبعة عشر نفرًا فحسب، و يقال أن من النساء كانت امرأه واحده تجيد القراءه و الكتابه (١).

و طبيعي في مثل هذا المحيط الذي تندر فيه أدنى مرحله للعلم و هي القراءه و الكتابه، لا يوجد شخص يعرف القراءه و الكتابه و لا يعرف عنه الناس شيئاً...

و إذا ظهر مدع و قال- بضرس قاطع- إنّني لم أقرأ و لم أكتب، لم ينكر عليه أحد

ص: ٤٢١

دعاه، فيكون عدم الإنكار دليلاً جلياً على صدق مدّعاه، وعلى كل حال فإنّ هذه الكيفيه الخاصه للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ التي نوهت عنها الآيات المتقدمه، إنّما هي لإكمال إعجاز القرآن، ولقطع السبيل أمام حجج المتذرعين بالأباطيل الواهيه، وفيها تأثير بالغ و نافع جداً.

أجل، إنّهُ عالم منقطع النظر، لكنّه لم يدرس في مدرسه، بل تعلّم من وحى السماء!.

تبقى هناك ذريعه واحده يحتج بها المتذرعون، وهي أنّ النبي سافر إلى الشام مرّه أو مرتين «لفتره وجيزه و لغرض التجاره».. قبل نبوته، فيقولون: ربّما اتصل في بعض هاتين السفرتين بعلماء أهل الكتاب و تعلّم منهم هذه المسائل!.

و الدليل على ضعف هذا الادّعاء منطوق في نفسه، فكيف يمكن أن يسمع إنسان جميع هذه الدروس و تواريخ الأنبياء و الأحكام و المعارف الجليله، و هو لم يمض إلى مدرسه و لم يقرأ شيئاً، فيحفظ كل ذلك بهذه السرعة، و يودعه في ذهنه، ثمّ يبيّنه و يفصله خلال مدّه ثلاث و عشرين سنه؟! أو أن يبدى موقفاً مناسباً للحوادث غير المتوقعه و التي لم يسبق لها مثيل.

و هذا يشبه تماماً أن نقول مثلاً: إنّ فلاناً تعلم قائمه العلوم و الفنون الطبيه كلّها في عدّه أيام، و أنّه كان مشرفاً على معالجه المرضى في المستشفى الفلاني، و مستشاراً للأطباء، هذا كلام أقرب إلى المزاح و الهزل منه إلى الجد.

و ينبغي الالتفات إلى هذه المسأله، هي أنّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بعد أن بلغ مرحله النبوه، يحتمل أن يكون قادراً على القراءه و الكتابه، حينئذ و ذلك بواسطه التعليم الالهي و إن لم يرد في التواريخ أنّه استفاد من هذه الطريقه! و لم يقرأ شيئاً بنفسه أو يكتب شيئاً بيده، و لعل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ و سلمّ تجنب كل ذلك في طول عمره لئلا يتذرع المتذرعون فيثيروا الشكوك بنبوته! الشئ الوحيد الذي جاء في كتب التاريخ أنّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كتبه بنفسه، هو صلح الحديبيه الذي جاء في مسند أحمد أنّ «النبي أمسك القلم

بيده و كتب معاهده الصلح» (١).

إلا- أنّ جماعه من علماء الإسلام أنكروا هذا الحديث، وقالوا: إنّ هذا مخالف لصريح الآيات، وإن اعتقد البعض بأنه ليس فى الآيات صراحه، لأنّ الآيات ناظره لحال النبى قبل بعثته، فما يمنع أن يكتب النبى على وجه الاستثناء بعد أن نال مقام النبوه.. فى مورد واحد.. و يكون ذلك بنفسه معجزه أخرى من معجزه!.

إلا أن الاعتماد فى مثل هذه المسأله على خبر الواحد بجانب للحزم و الاحتياط، و مخالف لما ثبتت فى علم الأصول حتى لو قلنا أنّ هذا الخبر لا اشكال فيه. (٢)

٢- طريق النفوذ فى الآخرين

لا- يكفى الاستدلال القوى المتين للنفوذ إلى قلوب الآخرين و اكتسابهم بالكلام الحق، فإنّ أسلوب التعامل مع الطرف الآخر و طريقه البحث و المناظره تترك أعمق الأثر فى هذه المرحله.. فكثيرا ما يتفق أن يوجد أناس مّطلعون و لهم يد طولى فى البحوث العلميه المديقه، إلا- أنّهم قلمًا يوفقون للنفوذ إلى قلوب الآخرين، بسبب عدم معرفتهم بكيفيه المجادله بالتى هى أحسن، و عدم معرفتهم بالبحوث البناءه!.

و بتعبير آخر فإنّ النفوذ الى مرحله الوعى فى المخاطب-غير كاف وحده، بل ينبغى الدخول إلى مرحله عدم الوعى الذى يمثل القسم الأكبر لروح الإنسان أيضا.

و يستفاد من مطالعه أحوال الأنبياء، و لا سيما حال النبى محمد صلّى الله عليه و آله و أئمّه الهدى عليهم السّلام- بصوره جيده أن هؤلاء العظام سلكوا أحسن سبل الأخلاق

ص: ٤٢٣

١- ١) -مسند أحمد، ج ٤، ص ٢٩٨.

٢- ٢) -ورد فى صدد «النبى الأمى» شرح مفصل آخر ذيل الآيه (١٥٧) من سوره الأعراف.

الاجتماعيه و أسس المعارف النفسيه و الإنسانيه، لأجل تحقيق أهدافهم التبليغيه و التربويه!.

و كانت طريقه تعاملهم مع الناس أن يكتسبهم إليهم بشكل سريع فينجذبوا إليهم، و إن كان بعض الناس يميل إلى أن يضيف على مثل هذه الأمور ثوب الإعجاز دائما، إلا أنه ليس كذلك، فلو اتبعنا سنتهم و طريقتهم لاستطعنا بسرعه أن نترك في الناس عظيم الأثر، و أن ننفذ إلى أعماق قلوبهم.

و القرآن يخاطب نبي الإسلام صلى الله عليه و آله بصراحه فيقول: **وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ** (١) أو كثيرا ما يرى أن بعضهم بعد ساعات من الجدل و المناظره، لا أنه لا يحصل على تقدم في مناقشاته فحسب، بل على العكس يجعل الطرف الآخر متعصبا و متشددا في عقيدته الباطله بصوره أكثر... و ذلك دليل على أنه لم يتبع أسلوب المجادله بالتى هي أحسن.

فالشخونه في البحث، و طلب الاستعلاء، و تحقير الطرف المقابل، و إظهار التكبر و الغرور، و عدم احترام أفكار الآخرين، و عدم الجديه في المناقشات و البحوث، كلها من الأمور التى تبعث على انهزام الإنسان في بحثه، و عدم انتصاره على الطرف الآخر. لذلك فإننا نرى في مباحث الأخلاق الإسلاميه بحثا تحت عنوان «تحريم الجدل و المراء» و المراد منه الأبحاث التى لا يطلب من ورائها الحق، بل المراد منها الاستعلاء و إبراز العضلات لا غير!.

و تحريم الجدل و المراء-بالإضافه إلى الجوانب المعنويه و الأخلاقيه-إنما هو لأنه لا- يحصل من ورائهما على نتيجة فكريه ملحوظه.

و الجدل و المراء في حرمتها متقاربان، إلا- أن العلماء من المسلمين جعلوا فرقا بين كل منهما... «فالمراء» معناه إظهار الفضل و الكمال، «و الجدل» يراد منه تحقير الطرف المقابل!.

ص: ٢٢٤

وقالوا: إنَّ الجدال هي المراحل الهجوميه الأولى في البحث... وأما المراء فيراد منه الصّدّ الدفاعي في الكلام.

كما أنّ هناك قولاً بأن الجدال في المسائل العلميه، أما المراء فهو في الأعم منها «و بالطبع فإنه لا تضادّ بين هذه التفاسير جميعاً».

و على كل حال، فإنَّ الجدال أو البحث مع الآخرين، تارة يقع بالتى هي أحسن، و ذلك ما بيناه بالشرائط المتقدمه آنفاً، و ينبغي رعايتها بدقّه. و تارة يكون بغير الأحسن، و ذلك في ما لو أهملت الأمور التي ذكرناها في مستهل كلامنا على الجدال، و جعلت في طيّ النسيان.

و نختم هذا الكلام بعده روايات بليغه و نافعه لتتعلم منها:

ففي حديث عن النبي صلى الله عليه و آله أنّه قال: «لا يستكمل عبد حقيقه الإيمان حتى يدع المراء و إن كان محققاً» (١).

و نقرأ

في حديث آخر أن سليمان النبي عليه السلام قال لولده «يا بنى إِيَّاك و المراء، فإنه ليست فيه منفعة، و هو يهيج بين الأخوان العداوه» (٢).

٣- الكافرون و الظالمون

نواجه في الآيات المتقدمه آنفاً هذا التعبير وَ مَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ و مرّه أخرى نواجه المضمون ذاته مع شىء من التفاوت فبدلاً من كلمه «الكافرون» جاءت كلمه «الظالمون» وَ مَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ .

و الموازنه بين التعبيرين تدلّ على أن المسأله ليست من قبيل التكرار، بل هي لبيان موضوعين، أحدهما يشير إلى جانب عقائدى «الكافرون» و الآخر يشير إلى جانب عملي «الظالمون».

ص: ٤٢٥

١- ١) - سفينه البحار ماده مرأ.

٢- ٢) - إحياء العلوم.

فآلآيه الأولى تقول: إنَّ الذين اختاروا الشرك و الكفر بأحكامهم المسبَّقه الباطله و تقليدهم الأعمى لأسلافهم، لا يرون آيه من آيات الله إلَّا- أنكروها و إن تقبلتها عقولهم! أمَّا التعبير الثانى فيقول: إنَّ الذين اختاروا بظلمهم أنفسهم و مجتمعهم طريقا يرون فيه منافعهم الشخصيه، و عزموا على الاستمرار فى هذه الطريق، لا- يذعنون لآياتنا. لأنَّ آياتنا كما أنَّها لا- تنسجم مع خطهم الفكرى، فهى لا تنسجم مع خطهم العملى أيضا.

اشاره

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٥٢) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَعْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمَنْ تَحْتَ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٥)

التفسير

اشاره

أليس القرآن كافيا في إعجازه!؟

الأشخاص الذين لم يدعنوا و يسلموا للبيان الاستدلالي و المنطقي الذي جاء به القرآن بسبب عنادهم و إصرارهم على الباطل، و لم يقبلوا بكتاب كالقرآن

الذى جاء به إنسان أُمى كالتبى محمّد صلّى الله عليه وآله دليلاً جليّاً على حقانيه دعوته...

تذرعوا بحجّه أخرى على سبيل الاستهزاء و السخرية، و هى أنه لم لا تأت- يا محمّد- بمعجزه من المعاجز التى جاء بها موسى و عيسى و قالوا لو لا أنزل عليه آيات من ربّه .

و لم لم يكن لديه مثل عصى موسى و يده البيضاء و نفخه المسيح؟! و لم لا يهلك أعداءه بمعاجزه، كما فعل موسى و شعيب و هود و نوح بأممهم المعاندين!؟.

أو كما يعبر على لسانهم القرآن فى الآيات ٩٠-٩٣ من سورة الإسراء و قالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً، أو تكون لك جنة من نخيل و عنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله و الملائكة قبيلاً، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء و لن نؤمن لرقبك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولاً .

و من دون شك فإنّ النبى صلّى الله عليه وآله كانت لديه معاجز غير القرآن الكريم، كما أن التواريخ تصرح بذلك أيضاً... إلا أن أولئك لم يكن قصدهم من وراء كلامهم الحصول على معجزه، بل كان قصدهم- من جهه- أن لا يعتبروا القرآن شيئاً مهماً و كتاباً إعجازياً، و من جهه أخرى كانوا يريدون معجزات مقترحه «و المراد من المعجزات المقترحه هو أن يأتى النبى صلّى الله عليه وآله طبقاً لرغبات هذا و ذاك بمعاجز خارقه للعادة يقترحونها عليه، فمثلاً يريد منه بعضهم أن يفجر له الأرض ينابيع من الماء الزلال، و يريد الآخر منه أن يقلب له الجبال التى فى مكّه ذهباً، و يتذرع الثالث بأن هذا لا يكفى أيضاً بل ينبغى أن يصعد إلى السماء، و هكذا يجعلون المعجزه على شكل ألعوبه لا قيمه لها، و آخر الأمر.. و بعد رؤيه كل هذه الأمور يتهمونه بأنه ساحر».

لذلك فإن القرآن يقول في الآية (١١١) من سورة الأنعام وَ لَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَ كَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَ حَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا .

و على كل حال فإن القرآن، للرد على ذرائع هؤلاء المحتالين ذوى الحجج الواهيه، يدخل من طريقين:

فيقول أولاً- فى خطابه لنبيه قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ أَى قُلْ لَأَوْلئِكَ المعاندين أن الله يدرى أيه معجزه تناسب أى زمان و أى قوم، و هو يعلم أى الأفراد هم أتباع الحق، و ينبغى أن يريهم المعاجز الخارقه للعادة، و أى الأفراد المتذرعون و أتباع هوى النفس؟! ثم يضيف القرآن معقبا أن قُلْ وَ إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ... فمسؤوليتى الإنذار- فحسب- و الإبلاغ و بيان كلام الله، أما المعاجز و الأمور الخارقه للعادة فهى بأمر الله.

و الجواب الآخر هو قوله تعالى: أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ .

فهم يطلبون معاجز ماديه «جسمانيه»، و القرآن بحد ذاته أعظم معجزه معنويه..

و هم يريدون معجزه عابره لا- تمكث طويلا- فى حين أن القرآن معجزه خالده تتلى آياته ليل نهار عليهم و على الأجيال من بعدهم.

ترى هل يعقل أن يأتى إنسان أمى و حتى لو كان يقرأ و يكتب فرضا بكتاب بهذا المحتوى العظيم و الجاذبيه العجيبه، التى هى فوق قدره الإنسان و البشر، ثم يدعوا أهل العلم متحديا لهم للإتيان بمثله فيعجزون عن الإتيان بمثله؟! فلو كانوا حقا طلاب معجزه، فقد آتيناهم بنزول القرآن أكثر مما طلبوه إلا أنهم لم يكونوا طلاب معجزه، بل هم متذرعون بالأباطيل!.

و ينبغى الالتفات إلى أن التعبير أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ إِنَّمَا يستعمل-غالبا-فى

موارد يكون الإنسان قد أدى عملا- فوق ما ينتظره الطرف الآخر، و هو غافل عنه أو يتغافل عنه، كأن يقول مثلا: لم أحصل على الخدمة الفلانية، في حين أن الخدمة التي قدمت إليه- كما في هذه الحال- أكبر خدمه، إلا أنه لا يعتبرها شيئا، و نقول له: أو لم يكفك ما قدمناه؟! ثم بعد هذا كله ينبغي أن تكون المعجزه منسجمه مع ظروف «الزمان و المكان و كيفية دعوه النبي» فالنبي الذي يدعوا إلى مبدأ خالد، ينبغي أن تكون معجزته خالده أيضا.

و النبي الذي تستوعب دعوته العالم و تستوعب القرون و الأعصار المقبله، لا- بد له من أن يأتي بمعجزه تیره «روحيه و عقلانيه» ليجلب إليه أفكار جميع العلماء و المفكرين، و من المسلم به أن مثل هذا الهدف يتناسب مع القرآن، لا عصى موسى و لا يده البيضاء.

و في نهايه الآيه يضيف القرآن للتأكيد و التوضيح بصوره أجلى، فيقول: **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَ ذِكْرٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .**

«ذلك» هنا إشارة إلى الكتاب المنزل من السماء، و هو القرآن.

أجل، إن القرآن رحمه «وسيله» للذكرى و التذكر أيضا، فهو للمؤمنين الذين فتحوا قلوبهم بوجه الحقيقه، و الذين يبتغون النور و الطريق السوي هو لهم رحمه إلهيه يحسونها بكل وجودهم، و يشعرون بالاطمئنان و الدعه عنده.. و كلما قرءوا آياته تذكروا، فهي لهم ذكرى و آيه ذكرى؟! و لعل الفرق بين «الرحمه» و «الذكرى» أن القرآن ليس معجزه و ذكرى فحسب، بل هو إضافة إلى كل ذلك يحتوى على القوانين التي تمنح الرحمه و المناهج التربويه و الإنسانيه.

فمثلا كانت عصى موسى معجزه فحسب، إلا أنها لم يكن لها أثر في حياه الناس اليوميه، غير أن القرآن معجزه، هو في الوقت ذاته منهج كامل الحياه و رحمه أيضا.

أيضا.

و لما كان كل مدع بحاجه إلى الشاهد، فالقرآن يبين في الآيه الأخرى أن خير شاهد هو الله قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيِّنَى وَ بَيِّنَكُمْ شَهِيداً .

و بديهى أنه كلما كان اطلاع الشاهد و شهادته أكثر، فإنَّ قيمه الشهاده تكون أهم، لذلك يضيف القرآن بعدئذ قائلا: يَغْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ .

و الآن لنعرف كيف شهد الله على حقانيه نبيّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله؟! يحتمل أن تكون هذه الشهاده شهاده عمليه، لأنه حين يؤتى الله نبيّه معجزه كبرى كالقرآن، فقد وقع على سند حقانيته و أمضاه.

ترى هل يمكن أن يأتى الله الحكيم العادل بمعجزه على يد كذاب، و العياذ بالله! فعلى هذا كانت طريقه إعطاء المعجزه لشخص النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله- بنفسها- أعظم شهاده على نبوته من قبل الله.

و إضافه للشهاده العمليه المتقدمه، نقرأ فى آيات كثيره من القرآن شهاده قوليه فى نبوه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله، كما فى الآيه (٤٠) من سوره الأحزاب مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَ لَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ ، و فى الآيه (٢٩) من سوره الفتح أيضا مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ قال بعض المفسرين: إنَّ هذه الآيه كانت جوابا على ما قاله بعض رؤوساء اليهود من أهل المدينه، أمثال «كعب بن الأشرف» و أتباعه، إذ قالوا: يا محمّد، من يشهد على أنك مرسل من قبل الله، فنزلت هذه الآيه قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيِّنَى وَ بَيِّنَكُمْ شَهِيداً! كما يمكن أن تفسّر الآيه المتقدمه بتفسير آخر و بيان ثان، و ذلك أن المراد من شهاده الله فى الآيه هى ما سبق من الوعد و الذكر فى كتب الله السابقه «كالتوراه و الإنجيل» و يعلم بذلك علماء أهل الكتاب بصوره جيده!.

و فى الوقت ذاته لا منافاه بين التفسيرات الثلاثه الآنفه الذكر، و من الممكن

أن تجتمع هذه التفاسير في معنى الآية أيضا.

و تختتم الآية بنحو من الوعيد و التهديد لأولئك الكفار بالله، فيقول: **وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** .

و أى خسران أعظم من أن يعطى الإنسان جميع وجوده فى سبيل لا شىء؟! كما فعله المشركون، فقد أعطوا قلوبهم و أرواحهم للأوثان و الأصنام.. و وظفوا جميع قواهم الجسمانية و الإمكانيات الاجتماعيه و الفرديه فى سبيل الإعلام و التبليغ لمذهبهم الوثنى و أهملوا ذكر الله، فلم يعد عليهم هذا إلا بالضرر و الخسران!.

و غالبا ما يشير القرآن إلى هذا الخسران فى آياته، و فى بعض الآيات يرد التعبير بكلمه «أخسر» و هى إشارة إلى أنه ليس فوق هذا الخسران من خساره و لا أعظم منه!.. (راجع آيات السور «هود ٢٢ و النمل ٥ و الكهف ١٠٣»).

و المثل الأهم هو أنه قد يتفق للإنسان أحيانا أن يتضرر فى معاملته و يخسر رأس ماله و يغلب على أمره، و قد تتسع هذه الدائره أحيانا فيقل كاهله بالديون، و هذه الحاله أسوأ الحالات و المشركون هم فى مثل هذه الحاله، بل قد يكونون سببا لضلال الآخرين و خسرانهم، و كما يصطلح عليه: «الفشل سلسله متصله» (١).

فى الآيات المتقدمه عرض قسمان من ذرائع الكفار قبال دعوه النبى صلى الله عليه و آله و قد أجيب عنهما:

الأول: كان قولهم: لم لا يأتى بمعجزه؟! فأجاب القرآن: إن هذا الكتاب المنزل من السماء هو أعظم معجزه.

و الثانى: سؤالهم: من الشاهد على صدق دعواك و حقانيه النبوه عندك؟ فأجاب القرآن: كفى بالله شهيدا بينى و بينكم يعلم ما فى السماوات

ص: ٤٣٢

١- ١) -لنا فى هذا الصدد بحث مفصل بيناه فى ذيل الآية (١٠٣) من سوره الكهف.

و الأرض.

أما فى الآيه التاليه فأشاره إلى الذريعه الثالثه إذ تقول: وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ إِذ يَقُولُونَ: لو كان عذاب الله حقا على الكافرين فلم لا يأتينا؟! فيجيب القرآن على هذه الذريعه بثلاثه أجوبه.

الأول: وَ لَوْ لَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ .

و هذا الزمان المعين «الأجل» إنما هو لهدف أصلى، للارعواء عن باطلهم و تيقظهم، أو إتمام الحجه عليهم، فالله لا يستعجل أبدا فى أمره، لأن العجله خلاف حكمته.

و الثانى: إن أولئك الذين يتذرعون بهذا القول ما يديريهم لعل العذاب يأخذهم على حين غره من أنفسهم و لِيَأْتِيَنَّهُمُ بَغْتَةً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١) .

و بالرغم من أن موعد العذاب-فى الواقع-معين و مقرر إلا أن المصلحه تقتضى ألا يطلعوا عليه، و أن يأتهم دون مقدمات، لأنه لو عرف وقته لكان باعثا على تجرؤ الكفار و المذنبين و جسارتهم.. و كانوا يواصلون الذنب و الكفر إلى آخر لحظه.. و حين يأزف الوعد بالعذاب فإنهم سيتجهون بالتوبه-جميعا-الى الله و ينيبون إليه.

و الحكمة التربويه لمثل هذا العقاب تقتضى أن يكتم مواعده، لتكون كل لحظه ذات أثر بنفسها، و يكون الخوف و الاستيحاش منها عاملا- على الردع، و يتضح ممّا قلناه-ضمنا-أن المراد من جمله وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ لا تعنى أنهم لا يدركون أصل وجود العذاب. و إلا- فإن فلسفه العذاب و الحكمة منه لا- يكون لها أثر، بل المراد أنهم لا يعرفون اللحظه التى ينزل فيها العذاب و لا مقدماته، و بتعبير آخر: إن العذاب ينزل عليهم كالصاعقه و هم غافلون.

و يظهر من آيات متعدده من القرآن أن التذرع بالحجج الواهيه لم يكن

ص: ٤٣٣

(١- ١) - «البغته» مشتقه من «البغت» على زنه «وقت» و معناه التحقق المفاجئ و غير المنتظر لأمر.

منحصرا بأهل مكه، بل كثير من الأمم السابقين يلتجئون إلى مثل هذه الذريعه، و يصرون على تعجيل العقوبه و العذاب!

و أخيرا فإنّ الجواب القرآنى الثالث يتبين فى الآيه إذ يقول: يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ .

فإذا تأخر عنهم عذاب الدنيا، فإن عذاب الآخرة واقع لا محاله، و محيط بهم تماما و سيصيبهم حتما بحيث أنّ القرآن يذكره بصوره أمر فعلى (و كأن جهنم الآن محيطه بهم).

و يوجد تفسير آخر أكثر دقه لهذه الآيه، و هو أنّ جهنم محيطه، الآن فعلا بالكافرين، من جهتين - بالمعنى الواقعى للكلمه.

الجهه الأولى: إنّها جهنم الدنيا، إذ هم على أثر شركهم و تلوّثهم بالذنب يحترقون بجهنم التى أعدّوها لأنفسهم، جهنم الحرب و سفك الدماء، جهنم النزاع و الشقاق و الاختلافات، جهنم القلق و الفزع، جهنم الظلم، و جهنم الهوى و الهوس و العناد.

و الجهه الثانيه: طبقا لظاهر الآيات فى القرآن فإنّ جهنم موجوده فعلا، و كما تقدم سابقا فإنّ جهنم موجوده فى باطن الدنيا، و بهذا فهى محيطه بهم على نحو الحقيقه.. و فى سوره التكاثر إشاره لها أيضا كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ الآيات ٥-٧ من سوره التكاثر (١).

ثم يضيف القرآن يَوْمَ يَعْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَ يَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢).

يمكن أن تكون هذه الآيه توضيحا لإحاطه عذاب جهنم فى يوم القيامة بالكفار، و يمكن أن تكون بيانا مستقلا لذلك العذاب الأليم لهم الذى يحيط بهم

ص: ٤٣٤

١- ١) -لمزيد الإيضاح يراجع فى هذا الصدد تفسير الآيه (١٢٣) من سوره آل عمران.

٢- ٢) -يرى بعض المفسرين أن كلمه «يوم» متعلقه بفعل محذوف مقدر، و قال بعضهم: هو متعلق ب«محيطه».

اليوم على أثر أعمالهم، و في غد يتجلى هذا العذاب بوضوح و يكون محسوسا ظاهرا.

و على كل حال فذكره لإحاطه العذاب مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ و عدم ذكره لبقية الجهات في الحقيقة- هو لوضوح المطلب، و إضافه إلى ذلك فإن نار العذاب إذا امتدت ألسنتها من تحت الأرجل و نزلت على الرؤوس، فإنها تحيط بجميع البدن أيضا و تغطي جميع أطرافه و جوانبه.

و أساسا فإنّ هذا التعبير مستعمل في اللغة العربية، إذ يقال مثلا: إن فلانا غارق من قرنه إلى قدمه في مستنقع الفسق و عدم العفه، أي إن جميع وجوده غارق في هذا الذنب، و بهذا يرتفع الإشكال عند المفسرين في ذكر القرآن للجهة العليا «من فوقهم» و الجهة السفلى «من تحتهم» و السكوت عن الجهات الأربع الأخرى، و يتضح المراد منه بالتقرير الذي بيناه! أمّا جملة دُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ التي يظهر أن قائلها هو الله تعالى، فهي بالإضافه إلى أنّها نوع من العقوبه النفسيه لمثل هؤلاء الأشخاص، فهي كاشفه عن هذه الحقيقه، و هي أن عذاب الله ليس إلا انعكاسا للأعمال التي يقوم بها الإنسان نفسه في النشأ الآخره!.

ملاحظات

إشارة

١- دلائل إعجاز القرآن:

لا شك أنّ القرآن أعظم معجزه للإسلام... معجزه بليغه، خالده و باقيه، مناسبة لكل عصر و زمان و لجميع الطبقات الاجتماعيه، و قد ذكرنا بحثا مفصلا عن إعجاز القرآن في ذيل الآيه ٢٣ من سوره البقره، و لا حاجه إلى إعادته هنا.

ص: ٤٣٥

٢- التثبث بالحيل لإنكار المعجزات:

يصرّ بعض العلماء المتأثرين بالغرب-الذين يميلون إلى أن لا يعتدّوا بظواهر الأنبياء الخارقة للعادة- أنّ النبي صلّى الله عليه وآله ليس له معجزه غير القرآن، و ربّما يرون القرآن ليس معجزاً، في حين أنّ مثل هذا الكلام مخالف لآيات القرآن، و للروايات المتواتره، و للتأريخ الإسلامى أيضاً.

«و قد بيّنا تفصيل هذا الكلام فى ذيل الآيات ٩٠-٩٣ من سوره الإسراء».

٣- المعجزات الاقتراحية:

كانت أساليب المخالفين للأنبياء دائماً هى اقتراحهم المعجزات التى يرتؤونها، و كانوا يعملهم هذا يحاولون أن يحطّوا من قيمه المعجزات و عظمتها و يجروها إلى الابتذال من جهه، و أن تكون فى أيديهم ذريعه إلى عدم قبول دعوه الأنبياء من جهه أخرى، لكن الأنبياء لم يستسلموا لهذه المؤامرات أبداً.. و كما رأينا فى إجابتهم آنفاً، فإن المعجزه ليست باختيارهم لتكون مطابقه «لميلكم و هوسكم» كل يوم و كل ساعه نأتى بمعجزه كما تريدون... بل المعاجز هى بأمر الله فحسب، و هى خارجه عن أمرنا.

«و قد ذكرنا شرحاً حول المعجزه الاقتراحية فى ذيل الآيه ٢٠ من سوره يونس».

إشاره

يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرٍ الْعَامِلِينَ (٥٨) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩) وَكَأَيُّنَ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٠)

سبب النزول

يعتقد كثير من المفسرين أن الآيه-من هذا المقطع-نزلت في شأن المؤمنين الذين كانوا تحت ضغط الكفار الشديد، حتى أنهم لم يستطيعوا أن يؤدوا وظائفهم الإسلاميه، فجاءت هذه الآيه لتأمرهم بالهجره من هذه الأرض.

كما يعتقد بعض المفسرين أيضا أن الآيه وَكَأَيُّنَ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا وَهِيَ الْآيَةُ الْأَخِيرَةُ-من المقطع محل البحث نزلت في شأن بعض المؤمنين الذين كانوا يتعرضون لأذى أعدائهم في مكه! وكانوا يقولون لو هاجرنا إلى المدينه فليست لدينا دار ولا أرض، من يطعمنا و يسقينا هناك؟ فنزلت الآيه وَكَأَيُّنَ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ... .

لا بد من الهجره:

حيث أنّ الآيات السابقه كانت تتحدث عن مواقف المشركين المختلفه من الإسلام و المسلمين، ففي الآيات محل البحث يقع الكلام عن حال المسلمين و مسئولياتهم قبال المشاكل المختلفه، أى مشاكل أذى الكفار و ضغوطهم و قلّه عدد المسلمين و ما إلى ذلك، فتقول الآيه الأولى: يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ .

و بديهى أنّ هذا ليس قانونا خاصا بمؤمنى أهل مكّه، و لا- يحدد سبب التزول مفهوم الآيه الواسع المنسجم مع الآيات الأخرى... فعلى هذا لو سلب الإنسان حرّيته فى أى عصر أو زمان و مكان بشكل كامل، فإنّ بقاءه هناك لا يجلب عليه إلاّ الذلّ و الخسران و الضرر» و الابتعاد عن أداء المناسك الإلهيه، فوظيفه الإنسان المسلم عندئذ الهجره إلى منطقه «حرّه» يستطيع أن يؤدى فيها وظائفه الإسلاميه بحريه تامّه أو حريه نسبيه.

و بتعبير آخر: إنّ الهدف من خلق الإنسان أن يكون عبدا لله، عبوديه هى فى الواقع سبب للحرّيه و الكرامه و الإنتصار فى جميع الجهات. و جملة فَاِيَّايَ فَاعْبُدُونِ إشاره إلى هذا المعنى، كما ورد هذا التعبير فى الآيه (٥٦) من سوره الذاريات وَ مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ .

فمتى ما أصبح هذا الهدف الأساسى و النهائى مستحيلا، فلا سبيل عندئذ إلاّ الهجره، فأرض الله واسع، و ينبغى أن يهاجر الفرد نحو منطقه أخرى، و لا- يكون أسيرا لمفاهيم «القبليه و القوميه و الوطنيه و البيت و الأهل» فى مثل هذه الموارد، و لا يذل الإنسان نفسه من أجلها، فإنّ احترام هذه الأمور هو فيما لو كان الهدف الأصلى قائما غير مخاطر به، أمّا إذا أصبح الهدف الأصلى «عباده الله» مخاطرا به فلا سبيل إلاّ الهجره!

و فى مثل هذه الموارد

يقول الإمام أمير المؤمنين على عليه السلام: «ليس بلد بأحق بك من بلدك، خير البلاد ما حملك» (١).

صحيح أنّ حب الوطن و العلاقه بمسقط الرأس جزء من طبيعه كل إنسان، و لكن قد يتفق أن تحدث فى حياه الإنسان مسائل أهم من تلك الأمور، فتجعلها تحت شعاعها و تكون أولى منها.

و فى مجال موقف الإسلام و نظرتة من مسأله الهجره و الروايات الوارده فى هذا الصدد، كان لنا بحث مفصل فى ذيل الآيه (١٠٠) من سوره النساء.

و التعبير بـ **يَا عِبَادِي** هو أكثر التعبيرات رافه و حبا للناس من قبل خالقهم.

و تاج للفخر أعلى حتى من مقام الرساله و الخلافه، كما نذكر ذلك فى التشهد حيث نقدم العبوديه على الرساله دائما «أشهد أن محمدا عبده و رسوله».

من الطريف أنه حين خلق الله آدم لقبه بـ «خليفه الله»، و هو فخر لآدم، إلاّ أن الشيطان لم يئأس من التسويل و الوسوسه له، فكان ما كان، و لكن حين بوأه مقام العبوديه أذعن الشيطان له و يئس من إغوائه و قال: **فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ**. (٢).

و الله سبحانه ضمن هذا الأمر فقال: **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ**. (٣).

و يتضح ممّا ذكرناه-بصوره جيده-أنّ المراد بالعباد ليس جميع الناس فى الآيه محل البحث-بل هم المؤمنون منهم فحسب، و جمله الَّذِينَ آمَنُوا جاءت للتأكيد و التوضيح (٤).

و حيث أنّ البعض بقوا فى ديار الشرك، و لم يرغبوا بالهجره بذريعه أنّهم

ص: ٤٣٩

١-١) -الكلمات القصار، رقم ٤٤٢.

٢-٢) -سوره ص الآيات ٨٣، ٨٢.

٣-٣) -سوره الحجر، الآيه ٤٢.

٤-٤) -جمله «فإياى فاعبدون» عطف على جزاء جمله الشرط المحذوف و التقدير «إن ضاقت بكم الأرض فهاجروا منها إلى غيرها و إياى فاعبدون».

يخشون الخروج من ديارهم و يخافون أن يحدق بهم الموت بسبب الأعداء أو الجوع أو العوامل الأخرى التى تهددهم...إضافه إلى فراق الأحبه و المتعلقين و الأبناء و الأصدقاء،فإنّ القرآن يردهم بجواب جامع قائلاً: كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ .

فهذه الدنيا ليست بدار بقاء لأى أحد،فبعض يمضى عاجلاً،و بعض يتأخر، و لا بدّ أن يذهبوا جميعاً،و على كل حال ففراق الأحبه و الأبناء و الأقارب لا بدّ أن يقع و يتحقق،فعلام يبقى الإنسان فى ديار الشرك من أجل المسائل العابره..و أن يحمل عبء الذل و الأسر على كاهله،أكلّ ذلك من أجل أن يبقى بضعه أيام أو أكثر؟! ثم بعد هذا كله ينبغى أن تخافوا أن يدر ككم الموت فى ديار الكفر و الشرك قبل أن تبلغوا دار الإسلام،فما أشد ألم مثل هذا الموت و ما أتعسه! ثم لا- تظنوا أن الموت نهايه كل شىء،فالموت بدايه لحياه الإنسان الأصلية، لأنكم جميعاً إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ..إلى الله العظيم،و إلى نعمه التى لا حد لها و لا انتهاء لأمدها.

و الآيه التاليه تبين جانباً من هذه النعم فتقول: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَبِئْسَ لَبِئْسَ لَهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ (١).

فهم فى قصور تحيط بها أشجار الجنّه من كلّ جانب،الأنهار المختلفه التى لكل منها طعمه و لونه،طبقاً لآيات القرآن الاخر،و هى ما بين الأشجار و تحت تلك القصور جاريه أبداً..(لاحظوا أن«غرف»جمع غرفه،و معناها البناء المرتفع المشرف على أطرافه).

و الامتياز الآخر لغرف الجنّه أنّها ليست كغرف الدنيا و قصورها و منازلها التى ما أن يضع الإنسان فيها قدمه حتى يسمع نداء«الرحيل»،فغرف الجنّه دائمه

ص : ٤٤٠

١- ١) -«لبنوتهم»من ماده«تبوت»على زنه«تذكره»معناها إعطاء السكنى للإقامه و البقاء الدائم.

و يضيف القرآن معقبا في ختام الآية نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ .

و بموازنه بسيطه بين ما ذكر آنفا في شأن الكفار و المذنبين في الآيات السابقه، و ما ورد في هذه الآية، تتضح عظمه ثواب المؤمنين.

فالكفار غارقون في نار جهنم من قرنها إلى قدمهم، و يقال لهم على سبيل التوبيخ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

أمّا المؤمنون فهم مقيمون في نعيم الجنه و تحيط بهم رحمه الله من كلّ جانب، و بدلا من كلمات التوبيخ يكلمون بكلام طيب ملؤه المحبه و اللطف الإلهي الكريم، أجل يقال لهم: نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ .

و بديهي أنّ المراد بالعاملين هنا مع قرائن الجمل السابقه، هم الذين يعملون الصالحات المقرونه بإيمانهم، و إن كانت كلمه العاملين مطلقه.

و

في حديث عن نبي الإسلام العظيم صلى الله عليه و آله يصف الجنه فيقول: «إنّ في الجنه لغرفا يرى ظهورها من بطونها و بطونها من ظهورها» فنهض بعض أصحابه فقال:

يا رسول الله صلى الله عليه و آله لمن هذه الغرف؟ فقال صلى الله عليه و آله: «هي لمن أطاب الكلام، و أطمع الطعام، و صلى الله بالليل و الناس نيام» (١).

و الآية التاليه تصف أهم ما يتحلّى به المؤمنون العاملون فتقول: الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَلَيَّ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ .

إذ يتعدون عن الزوجه و الأولاد و الأهل و البيت و الأحباب و الأصدقاء و كل شىء عزيز عليهم، لكنهم يصبرون برغم الفراق يذوقون مراره الغربه و التهجير عن أوطانهم و يصبرون، و تتلقى أنفسهم العذاب و الأذى من أعدائهم من أجل حفظ إيمانهم، و يواجهون الصعاب في جهادهم الأكبر «جهادهم مع النفس» و جهادهم أعداءهم بشده، و يتحملون أنواع المشاكل فيصبرون!

ص: ٤٤١

أجل، هذا الصبر و هذه الاستقامه هما رمز انتصارهم و عامل فخرهم الكبير، و بدونه لا يتحقق عمل إيجابى فى الحياه.

ثم بعد هذا كله، فهم لا- يعتمدون على أموالهم و لا على أصدقائهم، بل يعتمدون على الله و يتوكلون على ذاته المقدسه، و إذ ابتغى ألف عدو هلاكهم تمثلوا قائلين: «امتحانك رحمه فلا أكثرث بالأعداء».

و إذ أمعنا النظر و فكّرنا جيدا رأينا أن الصبر و التوكل هما أساس جميع الفضائل الإنسانيه، فالصبر هو عامل الاستقامه أمام العوائق و المشاكل، و التوكل هو الهدف و الباعث على الحركه فى هذا الطريق المديد الملتوى.

و فى الحقيقه ينبغى الاستمداد من هاتين الفضيلتين (الصبر و التوكل) للأعمال الصالحه، إذ بدونهما لا يمكن أن تؤدى الأعمال الصالحه بالمقياس الواسع (١).

و فى آخر آيه- من الآيات محل البحث- جواب لأولئك الذين كان لسان حالهم أو لسان مقالهم يقول إذا خرجنا عن ديارنا و أهلينا، فمن سيطعمنا و يرزقنا؟ يخاطبهم القرآن أن لا تحزنوا على الرزق و لا تحملوا ثقل الذله و الأسر، فالرازق هو الله، لا لكم فحسب بل وَ كَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ .

قليل من الدواب و الحيوانات و الحشرات- و كذلك الإنسان- يأتى برزقه من الصحراء و الشجر إلى وكره و مسكنه كالنحل- التى تنتج العسل- و النمل، و غالبا ما تكون الحيوانات بمثابة «طائر اليوم» أى كل يوم عليها أن تمضى لرزقها و تبحث عنه من جديد. و هكذا فإن ملايين الملايين من الحيوانات التى من حولنا، فى النقاط القريبه و البعيده، و فى الصحارى و أعماق البحار و أعالي

ص: ٤٤٢

١- ١) - تحدثنا عن حقيقه التوكل و حكمته و فلسفته بإسهاب فى ذيل الآيه (١٢) سورة إبراهيم، و عن حقيقه الصبر لدى تفسير الآيه (١٢) من سورة إبراهيم و الآيه (٢٤) من سورة الرعد و الآيه (٢٤) من سورة الأعراف.

الجبال و الأماكن الأخرى، فإنّها كلّها تقنات من مائده الله السرمديه.

و أنت أيّها الإنسان أقوى من تلك الحيوانات و أذكى فى جلب الرزق، فلم كلّ هذا الخوف من انقطاع الرزق؟! و لم الركون إلى حياه الذل و الاستكانه و الفجور؟! و لم تظل سادرا تحت وطأه الظلم و القهر و الهوان و الذل؟! اخرج أنت أيضا من داخل هذه الدائره المظلمه، و اجلس على مائده خالقك الواسعه و لا تفكر بالرزق!.

فأنت يوم كنت جنينا محبوسا فى بطن أمّيك، و لا- تصل إليك أيه يد حتى من أبيك و أمك الرؤوم، لم ينسك الله الذى خلقك، و هيا ما كنت تحتاج إليه لك بكل دقه، فكيف و أنت اليوم كائن قوى و رشيد؟! و حيث أن إيصال الرزق للمحتاجين هو فرع علمه تعالى بحاجاتهم، فالقرآن يؤكّد فى نهايه الآيه قائلا: وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .

يسمع كلامكم كلّه، و يعرف لسان حالكم، و لسان حال جميع الدواب، و هو خير بحاجات الجميع، و لا يخفى على علمه الذى لا حد له شيء أبدا.

ص: ٤٤٣

اشاره

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَ سَيَخِرُّ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٤١) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ يَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٤٢) وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤٣) وَ مَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤٤) فَبِإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلَمِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٤٥) لِيُكْفَرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَ لِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٤٦)

التفسير

اشاره

الإقرار بالتوحيد في الباطن و الشرك في الظاهر:

كان الحديث في الآيات السابقة موجهاً إلى المشركين الذين أدركوا حقايقه الإسلام، إلا أنهم لم يكونوا مستعدين للإيمان و الهجره، خوفاً من انقطاع الرزق عليهم.

أمّا في هذه الآيات، فالحديث موجه للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَفِي الْوَاقِعِ لِجَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ، وَهُوَ يَبَيِّنُ دَلَائِلَ التَّوْحِيدِ عَنْ طَرَفِ «الْخَلْقِ»، وَ«الرَّبُوبِيَّةِ»، وَ«الْفِطْرَةِ»، أَيُّ عَنْ ثَلَاثِ طَرَائِقٍ مُتَّفَاوِتَةٍ، وَيُرِيهِمْ أَنَّ مَصِيرَهُمْ وَعَاقِبَةُ أَمْرِهِمْ بِيَدِ اللَّهِ الَّذِي يَجِدُونَ آثَارَهُ فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ، لَا بِأَيْدِي الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ الَّتِي لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ.

فتبدأ الآية الأولى من هذه الآيات محل البحث -مشيره إلى خلق السماوات والأرض وتستنعين باعتقاداتهم الباطنية... فتقول: وَ لئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله! لأن من المسلم به أنه لا عبدة الأصنام ولا غيرهم ولا أي أحد آخر يقول: إن خالق السماوات والأرض ومسخر الشمس والقمر حفنه من الأحجار والخشب المصنوعه بيد الإنسان.

و بتعبير آخر: لا يشك في «توحيد الخالق» حتى عبدة الأصنام حيث كانوا مشركين في عبادة الخالق، وكانوا يقولون: إنما نعبد أوثاننا ليقربونا إلى الله زلفى، فهم الوسطاء بيننا وبين الله، كما نقرأ في الآية (١٨) من سورة يونس وَ يَقُولُونَ هُوَ لَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ.. فنحن غير جديرين أن نرتبط بالله مباشرة، بل ينبغي أن نرتبط به عن طريق الأصنام ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى. (١)

و هم غافلون عن أنه لا تفصل بين الخالق والمخلوق أيه فاصله، وهو أقرب إلينا من جبل الوريد، زد على ذلك: إذا كان الإنسان -الذي هو بمثابة الدرّه اليتيمه في تاج الموجودات- لا يستطيع أن يرتبط بالله مباشرة، فأى شيء يكون واسطه الإنسان إلى الله؟! و على كل حال، فإن الآية بعد ذكر هذا الدليل الواضح تتساءل: فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ أَيُّ مَعَ هَذَا الْمَالِ كَيْفَ يَعْرَضُونَ عَنْ عِبَادَةِ خَالِقِهِمْ وَ يَسْتَبَدُّونَهَا بِعِبَادَةِ مَجْمُوعِهِ مِنَ الْأَحْجَارِ وَالْأَشْجَابِ؟!

ص: ٤٤٥

كلمه «يؤفكون» مشتقّه من «إفك» على زنه «فكر» ومعناها إعادته الشىء من صورته الواقعيه و الحقيقيه، و بهذه المناسبه تطلق الكلمه على الكذب و على الرياح المخالفه «للاتجاه» أيضا.

و التعبير ب«يؤفكون» بصيغه المجهول إشاره إلى أنّهم لا قدره لهم على التصميم، فكأنّهم منجذبون إلى عباده الأوثان دون إرادته. و المراد من تسخير الشمس و القمر النظم التى أقرها الله تعالى، و جعل الشمس و القمر فى دائره هذه النظم فى خدمه الإنسان، و منافعهم.

ثمّ يضيف القرآن تأكيدا لهذا المعنى، و هو أن الله خالق الخلق و رازقهم، فيقول: [□]اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ يَقْدِرُ لَهُ... فمفتاح الرزق بيده لا بيد الناس و لا بيد الأصنام.

و ما ورد بيانه فى الآيات السابقه من أنّ المؤمنين حقًا هم وحدهم يتوكلون عليه، فلاجل هذا المعنى، و هو أن شىء بيده و بأمره، فعلام يخشون من إظهار الإيمان، و يرون حياتهم فى خطر من جهه الأعداء.

و إذا كانوا يتصورون أنّ الله قادر، إلاّ أنّه غير مطلع على حالهم، فهذا خطأ كبير ل [□]إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

ترى هل يمكن لخالق مدبر يصل فيضه لحظه بعد أخرى لموجوداته، و فى الوقت ذاته يكون جاهلا بحالها؟.

و فى المرحله الثانيه يقع الكلام عن «التوحيد الربوبى» و نزول مصدر الأرزاق من قبله عليهم، فيقول: [□]وَ لَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .

فهذا هو ما يعتقد عبده الأصنام فى الباطن، و لا يتأبون من الاعتراف على ألسنتهم افهم يعرفون أن الخالق هو الله، و أنّه ربّ العالم و مدبره.

ثمّ يضيف القرآن مخاطبا نبيه قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ . فالحمد و الثناء لمن أنعم [□]

جميع النعم، إذ لما كان الماء الذى هو مصدر الحياه لجميع الحيوانات من رزق الله فيكون واضحا أن الأرزاق جميعها صادرة من قبله أيضا.

قل الحمد لله «و اشكره»، لأنهم يعترفون بهذه الحقائق.

وقل الحمد لله، فمنطقنا قوى متين حتى إلى درجه لا يستطيع أى أحد إبطاله أو تفنيده. و حيث أن أقوال المشركين من جهه، و أعمالهم و أفعالهم و كلماتهم من جهه أخرى، يناقض بعضها بعضا، فإن الآيه تختتم بإضافه الجمله التاليه بلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ .

و إلا- فكيف يمكن للإنسان العاقل أن يتناقض فى كلماته، فتاره يرى أن الخالق و الرازق و المدبّر للعالم هو الله، و تاره يسجد للأوثان التى لا تأثير لها بالنسبه لعواقب الناس! فمن جهه يعتقدون بتوحيد الخالق و الرب، و من جهه أخرى يظهرن الشرك فى العباده.

و من الطريف أن الآيه لا تقول: «أكثرهم لا عقل لهم» بل تقول: لا يَعْقِلُونَ و معناها أنهم لديهم العقول، إلا أنهم لا يستوعبون و لا يتفكرون! و من أجل أن يحوّل القرآن أفكارهم من أفق هذه الحياه المحدوده إلى عالم أوسع من خلال منظار العقل، فإنه يبين فى الآيه التاليه كيفيه الحياه الدنيا قياسا إلى الحياه الأخرى الخالده، فى عباره موجزه و مليئه بالمعاني، فيقول: وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوَ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .

كم هو تعبير بليغ و بديع! لأن «اللهو» معناه الانشغال.. أو كل عمل يصرف الإنسان إليه و يشغله عن مسائل الحياه الأساسيه.

أمّا «اللعب» فيطلق على الأعمال التى فيها نوع من النظم الخيالى، و الهدف الخيالى أيضا، ففى اللعب يكون أحد اللاعبين ملكا، و الآخر وزيرا، و الثالث قائدا للجيش، و الرابع- السارق أو «الحرامى»، و الخامس يمثل القافله و هكذا، و بعد انتهاء اللعب المؤقت يعود كل شىء إلى مكانته، و كأن المسأله لا تعدوا

طيفا.. أو خيالا.. فلا أثر ولا خبر.

فالقرآن في هذا الصدد يشرح حال الدنيا و حال الآخرة، مبينا أن الحياه الدنيا هي نوع من الانشغال و اللعب يجتمع الناس فيها و ينشدون إلى تصورات قلوبهم و أنفسهم، و بعد أيام يتفرقون و يختفون تحت التراب، ثم يطوى كل شيء و يغدو في سله النسيان.

أمّا الحياه الحقيقيه التي لا فناء بعدها، و لا ألم فيها، و لا قلق و لا خوف و لا تضاد و لا تزاحم، فهي الحياه الآخرة فحسب... لو كان الإنسان يعرف ذلك، و كان أهلا للتدقيق و التحقيق! أما الذين تعلقت قلوبهم بهذه الحياه، و فتنوا برزقها و زخرفها و زبرجها، و يأنسون بها، فهم أطفال لا غير و إن امتدت أعمارهم سنين طويله.

و ينبغي الالتفات إلى أنّ المراد من «الحيوان» على زنه «خفقان» هو الحياه، فهذه الكلمه تحمل معنى مصدرها (1) ..

و هذا التعبير و إنّ الدار الآخرة لَهِيَ الْحَيَوانُ إشاره إلى أن الحياه الحقيقيه هي في الأخرى، لا في هذه الدار الدنيا- فكأنّ الحياه في الأخرى تفور من جميع أبعادها، و لا شيء هناك إلا الحياه.

و بديهى أن القرآن لا يريد أن ينسى و ينفى مواهب الله في هذه الدار الدنيا، بل يريد أن يجسد قيمه هذه الدنيا بالقياس إلى الأخرى قياسا صريحا و واضحا...

و إضافه إلى كل ذلك فإنه ينذر الإنسان لئلا يكون أسيرا لهذه المواهب، بل ينبغي أن يكون أميرا عليها، و لا يؤثرها على القيم الأصلية أبدا.

و في المرحله الثالثه... يتجه القرآن نحو الفطره و الجبله الإنسانيه، و نحو تجلّي نور التوحيد في أشدّ الأزمات في أعماق روح الإنسان، و ضمن مثال بديع جدا و بليغ فيقول: فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ .

ص: ٤٤٨

(١- ١) - أصل الكلمه مشتق من «حيى» و مصدرها «حيان» ثم أبدلت الياء الثانيه واوا فصارت حيوان.

أجل، إنَّ الشدائد و الأزمات هي التي تهىء الارضيه لتفتح الاجتماعيه «الفطره» للإنسانيه، لأنَّ نور التوحيد مخفى في أرواح الناس جميعا، إلا أن الآداب و المسائل الخرافيه و التربيه الخاطئه و التلقينات السيئه تلقى عليه ظللا و أستارا، و لكن حين تحدد بالإنسان الشدائد و تحيط به دوّامات المشاكل، و يرى يده قاصره عن الأسباب الظاهريه، يتجه بدون اختياره إلى عالم ما وراء الطبيعه، و يخلص قلبه من كل نوع من أنواع الشرك و الكفر، و ينصهر في تنور الحوادث، و يكون مصداقا لقوله تعالى: مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ .

و ملخص الكلام: إنّه توجد في داخل قلب الإنسان دائما نقطه نورانيه، و هي خطّ ارتباطه بما وراء عالم الطبيعه، و أقرب طريق إلى الله.

إلا أنّ التعليمات الخاطئه و الغفله و الغرور- و خاصه عند السلامه و وفور النعمه- تلقى عليها أستارا، غير أن طوفان الحوادث يزيل هذه الأستار، و تتجلى نقطه النور آنذاك.

و على هذا، فإنَّ أئمه المسلمين العظام كانوا يرشدون المترددين في مسأله «معرفه الله» و يغرقون في الشك و الحيره.. بهذا الأمر.

و قصّيه الرجل المتحيّر المبتلى بالشك في معرفه الله، و الذى أرشده الإمام الصادق عليه السّلام عن طريق الفطره و الوجدان، سمعناها جميعا إذ

قال: يا ابن رسول الله، دلّنى على الله ما هو؟! فقد أكثر على المجادلون و حيرونى! فقال له الإمام عليه السّلام: «يا عبد الله، هل ركبت سفينه قطّ؟ قال: نعم.

قال: فهل كسر بك حيث لا سفينه تنجيك و لا سباحه تغنيك؟! قال: نعم! قال: فهل تعلّق قلبك هنالك أن شيئا من الأشياء قادر على أن يخلصك من

ورطتك؟! قال: نعم.

قال الصادق عليه السلام: فذلك الشيء هو الله القادر على الإنجاء حيث لا منجى، و على الإغاثه حيث لا مغيث». (١)

و فى آخر آيه-من الآيات محل البحث-و بعد ذكر جميع هذه الدلائل على التوحيد و عباده الله، يواجه القرآن المشركين و الكفار بتهديد شديد فيقول: إن هؤلاء أنكروا آياتنا و كفروا بما رزقناهم من النعم فليتمتعوا بها أياما قلائل:

لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَ لِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ

عاقبه كفرهم و شركهم إلى أين ستبلغ بهم؟ و أى ابتلاء و مصير مشؤوم سيقعون فيه؟! و بالرغم من أن ظاهر الآيه هنا هو الأمر بالكفر و إنكار آيات الله... إلا أن من البديهي أن المراد منه التهديد... و هذا تماما ينطبق مثلا على ما لو قلنا لمذنب جان: افعل ما بدا لك من إجرام، إلا- أنك سرعان ما تذوق مراره عملك؟ ففي مثل هذه العبارات، و إن استعملت صيغه الأمر فيها، إلا أن الهدف من ورائها هو التهديد و ليس الطلب.

و الطريف أن جمله فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ جاءت بصورة مطلقة، فهي لا تقول:

أى شيء يعلمون... بل تقول: سيعلمون عاجلا، هذا هو معنى فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ .

إطلاق الكلام هذا ليكون مفهومه واسعا و لا يتحدد ذهن السامع بأى شيء فنتيجة الأعمال السيئه هي عذاب الله، الافتضاح فى الدارين، و كل أنواع الشقاء و سوء العاقبه!.

ص: ٤٥٠

(١- ١) -بحار الأنوار، ج ٣، ص ٤١، الطبعة الجديدة.

الشدائد و اشراق القطره:

ستحدث بإذن الله في ذيل الآيه الثلاثين من سورة الروم حول «فطريه» أصل التوحيد و معرفه الله بشكل مفصل، و ما يلزم ذكره هنا هو أن القرآن المجيد يتحدث في آيات كثيره عن المشاكل و الصعاب على أنها باعته على ظهور الفطره الإنسانيه و بروزها «فالمشاكل و الصعاب و سيله لاشراق الفطره».

يقول القرآن في بعض آياته: وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ ثُمَّ إِذَا كَسَفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ . (١)

و يأتي هذا المعنى في سورة يونس، و لكن بأسلوب آخر، إذ يقول القرآن إِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ غُضْرَهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ (٢) كما ورد هذا المعنى في سورة الروم الآيه (٣٢) و سورة الزمر الآيه (٤٩) و سورة الإسراء الآيات (٦٧) - (٦٩) بعبارات أخرى و إشارات مليئه بالمعاني.

و في الآيات -محل البحث- قرأنا أيضا أن المشركين في الحالات العاديه يتجهون إلى الأصنام، و لكن إذا سافروا في البحر و أحاطت بهم الأمواج و الطوفان، و أضحت سفينتهم كالقشه في وسط الأمواج المتلاطمه تتقاذفها هنا و هنا، و انقطعت بهم السبل تتنور قلوبهم بنور التوحيد و يلقون جانبا جميع المعبودات المصنوعه، و يخلصون قلوبهم كاملا- لكن خلوصا إجباريا لا قيمه له - فما أن يهدأ الطوفان و تتلاشى الأمواج و تعود الحاله الاعتياديه، حتى تنزل الأسدال على الفطره و تظهر أشواك الشرك و الوثنيه على هذه «الورده».

ص: ٤٥١

١- ١) -النحل، الآيتان ٥٣-٥٤»

٢- ٢) -يونس، الآيه ١٢.

قد يقال: إنَّ هذه الحالة من التوجه تحصل على أثر التلقين و الرسوبات الفكرية من الثقافه الاجتماعيه و أفكار المحيط.

و يمكن قبول مثل هذا الكلام فيما إذا كانت هذه المسأله تحدث خاصه في موارد المتدينين أو الذين نشؤوا في محيط ديني، و لكن مع الالتفات إلى أن هذه الحالة تظهر حتى عند أشد المنكرين لله، و في المجتمعات غير المذهبيه، فيتضح حينئذ أن جذرها كامن في الضمير (غير الواعي) للإنسان، و في داخل فطرته و جبلته!

ص: ٤٥٢

إشاره

أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (٦٧) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٦٨) وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩)

سبب النزول

نقل في تفسير «الدر المنثور» عن ابن عباس - ذيل الآيه محل البحث - أن جماعه من المشركين قالوا: يا محمّد ما يمنعنا أن ندخل في دينك إلا مخافه أن يتخطفنا الناس لقلتنا و العرب أكثر منا فمتى بلغهم أنا قد دخلنا في دينك اختطفنا فكنا أكله رأس، فانزل الله: أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا وَ كَانَتْ جَوَابًا لَهُمْ.

التفسير

أشارت الآيات - التي سبق ذكرها - إلى بعض الحجج الواهيه للمشركين، و هي أننا نخاف على حياتنا إذا أظهرنا الإيمان ثم هاجرنا معك يا رسول الله، و قد ردّ عليها القرآن بطرق مختلفه.

و فى الآيات-محل البحث-يرد القرآن عليهم بطريق آخر فيقول: أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا أَي أَرْض مَكَّة المكرمه.

فى حين أن العرب كانوا يعيشون فى حالة غير آمنة خارج مكه، و كانت قبائلهم مشغوله بالنهب و السلب و الغارات، إلا أن هذه الأرض باقيه على أمنها وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ .

فالله المقتدر على أن يجعل فى هذا البحر المتلاطم و الطوفان المحدق بأرض الحجاز«من الفتن» حرم مكه كالجزيه الهادئه الآمنه وسط البحر. كيف لا يمكنه أن يحفظهم من أعدائهم؟! و كيف يخافون الناس الضعاف قبال قدره الله العظيمه جل و علا؟ أ فَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ .

و ملخص الكلام، إن الله القادر على أن يجعل فى أرض مضطربه فى وسط جماعه من الناس أنصاف و حشيين منطقه صغيره آمنه، فكيف لا يقدر على حفظ جماعه المؤمنين القلائل بين جماعات كثيره من الكفار.

و بعد ذكر هذا الدليل الواضح ينتهى القرآن الى هذه النتيجة فى الآيه التاليه وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ .

لقد قدمنا دلائل واضحه لكم على أنه لا- شىء أحق بالعباده و أخرى بها من الله، لكنكم كذبتم على الله، و صنعتم له شركاء بأيديكم، و تدعون أن هذا هو منهج إلهى.

و من جهه أخرى، فإن القرآن الذى أنزلناه عليكم فيه دلائل الحق لائحه واضحه، إلا- أنكم لم تكثرثوا به، و ألقيتموه وراءكم ظهرها! فهل يتصور ظلم أشد من هذا؟! لقد ظلمتم أنفسكم و ظلمتم الناس جميعا، لأن الشرك ظلم عظيم.

و بتعبير آخر: هل الظلم بمعناه الواسع إلا الانحراف و إخراج الشىء عن محله الجدير به، و هل يرى أسوأ من أن يعد الإنسان حفته من الأحجار المصنوعه التى لا قيمه لها أو الخشب المصنوع شركاء للخالق سبحانه الذى

إضافه إلى ذلك فإنّ الشرك مصدر جميع المفاسد الاجتماعيه، و فى الواقع إن المظالم الأخرى تسترقد منه،عباده الهوى،عباده المقام،عباده الدنيا،كل منها نوع من الشرك.

و لكن اعلموا أنّ عاقبه الشؤم و الخزى للمشركين أليس فى جهنّم مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ .

من الجدير ذكره أنّ فى القرآن الكريم ١٥ موردا عبّر فيها القرآن عن بعض الأفراد بأنهم الأظلم،و جميع هذه الموارد بدأت بجمله استفهاميه وَ مَنْ أَظْلَمُ طبعاً الاستفهام هنا استنكارى.

و التدقيق فى هذه الآيات يدل على أنّ الآيات المذكوره و إن عالجت مسائل متنوعه،إلا أنّها جميعاً تعود إلى الشرك،فعلى هذا لا تضاد بينها أبداً.«لمزيد الإيضاح يراجع تفسير الآيه(٢١)من سوره الأنعام».

و آخر آيه-من الآيات محل البحث-و هى فى الوقت ذاته آخر آيه سوره العنكبوت،تبيّن واقعا مهما،و هى عصاره جميع هذه السوره،و تنسجم مع بدايتها، تقول الآيه..بالرغم من أن المشاكل المتعدده تحيط بطريق المسير إلى الله، من قبيل مشكله معرفه الحق،و مشكله وساوس الشياطين من الإنس و الجن، و مشكله عناد الأعداء الألداء الظالمين الذين لا-يرحمون،و مشكله الانحرافات الاحتماليه،لكن هنا حقيقه ثابتة،و هى أن الله يمنحكم القوّه و الاطمئنان قبال المشاكل و يدافع عنكم،تقول الآيه: وَ الَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ .

و فى معنى «الجهاد»هنا و المراد منه احتمالات متعدده.أ هو جهاد الأعداء؟ أم جهاد النفس؟ أم الجهاد فى سبيل معرفه الله عن الطرق العلميه؟

للمفسرين آراء في هذا المجال.

و كذلك في معنى «فينا» الذي ورد تعبيره في الآيه، هل المراد منه في سبيل الله؟! أم في سبيل الجهاد للنفس، أم في سبيل العباده، أم مواجهه الأعداء؟ و لكن من الواضح أنّ التعبير بالجهاد له معنى واسع مطلق، و مثله التعبير بكلمه «فينا» فالتعبير يشمل كل سعى و جهاد في سبيل الله و من أجله، و للوصول إلى الأهداف الإلهيه، كل ذلك يصدق عليه **جَاهِدُوا** فِينَا سواء كان في سبيل كسب المعرفه! أو جهاد النفس، أو مواجهه الأعداء، أو الصبر على الطاعه، أو الصبر على المعصيه، أو في إعانه الضعفاء، أو في الإقدام على أى عمل حسن و صالح! و يتّضح ممّا قلناه ضمنا أنّ المراد ب«السبيل» الطرق المتعدده التى تنتهى إلى الله، سبيل جهاد النفس، سبيل جهاد الأعداء، سبيل العلم و الثقافه. و الخلاصه، فإن الجهاد فى كل طريق من هذه الطرق و السبيل سبب لهدايه المسير المنتهى إلى الله.

و هذا وعد وعده الله لجميع المجاهدين فى سبيله، و أكدّه بأنواع التأكيدات ك«لام التأكيد و النون الثقيله» و جعل التوفيق و الإنتصار و الرقى فى محور شيئين هما «الجهاد» و «خلوص النيه».

و يعتقد جماعه من الفلاسفه أنّ التفكير و المطالعه لا يوجدان العلم، بل يهيئان روح الإنسان لقبول صور المعقولات، و حين تتهيأ الروح الإنسانيه للقبول يتنزل «الفيض» من قبل الخالق المتعال و واهب الصور بالعلم و «الحكمه».

فعلى هذا ينبغى على الإنسان أن يجاهد فى هذا الطريق، إلا أن الهدايه بيد الله تعالى.

و ما

ورد فى الحديث أنّه «ليس العلم بكشره التعلم و التعليم، بل هو نور يقذفه الله فى قلب من يشاء»، فلعله إشاره إلى هذا المعنى أيضا.

ص: ٤٥٦

١- الجهاد والإخلاص

يستفاد من الآيه المتقدمه بصوره جيده أننا إذا أصبنا بأى نوع من الهزيمه عدم الموفقيه، فسبب ذلك و علتة أحد أمرين: إما أنا قَصِيرنا فى جهادنا، أو لم يكن لدينا إخلاص فى العمل، وإذا اجتمع الجهاد و الإخلاص -فبناء على وعد الله- فإن النصر و الهدايه حتميان.

و لو فكّرنا جيدا لاستطعنا أن نعزو جميع المشاكل و المصائب فى المجتمع الإسلامى الى التقاعد عن الجهاد و عدم الإخلاص، فهما مصدرها.

فلم تأخر المسلمون، الذين كانوا متقدمين بالأمس؟! و لم يمدون يد الحاجه إلى الأجنب فى كل شىء، حتى فى الثقافه و القوانين، و حتى نظمهم الخاصه.

و لم يعتمدون على غيرهم من أجل حفظ أنفسهم من التيارات السياسيه و الهجومات العسكريه.

لم كان الآخرون جالسين يوما على مائده المسلمين التى كان خوانها مبسوطا بالعلم و الثقافه و المعرفه، و اليوم أصبح المسلمون جالسين على مائده الآخريين؟! و أخيرا، لم نرى المسلمين أسرى فى قبضه الآخريين، و أراضيههم مغصوبه من قبل الظالمين؟ الإجابه على جميع هذه الأسئلة منحصره فى سبب واحد، هو «نسيانهم الجهاد» أو «عدم الخلوص فى النيه».

أجل، لقد أهملوا الجهاد فى الميادين العلميه و الثقافيه و السياسيه و الاقتصاديه و العسكريه، و تغلب عليهم حب النفس و عشق الدنيا او طلب الراحة و النظرة الضيقه و الأغراض الشخصيه، حتى أصبح قتلاهم على أيديهم

أكثر من قتلاهم على أيدي أعدائهم!.

إن استغراب بعض المسلمين الذى انبهروا بحضاره الغرب الرأسمالى أو الشرق الاشتراكى، و عماله بعض الرؤساء و الزعماء، و يأس و انزواء العلماء و المفكرين كل ذلك سلبهم التوفيق الى الجهاد، و كذلك حرمهم من الإخلاص.

و متى ما ظهر قليل من الإخلاص بين صفوفنا، و تحرك مجاهدونا حركه ذاتيه، فإن النصر يكون حليفنا واحدا بعد الآخر... و تتقطع غلال الأسر... و يتبدل اليأس إلى أمل مشرق، و سوء الحظ الى حسن الحظ، و الذله إلى العزه و رفعه الرأس، كما تتبدل الفرقه و الشتات إلى الوحده و الانسجام.

و ما أعظم ما قاله القرآن! و ما أبلغ إلهامه! إذ جمع فى جمله واحده الداء و الدواء معا.

أجل إن الذين يجاهدون فى سبيل الله تشملهم هدايته، و من البديهي أنه مع هدايه الله، فلا ضلال و لا خسران، و لا انهزام.

و إذا لاحظنا أن الآيه مفسره فى بعض روايات أهل البيت عليهم السّلام بآل محمّد صلّى الله عليه و آله و أتباعهم، فهى مصداق كامل لذلك «التفسير» لأنهم كانوا السابقين و المتقدمين فى طريق الجهاد، و ليس فى الآيه دليل على تحديد مفهومها أبدا.

و على كل حال، فإنّ كل إنسان يلمس هذه الحقيقه القرآنيه.. فى سعيه و اجتهاده، حيث يجد الأبواب مفتوحه عند ما يعمل لله و فى سبيل الله، و تنتهى مشاكله السهله و الصعبه و تضحى بسيطه متحمله.

٢- الناس ثلثه أصناف:

فصنف لجوج معاند لا تنفعه أيه هدايه.

و صنف مجد دؤوب مخلص، و هذا الصنف يصل إلى الحق.

و صنف ثالث أعلى من الصنف الثانى، فهذا الصنف ليس بعيدا حتى يقترب

من الحق، و لا منفصلا عنه حتى يتصل به، لأنه معه أبدا.

فآييه المتقدمه وَ مَنْ أَظْلَمَ مِمَّنِ افْتَرَىٰ ۖ إشاره إلى الصنف الأول.

و جملة وَ الَّذِينَ جَاهَدُوا فِيْنَا ۖ إشاره إلى الصنف الثاني.

و جملة إِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ۖ إشاره إلى الصنف الثالث.

و يستفاد-ضمنا-من هذا التعبير أن مقام «المحسنين» أسمى من مقام «المجاهدين»، لأن المحسنين إضافه إلى جهادهم في سبيل الله لنجاه أنفسهم، فهم مؤثرون غيرهم على أنفسهم، و يحسنون إلى الآخرين، و يسعون لإعانتهم.

رَبَّنَا وَفَقْنَا تَوْفِيقًا تَرْحَمْنَا بِهِ، فلا نكفَّ أيدينا عن الجد و الاجتهاد.

إلهنا..ارزقنا الإخلاص حتى لا نفكر في سواك، و لا نخطوا لغيرك.

إلهنا..ارفع درجاتنا حتى نعلو على مقام المجاهدين و ننال درجه المحسنين، و ارزقنا هدايتك في جميع أعمارنا.

آمين يا رب العالمين انتهاء سوره العنكبوت

سوره الروم

اشاره

مكيه و عدد آياتها ستون آيه

ص: ۴۶۱

محتوى سوره الروم:

حيث أنّ هذه السوره جميعها نزلت بمكّه - كما هو المشهور - فإنّ محتوى السور المكيه، وروحها باد عليها... أى إنّها تبحث قبل كل شىء عن المبدأ و المعاد، لأنّ فتره مكّه هي فتره تعلم الإعتقادات الإسلاميه الأصلية الأساسيه، كالتوحيد و مواجهه الشرك و التوجه ليوم المعاد و محكمه العدل الإلهي و البعث و النشور.. إلخ... كما تثار خلال هذه المباحث مسائل أخرى ترتبط بها.

و يمكن تلخيص مضامين هذه السوره فى سبعة أقسام:

١- التنبؤ بانتصار الروم على الفرس فى معركة تحدث فى المستقبل، و ذلك لما جرى من الحديث بين المسلمين و المشركين فى هذا الصدد، و سيأتى تفصيل ذلك فى الصفحات المقبله بإذن الله.

٢- جانب من طريقه التفكير عند غير المؤمنين و كيفيه أحوالهم، ثمّ التهديدات لهم بالعذاب و الجزاء (الإلهي) فى يوم القيامة.

٣- قسم مهم من آيات «عظمه الله» فى الأرض و السماء، و فى وجود الإنسان، من قبيل خروج الحى من الميت، و خروج الميت من الحى.. و خلق الإنسان من تراب، و نظام الزوجيه بالنسبه للناس، و علاقته الموده بين كل من الزوجين، خلق السماوات و الأرض و اختلاف الألسن، نعمه النوم فى الليل

و الحركة فى النهار، و ظهور البرق و الرعد و الغيث و حياه الأرض بعد موتها، و تدبير الله لأمر السماء و الأرض.

٤-الكلام عن التوحيد«الفطرى»بعد بيان دلائله فى الآفاق و فى الأنفس لمعرفة الله سبحانه.

٥-العودة إلى شرح أحوال غير المؤمنين و المذنبين و تفصيل حالاتهم، و ظهور الفساد فى الأرض نتيجة لآثامهم و ذنوبهم.

٦-إشاره إلى مسأله التملك، و حق ذوى القربى، و ذم الربا.

٧-العودة-مره أخرى-إلى دلائل التوحيد، و آيات الله و آثاره، و المسائل المتعلقة بالمعاد.

و بشكل عام فإنّ فى هذه السوره-كباقي سور القرآن الأخرى مسائل استدلاليه و عاطفيه و خطايه ممزوجه مزجا..حتى غدت«مزيجا»كاملا لهدايه النفوس و تربيتها.

فضيله سوره الروم:

ورد فى حديث للإمام الصادق عليه السلام كما أشرنا إليه من قبل، فى فضيله هذه السوره و سوره العنكبوت ما يلى:«من قرأ سوره العنكبوت و الروم فى شهر رمضان ليله ثلاث و عشرين فهو و الله-(يا أبا محمّد)-من أهل الجنّه لا أستثنى فيه أبدا، و لا أخاف أن يكتب الله على فى يمينى إثما، و إن لهاتين السورتين من الله مكانا»(١).

و

فى حديث آخر عن النبى صلّى الله عليه و آله ورد ما يلى «من قرأها كان له من الأجر عشر

ص: ٤٦٤

١-١) -ثواب الأعمال للصدوق، طبقا لنقل تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ١٦٤.

حسناً بعدد كل ملك سبح الله بين السماء والأرض، وأدرك ما ضيع في يومه و ليلته» (١).

و من البديهي أن من جعل محتوى هذه السوره التي هي درس عام للتوحيد و محكمه القيامه الكبرى، في روحه و قلبه، و راقب الله في كل لحظه، و اعتقد بيوم الجزاء حقا، فإن تقوى الله تملأ قلبه حتى يكون حقيقا بهذا الأجر و الثواب.

ص: ٤٤٥

١ - ١) - مجمع البيان، بدايه سوره الروم.

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) غَلَبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بَنَصِيرٍ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧)

سبب النزول

يتفق المفسرون الكبار على أن الآيات الأولى من هذه السوره نزلت في أعقاب الحرب التي دارت بين الروم و الفرس، و انتصر الفرس على الروم، و كان النبي حينئذ في مكه، و المؤمنون يمثلون الأقلية.

فاعتبر المشركون هذا الانتصار للفرس فألأ- حسنا، و عدوه دليلا على حقانيه المشركين و«الشرك»، و قالوا: إن الفرس مجوس مشركون، و أمّا الروم فهم مسيحيون«نصارى» و من أهل الكتاب..فكما أن الفرس غلبوا«الروم» فإن

الغلبه النهائيه للشرك أيضاً، و سنتطوى صفحه الإسلام بسرعه و يكون النصر حليفنا.

و بالرغم من أن مثل هذا الاستنتاج عار من أى أساس، إلا أنه لم يكن خالياً من التأثير فى ذلك الجو و المحيط للتبليغ بين الناس الجهله، لذلك كان هذا الأمر عسيرا على المسلمين.

فنزلت الآيات الآنفه و قالت بشكل قاطع: لئن غلب الفرس الروم لياتين النصر و الغلبه للروم خلال فتره قصيره. و قد حددت الفتره لانتصار الروم على الفرس فى بضع سنين .

و هذا الكلام السابق لأوانه، هو من جهه دليل على إعجاز القرآن، هذا الكتاب السماوى الذى يستند علمه إلى الخالق غير المحدود، و من جهه أخرى كان فألاً حسناً للمسلمين فى مقابل فآل المشركين، حتى أن بعض المسلمين عقدوا مع المشركين رهانا على هذه المسأله المهمه، و لم يكن فى ذلك الحين قد نزل الحكم بتحريم مثل هذا الشرط (1).

التفسير

اشاره

تنبؤ عجيب!

هذه السوره ضمن مجموع تسع و عشرين سوره تبدأ بالحروف المقطعه الم .

و قد بحثنا مرارا فى تفسير هذه الحروف المقطعه «و خاصه فى بدايه سوره البقره و آل عمران و الأعراف».

ص: ٤٦٧

١-١) - جاء سبب النزول هذا فى كتب التفاسير المختلفه بشىء من الاختلاف البسيط فى التعابير، فراجع مجمع البيان و الميزان و نور الثقلين و تفسير الفخر الرازى و أبو الفتوح الرازى، و تفسير الآلوسى و فى ظلال القرآن و التفاسير الأخرى.

و الفارق الوحيد الذى نلاحظه هنا عن بقيه السور، و يلفت النظر، هو أنه خلافا لكثير من السور التى تبدأ بالحروف المقطعه، التى يأتى الحديث بعدها على عظمه القرآن الكريم، بل بحثا عن اندحار الروم و انتصارهم فى المستقبل، و لكن مع التدقيق يتضح أن هذا البحث يتحدث عن عظمه القرآن الكريم أيضا...

لأنّ هذا الخبر الغيبى المرتبط بالمستقبل هو من دلائل إعجاز القرآن، و عظمه هذا الكتاب السماوى!

يقول القرآن بعد الحروف المقطعه غَلَبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَ هُمْ قَرِيبٌ مِنْكُمْ يَا أَهْلَ مَكَّةَ، إذ أنّهم فى شمال جزيره العرب، فى أراضى الشام فى منطقه بين «بصرى» و «أذرعاء».

و من هنا يعلم بأنّ المراد من الروم هنا هم الروم الشرقيون، لا الروم الغربيون.

و يرى بعض المفسرين كالشيخ الطوسى فى تفسير «التبيان»- أن من المحتمل أن يكون المراد بأدنى الأرض المكان القريب من بلاد فارس، أى إن المعركه وقعت فى أقرب نقطه بين الفرس و الروم. (١)

و صحيح أن التفسير الأول معه الألف و اللام للعهد- فى «الأرض» مناسب أكثر، و لكن و من جهات متعدده- كما سنذكرها- يبدو أن التفسير الثانى أصحّ من الأول! و يوجد هنا تفسير ثالث، و لعله لا يختلف من حيث النتيجة مع التفسير الثانى، هو أنّ المراد من هذه الأرض- هى أرض الروم، أى إنّهم غلبوا فى أقرب حدودهم مع بلاد فارس، و هذا يشير إلى أهميه هذا الاندحار و عمقه، لأنّ الاندحار فى المناطق البعيده و الحدود المتراميه البعد ليس له أهميه بالغه، بل المهم أن تندحر دوله فى أقرب نقاطها من حدودها مع العدو، إذ هى فيها أقوى و أشدّ من غيرها.

ص: ٤٦٨

فعلى هذا سيكون ذكر جملة في أدنى الأرض إشارة إلى أهميه هذا الاندحار.

و بالطبع فإن التنبؤ عن انتصار البلد المغلوب خلال بضع سنين في المستقبل، له أهميه أكبر، إذ لا يمكن التوقع له إلا عن طريق الإعجاز.

ثم يضيف القرآن: وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ وَ هُمْ أَى الروم. و مع أن جملة «سيغلبون» كافيه لبيان المقصود، و لكن جاء التعبير مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ بشكل خاص لتتضح أهميه هذا الانتصار أكثر، لأنه لا ينتظر أن تغلب جماعه مغلوبه و في أقرب حدودها و أقواها في ظرف قصير، لكن القرآن يخبر بصراحه عن هذه الحادته غير المتوقعه.

ثم يبين الفتره القصيره من هذه السنين بهذا التعبير في بضع سنين (١) و المعلوم أن «بضع» ما يكون أقله الثلاث و أكثره التسع.

□
و إذا أخبر الله عن المستقبل، فلا لله الأمر من قبل و من بعد .

و بديهى أن كون الأشياء جميعها بيد الله-و بأمره و إرادته-لا يمنع من اختيارنا في الإراده و حريتنا و سعينا و جهادنا في مسير الأهداف المنظوره.

و بتعبير آخر: إن هذه العبارة لا- تريد سلب الإختيار من الآخرين، بل تريد أن توضح هذه اللطيفه، و هى أن القادر بالذات و المالك على الإطلاق هو الله، و كل من لديه شىء فهو منه!.

ثم يضيف القرآن، أنه إذا فرح المشركون اليوم بانتصار الفرس على الروم فإنه ستغلب الروم وَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ .

□
أجل، يفرحون بنصر الله... يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ .

و لكن ما المراد من فرح المؤمنون؟!

ص: ٤٦٩

١-١) -توجد احتمالات كثيره فى معنى «بضع» فقيل: إنها تتراوح بين ثلاث و عشر، أو أنها تتراوح بين واحده و تسع، و قيل: أقلها ست و أكثرها تسع. إلا أن ما ذكرناه فى المتن هو المشهور.

قال جماعه: المراد منه فرحهم بانتصار الروم، وإن كانوا في صفوف الكفار أيضا، إلاّ أنهم لكونهم لديهم كتاب سماوى فانتصارهم على المجوس يعدّ مرحله من انتصار «التوحيد» على «الشرك».

و أضاف آخرون: إن المؤمنين إنّما فرحوا لأنهم تفاعلوا من هذه الحادته فألا حسنا، و جعلوها دليلا على انتصارهم على المشركين.

أو أن فرحهم كان لأنّ عظمه القرآن و صدق كلامه المسبق القاطع -بنفسه- انتصار معنوى للمسلمين و ظهر فى ذلك اليوم.

ولا- يبعد هذا الاحتمال و هو أن انتصار الروم كان مقارنا مع بعض انتصارات المسلمين على المشركين، و خاصه أن بعض المفسرين أشار إلى أن هذا الإنتصار كان مقارنا لانتصار بدر أو مقارنا لصلح الحديبيه. و هو بنفسه يعدّ انتصارا كبيرا، و خاصه إن التعبير بنصر الله أيضا يناسب هذا المعنى.

و الخلاصه: إنّ المسلمين «المؤمنين» فرحوا فى ذلك اليوم لجهات متعدده:

١- من انتصار أهل الكتاب على المجوس، لأنه ساحة لانتصار الموحدين على المشركين.

٢- من الإنتصار المعنوى لظهور إعجاز القرآن.

٣- و من الإنتصار المقارن لذلك الإنتصار، و يحتمل أن يكون صلح الحديبيه، أو بعض فتوحات المسلمين الأخرى!

و لزياده التأكيد يضيف أيضا وَعَدَ اللَّهُ (١) لا- يُخْلِفُ اللَّهُ وَعِدَّهُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ و السبب فى عدم علم الناس، هو عدم معرفتهم بالله و قدرته، فهم لم يعرفوا الله حق معرفته، فهم لا يعلمون هذه الحقيقه، و هى أن الله محال عليه أن يتخلف عن وعده، لأنّ التخلف عن الوعد إمّا للجهل، أو لأنّ الأمر كان مكتوما

ص: ٤٧٠

١- ١) -نصب «وعد الله» على أنّه مفعول مطلق و عامله محذوف، و يعلم من الجملة التى قبله أى «سيغلبون» التى هى مصداق الوعد الإلهى، و يكون تقديره: وعد الله ذلك وعدا!.

ثم اتضح و صار سببا لتغيير العقيدة، أو للضعف و عدم القدره، إذ لم يرجع الذى وعد عن عقيدته لكنّه غير قادر، لكن الله لا يتخلف عن الوعد، لأنّه يعرف عواقب الأمور، و قدرته فوق كل شىء.

ثم يضيف القرآن معقبا: يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ .

إنّهم لا يعلمون إلاّ الحياه الدنيا فحسب، بل يعلمون الظاهر منها و يقنعون به! فكلّ ما تمثله نظراتهم و نصيبيهم من هذه الحياه هو اللهو و اللذّه العابره و النوم و الخيال...و ما ينطوى فى هذا الأدران السطحى للحياه من الغفله و الغرور، غير خاف على أحد.

و لو كانوا يعلمون باطن الحياه و واقعها فى هذه الدنيا، لكان ذلك كافيا لمعرفة الآخره! لأنّ التدقيق فى هذه الحياه العابره، يكشف أنّها حلقة من سلسله طويله و مرحله من مسير مديد كبير، كما أن التدقيق فى مرحله تكوين الجنين يكشف عن أن الهدف النهائى ليس هو هذه المرحله من حياه الجنين فحسب! بل هى مقدمه لحياه أوسع!.

أجل، هم يعلمون ظاهرا من الحياه الدنيا فحسب، و لكنّهم غافلون عن مكنونها و محتواها و مفاهيمها!.

و من الطريف هنا أن تكرار الضمير «هم» يشير إلى هذه الحقيقه، و هى أن عله هذه الغفله و سرّها تعود إليهم «فهم الغفله و هم الجهله» و هذا يشبه تماما قول القائل لك مثلا: لقد أغفلتني عن هذا الأمر، فتجيبه: أنت كنت غافلا عن هذا الأمر، أى إن سبب الغفله يعود إلى نفسك أنت!.

١- إعجاز القرآن من جهة «علم الغيب»

إن واحدا من طرق إثبات إعجاز القرآن، هو الإخبار بالمغيبات، ومثله الواضح في هذه الآيات-محل البحث-ففي عدّه آيات يخبر بأنواع التأكيدات عن انتصار كبير لجيش منهزم بعد بضع سنين..و يعدّ ذلك وعدا إلهيا غير مكذوب ولا يتخلف أبدا.

فمن جهة يتحدث مخبرا عن أصل الإنتصار والغلب وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ .

و من جهة يتحدث عن خبر لانتصار آخر للمسلمين على الكفار مقترنا لزمان الإنتصار الذى يتحقق للروم وَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ .

و من جهة ثالثة يصرّح أنّ هذا الأمر سيقع خلال عدّه سنوات فى بضع سنين .

و من جهة رابعة يسجّل قطعيه هذا الوعد الإلهى بتأكيدين بالوعد وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعَدَهُ .

و يحدثنا التاريخ أنّه لم تمض تسع سنوات حتى تحققت هاتان الحادثتان...

فقد انتصر الروم فى حربهم الجديده على الفرس، واقترن زمان هذا الإنتصار ب«صلح الحديبيه» و طبقا لروايه أخرى أنّه كان مقارنا لمعركه بدر، إذ حقق المسلمون انتصارا ملحوظا على الكفار.

و الآن ينقدح هذا السؤال، و هو: هل يستطيع إنسان أن يخبر بعلم عادى بسيط، عن مثل هذه الحادثه المهمه بضرر قاطع؟..حتى لو فرضنا أن الأمر كان مع تكهن سياسى -و لم يكن فينبغى أن يذكر هذا الأمر بقيد«الاحتياط» و الاحتمال، لا بمثل هذه الصراحه و القطع، إذ لو ظهر خلافه لكان أحسن دليل

و سند على إبطال دعوى النبوه بيد الأعداء!.

و الحقيقه هى أنّ مسائل من قبيل توقع انتصار دوله كبيره كالروم، أو مسأله المباهله، تدل بصوره جيده على أنّ نبى الإسلام صلّى الله عليه و آله كان قلبه متعلقا بمكان آخر، و كان له سند قوى، و إلا فلا يمكن لأى أحد-فى مثل هذه الظروف-أن يجرأ على مثل هذا الأمر!.

و خاصه، إنّ مطالعه سيره النبى صلّى الله عليه و آله تكشف أنّه لم يكن إنسانا يتصيد بالماء العكر، بل كانت أعماله محسوبه...فمثل هذا الادعاء من مثل هذا الشخص يدل على أنّه كان يعتمد على ما وراء الطبيعه، و على وحى الله و علمه المطلق.

و سنتحدث عن تطبيق هذا التنبؤ التاريخى فى القريب العاجل إن شاء الله.

٢-السطحيون «أصحاب الظاهر»

تختلف نظره الإنسان المؤمن الإلهى أساسا مع نظره الفرد المادى المشرك، اختلافا كبيرا.

فالأول طبقا لعقيده التوحيد-يرى أن العالم مخلوق لربّ عليم حكيم، و جميع أفعاله وفق حساب و خطه مدروسه، و على هذا فهو يعتقد أن العالم مجموعه أسرار و رموز دقيقه، و لا- شىء فى هذا العالم بسيط و اعتيادى، و جميع كلمات هذا الكتاب «التكويني» ذات محتوى و معنى كبير.

هذه النظره التوحيديه تقول لصاحبها: لا تمرّ على أيه حادثه و أى موضوع ببساطه، إذ يمكن أن يكون أبسط المسائل أعقدها..فهو ينظر دائما إلى عمق هذا العالم و لا يقنع بظواهره، قرأ الدرس فى مدرسه التوحيد، و يرى للعالم هدفا كبيرا، و ما من شىء إلا يراه فى دائره هذا الهدف غير خارج عنها.

فى حين أن الإنسان المادى غير المؤمن يعدّ الدنيا مجموعه من الحوادث

العمى و الصمّ التى لا هدف لها، ولا يفكر بغير ظاهرها، ولا يرى لها باطنا و عمقا أساسا.

ترى هل يعقل أن يكون لكتاب رسم طفل على صفحاته خطوطا عشوائيه، أهميه تذكر؟! و كما يقول بعض العلماء الكبار فى علوم الطبيعه: إن جميع علماء البشر من أية فئه كانوا و أية طبقه، حين نهضوا للتفكير فى نظام هذا العالم، كانوا ينطلقون من تفكير دينى «فتأملوا بدقّه».

«انشتاين» العالم المعاصر يقول: من الصعب العثور بين المفكرين فى العالم شخص لا يحس بدين خاص... و هذا الدين يختلف مع دين الإنسان العامى، إنّه يدعو هذا العالم إلى التحير من هذا النظام العجيب و الدقيق للكائنات، إذ تكشف عن وجهها أسراراً لا تقاس مع جميع تلك الجهود و الأفكار المنظمه للبشر (1)!

و يقول فى مكان آخر: إن الشئ الذى دعا العلماء و المفكرين و المكتشفين - فى جميع القرون و الأعصار- أن يفكروا فى أسرار العالم الدقيقه، هو اعتقادهم الدينى.

و من جهه أخرى كيف يمكن أن يساوى بين من يعتبر هذه الدنيا مرحله نهائيه و هدفا أصلياً، و من يعدّها مزرعه و ميداناً للامتحان للحياه الخالده التى تعقب هذه الحياه الدنيا، فالأول لا يرى أكثر من ظاهر هذه الحياه، و الآخر يفكر فى أعماقها!.

و هذا الاختلاف فى النظر يؤثر فى حياتهم بأجمعها، فالذى يعيش حياه سطحيه و ظاهريه يعتبر الإنفاق سبباً للخسران و الضرر، فى حين أن هذا «الموحد» يعدّها تجاره رابحه لن تبور.

و ذلك المادى يعتبر «أكل الربا» سبباً للزيادة و وفره المال. و أمّا الموحد

ص: ٤٧٤

١- ١) - نقلاً عن كتاب «الدنيا التى أراها».

فيعدده وبالا و شقاء و ضررا.

و ذلك يعتبر الجهاد ضنى و شقاء و يعتبر الشهاده فناء و انعداما، و أما الموحد فيعد الجهاد رمزا للرفعه، و الشهاده حياه خالده! أجل، إن غير المؤمنين لا يعرفون إلا الظواهر من الدنيا، و هم فى غفله عن الحياه الأخرى يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ .

٣-المطابقه التاريخيه

لكى نعرف المقطع التاريخى الذى حدثت فيه المعارك بين الروم و الفرس، يكفى أن نعرف فى ذلك التاريخ أن حربا طويله حدثت فى عهد«خسرو پرويز» ملك الفرس مع الروم استمرت زهاء أربع و عشرين سنه، حيث دامت من سنه «٦٠٤ ميلاديه إلى سنه ٦٢٨».

و فى حدود سنه ٦١٦ ميلاديه هجم قائدان عسكريان فى الجيش الفارسى هما: (شهر براز) و(شاهين) على الحدود الشرقيه للروم، فهزما الروم هزيمه نكراء، و سيطرأ على منطقه الشامات و مصر و آسيا الصغرى، فواجهت الروم الشرقيه بسبب هذه الهزيمه حاله الانقراض تقريبا، و استولى الفرس على جميع ما كان تحت يد الروم من آسيا و مصر.

و كان ذلك فى حدود السنه السابعه للبعثه! غير أن ملك الروم «هرقل» بدأ هجومه على بلاد فارس سنه ٦٢٢ ميلاديه و ألحق هزائم متتابعه بالجيش الفارسى، و استمرت هذه المعارك حتى سنه ٦٢٨ لصالح الروم، و غلب خسرو پرويز، و انكسر انكسارا مريرا، فخلعه الفرس عن السلطنه و أجلسوا مكانه ابنه «شيرويه».

و بملاحظه أن مولد النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله كان سنه ٥٧١ ميلاديه و كانت بعثته سنه ٦١٠ ميلاديه، فإن هزيمه الروم وقعت فى السنه السابعه للبعثه، و كان انتصارهم بين

ص: ٤٧٥

سنتى خمس و ست للهجره النبويه، و من المعلوم أن السنه الخامسه حدثت فيها معركه الخندق، و تم فى السنه السادسه صلح الحديبيه، و بطبيعته الحال فإن تنقل الأخبار عن حرب فارس و الروم إلى منطقه الحجاز و مكّه كانت تستوعب عادة فتره من الزمان، و بهذا ينطبق هذا الخبر القرآنى على هذه الفتره التاريخيه بوضوح «فلاحظوا بدقه».

ص: ٤٧٤

اشاره

أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ۗ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ
لَكَافِرُونَ (٨) أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا
أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسِهِمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أُسَاءُوا
السُّوَىٰ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (١٠)

التفسير

اشاره

عاقبه المسيئين:

كان الكلام في آخر آيه من البحث السابق عن السطحيين و أصحاب الظاهر، حيث كان أفق فكرهم لا يتجاوز حدود الدنيا و العالم المادى..و كانوا جاهلين بما وراء الطبيعه و يوم القيامة.

أمّا في هذه الآيات-محل البحث-و الآيات المقبله، فيقع الكلام على مطالب متنوعه حول المبدأ و المعاد، فتبدأ هذه الآيات أولاً على صوره استفهام

فتقول: أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى .

أى: لو أنهم فكروا جيدا و رجعوا إلى عقلهم فى الحكم و وجدانهم، لكانوا يطلعون جيدا على هذين الأمرين:

أولاً: إنَّ العالم خلق على أساس الحق، و تحكمه أنظمه هى دليل على أنَّ الخالق لهذا العالم ذو علم مطلق و قدره كامله.

و ثانياً: هذا العالم يمضى إلى الزوال، و حيث أن الخالق الحكيم لا- يمكن أن يخلقه عبثاً، فيدل ذلك على وجود عالم آخر هو الدار الباقية بعد هذه الدنيا، و إلاّ- فلا- مفهوم لخلق هذا العالم، و هذا الخلق الطويل العريض لا يعقل أن يكون من أجل أيام معدودات فى الحياه الدنيا، و بذلك يدعون بوجود الآخرة!

فعلى هذا يكون التدقيق فى نظم هذا العالم و حقانيته دليلاً على وجود المبدأ، و التدقيق فى أن هناك «أجلا مسمى» دليل على المعاد (فلاحظوا بدقه).

لذلك يضيف القرآن فى نهايه الآيه قائلا: وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ فينكرون لقاء الله.

أو إنهم ينكرون المعاد أصلاً، كما نقلنا عن قول المشركين مرارا فى آيات القرآن، إذ كانوا يقولون: أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ . إنَّ هذا.. إنَّ هذا.. إلخ.. و بتعابير مختلفه «كما ورد فى سوره الرعد الآيه (٥)، و سوره المؤمنون الآيه (٣٥)، و سوره النمل الآيه (٦٧)، و سوره ق الآيه (٣) و فى غيرها من السور».

أو إنهم لا- ينكرون بلسانهم، لكن أعمالهم «ملوثه» و مخزيه تدل على أنهم غير معتقدين بالمعاد، إذ لو كانوا يعتقدون بالمعاد لم يكونوا فاسدين أو مفسدين!.

و التعبير فى أنفُسِهِمْ لا يعنى أن يطالعوا فى أسرار وجودهم، كما يدعى الفخر الرازى فى تفسيره، بل المراد منه أن يفكروا فى داخل أنفسهم عن طريق

العقل و الوجدان يخلق السماوات و الأرض.

و التعبير بِالْحَقِّ له معنيان:الأوّل:أنّ الخلق كان توأما مع الحق و القانون و النظم،و الآخر:أن الهدف من الخلق كان بالحق،و لا منافاه بين هذين التفسيرين طبعاً (١).

و التعبير بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كما قلنا مرارا،هو إشاره إلى يوم القيامة و النشور، حيث تنكشف الحجب،و الإنسان يعرف عظمه الله بالشهود الباطنيين.

و حيث أنّ التعبير ب أَجَلٍ مُّسَمًّى كاشف عن أن هذه الحياه على كل حال لا تدوم،و هذا إنذار لجميع عبده الدنيا،فإنّ القرآن يضيف في الآيه التاليه قائلاً:

أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ أَتَارُوا الْأَرْضَ وَ عَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ

أى بالدلائل الواضحات...إلا أنّهم أهملوا ذلك،و لووا رؤوسهم،و لم يستسلموا للحق،فابتلوا بعقاب الله الأليم! وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَ لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

في الواقع إنّ القرآن يشير إلى أمم كانت لهم في نظر مشركي مكه-عظمه ملحوظه من حيث القدره و القوه الجسميه و الثروه الماليه،و كان مصيرهم الأليم يمثل درسا من العبره لهؤلاء المشركين.

و يمكن أن تكون جمله أَتَارُوا الْأَرْضَ إشاره إلى حرث الأرض للزراعه و التشجير،أو حفر الأنهار،أو تأسيس العمارات على الأرض،أو جميع هذه الأمور،لأنّ جمله أَتَارُوا الْأَرْضَ لها مفهوم واسع يشمل جميع هذه الأمور التي هي مقدمه للعماره و البناء. (٢).

ص: ٤٧٩

١- ١) -في صورته ما لو قلنا بالتفسير الأوّل،فإنّ «الباء»في كلمه «بالحق»للمصاحبه،و في التفسير الثاني تكون الباء بمعنى اللام،أى للحق.

٢- ٢) -«آثار»مأخوذه من ماده(ثور)على زنه(غور)و معناها التفريق و النثر،و إنّما سمي الثور ثورا لأنه يشير الأرض و يفرّقها.

و حيث كانت أكبر قدره-في ذلك العصر-تعنى التقدم فى الزراعة و الرقى الملحوظ من حيث البناء و العمارات، فإنه يتضح رفعه الأمم السالفه و علوهم على مشركى مكه الذين كانت قدرتهم فى هذه المجالات محدوده جدًا.

إلا أن أولئك مع كل قدراتهم حين أنكروا آيات الله و كذبوا الأنبياء، لم يستطيعوا الفرار من مخالب العقاب، فكيف تستطيعون الفرار من عذاب الله؟! و هذا العقاب و الجزاء الأليم هو نتيجة أعمالهم المهلكه أنفسهم، إذ ظلموا أنفسهم، و لا يظلم ربك أحدا.

أما آخر آيه من الآيات محل البحث، فتبين آخر مرحله من كفرهم فتقول:

ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوْاىَ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَ كَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِؤْنَ

أجل، إنَّ الذنب أو الإثم يقع على روح الإنسان كالمرض الخبيث، فياكل إيمانه و يعدمه، و يبلغ الأمر حدًا يكذب الإنسان فيه آيات الله، و أبعد من ذلك أيضا إذ يحمل الذنب صاحبه على الاستهزاء بالأنبياء، و السخرية بآيات الله، و يبلغ مرحله لا ينفع معها وعظ و نصيحه أبدا، و لا تؤثر فيه آيه حكمه و آيه آيه، و لا يبقى طريق سوى أسواط عذاب الله المؤلمه له.

إنَّ نظره واحده فى صفحات تاريخ كثير من الجناه و البغاه تكشف أنَّهم لم يكونوا هكذا فى بدايه الأمر، إذ كان لديهم على الأقل نور إيمان ضعيف يشع فى قلوبهم، و لكن ارتكابهم للذنوب المتتابعه سبب يوما بعد آخر أن ينفصلوا عن الإيمان و التقوى، و أن يبلغوا آخر الأمر إلى المرحله النهائيه من الكفر.

و نلاحظ فى خطبه العقيله زينب عليها السلام أمام يزيد بن معاويه فى الشام، النتيجة ذاتها التى أشرنا إليها آنفا... لأنها حين رأت يزيد يسخر بكل شىء و يتكلم بكلمات الكفر و أنشد أشعارا من ضمنها:

ليت أشياخى بيدر شهدوا

و هذه الكلمات تكشف عن عدم إيمانه بأساس الإسلام، فحمدت زينب الله تعالى و صلّت و سلّمت على النّبي صلّى الله عليه و آله و

و هذه الكلمات تكشف عن عدم إيمانه بأساس الإسلام، فحمدت زينب الله تعالى و صلت و سلمت على النبي صلى الله عليه و آله و

قالت:

«صدق الله، كذلك يقول: ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوَايَ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَ كَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِؤْنَ».

أى إذا أنكرت الإسلام و الإيمان هذا اليوم بأشعارك المشوبه بالكفر، و تقول لأسلافك المشركين الذين قتلوا على أيدي المسلمين فى معركة بدر: ليتكم تشهدون انتقامى من بنى هاشم، فلا مجال للتعجب، فذلك ما قاله الله سبحانه: ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوَايَ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَ كَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِؤْنَ ..

و قد ذكرت فى هذا الصدد مطالب كثيره.

و لمزيد من الإيضاح يراجع الجزء الخامس و الأربعون من بحار الأنوار الصفحه ١٥٧. (١)

ص :

١ - ١) - طبقا لما ذكرنا فى التفسير تكون كلمه «السوءى» مفعولا- لأساءوا و جمله أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ مكان اسم كان و خبرها «عاقبه الذين». و يذكر العلامه الطباطبائى ذلك فى الميزان بصوره احتمال، و إن لم ينتخبه هو نفسه، و يرى «أبو البقاء» فى كتاب «إملاء ما من به الرحمن» الصفحه ١٨٥ الجزء الثانى، أنه واحد من احتمالين مقبولين. إلا أن أغلب المفسرين كالطبرسى و صاحب الميزان، و الفخر الرازى، و الآلوسى، و أبو الفتوح الرازى و القرطبى و سيد قطب فى ظلاله، و الطوسى فى تبيانهم، يقوون احتمالا- آخر فى تفسير الآيه.. و هو أن كلمه «السوءى» اسم كان، و جمله «إن كذبوا» فى مقام التعليل. و طبقا لهذا التفسير يكون معنى الآيه: و أخيرا فإن عاقبه أعمال المسيئين كانت السوء، لأنهم كذبوا بآياتنا. و هذا المعنى شبيه بقوله تعالى: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ. إلا أن الأنصاف أن هذا التفسير خلاف ما يستظهر من الآيه، و انتخاب المفسرين لهذا الرأى و التفسير لا يصرفنا عما هو منسجم مع الآيه، و خاصه أنهم اضطروا إلى أن يقدرُوا اللام فى جمله «أن كذبوا» و التقدير خلاف الظاهر «فلاحظوا بدقه».

اشاره

اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (١٢) وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ وَ كَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (١٣) وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ (١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضِهِ يُحْبَرُونَ (١٥) وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ لِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (١٦)

التفسير

اشاره

مصير المجرمين و مآلهم يوم القيامة!

كان الكلام فى الآيات المتقدمه عن الذين يكذبون و يستهزءون بآيات الله، و فى الآيات محل البحث-تستكمل البحوث السابقه عن المعاد، مع بيان جوانب منه، و مآل المجرمين فى القيامة! فتبدأ الآيات بالقول: اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ و يبين فى هذه الآيه استدلال قصير موجز، و ذو معنى كبير، على مسأله المعاد. و قد ورد هذا المعنى بعباره أخرى فى بعض آيات القرآن الأخرى و منها قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً

فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ أَوْ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَيَّ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ

(١)

و جملة ثم إليه تُرْجَعُونَ إشاره إلى أنه بعد النشور و القيامة يعود الجميع إلى محكمه الله، و الأسمى من ذلك أن المؤمنين يمشون في تكاملهم نحو ذات الله المقدسه إلى ما لا نهايه..

و الآيه الأخرى تجسد حاله المجرمين يوم القيامة يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ .

«يبلس» مأخوذ من ماده «إبلاس» و تعنى فى الأصل الغم و الحزن المتربان على أثر شده اليأس و القنوط.

و بديهى أنه إذا يئس الإنسان من شىء غير ضرورى، فهذا اليأس غير مهم، لكن الحزن و الغم يكشف فى هذه الموارد عن أمور ضروريه مأيوس منها، لذلك يرى بعض المفسرين أن «الضروره» جزء من «الإبلاس» و إنما سُمى «إبليس» بهذا الاسم، فلأنه أبلس من رحمه الله و استولى عليه الهم.

و على كل حال فيحق للمجرمين أى يئسوا و يبلسوا فى ذلك اليوم، إذ ليس لديهم إيمان و عمل صالح فيشفع لهم فى عرصات المحشر، و لا صديق حميم، و لا مجال للرجوع إلى الدنيا و تدارك ما مضى!.

لذلك يضيف القرآن فى الآيه التاليه قائلاً: وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ .

فتلك الأصنام و المعبودات المصنوعه التى كانوا يتذرعون بها عند ما يسألون: من تعبدون؟ فيقولون: هؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ (٢)

، سيُتَضَح لهم جيداً حينئذ أنه لا قيمه لها و لا تنفعهم أبداً.. فلذلك يكفرون بهذا المعبودات من دون الله

ص: ٤٨٣

١-١) -سوره يس، ٧٩-٨١.

٢-٢) -سوره يونس، الآيه ١٨.

و يبرأون منها وَ كَانُوا بِشْرًا لِّهِنَّ كَافِرِينَ .

و لم لا يكفرون بهذه الأصنام؟ و هم يرونها ساكنه عن الدفاع عنهم بل كما يعبر القرآن تقوم بتكذيبهم و تقول: يا رب مَا كَانُوا
إِنَّا يَعْبُدُونَ (١) بل كانوا يعبدون هوى أنفسهم؟! و أكثر من هذا، فقد عبر القرآن عن هذا المعبودات فى الآية (٦) من سوره
الأحقاف أَنَّهَا سَتَكُونُ مَعَادِيَهُ لَهُمْ وَ كَافِرَهُ بِهِمْ وَ إِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَ كَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ .

ثم يشير القرآن إلى الجماعات المختلفه من الناس فى يوم القيامة، فيقول:

وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِنُدُ يَنْفِرُ قَوْمًا مِّمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهَمَّ فِي رَوْضِهِ يُحْبَرُونَ

كلمه «يجبرون» مأخوذه من ماده «حبر» على زنه «قشر» و معناها الأثر الرائق الرائع، كما يطلق هذا التعبير على حاله السرور و الفرح التى
يظهر أثرها على الوجه أيضا، و حيث أن قلوب أهل الجنه فى غايه السرور و الفرح بحيث أن آثارها تظهر فى وجودهم قاطبه، فقد
استعمل هذا التعبير لهذه الحاله أيضا.

و «الروضه» معناها المكان الذى تكثر فيه الأشجار و الماء، و لذلك تطلق هذه الكلمه على البساتين النضره بأشجارها و
اخضرارها.. و قد جاءت هذه الكلمه هنا بصيغه التنكير لغرض التعظيم و المبالغه، أى إنهم فى أفضل الجنان و أعلاها التى تبعث
السرور، فهم منعمون، بل غارقون فى نعيم الجنه.

وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ لِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ

الطريف هنا أنه فى شأن أهل الجنه استعملت كلمه «يجبرون» و تدلّ على منتهى الرضا من جميع الجوانب لدى أهل الجنه.. و لكن
استعملت كلمه «محضرون» فى أهل النار، و هى دليل على منتهى الكراهه و عدم الرضا لما

ص: ٤٨٤

يتلقونه و يستقبلونه، لأنَّ الإحضار يطلق في موارد تكون على خلاف الرغبات الباطنيّة للإنسان.

اللطفه الأخرى أن أهل الجنّة ذكروا بقيد الإيمان و العمل الصالح، و لكن أهل النار اكتفى من ذكرهم بعدم الإيمان «إنكار المبدأ و المعاد». و هي إشارة أن ورود الجنّة- لا بد له من الإيمان و العمل الصالح- فلا يكفي الإيمان وحده، و لكن يكفي لدخول النار عدم الإيمان- و إن لم يصدر من ذلك «الكافر» ذنب- لأنَّ الكفر نفسه أعظم ذنب!.

ملاحظه

اشاره

لم كان أحد أسماء القيامة «الساعة»!؟

ينبغي الالتفات إلى هذه المسأله الدقيقه... و هي أنه في كثير من آيات القرآن، و من ضمنها الآيات من الآيات محل البحث، عبر عن قيام «القيامة» بقيام «الساعة» و ذلك لأنَّ «الساعة» في الأصل جزء من الزمان، أو لحظات عابره، و حيث أنه من جهه تكون القيامة بصوره مفاجئه و كالبرق الخاطف، و من جهه أخرى بمقتضى أن الله سريع الحساب فإنه ينهى حساب عبادته بسرعه، فقد استعمل هذا التعبير في شأن يوم القيامة ليفكر الناس بيوم القيامة و يكونوا على «أهبه الاستعداد».

يقول «ابن منظور» في «لسان العرب» اسم للوقت الذي تصعق فيه العباد و الوقت الذي يبعثون فيه و تقوم فيه القيامة، سميت ساعه لأنها تفاجئ الناس في ساعه فيموت الخلق كلهم عند الصيحه الاولى التي ذكرها الله عزّ و جلّ فقال:

إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ

(١)

.. و أشار إلى الثاني بقوله:

ص: ٤٨٥

(١-١) -سوره يس، الآيه ٢٩- و ما بعدها...

إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيِّحَةً وَاحِدَةً

فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ

(١)

و ينقل «الزبيدي» في «تاج العروس» عن بعضهم أن الساعه ثلاث «ساعات»:

فساعه كبرى: و هي يوم القيامة، و إحياء الموتى للحساب.

و ساعه وسطى: و هي يوم الموت الفجائي لأهل زمان واحد «بالعذاب و العقوبه الإلهيه للاستيصال».

و ساعه صغرى: و هي يوم الموت الطبيعي لكل إنسان.

ص: ٤٨٦

١ - ١) - المصدر السابق.

اشاره

فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩)

التفسير

اشاره

التسبيح و الحمد في جميع الأحوال لله!

بعد الأبحاث الكثيره التي وردت في الآيات السابقه في شأن المبدأ و المعاد، و قسم من ثواب المؤمنين، و جزاء المشركين و عقابهم... ففي الآيات محل البحث يذكر التسبيح و الحمد و التقديس و التنزيه لله من جميع أنواع الشرك و النقص و العيب، إذ تقول الآية: فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَ لَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ .

و على هذا فقد ورد في هاتين الآيتين ذكر لأربع أوقات لتسبيح الله:

١-بدايه الليل حِينَ تُمْسُونَ .

٢-و طلوع الفجر حِينَ تُصْبِحُونَ .

٣-و عصرًا عَشِيًّا .

ص: ٤٨٧

أما «الحمد» من حيث المكان فهو عام و شامل لجميع السماوات و الأرض.

و ذكر هذه الأوقات الأربعة فى الآيات المتقدمه لعله كناية عن الدوام و الاستمرار فى التسبيح، «أى كل وقت و كل زمان».

كما احتمال بعض المفسرين أنّ المراد من هذه الأوقات الأربعة الإشاره إلى أوقات الصلاة، إلاّ أنّهم لم يجيبوا على هذا السؤال، و هو: لم ذكر فى القرآن أربعة أوقات بدلا من خمسة أوقات؟ «و لم يرد الكلام على صلاة العشاء!» و لكن يمكن الجواب على هذا السؤال بأن وقت صلاة المغرب مقارب لوقت صلاة العشاء نسبيا، و الفاصله بينهما حدود الساعه إلى الساعه و النصف، فجاءت الصلاتان فى مكان واحد، غير أنّ الفاصله بين الظهر و العصر أطول نسبيا، حيث تطول أكثر من ساعتين.

لكننا لو أخذنا التسبيح و الحمد بمفهومهما الواسع فى الآية، لو جدنا أنّهما لا يتحدّدان بالصلوات الخمس، و إن كانت هذه الصلوات من مصاديقهما الواضحه.

و ينبغى أن نذكر هذه المسأله «اللطفه» و هى: إن كلاً من جملتى فَسُبْحَانَ اللَّهِ و لَهُ الْحَمْدُ يمكن أن تكونا إنشاء لتسبيح الله و حمده من قبل الله سبحانه، كما قال فى الآية (١٤) من سوره المؤمنون فَبَارِكْ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ .

و يمكن أن يكون هذا الحمد و التسبيح بمعنى الأمر، أى «سبحوه و احمدا له».

و هذا التفسير يبدو أقرب للنظر، إذ الآيات المتقدمه هى بمثابة دستور لجميع العباد لمحو آثار الشرك و الذنب من الروح و القلب كل صباح و مساء و كل ظهر و عصر، فسبحوا الله و احمدا له فى الصلاة و فى غير الصلاة.

و نقرأ

حديثا عن النبى صلى الله عليه و آله يقول فيه: «من قال حين يمسى ثلاث مرات

ص: ٤٨٨

فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون (الآيات الثلاث إلى..تخرجون) أدرك ما فاتته في يومه، وإن قالها حين يمسي أدرك ما فاتته ليلته» (١).

و في الآيه التاليه عوده إلى المعاد، و يرد القرآن المنكرين له عن طريق آخر، فيقول: يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ .

أى إن ميدان «المعاد» و ميدان «نهايه الدنيا» المتمثل أحدهما بخروج «الحي من الميت» و الآخر «خروج الميت من الحي» يتكرران أمام أعينكم، فلا مجال للتعجب من أن تحيا الكائنات جميعا، و يعود الناس في يوم القيامة إلى الحياه مره أخرى! أما التعبير ب«يخرج الحي من الميت» المستعمل للأراضى الموات، فقد ذكره القرآن مرارا في مسأله المعاد و واضح أن الأرض تبدوا ميتة في فصل الشتاء، فلا خضره و لا أزهار تضحك و لا براعم تتفتح، و لكن في فصل الربيع مع سقوط الغيث و اعتدال الهواء، تدب الحركة في الأرض، و تنمو الخضره في كل مكان، و تتبسم الأزهار و تنمو البراعم على الأغصان و هذا ميدان المعاد الذى نراه في هذه الدنيا.

و أما مسأله «إخراج الميت من الحي» فهى ليست شيئا خافيا و لا مستترا، فدائما تموت الأشجار على الأرض و تتبدل إلى أخشاب، و يفقد الإنسان و الحيوان حياتهما، و يتبدل كل منهما إلى جسد هامد لا روح فيه.

و أميا ما يتعلق ب«إخراج الحي من الميت» ففسيره بعضهم بخروج الإنسان و الحيوان من النطفه، و قال بعضهم: بل المراد منه تولد المؤمن من الكافر، و قال بعضهم: المراد منه تيقظ النائمين و الراقدين.

و الظاهر أنه ليس أيًا من هذه المعانى هو المعنى الأصلي، لأن النطفه بنفسها

ص: ٤٨٩

موجود حى، و مسأله «الكفر و الإيمان» هى من بطون الآيه، لا من ظواهر الآيه، و أمّا موضوع التيقظ و النوم فهو أمر مجازى، إذ ليس النوم و التيقظ موتا و حياه حقيقيين.

إنّما ظاهر الآيه هو أنّ الله يخرج الموجودات الحيه دائما من الموجودات الميتة، و يبذل الموجودات الهامده التى لا روح فيها إلى موجودات حيّه.

و بالرغم من أنّه من المسلمّ به-فى العصر الحاضر على الأقل- أنّه لم ير فى المختبرات و المشاهدات اليوميّه أن موجودا حيّا يتولد من موجود ميت، بل تتولد الموجودات الحيه دائما من البيوض أو البذور أو نطف الموجودات الحيه الأخرى، غير أن الثابت علميا و المسلمّ به أنّه كانت الأرض فى البدايه قطعته ملتهبه من النار، و لم يوجد عليها أى موجود حى، ثمّ وفقا لظروف خاصه لم يكتشفها العلم-حتى الآن- بصوره دقيقه، تولدت الموجودات الحيه من مواد لا روح فيها بقفزه كبيره.. لكن هذا الموضوع و فى الظروف الفعلية للكره الأرضيه.

و حيث أنّ العلم البشرى لم يتوصل إليه، فلم يشاهد هذا الموضوع (و بالطبع يحتمل أن تتحقق هذه القفزه الكبرى فى أعماق البحار و المحيطات فى بعض الظروف الحاليه).

لكن الذى نلمسه و ندركه، هو أنّ الموجودات الميتة دائما تكون جزءا من الموجودات الحيه و تكسى ثوب الحياه! فالماء و الطعام اللذان نتناولهما ليسا من الموجودات الحيه، لكنهما حين يكونان فى البدن و يصيران جزءا منه يتحولان إلى موجود حىّ و تضاف كريات جديده و خلايا جديده إلى كريات البدن و خلاياه، كما يتبدل الطفل الرضيع عن هذا الطريق إلى شاب قوى متين.

أليس هذا إخراج الحياه من قلب الموت، أو «الحى من الميت»؟! فعلى هذا يمكن القول بأنّ فى نظام الطبيعه دائما يخرج الحى من الميت و يخرج الميت من الحى، و بهذا الدليل فإنّ الله الذى خلق الطبيعه قادر على إحياء

الموتى فى العالم الآخر.

و بالطبع فإن الآيه الآنفه من جهه البعد المعنوى لها تفاسير أخر..منها تولد المؤمن من الكافر، و تولد الكافر من المؤمن، و العالم من الجاهل، و الجاهل من العالم، و الصالح من المفسد، و المفسد من الصالح، كما أشير إلى كل ذلك فى الروايات الإسلاميه أيضا.

و يمكن أن تكون هذه المعانى من بطون الآيه، لأننا نعرف أن آيات القرآن لها ظاهر و باطن، كما يمكن أن يكون للموت و الحياه معنى جامع واسع يشمل الجانب المادى و الجانب المعنوى.

هذا و

قد جاء فى روايه عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام فى تفسير الآيه يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ما يلى: «ليس يحييها بالقطر، و لكن يبعث الله رجالا- فيحيون العدل، فتحيى الأرض لإحياء العدل و لإقامه العدل فيه أنفع فى الأرض من القطر أربعين صباحا» (١).

و واضح أن مراد الإمام عليه السلام أن معنى الآيه لا- ينحصر بنزول الغيث، و لا- ينبغى تفسير الآيه بالغيث فحسب، لأن الإحياء المعنوى للأرض بالعدل أهم من إحيائها بالغيث عند نزوله.

ص: ٤٩١

اشاره

وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْشُرُونَ (٢٠) وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَ مِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَ أَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ (٢٢)

التفسير

اشاره

آيات الله في الآفاق و في الأنفس:

تحدثت هذه الآيات-و بعض الآيات الأخر التي تليها-عن طرائف و لطائف من دلائل التوحيد، و آيات الله و آثاره في نظام عالم الوجود، و هي تكمل البحوث السابقة، و يمكن القول بأن القسم المهم بشكل عام من آيات التوحيد في القرآن تمثله هذه الآيات! هذه الآيات التي تبدأ جميعها بقوله تعالى: وَ مِنْ آيَاتِهِ و لها وقع خاص و لحن بليغ جاذب و تعبيرات مؤثره و عميقه، مجموعه من سبع آيات، ست منها متتابعات، و واحده منفصله «و هي الآيه السادسة و الأربعون».

هذه الآيات مقسمة تقسيما طريفا من حيث «آيات الآفاق» و«آيات الأنفس» إذ تتحدث ثلاث منها عن آيات الأنفس (دلائل الخالق في وجود الإنسان نفسه) و ثلاث منها عن آيات الآفاق (دلائل الخالق خارج وجود الإنسان) و واحده من هذه الآيات تتحدث عن الآيات في الأنفس و في الآفاق معا.

و ممّا ينبغي الالتفات إليه أنّ الآيات التي تبدأ بهذه العبارة: وَ مِنْ آيَاتِهِ مَجْمُوعَهَا إِحْدَى عَشْرَةَ آيَةً فَحَسَبَ، في سائر سور القرآن، سبع منها في هذه السوره، و اثنتان في سورته فصلت هما «الآيه ٣٧ و الآيه ٣٩» و آيتان أخريان في سورته الشورى هما الآيه ٢٩ و الآيه ٣٢- و مجموعها كما ذكرنا آنفا إحدى عشره لا غير. و هي تشكل دوره متكامله في التوحيد.

و يجدر التنبيه-قبل الدخول إلى تفسير هذه الآيات-على هذه «اللطيفه» و هي أن ما أشار إليه القرآن في هذه الآيات، و إن كانت تبدو للنظر محسوسه و ملموسه، يمكن أن يدركها عامّه الناس، إلاّ أنّه مع تطور العلم و تقدمه تبدو للبشر لطائف جديده في هذا المجال، و تتضح للعلماء أمور ذات أهميه كبرى، و سنشير إلى قسم منها خلال تفسيرنا لهذه الآيات إن شاء الله.

و يتحدث القرآن هنا أولا- عن خلقه الإنسان التي تعد أول موهبه إلهيه له، و أهمهما أيضا، فيقول: وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ! في هذه الآيه إشارة دليلين من أدله عظمه الله.

الأول: خلق الإنسان من التراب، و ربّما كان إشاره إلى الخلق الأول للإنسان، أي آدم عليه السّلام، أو خلق جميع الناس من التراب، لأنّ المواد الغذائيه التي تشكل وجود الإنسان، جميعها من التراب بشكل مباشره أو غير مباشر! الثاني: كثره النسل «الآدمي» و انتشار أبناء «آدم» على سطح المعموره، فلو

لم تخلق خصوصيه التناسل فى آدم، لانطوى نسله من الوجود بسرعه!.

ترى أين التراب و أين الإنسان بهذا الهندام و الرشاقه؟! فلو وضعنا خلايا و أستار العين التى هى أدق من ورق الزهور و أطف و أكثر حساسيه، و كذلك الخلايا الدقيقه للدماغ و المخ إلى جانب التراب و قارناهما بالقياس إلى بعضهما البعض، نعرف حينئذ كم لخالق العالم من قدره عجيبيه، بحيث أوجد من ماده كدره سوداء لا قيمه لها هذه الأجهزه الظريفه و الدقيقه القيمه.

فالتراب ليس فيه نور، و لا حراره، و لا جمال، و لا طراوه، و لا حس، و لا حركه و مع ذلك فقد أضحي عجينه الإنسان و لها جميع هذه الصفات، فالذى أوجد من هذا الموجود الميت التافه موجودا حيا عجيبا، لحقيق بكل حمد و ثناء على هذه القدره الباهره و العلم المطلق فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ .

و الآيه محل البحث تبين ضمنا هذه الحقيقه، و هى أنه لا تفاوت بين بنى الإنسان، و يعود جذرهم إلى شىء واحد، و أصل واحده و هو التراب و بالطبع فنهايتهم إلى ذلك التراب أيضا.

و ممّا ينبغى الالتفات إليه، أن كلمه «إذا» تستعمل فى لغه العرب فى الموارد الفجائيه و لعل هذا التعبير هنا إشاره إلى أن الله له القدره البالغه على أن يخلق مثل آدم أعدادا هائله بحيث ينتشر نسلها فى فتره قصيره فجأه- و يملأ سطح الأرض.. و يكون مجتمعا إنسانيا كاملا.

و الآيه الثانيه من الآيات محل البحث تتحدث أيضا عن قسم آخر من الآيات فى الأنفس، التى تمثل مرحله ما بعد خلق الإنسان، فتقول: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا . أى من جنسكم و الغايه هى السكينه الروحيه و الهدوء النفسى و حيث أن استمرار العلاقه بين الزوجين خاصه، و بين جميع الناس عامه،

يحتاج إلى جذب قلبي وروحاني، فإن الآيه تعقب على ذلك مضيفه وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً .

و لمزيد التأكيد تختتم الآيه بالقول: إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

الطريف هنا أن القرآن-في هذه الآيه-جعل الهدف من الزواج الاطمئنان و السكن، و أبان مسائل كثيره في تعبير غزير المعنى «لتسكنوا» كما ورد نظير هذا التعبير في سوره الأعراف الآيه ١٨٩.

و الحق أن وجود الأزواج مع هذه الخصائص للناس التي تعتبر أساس الاطمئنان في الحياه، هو أحد مواهب الله العظيمه.

و هذا السكن أو الاطمئنان ينشأ من أن هذين الجنسين يكمل بعضهما بعضا، و كل منهما أساس النشاط و النماء لصاحبه، بحيث يعد كل منهما ناقصا بغير صاحبه، فمن الطبيعي أن تكون بين الزوجين مثل هذه الجاذبيه القويه.

و من هنا يمكن الاستنتاج بأن الذين يهملون هذه السنه الإلهيه وجودهم ناقص، لأنّ مرحله تكاملية منهم متوقفه، (إلا أن توجب الظروف الخاصه و الضروره في بقائهم عزّابا).

و على كل حال، فإنّ هذا الاطمئنان أو السكن يكون من عدّه جهات «جسميا و روحيا و فرديا و اجتماعيا».

و لا يمكن إنكار الأمراض التي تصيب الجسم في حاله عدم الزواج، و كذلك عدم التعادل الروحي و الاضطراب النفسى عند غير المتزوجين.

ثمّ أنّ الأفراد العزّاب لا يحسّون بالمسئوليه-من الناحيه الاجتماعيه- كثيرا.. و لذلك فإن الانتحار تزداد بين أمثال هؤلاء أكثر.. كما تصدر منهم جرائم مهوله أكثر من سواهم أيضا.

و حين يخطو الإنسان من مرحله العزوبه الى مرحله الحياه الأسريه يجد في نفسه شخصيه جديده، و يحس بالمسئوليه أكثر، و هذا السكن و الاطمئنان في

و أمّا مسأله «الموده و الرحمه» فهما فى الحقيقه «ملاط» البناء فى المجتمع الإنسانى، لأنّ المجتمع يتكون من افراد متفرقين كما أن البناء العظيم يتألف من عدد من الطابوق و«الآجر» أو الأحجار. فلو أن هؤلاء الأفراد المتفرقين اجتمعوا، أو أن تلك الأجزاء المتناثره وصلت بعضها ببعض، لنشأ من ذلك المجتمع أو البناء حينئذ.

فالذى خلق الإنسان للحياه الاجتماعيه جعل فى قلبه و روحه هذه الرابطه الضروريه.

و الفرق بين «الموده» و«الرحمه» قد يعود إلى الجهات التاليه:

١- الموده هى الباعثه على الارتباط فى بدايه الأمر بين الزوجين، و لكن فى النهايه، و حين يضعف أحد الزوجين فلا يكون قادرا على الخدمه، تأخذ الرحمه مكان الموده و تحلّ محلها.

٢- الموده تكون بين الكبار الذين يمكن تقديم الخدمه لهم، أما الأطفال و الصبيان الصغار، فإنهم يتربون فى ظلّ الرحمه.

٣- الموده، غالبا ما يكون فيها «تقابل بين الطرفين»، فهى بمشابه الفعل ورد الفعل، غير أنّ الرحمه من جانب واحد لديه إيثار و عطف، لأنّه قد لا- يحتاج إلى الخدمات المتقابله أحيانا، فأساس بقاء المجتمع هو «الموده» و لكن قد يحتاج إلى الخدمات بلا عوض، فهو الإيثار و الرحمه.

و بالطبع فإنّ الآيه تبين الموده و الرحمه بين الزوجين، و لكن يحتمل أن يكون التعبير «بينكم» إشاره إلى جميع الناس.. و الزوجان مصداق بارز من مصاديق هذا التعبير، لأنّه ليست الحياه العائليه وحدها لا تستقيم إلاّ بهذين الأصلين (الموده و الرحمه) بل جميع المجتمع الإنسانى قائم على هذين الأصلين و زوالهما من المجتمع -و حتى نقصانهما يؤدى الى أنواع الارباك و الشقاء

أمّا آخر آيه-من هذه الآيات محل البحث-فهى مزيج من آيات الآفاق و آيات الأنفس،فتبدأ بالإشارة إلى خلق السماء و الأرض،فتقول: وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .

السموات بجميع ما فيها من كرات،و بجميع ما فيها من منظومات و مجرّات، السموات التى مهما حلّق فيها الفكر عجز عن إدراك عظمتها و مطالعتها..و كلّما تقدم علم الإنسان تتجلى له نقاط جديده من عظمتها.

كان الإنسان يرى الكواكب فى السماء بهذا العدد الذى تراه العين(وقد أحصى العلماء الكواكب التى ترى بالعين المجرّده،فوجدوها تتراوح بين خمسه آلاف إلى ستة آلاف كوكب).

و لكن كلما تقدم العلم فى صناعه المجهر و التلسكوب،فإنّ عظمه و كثره الكواكب تزداد أكثر...إلى درجه بلغ الإعتقاد اليوم أن مجرتنا لوحدها من بين مجاميع المجرات فى السماء تحتوى على أكثر من مائه مليون كوكب و تعد الشمس على عظمتها المذهله واحده من النجوم المتوسطه،و لا يعلم عدد المجرات و لا يحصيها إلاّ الله،إذ هو وحده يعلم كم من كوكب و نجمه فى هذا المجرات! و كذلك كلما تقدم العلم الطبيعى و الجيولوجيا،و علم النبات و العلوم البيولوجيه«و الحيوانيه»و علم التشريح و الفيزياء،و العلوم النفسيه و غيرها، فستتضح عجائب فى خلق الأرض كانت خافيه،كل واحده تعدّ آيه من آيات الله.

ثمّ ينتقل القرآن إلى آيه من آيات الأنفس الكبيره فيقول: وَ اٰخْتِلَافُ اَلْسِنَتِكُمْ وَ اَلْوَانِكُمْ .

و بلا شك فإنّ الحياه الاجتماعيه للبشر،لا تقوم بغير معرفه و تشخيص الأفراد و الأشخاص،إذ لو كان الناس جميعا فى يوم ما على صورته واحده و لباس

واحد، فإن أسلوب حياتهم يضطرب في ذلك اليوم، إذ لا يعرف الأب و الابن و الزوج من الغرباء، و لا يميز المجرم من البريء، و لا الدائن من المدين، و لا الأمر من المأمور، و لا الرئيس من المرؤوس، و لا الضيف من المضيف و لا العدو من الصديق، و أى ارباك عجيب كان سيحدث لو كانوا على هذه الشاكلة!.

و على سبيل الاتفاق قد تحدث هذه المسأله بين الإخوه التوائم، أو الشقيقين التوأمين المتشابهين من جميع الوجوه، و كم تحدث من المشاكل بين الناس و بينهم، و قد سمعنا ذات مرّه أن امرأه كان لديها توأمان متشابهان تماما، و كان أحدهما مريضا، فأعطت الدواء لمعافى دون السقيم!!.

لذلك خلق الله الأصوات و الألوان لتنظيم المجتمع البشرى، على حد تعبير «الرازى» فى تفسيره فى ذيل الآيه محل البحث: إن معرفه الإنسان للإنسان تحصل إمّا عن طريق العين أو الأذن، فخلق الله الألوان و الصور و الأشكال المختلفه لتعرفها العين و تشخصها، و أوجد اختلاف الأصوات لتشخصها الأذن، حتى أنّه لا يمكن العثور فى جميع العالم على إنسانين متشابهين فى الوجه و الصوت معا، أى إن وجه الإنسان الذى هو عضو صغير، و صوته الذى هو موضوع بسيط، بقدره الله جاء على مليارات الأشكال و الأصوات المختلفه، و ما ذلك الاختلاف إلّا من آيات عظمه الله.

كما يحتمل أن المراد باختلاف الألسنه كما أشار إليه كبار المفسّرين هو اختلاف اللغات، من قبيل العربيه و الفارسيه و اللغات الأخرى.

و لكن يمكن أن يستفاد من كلمه «اختلاف» معنى واسع بحيث يشمل هذا التفسير و ما قبله، و أى تفسير آخر، فهذا النوع فى الخلقه شاهد على عظمه الخالق و قدرته.

يقول «فريد و جدى» فى دائره معارفه، نقلا عن قول «نيوتن» العالم الغربى المعروف (لا تشكوا فى الخالق، فإنه ممّا لا يعقل أن تكون الضروره وحدها هى

قائده الوجود، لأنَّ ضروره عمياء متجانسه في كل مكان و في كل زمان لا يتصور أن يصدر منها هذا التنوع في الكائنات، و لا هذا الوجود كله بما فيه من ترتيب أجزائه و تناسبها، مع تغيرات الأزمنه و الأمكنه، بل إن كل هذا لا يعقل أن يصدر إلا من كائن أزلّي له حكمه و إرادته (1).

و يقول القرآن في نهايه الآيه الآنفه الذكر إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ .

فالعلماء يعرفون هذه الأسرار قبل كل أحد.

ص: ٤٩٩

١-١) -دائرة المعارف، محمد فريد وجدى، ج ١ ص ٤٩٦ (ماده اله).

اشاره

وَ مِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَ اِئْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) وَ مِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبُرُوقَ خَوْفًا وَ طَمَعًا وَ يُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَ الْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَهُ مِنْ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥)

التفسير

اشاره

آيات عظيمة - مره أخرى:

تعقيباً على الأبحاث السابقة حول آيات الله في الآفاق و في الأنفس، تتحدث هذه الآيات -محل البحث- حول قسم آخر من هذه الآيات العظيمة.

فتتحدث في البدايه عن ظاهره «النوم» على أنها ظاهره مهمه من ظواهر الخلق و مثل بارز من نظام الحكيم الخالق، فتقول: وَ مِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَ اِئْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ .

و تختتم الآيه بإثاره العبره بالقول: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ .

و هذه الحقيقه غير خافيه على أحد، هي أن جميع «الموجودات الحيه»

تحتاج إلى الراحة و الدعه، و ذلك لتجديد قوتها و تهيئه الاستعداد اللازم لإدومه العمل و الفعاليه،الراحه التي لا بدّ منها حتى لأولئك الأفراد الحريصين و الجادّين.

فأى شىء يتصور أحسن من النوم للوصول إلى هذا الهدف، و هو يأتيه بشكل إلزامى، و يدعوّه إلى تعطيل نشاطه الجسمانى، و قسم مهم من نشاطه الفكرى و الذهنى، بينما تستمر أجهزه خاصه فى العمل فى جسم الإنسان كالقلب الرئّه و بعض النشاط الذهنى، و ما إلى ذلك ممّا يستلزمه استمرار الحياه فى الإنسان فحسب، أمّا البقيه فتهدأ و تتعطل عن العمل.

هذه الموهبه العظيمه تؤدى الى أن يحصل جسم الإنسان و روحه على الراحة اللازمه، فيرتفع التعب بطرو النوم الذى بمثابة وقفه لعمل البدن، و نوع من التعطيل له. و يجد الإنسان على أثرها قوه و نشاطا جديدا فى حياته.

و من المسلّم به أنّه لولا النوم لتصدّعت روح الإنسان و ذبل جسمه و انهيار بسرعه، و لعجل عليه العجز و الشيخوخه... و بهذا فإن النوم المناسب و الهادىء مدعاه للسلامه و طول العمر، و دوام «الشباب» و نشاطه.

و ممّا يجدر التنبيه عليه أولا: أنّ النوم ورد قبل عباره **إِنِّيغَاؤُكُمْ** مِنْ فَضْلِهِ التى تعنى السعى وراء الرزق، و هذا التعبير هو إشاره إلى أن النوم أساس السعى لأنّه-من دون النوم الكافى- يصعب الابتغاء من فضل الله.

ثانيا: صحيح أنّ النوم يقع فى الليل، و الابتغاء من فضل الله فى النهار، إلاّ أنّه ليس صعبا على الإنسان أن يغيّر هذا المنهج إذا اقتضت الضروره. بل الله خلق الإنسان بصوره يستطيع معها تغيير منهجيه النوم، و يجعلها وفقا للضرورات و الحاجات، فكأنّ التعبير **مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهَارِ** إشاره إلى هذه «اللطفه» الدقيقه.

و لا شك أنّ المنهج الأصل للنوم متعلق بالليل، و لأنّ الليل هادىء بسبب الظلمه، فله أولويه خاصه فى هذا المورد.

و لكن قد يتفق للإنسان و لظروف خاصه يكون مجبرا على السفر ليلا و أن يستريح نهارا...فلو كان منهج تنظيم النوم خارجا عن اختيار الإنسان فسواجه العديد من الصعوبات حتما.

و أهميه هذا الموضوع،خاصه فى عصرنا الذى تضطر فيه بعض المؤسسات الصناعيه و الطبيه و العلاجيّه أن تعمل ليل نهار،و لا يمكن لها أن تعطل منهجها بحيث يتناوب عمالها فى ثلاث مراحل للعمل فيها،هذه الأهميه فى هذا العصر أجلى منه فى أى عصر مضى! و حاجه جسم الإنسان و روحه إلى النوم كثيره إلى درجه لا يستطيع الفرد أن يتحمل السهر المتواصل أكثر من يومين أو ثلاثه.

و لذلك فإنّ المنع من النوم يعتبر من أشد أنواع التعذيب الذى يمارسه الطغاه و الجبابره مع سجنائهم.

و كذلك يعدّ النوم واحدا من الطرق العلاجيّه لكثير من الأمراض،حيث يوصى الأطباء المريض بأن يغطّ فى نوم عميق فترداد بذلك قوّه المريض و مناعته.

و بالطبع لا يمكن لأحد أن يحدد مقدارا معيناً للنوم على أنّه «مقدار النوم اللازم»لعموم الناس لأنّ ذلك يرتبط بسنّ الأشخاص و وضعهم و مزاجهم و كيفيه البناء الفيسيولوجى و السيكلوجى «الجسىمى و الروحى»،بل المهم النوم الكافى بمقدار يحسّ الإنسان بعده بأنّه شبع منه...كما هى الحال بالنسبه للشعب من الغذاء و الماء تماما.

و ينبغى الالتفات إلى هذه المسأله،و هى أنّه بالإضافة إلى «طول»زمان النوم،فلعمقه خصوصيه و أهميه أخرى أيضا...فرب ساعه ينام فيها الإنسان نوما عميقا تسد عن عدد من الساعات التى ينامها نوما سطحيا فى إعاده بناء روح الإنسان و جسمه.

و بالطبع، فحيث لا- يمكن النوم العميق، فالنعاس أيضا من النعم الإلهيه، كما أشارت إليه الآيه الحاديه عشره من سوره الأنفال فى شأن المجاهدين يوم بدر إذ يُغَشِّكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ لِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ النَّوْمُ الْعَمِيقُ فِي مِيدَانِ الْحَرْبِ، و ليس مفيدا-أيضا-و لا نافعا. و على كل حال فإن نعمه النوم و الهدوء و الاطمئنان الناشئ منه، و ما يحصل عليه الإنسان من قوه و نشاط بعد النوم، هى من النعم التى لا يمكن وصفها بأى بيان!

و الآيه التى تلتها، و التى تبين خامس آيه من آيات عظمه الله، تتجه أيضا إلى «الآيات فى الآفاق» و تتحدث عن البرق و الرعد و الغيث و حياه الأرض بعد موتها فتقول: وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا .

«الخوف» ممّا يخطر على البال من احتمال نزول الصاعقه مع البرق فتحرق كل شىء تقع عليه و تحيله رمادا.

«و الطمع» من جهه نزول الغيث الذى ينزل بعد البرق و الرعد على هيئة قطر أو مزنه.

و على هذا فإنّ البرق السماوى مقدمه لنزول الغيث (بالإضافه إلى فوائد البرق المختلفه المهمه و التى كشف العلم عنها أخيرا و قد تحدثنا عنه فى بدايه سوره الرعد» (١).

ثم يضيف القرآن معقبا يُنَزَّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا .

الأرض الميتة التى لا- يؤمل فيها الحياه و النبات، تهتز بنزول الغيث الذى يمنحها الحياه، فتحيا و تظهر آثار الحياه عليها على هيئة الأزهار و النباتات، بحيث لا تصدق أحيانا أنها الأرض الميتة سابقا.

ص: ٥٠٣

و يؤكد القرآن في نهايه هذه الآيه مضييفا: إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ و يفهمون أن وراء هذه الخطه المدروسه يدا قادره تقودها و تهديها،و لا يمكن أن تكون المسأله وليده الصدغه و الضروره العمياء الصماء أبدا.

و في آخر آيه من الآيات محل البحث،يقع الكلام عن آيه أخرى من الآيات الآفاقية،و ذلك عن تدبير نظام السماء و الأرض و بقائهما و دوامهما،إذ تقول:

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَ الْأَرْضُ بِأَمْرِهِ

أى إن خلق السماوات-المشار إليه في الآيات السابقه-ليس آيه وحده فحسب،بل بقاؤها و دوام نظامها أيضا آيه أخرى،فهذه الأجرام العظيمه في دورانها المنظم حول نفسها تحتاج إلى أمور كثيره،و أهمها المحاسبه المعقده للقوه الجاذبه و الدافعه! إن الخالق الكبير جعل هذا التعادل دقيقا،بحيث لا- يعترض الأجرام أدنى انحراف في مسيرها و دورانها حول نفسها إلى ملايين السنين.

و بتعبير آخر:إن الآيه السابقه كانت إشاره إلى «توحيد الخلق»و أما هذه الآيه فهي إشاره إلى «توحيد الربوبيه و التدبير».

و التعبير بقيام السماء و الأرض،تعبير لطيف مأخوذ من حالات الإنسان،لأن أحسن حالات الإنسان لأجل استدامه نشاطه هي حاله قيامه،إذ يستطيع فيها أداء جميع حوائجه،و تكون له السيطره و التسلط الكامل على أطرافه.

و التعبير ب«أمره»هنا إشاره إلى منتهى قدره الله،إذ يكفي أمر واحد من قبله لاستمرار الحياه،و نظم هذا العالم الواسع.

و في نهايه الآيه و بالاستفاده من عامل التوحيد لإثبات المعاد،ينقل القرآن البحث إلى هذه المسأله فيقول: ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ .

و لقد رأينا-مرارا-في آيات القرآن أن الله سبحانه يستدل على المعاد

بآيات قدرته فى السماء و الأرض، و الآيه محل البحث واحده من تلك الآيات.

و التعبير ب«دعاكم» اشارة إلى أنه كما أنّ أمرا واحدا منه كاف للتدبير و لنظم العالم، فإنّ دعوه واحده منه كافيه لأن تبعثكم من رقدتكم و تنشركم من قبوركم ليوم القيامة، و خاصه إذا لاحظنا جملة إذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ فَإِنَّ كَلِمَةَ «إِذَا» تبيّن بوضوح مؤدى هذه الجملة، حيث أنّها «فجائيه» كما يصطلح عليها أهل النحو و اللغه، و معناها: إذا دعاكم الله تخرجون بشكل سريع و فجائى.

و التعبير ب دَعْوَةٍ مِنَ الْأَرْضِ دليل واضح على المعاد الجسمانى، إذ يثب الإنسان فى يوم القيامة من هذه الأرض «فلاحظوا بدقّه».

بحوث

اشاره

١- دوره دروس كامله لمعرفة الله

تناولت الآيات الست المتقدمه بحوثا مختلفه فى معرفه الله، و هى بمجموعها تمثل حلقات متصله و دوره كامله طريقه، بدءا بخلق السماء إلى خلق البشر من التراب، و من رباط الحب فى الأسره، إلى النوم الذى يمنح الدعوه و الاطمئنان فى الليل و النهار، و من تدبير النظام و العالم متدرجا، إلى البرق و الغيث و اختلاف الألسنه و الألوان... فهى مجموعه مناسبه من آيات الآفاق و آيات الأنفس!

الطريف هنا أن كل آيه من الآيات الست يذكر فيها قسمان من دلائل التوحيد، ليهيئ الأول الأرضيه المناسبه، و الآخر للتحكيم و التأكيد، و هذا يشبه تماما الإتيان بشاهدين عدلين لإثبات المدعى، فيكون المجموع اثنى عشر شاهدا صادقا على قدره الله الحق، التى لا نهايه و لا أمد لها.

ورد في أربع آيات من هذه الآيات الست التأكيد على أن في هذه الأمور دلائل واضحة للعالمين، المتفكرين، السميعين، العاقلين» إلا أن هذا التأكيد لم يرد في الآية الأولى، ولا الآية الأخيرة.

و يوضح الفخر الرازي في هذا المجال فيقول: لعل عدم ذكر ذلك، في الآية الأولى لأن الآية الأولى والثانية جاءتتا متصلتين في سياق واحد، وكلتاها من الآيات التي تتحدث في الأنفس.

و أمّا في الآية الأخيرة فإن الأمر واضح إلى درجة لا يحتاج بعدها إلى مزيد إيضاح، ولا تأكيد على التعقل و التفكير (١) ! الطريف هنا أن الحديث عن التفكير ورد قبل الحديث و الكلام عن «العلم» لأن التفكير مقدمه و قاعده للعلم، ثم يأتي الكلام على من يسمع، لأن الإنسان يستعد للاستماع و تقبل الحق، إذا كان في صدد العلم و الاطلاع، كما يقول القرآن في هذا المجال: فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ (٢) و في آخر مرحله كان الكلام عن العقل، لأن أولئك كانوا يسمعون، فلا بد أن يبلغوا مرحله العقل الكامل! كما ينبغي الالتفات إلى هذه اللطيفه، هي أنه وقع الكلام في ذيل الآية الأولى عن خلق الإنسان و انتشار نسله في الأرض ثم إذا أنتم بشر تنشرون .

و وقع الكلام في آخر آيه أيضا عن خروج الناس و نشورهم في يوم القيامة إذا أنتم تخرجون .

فالآيه الأولى لبدايه الخلق، و الأخيره للنهايه.

ص: ٥٠٦

(١-١) -التفسير الكبير الفخر الرازي- ذيل الآيات محل البحث.

(٢-٢) -الزمر، الآية ١٨.

بالرغم من جميع الأبحاث التي كتبها العلماء حول النوم وخصائصه، يبدو أن زوايا هذا العالم لم تنكشف جميعها، ولم يرفع النقاب عن أسرارهِ وحقائقه الغامضة! فما زال البحث يدور بين العلماء: أى فعل و انفعال يكون فى البدن بحيث يتوقف-خلال لحظه مفاجئه-قسم من نشاطات المخ و البدن، و يظهر تحول فى عامه الروح و الجسد؟! قال بعضهم: إن العامل الأصلي للنوم هو «عامل فيزياوى» و يعتقدون أن انتقال الدم من المخ إلى أجزاء البدن الأخرى، يوجد هذه الظاهره، و لأجل إثبات معتقدهم عمدوا إلى صنع سرير للنوم على شكل خاص يدعى «سرير النوم المعيارى» يبين كيفية انتقال الدم من المخ إلى سائر أعضاء البدن!.

و قال جماعه: إن العامل الأصلي للنوم هو «عامل كيمياوى» و يعتقدون أن الإنسان فى حاله السعى و العمل تزداد فيه السموم بحيث تؤدي الى تعطيل قسم من المخ عن عمله، فينام الإنسان على أثر ذلك، و حين تتلاشى السموم و تسيطر عليها كريات الدم يتيقظ الإنسان مره أخرى! و قال جماعه آخرون: إن العامل الأصلي للنوم هو «عامل عصبى» و يعتقدون أن للنشاط العصبى خصوصيه فى المخ لها حكم و قود السياره، فعند ما تتعب ينظفئ المخ و يتوقف عن العمل مؤقتا.

و لكن هناك أسئله و نقاط مبهمه حول جميع هذه النظريات، لم نحصل إلى الآن على جواب واضح لها، و ما يزال النوم محتفظا بوجهه الملىء بالأسرار.

من عجائب عالم النوم ما أمارط العلماء النقاب عنه أخيرا، و هو حين يتعطل قسم كبير من المخ عن العمل تبقى بعض خلاياه التى ينبغى أن تسمى ب«الخلايا الحارسه» متيقظه و لا تنسى الوصايا التى يوصيها الإنسان قبل النوم عند ساعه

التيقظ... و عند الحاجة توقظ هذه الخلايا جميع المخ و يتحرك نحو العمل مره أخرى! فمثلا: الأم المرضعه المتعبه حين تنام الليل و إلى جنبها رضيعها فى المهد، يوصى عقلها الباطنى الخلايا الحارسه التى تربط بين الروح و الجسم، أنه متى ما سمعت أقل صوت لطفلى فأيقظينى، و لكن لا يهمنى أى صوت آخر، فقد لا تتيقظ المرأه من صوت الرعد المهول، و لكنّها تتيقظ لأقل صوت من ولدها الرضيع، فهذه المهمه هى وظيفه الخلايا الحارسه.

و نحن أيضا جرّبنا هذا الموضوع كثيرا، فمتى ما كان لدينا تصميم أن نستيقظ مبكرين أو فى منتصف الليل لنسافر أو لأداء مهمه، و نحدث أنفسنا بذلك، فإننا غالبا ما نستيقظ فى الوقت المطلوب، فى حين أن من الممكن أن نغرق فى النوم لساعات طوال فى غير هذه الحاله! و الخلاصه، حيث أنّ النوم هو من الظواهر الروحيه، و للروح عالم ملىء بالأسرار، فليس عجيبا أن تبقى كثير من زوايا هذه المسأله غامضه... و لكن كلما سبرنا غور هذا العالم نتعرف على عظمه خالق هذه الظاهره.

هذا عن ظاهره النوم، و أمّا عن الرؤيا و الأحلام، فقد بحثنا عنه بحوثا كثيره، و لا بأس بمراجعته تفسير سوره يوسف عليه السلام.

٤- علاقته الحب بين الزوجين

بالرغم من أنّ العلاقة أو الارتباط بين الإنسان و أبيه و أمه و إخوته هى علاقته نسبيه، تمتد جذورها العميقه بالقرابه. و علاقته بين الزوجين علاقته قانونيه.

و«معاقده بينهما» لكن كثيرا ما تتغلب هذه العلاقة حتى على علاقته الإنسان بأبيه و أمه، و فى الحقيقه هذا هو ما أشارت إليه الآيات الآنفه بالتعبير و جعلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً .

و نقرأ حديثاً عن الرسول الأعمم صلى الله عليه و آله أنه أخبر ابنه جحش باستشهاد خالها حمزه، فقالت: إنا لله و إنا إليه راجعون. فأخبرها باستشهاد أخيها فقالت مرّه أخرى: «إنا لله و إنا إليه راجعون» (و طلبت له الأجر و الثواب من الله).

و لكن حين أخبرها باستشهاد زوجها، وضعت يدها على رأسها و صرخت،

فقال النبي صلى الله عليه و آله و سلم: «ما يعدل الزوج عند المرأه شيء» (١).

ص: ٥٠٩

١-١) - تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ١٧٤.

اشاره

وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهُ قَائِتُونَ (٢٦) وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٩)

التفسير

اشاره

المالكيه لله وحده:

كانت الآيات المتقدمه تتحدث حول توحيد الخالق، و توحيد الرب، أما الآيه الأولى من هذه الآيات محل البحث فتتحدث عن فرع آخر من فروع التوحيد، و هو توحيد الملك فتقول: وَ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .

و لأنهم ملك يده ف كُلُّ لَهُ قَائِتُونَ و خاضعون.

و واضح أن المراد من المالكيه و خضوع المخلوقات و قنوتها، الملك

و القنوت التكوينيان...أى إن زمام أمر الجميع من جهة القوانين التكوينية كله فى يده،و هم مستسلمون لقانون عالم التكوين وفق مشيئه الله،شاؤوا أم أبوا.

حتى العتاه الطغاه الألداء و المتمردون على القانون و الجبابره،هم مضطرون أيضا أن يحنوا رؤوسهم لأمر الله فى القوانين التكوينية.

و الدليل على هذه«المالكيه»هو الخالقيه و الربويه،فإن من خلق الموجودات فى البدايه و تكفلها بالتدبير،فمن المسلم أنه هو المالك الأصلي لها لا سواه! و بما أن جميع موجودات الدنيا سواسيه فى هذا الأمر، فمن الواضح أن لا يكون معه أى شريك فى الملك حتى الأوثان و المعبودات المصطنعه التى يتصورها المشركون أنها أربابهم،هى أيضا مملوكه لملك«الملك»و الملوكة، و هى طوع أمره.

و ينبغى الالتفات-ضمنا-إلى أن كلمه«قانت»تعنى-كما يقول الراغب فى مفرداته-فى الأصل:الطاعه الملازمه للخضوع! و نقرأ حديثا

عن النبى صلى الله عليه و آله أنه قال «كل قنوت فى القرآن فهو طاعه».

غايه ما فى الأمر،تاره تأتى هذه الطاعه«تكوينية»و أخرى«تشريعيه».

و ما ذهب إليه بعض المفسرين من أن كلمه«قانتون»معناها هنا«قائمون بالشهاده على وحدانيته» (1) فهو فى الحقيقه بيان لأحد مصاديق الطاعه،لأن الشهاده على وحدانيه الله نوع من الطاعات.

و حيث أن المسائل المرتبطه بالمبدأ و المعاد هى كالنسيج الواحد فى انسجامها فى سلسله الآيات الآنفه،و التى ستأتى فى ما بعد،ففى الآيه التاليه يعود القرآن إلى موضوع المعاد،فيقول: وَ هُوَ الَّذِي يَبْدُؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ

ص: ٥١١

١-١) -نقل«الآلوسى»فى تفسيره«روح المعانى»ذيل الآيه محل البحث هذا الكلام عن بعض المفسرين المتقدمين.

إنَّ القرآنَ يثبت في هذه الآيه-بأوجز الاستدلال-مسأله إمكان المعاد، إذ يقول لهم: إنكم تعتقدون أن بدايه الخلق من قبل الله، فعوده الخلق مرّه أخرى أيسر و أهون من بدايه الخلق!.

و الدليل على أن عوده الخلق أهون من البدايه، هو أنّه في البدايه لم يكن شيء و لكن الله هو الذى أبدعه، و فى الإعاده توجد المواد الأصلية على الأقل، فبعضها فى طيّات التراب، و بعضها متناثر فى الفضاء، و إنّما تحتاج إلى نظم و إلى إعطائها صورتها الأولى فحسب، فهى أهون! و لكن من الضرورى أن نلتفت إلى هذه «اللطيفه»، و هى أنّ التعبير بالهين و الصعب، هو من خلال نافذتنا الفكرية، و أمّا بالنسبه للقادر المطلق فلا فرق عنده بين «الصعب و السهل».

و أساسا فإنّ «الصعب و السهل» يصدقان مفهوما فى مكان يكون الكلام عن قدره محدوده، كأن يستطيع أحد أن يؤدى عملا بصوره جيده، و الآخره لا يؤديه بصوره جيده، بل بمشقه، أمّا حين يكون الكلام على قدره لا حدّ لها، فلا معنى للصعب و الهين هناك! و بتعبير آخر: إنّ حمل «أعظم الجبال» على الأرض بالنسبه إلى الله و حمل أخف الأشياء عليها عنده سواء، لقدرته التى لا يعظم عليها شيء.

و ربّما كان لهذا السبب أن عبّ القرآن فى ذيل الآيه مباشره بالقول: **وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**.

لأننا لو تصورنا أى وصف كمالى لأى موجود فى السماء و الأرض، من علم

ص: ٥١٢

١ - ١) - ينقل «الفخر الرازى» عن «الزمخشرى» فى تفسير الكشاف أن الله قال فى شأن ولاده عيسى عليه السلام دون أب «هو على هين» و لأنّ كلمه «على» مقدمه، فهى دليل على الحصر، أى إن هذا العمل سهل على فحسب لا على سواى، أمّا فى هذه الآيه محل البحث فقد قال: سبحانه: **وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ** فلا يستفاد منها الحصر، و هى إشاره إلى أن كل من يستطيع أن يؤدى عملا فى البدايه فهو قادر على إعادته أيضا «فلاحظوا بدقه».

وقدره وملك و عظمه و جود و كرم، فمصداقه الأتم و الأكمل هو عند الله، لأنّ الجميع لديهم المحدود من الصفات، إلا هو وحده فإنّ لديه الأوصاف غير المحدوده، و الجميع لديهم أوصاف عارضه، أما أوصاف الله فذاتيه، و هو مصدر الكمالات و أساسها.

حتى الألفاظ التي تجرى على ألسنتنا لبيان مقاصدنا يومئلا.. لا يمكن أن تكون مبينه لأوصافه... كما هو في تعبير «أهون» الذي نجده مثلا عندنا.

و الجملة الآنفة هي كالآيه (١٨٠) في سورة الأعراف، إذ ورد فيها وَ لِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَ الْآيَةُ (١١) في سورة الشورى إذ يقول: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .

و تنتهي الآيه -بما هو ضرب من التأكيد أو الدليل، إذ يقول سبحانه: وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

هو عزيز لا يقهر، إلا أنه و في منتهى قدرته غير المحدوده لا يصدر منه فعل غير دقيق، فكل أفعاله وفق حكمته.

و بعد بيان قسم آخر من دلائل التوحيد و المعاد في الآيات المتقدمه، يتناول القرآن موضوع «نفي الشرك» في مثال يبين فيقول: ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ .

هذا المثال هو لو كان لديكم -أيها المشركون- عبيد و مماليك ف هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم أي أن عبيدكم هؤلاء يشاركونكم في أموالكم و في ما رزقناكم. بحيث تكونون أنتم و عبيدكم سواء في مالكيه هذه الأموال و النعم و تخافون أن يتصرفوا في هذه الأموال بشكل مستقل كما هو الحال في تصرف شركاءكم الأحرار فيها أو في الميراث مثلا... فأنتم غير مستعدين لأن يتصرفوا في أموالكم.

فلو كان لكم عبيد و ملك يمين «و هو ملك مجازي» لما رضيتم بمثل هذا الفعل منهم، فكيف تتصورون المخلوقات التي هي ملك حقيقى لله شركاءه! أو تزعمون أن بعض الأنبياء كالمسيح أو ملائكة الله أو بعض المخلوقات الأخرى كالجن أو الأصنام الحجرية و الخشبية شركاءه، ألا- ساء ما تحكمون!! المملوكات المجازيه التي يمكن أن تتحرر و تنعتق بسرعه، و تكون فى صفوفكم و من أمثالكم «كما جرى ذلك فى الإسلام»- لا تكون حاله كونها مملوكه- فى صف مالكها، و ليس لها حق التدخل فى منطقته نفوذه، فكيف تجعلون العبيد الحقيقيين أو المملوكات الحقيقيه شركاء الله، فى حين أنهم متعلقون بالله ذاتا و وجودا، و لا يمكن أن يسلب هذا التعلق بالله و الارتباط به منهم، و كل ما عندكم فمن عنده، و ما أنتم بشيء من دونه!.

قال بعض المفسرين: إن هذه الآيه ناظره لما قاله المشركون من قريش، عند التلبيه فى مناسك الحج، إذ كانوا يقولون عند التلبيه... «لييك، اللهم لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه و ما ملك»... هكذا كان محتوى تلبيه المشركين (1).

و بديهي أن شأن نزول هذه الآيات شأن سائر الآيات فى نزولها، إذ لا يحدد معنى الآيه، كما هي فى الوقت ذاته جواب لجميع المشركين، هي مستفاه من حياتهم أنفسهم التي تدور حول الرق و المملوكين، و تحتج عليهم احتجاجا متينا.

و التعبير بـ **مَا رَزَقْنَاكُمْ** يشير إلى هذه اللطيفه، و هي أنكم لستم المالكين الحقيقيين لهؤلاء العبيد و المماليك، و لا المالكين الواقعيين للمال، لأن كل ذلك لله وحده، و لكنكم غير مستعدين لأن تخولوا ممالككم المجازيين بالتصرف فى أموالكم المجازيه و تعدوهم شركاءكم، فى حين أنه لا يستلزم محالا و لا مشكله من الناحيه التكوينييه لأن الكلام يدور مدار الاعتباريات.

غير أن التفاوت بين الله و مخلوقاته تفاوت تكويني و لا يتغير، و جعل هذه

ص: ٥١٤

(١-١) - تفسير الميزان و تفسير مجمع البيان و تفسير نور الثقلين ذيل الآيه محل البحث.

المخلوقات شريكه لله من سابع المستحيالات.

و من جهه أخرى فإنّ عباده أحد الموجودات، إمّا لعظمته، أو لأنّه ينفع و يضر الإنسان، إلا أن هذه المعبودات لا تنفع و لا تضر (1).

و يعقب القرآن فى ختام الآيه للتأكيد و الدقه على مضمون السؤال، فيقول:

كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ

أجل، نذكر لكم الحقائق من الأمثله الواضحه فى حياتكم لتفكروا فيها، و لكيلا تنسبوا لله-على الأقل- ما لا ترضون أن تنسبوه لأنفسكم!.

غير أنّ هذه الآيات البينات و هذه الأمثله الواضحه هى لأولى الألباب، لا للظالمين عبده الهوى الجهله الذين قلوبهم أسدال الجهل، و استوعبت آفاقهم الخرافات و العصبيات، لذلك يضيف القرآن فى الآيه التاليه قائلا: بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ .

و لذلك فإنّ الله خلّى بينهم و بين أنفسهم بسبب أعمالهم السيئه، فتأهوا فى وادى الضلاله فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ؟! و التعبير ب«ظلموا» مكان «أشركوا» إشاره إلى أن الشرك بعد أعظم الظلم:

فهو ظلم للخالق، إذ جعله مخلوقه إلى جانبه و أشركه معه (و نعرف أن الظلم أن تضع الشىء فى غير موضعه).

و ظلم للخلق، إذ منعوهم عن طريق الخير و السعاده «طريق التوحيد».

و ظلم لأنفسهم، لأنّهم أطلقوا جميع وجودهم و كيانهم للريح، و ظلوا فى مفازه عمياء! و بيداء فقراء.

و هذا التعبير-ضمنا-مقدمه للجمله التاليه، و هو إنّما أضلهم الله عن طريق

ص: ٥١٥

(١ - ١) -فسير بعض المفسرين جمله «تخافونهم كخيفتكم أنفسكم» بهذه المناسبه تفسيرا آخر، حاصله أنّ هؤلاء المعبودين ليست لديهم القدره حتى تخافوهم كما تخافون من بعضكم، فكيف إذا كان الخوف أكثر! «إلا أن التفسير الذى ذكرناه فى البدايه يبدو أقرب للنظر».

الحق فظلمهم، كما جاء مثل هذا التعبير في سورة إبراهيم الآية (٢٧) وَ يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ .

و لا شك أن من يتركهم الله و يخلى بينهم و بين أنفسهم ف ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ .

و بهذا يوضح القرآن عاقبه هذه الجماعه المشؤومه، و لم لا تكون كذلك؟! و هم يرتكبون «أعظم الذنوب و أعظم الظلم»، إذ عطلوا عقولهم و أفكارهم عن العمل، و تركوا شمس العلم خلف ظهورهم، و توجهوا إلى ظلمه الجهل و الهوى.

فمن الطبيعي أن يسلب الله منهم التوفيق، و يتركهم في ظلماتهم، و ما لهم من ناصرين و لا معينين!.

إشارة

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ
(٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شَتِيْعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا
لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢)

التفسير

كان لدينا حتى الآن أبحاث كثيرة حول التوحيد و معرفه الله، عن طريق مشاهدته نظام الخلق، و الاستفادة منه لإثبات مبدأ العلم و قدره في ما وراء عالم الطبيعة، بالاستفادة من آيات التوحيد في هذه السوره! و تعقيبا على الآيات الآنفه الذكر، فإن الآيه الأولى من هذه الآيات محل البحث-تحدث عن التوحيد الفطري، أى الاستدلال على التوحيد عن طريق المشاهده الباطنيه و الدرك الضرورى و الوجدانى، إذ يقول القرآن فى هذا الصدد:

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا

لأنها فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

«الوجه» معناه معروف، و هو مقدم الرأس. و المراد به هنا الوجه الباطنى،

و وجه القلب و الروح فعلى هذا ليس المراد هنا من الوجه أو المحيّا وحده، بل التوجه بجميع الوجود، لأنّ الوجه أهم أعضاء البدن! و كلمه «أقم» مشتقه من الإقامه، و معناه الاستقامه و الوقوف بثبات (على قدم راسخه)...

و كلمه «حنيف» مشتقه من «حنف»، و معناها الميل من الباطل نحو الحق، و من الاعوجاج نحو الإستواء و الاستقامه، على العكس من «جنف» على وزن «حنف» أيضا، و معناها الميل من الإستواء إلى الضلاله و الاعوجاج.

فمعنى الدين الحنيف هو الدين المائل نحو العدل و الإستواء عن كل انحراف و باطل و خرافه و ضلال.

فيكون معنى هذه الجمله بمجموعها، أن وجه نفسك دائما نحو مبدأ و مذهب خال من أى أنواع الاعوجاج و الانحراف، و ذلك هو مبدأ الإسلام و دين الله الخالص و الطاهر (1).

إنّ الآيه المتقدمه تؤكد على أن الدين الحنيف الخالص الخالى من كل أنواع الشرك، هو الدين الذى ألهمه الله سبحانه فى كل فطره، الفطره الخالده التى لا تتغير، و إن كان كثير من الناس غير ملتفت لهذه الحقيقه.

و الآيه المتقدمه تبين عده حقائق:

١- إنّ معرفه الله-ليست وحدها-بل الدين و الإعتقاد بشكل كلى و فى جميع أبعاده هو أمر فطرى، و ينبغى أن يكون كذلك، لأنّ الدراسات التوحيديه تؤكد أن بين جهاز التكوين و التشريع انسجاما لازما، فما ورد فى الشرع لا بدّ أن يكون له جذر فى الفطره، و ما هو فى التكوين و فطره الإنسان متناغم مع قوانين الشرع!

ص: ٥١٨

١ - ١) - الألف و اللام فى كلمه «الدين» هما للعهد، و هما هنا إشاره إلى الدين الذى أمر النبى صلّى الله عليه و آله أن يبلغه، أى دين «الإسلام».

و بتعبير آخر: إنَّ التكوين و التشريع عضدان قويان يعملان بانسجام فى المجالات كافة، فلا يمكن أن يدعو الشرع إلى شىء ليس له أساس و لا جذر فى أعماق فطره الإنسان، و لا يمكن أن يكون شىء فى أعماق وجود الإنسان مخالف للشرع! و بدون شك فإنَّ الشرع يعين حدودا و قيودا لقياده الفطره لئلا تقع فى مسار منحرف، إلاَّ أنه لا يعارض أصل مشيئه الفطره، بل يهديها من الطريق المشروع، و إلاَّ فسيقع التضاد بين التشريع و التكوين، و هذا لا ينسجم مع أساس التوحيد.

و بعبارة أخرى: إنَّ الله لا يفعل أعمالا متناقضة أبدا، بحيث يقول أمره التكويني: افعل! و يقول أمره التشريعي: لا تفعل.

٢- إنَّ الدين له وجود نقى خالص من كل شائبه داخل نفس الإنسان، أمَّا الانحرافات فأمر عارض، و وظيفه الأنبياء إذن إزاله هذه الأمور العارضه، و فسخ المجال لفطره الإنسان فى الإشراق.

٣- إنَّ جملة لا تَبْدِيلَ لِيَخْلُقِ اللهُ و بعدها جملة ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ تأكيدان آخران على مسأله كون الدين فطريا، و عدم إمكان تغيير هذه الفطره!...

و إن كان كثير من الناس لا يدركون هذه الحقيقه بسبب عدم رشدهم كما ينبغى! و ينبغى الالتفات إلى هذه اللطيفه، و هى أن الفطره فى الأصل من ماده «فطر» على زنه «بذر» و معناها شق الشىء من الطول، و هنا معناها الخلقه، فكأن ستار العدم ينشق عند خلق الموجودات و يبرز كل شىء منها.

و على كل حال فمنذ أن وضع الإنسان قدمه فى عالم الوجود، كان هذا النور متوقدا فى داخله، من أوّل يوم و من ذلك الحين! و الروايات المتعدده التى وردت فى تفسير الآيه تؤيد ما ذكرناه آنفا، و سنتحدث عن ذلك لاحقا إن شاء الله، بالإضافة إلى الأبحاث الأخرى فى مجال كون التوحيد فطريا.

و يضيف القرآن فى الآيه التاليه:ينبغى أن يكون التفاتكم للدين الحنيف و الفطرى حاله كونكم مُبِينِينَ إِلَيْهِ فَأَصْلَكُمْ و أساسكم على التوحيد،و ينبغى أن تعودوا إليه أيضا.

و كلمه «مبينين» من ماده «إنابه» و هى فى الأصل تعنى الرجوع المكرر، و تعنى هنا الرجوع نحو الله و العوده نحو الفطره (التوحيديه) و معناها متى ما حصل عامل يحرف الإنسان عقيدته و عن أصل التوحيد فينبغى أن يعود إليه..

و مهما تكرر هذا الأمر فلا مانع من ذلك الى أن تغدو أسس الفطره متينه و راسخه، و تغدو الموانع و الدوافع خاويه و يقف الإنسان بصوره مستديمه فى جبهه التوحيد،و يكون مصداقا للآيه فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا .

و ممّا ينبغى الالتفات إليه أن أقم وجهك جاءت بصيغه الإفراد، و كلمه «مبينين» جاءت بصيغه الجمع، و هذا يدل على أنه و إن كان الأمر الأوّل مخاطبا به النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله إِلَّا أَنْ الْخَطَابَ فى الحقيقه-لعموم المؤمنين و جميع المسلمين.

و يعقب على الأمر بالإنابه و العوده إليه،بالأمر بالتقوى،و هى كلمه تجمع معانى أوامر الله و نواهيه،إذ يقول: وَ اتَّقَوْهُ أَى اتَّقُوا مخالفه أوامره!.

ثم يؤكّد القرآن على موضوع الصلاه من بين جميع الأوامر فيقول: وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ .

لأنّ الصلاه فى جميع أبعادها،هى أهم منهج لمواجهة الشرك،و أشد الوسائل تأثيرا فى تقويه أسس التوحيد و الإيمان بالله سبحانه.

كما أنه يؤكّد فى نهيه عن «الشرك» من بين جميع النواهي فيقول:

وَ لَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ

لأنّ الشرك أعظم الذنوب و أكبر الكبائر،إذ يمكن أن يغفر الله جميع الذنوب إلاّ الشرك بالله،فإنّه لا يغفره. كما نقرأ فى الآيه (٤٨) من سوره النساء إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ .

و واضح أن الأوامر الأربعة الواردة في هذه الآيه، هي تأكيد على مسأله التوحيد و آثاره العمليه، فالمسأله أعم من التوبه و العوده إليه تعالى و إلى تقواه و إقامه الصلوه و عدم الشرك به.

و في آخر آيه-من الآيات محل البحث-يبين القرآن واحدا من آثار الشرك و علائمه في عبارته موجزه ذات معنى كبير، فيقول: لا تكونوا من المشركين الذين انقسموا في دينهم على فرق و احزاب كثيره: مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كَانُوا شِيعًا .

و العجيب في الأمر أنهم على تضادهم و اختلافهم فإن كل حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ .

أجل، إن واحده من علائم الشرك هي التفرقه، لأن المعبودات المختلفه هي منشأ الأساليب المتفاوته و هي أساس الانفصال و التفرق، خاصه و أن الشرك هو توأم عادته لهوى النفس و التعصب و الكبر و الأنانيه و عباده الذات، أو متولد عنها، لذلك لا يمكن أن تتحقق الوحده و الاتحاد إلا في ظل عباده الله، و العقل و التواضع و الإيثارة.

فعلى هذا، حيثما وجدنا تفرقه و اختلافًا فينبغي أن نعرف أن نوعا من الشرك حاكم هناك، و يمكن أن نستنتج من هذا الموضوع أن نتيجة الشرك هي تفرق الصفوف، و التضاد، و هدر القوى، و أخيرا الضعف و عدم القدره.

و أما مسأله كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ فهي واضحه و دليلها بين، حين يعتقدون أن ما لديهم حق، لأن الهوى يزین للنفس عملها في نظر الإنسان و هذا التزيين نتيجته التعلق أكثر فأكثر، و الفرح بالطريق الذي اختارته النفس، و إن كان هذا الطريق يؤدي إلى الضلال و الانحراف.

إن عباده الهوى لا تسمح للإنسان أن يرى وجه الحقيقه كما هو، و لا يمكنه أن يقضى قضاء صحيحا خاليا من الحبّ و الحقد.

يقول القرآن المجيد فى الآيه (٨) من سورة فاطر: فَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسِينًا .. كالىذى يمضى فى طريق الحق، و يرى الحقائق كما هى، و يعرفها حق المعرفه؟!

بحثان

اشاره

١- التوحيد باعث داخلى قوى:

كما أنّ الدلائل العقليه و المنطقيه توجه الإنسان، فإنّ فى داخله دوافع و موانع أيضا.. بحيث تعين له الجبهه «أحيانا» من حيث يدري أو لا يدري! و فلسفه وجودها فى داخل الإنسان، هى أنّ الإنسان لا يستطيع -دائما- أن ينتظر إيعاز العقل و المنطق، لأنّ هذا العمل قد يعطل الأهداف «الحياتيه» بعض الأحيان.

فمثلا لو أراد الإنسان أن يستلهم من منطق «لزوم بدل ما يتحلل» ضروره تناول الطعام.. أو «لزوم استمرار النسل عن طريق التوالد و التناسل» ضروره الممارسه الجنسيه، و أن يعمل و يتحرك وفق المنطق فى كل ذلك، لكان ينبغى أن ينقرض الإنسان -قبل هذا الزمان بكثير- إلا أن الغريزه الجنسيه من جهه و جاذبيتها، و الاشتهاء للطعام من جهه أخرى، يجرانه نحو هذا الهدف شاء أم أبى.

و كلما كانت الأهداف حياتيه أكثر و عموميه، كانت هذه «الدوافع» أشد و أقوى أيضا.

لكن ينبغى الالتفات إلى أن هذه الدوافع على نحوين:

فبعضها باطنيه (غير واعيه) لا- تحتاج إلى وساطه العقل و الشعور، كما ينجذب الحيوان نحو الطعام و الجنس دون الحاجه إلى التفكير.

و قد يكون تأثير الدوافع عن طريق الوعى، أى إن هذه الدوافع الداخليه

تترك أثرها في العقل و التفكير و تدفعه إلى انتخاب الطريق! و عادة يطلق على النوع الأول من هذه الدوافع «الغريزه» و على النوع الثاني «الفطره» (فلاحظوا بدقه).

عباده الله و الاتجاه نحوه لهما مكانه في نفوس جميع الناس، و هو ما يصطلح عليه ب«الفطره».

و يمكن أن يعدّ بعض الناس هذا الكلام ادعاء محضاً، يدّعيه المؤمنون، إلاّ- أن لدينا دلائل و شواهد مختلفه توضح بجلاء كون «الميل إلى الله» فطرياً، بل تؤكّد هذا الميل في جميع اصول الدين و أبعاده:

١- إنّ دوام الاعتقاد الديني و الإيمان بالله على امتداد التاريخ البشري بنفسه دليل على الفطره! لأنه إذا كان ذلك على سبيل العاده، لما كانت له جنبه عموميه و لا جنبه دائميّه، فهذا العموم و هذا الدوام دليل على فطريه حاله.

يقول المؤرخون الكبار: لم ير في المجتمعات الإنسانيه في أعماق التاريخ البشري، و في عصر ما قبل التاريخ أن أقواما بشريه عاشت بلا دين إلاّ بشكل استثنائي.

و يقول «ويل دورانت» المؤرخ المعاصر:

«إذا عرّفنا الدين على أنه عباده القوى التي هي أسمى من طبيعه، فينبغي أن نأخذ بنظر الاعتبار هذه المسأله الدقيقه، و هي أن بعض الأمم البدائيّه لم يكن لها أي دين ظاهراً» ثم يضيف بعد ذكر أمثله لهذا الموضوع: فما ذكر من الأمثله هو في عداد الحالات النادره، و الرأى القائل: التدين يشمل عموم أفراد البشر، يوافق الحقيقه! ثم يضيف قائلاً: «تعدّ هذه القضيه في نظر الفيلسوف واحده من القضايا الأساسيه في التاريخ و الدراسات النفسيه، فهو لا- يقنع بهذه المسأله: إنّ جميع الأديان محشوّه بالباطل و اللغو و الخرافات، بل هو ملتفت إلى هذه المسأله، و هي

أن الدين منذ قديم الأيام كان مرافقا للتاريخ البشرى» (١).

و يختتم كلامه بهذا الاستفهام الكبير معنى و مغزى «ترى أين هو مصدر التقوى التى لا- يخلوا القلب منها بأى وجه؟! و هذا المؤرخ نفسه يقول فى تحقیقاته حول وجود الدين فى فترات ما قبل التاريخ» و إذا لم نتصور للدين جذورا فى فترات ما قبل التاريخ، فلا يمكن أن نعرفها فى الفتره التاريخيه كما هى عليه» (٢).

و التنقيبات عن إنسان ما قبل التاريخ التى تمت عن طريق الحفر، تؤيد هذا الموضوع أيضا، كما يصرح بذلك العالم الاجتماعى «ساموئيل كنيج» فى كتابه «دراسه المجتمع»: «إن الأسلاف الماضين للإنسان المعاصر» ممن ينتمون إلى إنسان نثاندرتال» كان لديهم دين حتما، و يستدلّ بعدئذ لإثبات هذا الموضوع بالآثار التى عثر عليها عن طريق التنقيب و الحفر، و منها أنّهم كانوا يدفنون موتاهم بكيفيه خاصه، و يدفنون معهم أشياء تدل على اعتقادهم بيوم القيامه». (٣)

و على كل حال، فإنّ فصل الدين عن التاريخ البشرى لا يمكن أن يقبله أى محقق و باحث.

٢- إنّ المشاهدات عيانا فى العالم المعاصر تكشف أنّه مع جميع ما بذل الطغاه و المستبدون- و أنظمتهم الجائره من جهود و سعى لمحو الدين و آثاره و عن طرق مختلفه- لم يستطيعوا أن يستأصلوا الدين و جذوره من أعماق هذه المجتمعات.

و نعرف جيدا أنّ الحزب الشيوعى الحاكم فى الاتحاد السوفياتى، و منذ أكثر من ستين سنه، و بوسائل الإعلام و «الدعايات» المختلفه، حاول أن يغسل

ص: ٥٢٤

١-١) -تاريخ التمدن، ج ١، ص ٨٧-٨٩.

٢-٢) -تاريخ التمدن، ج ١، ص ١٥٦.

٣-٣) -دراسه المجتمع، ص ١٩٢ أصله بالفارسيه و عنوانه جامعه شناسى.

الأذهان و العقول و القلوب من الإعتقادات الدينيه مستعينا بالخلايا التنظيميه الجماعيه، إلا أنّ الأخبار التي تسربت و تهربت من ذلك المحيط المغلق، و ما نقرؤه في الصحف و الجرائد، تكشف أنّهم «أى الحزب الحاكم فى روسيا» مضافا الى عدم تحقيقهم هدفهم بالرغم من تشدهم فى وسائل الإعلام، فإنّه تبدو هذه الأيام حاله من التطلع المتزايد الى المسائل الدينيه فى بعض الدول الاشتراكيه و جمهوريات روسيا ممّا أقلق قاده النظام، و هذا يدل على أنّه لو رفعوا الضغوط و لو يوما واحدا، لعاد الدين إلى مكانه بسرعه فائقه، و هذا بنفسه شاهد آخر على فطريه الدافع الدينى أيضا.

٣-الكشوفات الأخيره من قبل النفسانيين و علماء النفس فى مجال أبعاد الروح الإنسانيه، شاهد آخر على هذا المدعى، إذ أنّهم يقولون: «إنّ التحقيقات فى المجالات النفسيه تشير إلى بعد أصيل هو «البعد الدينى» أو بتعبير آخر «بعد قدسى» أو «ربانى» و ربّما عدّوا هذا البعد أساسا للأبعاد الثلاثه الأخرى و هى «البعد العلمى»، و «البعد الجمالى»، و «البعد الخيّر».

إذ يدّعون بأن البواعث الأساسيه للروح البشريه هى هذه:

١-دافع البحث عن الحقيقه (الشعور العلمى) و هو مصدر أنواع العلوم، و الأهداف التحقيقيه المستمره، و المتابعات فى معرفه عالم الوجود! ٢-حس «الإحسان و العمل الصالح» الذى يجذب الإنسان نحو المفاهيم الأخلاقيه كالتضحيه و الإيثار و العدل و الشهامه و أمثالها. حتى أنّه لو كان الإنسان غير واجد لهذه الصفات، فإنّه يعشق من تتوفر فيهم هذه الصفات، و هذا يدل على أن العشق للعمل الصالح و الإحسان كامن فى جذور النفس.

٣-الحس «الجمالى»: و هو يجذب الإنسان نحو الفن الأصيل و الأدب و المسائل الذوقيه، و ربّما أصبح مصدر التحول فى حياه الفرد أو المجتمع أحيانا.

٤-الحس «الدينى»، أى الإيمان بمبدأ عال و عبادته و اتّباعه.

و نقرأ فى مقاله كتبها «كوونتايم» فى هذا المجال ما يلى:

«إنّ معرفه النفس بالبحث داخل النفس البشريه غير الواعيه-التي بوشر بها بواسطه فرويد«فى البدايه»استمرّت بالاستعانه ب«آدلر»و«يونك»-فى أعماق روح الإنسان وصلت إلى عالم جديد من القوى المستوره،و أنحاء الدرك و المعرفه وراء العقل،و يمكن أن يكون الحسّ الدينى مفتاحا من مفاتيح حل هذه الأحجيه.

و بالرغم من أنّنا بعيدون للآن عن اتفاق الآراء،إلاّ أنّه و مع هذه الحال فما يزال«مسير فكرى»فى ازدياد يوما بعد يوم،إذ يعتقد كثير من المفكرين بالتعريف الذى نوردّه ذيلًا:

«إنّ الحسّ الدينى واحد من العناصر الأوليه الثابته و الطبيعیه لروح الإنسان، و هو أكثرها أصاله و ماهويّه،و لا يمكن مطابقته لأى من الأحاسيس و الدوافع الأخرى،حيث يمدّ جذوره الى أعماق اللاوعى و يعدّ«المفهوم الدينى»أو بتعبير أصح«المفهوم المقدس»بالنسبه لمفاهيم الجمال و الإحسان و الحقيقه،مقوله رابعه،و لها أصاله المفاهيم الثلاثه ذاتها و استقلالها أيضا (1).

كما نقرأ فى مقاله المترجمه المقتبسه عن المحقق«تان كى دو-كنتن»ما يلى«كما أن من مزايا العصر الحاضر-فى عالم الطبيعه-هو اكتشاف البعد الرابع، الذى أطلق عليه اسم«بعد»الزمان مضافا الى الأبعاد الثلاثه للجسم،و هو فى الوقت ذاته جامع لها،فكذلك اكتشفت فى هذا العصر المقوله الرابعه«المقدسه» أو المقوله الإلهيه«الربانيه»بموازاه المفاهيم الثلاثه«الجمال،الإحسان،طلب الحقيقه»و هى البعد الرابع لروح الإنسان،ففى هذا المقام أيضا فان هذا البعد الرابع الروحى منفصل عن الأبعاد الثلاثه الأخرى،و ربّما كان هذا البعد منشأ

ص: ٥٢٤

(١-١) -يراجع كتاب الحسّ المذهبى أو البعد الرابع ترجمه مهندس بيانى(للكاتب كوونتايم).

٤- إن التجاء الإنسان في الشدائد و المحن إلى قوه خفيه وراء الطبيعه، و طلب حل المشاكل و الأزمات من قبل هذه القوه، لهو أيضا شاهد آخر على أصاله هذا الدافع الباطنى و الإلهام الفطرى، و يمكن-بضمها إلى مجموع الشواهد التى ذكرناها آنفا- أن نوقفنا على مثل هذا الدافع الباطنى فى داخلنا نحو الله سبحانه.

و بالطبع فمن الممكن أن يعدّ بعضهم هذا التوجه من آثار التلقينات أو الإعلام الدينى فى المحيط الاجتماعى المتدين! إلا أن عموميه هذه الظواهر فى جميع الناس، حتى فى أولئك الذين لا علاقه لهم بالمسائل الدينيه عاده، تدلّ على أن لها جذرا أعمق من هذه الفرضيه.

٥- و فى حياه الإنسان حوادث و ظواهر لا يمكن تفسيرها إلا عن طريق أصاله الحسّ الدينى... فكثير من الناس نجدهم قد ضحوا بجميع ما لديهم من الإمكانيات الماديه، و لا يزالون يضحون أيضا، و يصبّون كل ما عندهم مع ما لديهم من سوابق تحت قدم الدين، و ربّما قدّموا أنفسهم فى سبيله أيضا.

الشهداء الذين شربوا كأس الشهاده-من أجل تقدم الأهداف الإلهيه و تحقّقها- بشوق و عشق بالغين، بحيث نرى أمثالهم فى تاريخ جهاد الإسلام الطويل، بل فى تاريخ الأمم الأخرى أيضا، يكشفون عن هذه الحقيقه، و هى أن الحسّ الدينى له جذر عميق فى روح الإنسان.

لكن قد يرد على هذا الكلام إشكال، و هو أنّ أفرادا-كالشيعيين مثلا- لهم موقع إلحادى-ضد الأيدلوجيه و الدين- لا يكتمون موقعهم هذا أبدا.. كما أن لهم مواقف تضحويه فى سبيل حفظ فكرتهم و اعتقادهم! إلا أنّ هذا الإشكال ينحل تماما بملاحظه هذه المسأله، و هى أنّه حتى

ص: ٥٢٧

الشيوعيون الذين ينفون الدين كلياً-بحسب الظاهر-و يعتقدون أن الدين مرتبط بالتاريخ القديم، ولا يمكن أن يكون له مكان في المجتمعات الشيوعيه..أجل، إن هؤلاء أنفسهم قد قبلوا بالدين بشكل آخر عن طريق العقل الباطني«و اللاوعي».

فهم يقَدِّسون زعماءهم و قادتهم بالنظره التي ينظرها المصريون القدماء أو ثانهم، و صفوفهم الطويله عند جسد«لينين»لزيارته هي شاهد آخر على هذا الموضوع أيضا.

و هم عادة يعتبرون الأصول الماركسيه كوحى السماء لا تقبل النقد و الخدش،فهي مقدَّسه عندهم،و يتصورون أن ماركس و لينين و انجلس كالمعصومين من الأخطاء و السهو،و يعدون مراجعه العقل لاتخاذ موقف جديد من هذه الأصول ذنباً لا يغتفر أبداً..و يخاطبون مخالفيهم بتعبيرنا الديني على أنهم«مرتدون»و على هذا فهم يعتقدون بكثير من المفاهيم و المسائل الدينيه، غايه ما في الأمر هو أن تفكيرهم نوع من الفكر الديني في شكل منحرف!

٢- فطره التوحيد في الأحاديث الإسلاميه

موضوع«معرفة الله الفطريه»لم يختص به القرآن الكريم فحسب،بل هو وارد في الأحاديث الإسلاميه بشكل يسترعى الانتباه،حيث أن بعضها يؤكِّد على التوحيد بالفطره،و بعضها يؤكِّد على المعرفه،و قسم يتناول الفطره«على الإسلام»و أخيراً فإن قسماً منها تناول عنوان الولايه أيضا.

ففي حديث معتبر يرويه المحدث الكبير الشيخ الكليني في أصول الكافي، و هو ما نقله

عن هشام بن سالم،قال: سألت الإمام الصادق عليه السلام: ما المراد من قوله تعالى: **فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**... فقال«هي التوحيد» (١).

كما

ورد في الكافي نفسه نقلاً عن بعض أصحاب الإمام الصادق عليه السلام أيضا

ص: ٥٢٨

حين سأله عن تفسير الآيه المتقدمه فقال الإمام عليه السلام «هى الإسلام» (١).

كما نقرأ حديثا متشابها لما سبق-

عن الإمام الباقر عليه السلام جوابا لزراره أحد أصحابه العلماء حين سأله عن تفسير الآيه فقال عليه السلام «فطرهم على المعرفه به» (٢).

و

الحديث المنقول عن النبى صلى الله عليه وآله «كل مولود يولد على الفطره حتى ليكون أبواه هما اللذان يهودانه و ينصرانه» يؤكد هذا المضمون أيضا (٣).

و أخيرا فإننا نقرأ

فى أصول الكافى حديثا عن الإمام الصادق عليه السلام أيضا فى تفسير الآيه قال: «هى الولايه» (٤).

و

قد ورد فى الخطبه الأولى لنهج البلاغه عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث موجز العبارة غزير المعنى، إذ يقول عليه السلام «فبعث فيهم رسوله، و اتر إليهم أنبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته، و يذكرهم منسى نعمته، و يحتجوا عليهم بالتبليغ، و يثيروا لهم دفائن العقول».

و طبقا للروايات المتقدمه، فليست معرفه الله هى الفطريه فحسب، بل مجموع الإسلام بشكل موجز «مضغوط» كامن فى داخل الفطره الإنسانيه بدءا من التوحيد و انتهاء بالقاده الإلهيين و خلفائهم الصادقين، و كذلك فروع الأحكام أيضا.

فعلى هذا، و طبقا للتعبير الوارد فى نهج البلاغه، فإن عمل الأنبياء هو رعايه الفطره حتى تفتح، و تذكر الناس نعم الله المنسيه، و من جمله هذه النعم الفطره على التوحيد، و استخراج كنوز المعرفه الدفينه فى روح الإنسان و أفكاره! و مما يسترعى الانتباه أن القرآن الكريم- فى آيات متعدده- يتخذ من الشدائد و المشاكل و الحوادث المؤلمه التى يمر بها الإنسان فى حياته مناخا

ص: ٥٢٩

١-١) -المصدر السابق.

٢-٢) -المصدر السابق.

٣-٣) -تفسير «جمع الجوامع» للمرحوم الطبرسى ذيل الآيه محل البحث.

٤-٤) -تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ١٨٤.

ملائما للحس الدينى، إذ يقول فى واحده من هذه الآيات: فَإِذَا رَكَبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (١).

و ستتحدث بإذن الله فى هذا المجال ذيل الآيات المقبله التى تشبه الآيات من سوره العنكبوت أيضا.

ص: ٥٣٠

١ - ١) - العنكبوت، الآية ٦٥.

إشارة

وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهَوْا يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥) وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦)

التفسير

إن الآيه الأولى من المقطع الذى بين أيدينا، هي فى الحقيقة استدلال و تأكيد على البحث السابق فى مجال كون التوحيد فطرياً، و تفتح هذا النور الإلهى عند الشدائد و الصعاب! إذ تقول الآيه: وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ .

إلا أنهم الى درجه من السطحيه و الغباء التعصب و التقليد الأعمى لأسلافهم المشركين، بحيث أنه بمجرد انتهاء المشكله و هبوب نسيم الرحمه الالهيه.. ثُمَّ إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ .

و التعبير ب مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ إشاره إلى اصابتهم بقليل من الضرر... كما أن التعبير أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إشاره إلى بلوغ شىء من النعمه، لأنّ التعبير ب«مَسَّ»

أو «ذاق» في مثل هذه الموارد يطلق على الأمور القليلة و الجزئية، و خاصّه باستعمال كلمتي «ضر» و «رحمه» نكرتين.

أى إنّ طائفه تبلغ بهم الحال إلى أن يفرغوا إلى الله عند حدوث أقل مشكله لهم، و تنكشف الحجب عن فطرتهم التوحيديه، و لكن إذا رأوا نعمه و لو بأقل ما يتصوّر، فإنّهم يغفلون عن واقعهم كلياً، و ينسون كل شيء! و بالطبع ففي الحاله الأولى يبيّن القرآن أنّ الناس يفرغون جميعاً إلى الله عند الضر و الشدائد، لأنّ فطره التوحيد موجوده في الجميع.

و لكن في الحاله الثانيه يتحدث القرآن عن جماعه تسلك طريق الشرك فحسب، لأنّ طائفه من عباد الله يذكرون الله في الشدائد و في الرخاء و في السراء و الضراء. فلا تنسيهم المتغيّرات ذكر الله أبداً.

و التعبير بـ مُنْبِيئِينَ إِلَيْهِ - كما رأينا في مفهوم الإنابه سابقاً- من ماده «النوب» و تعنى العوده ثانيه إلى الشيء، هذا التعبير إشاره لطيفه للمعنى التالي، و هو أنّ الأساس في الفطره هو توحيد الله و عبادته، و الشرك أمر عارض، حيث متى ما يسوا منه فهم يعودون نحو الإيمان و التوحيد، شاؤوا أم أبوا!.

و الطريف هنا أنّ «الرحمه» في الآيه مسنده إلى «الله»، فهو سبحانه مصدر الرحمه للعباد، سواء بطريق مباشر أو غير مباشر إلا أن الضرّ لم يسند إليه سبحانه، لأنّ كثيراً من الابتلاءات و المشاكل التي تحوطنا هي من نتائج أعمالنا و ذنوبنا.

و كلمه «ربّهم» التي تكررت في الآيه تكررت في الآيه مرّتين، تؤكّد على أنّ الإنسان يحسّ بالتدبير الإلهي و ربوبيه الله على وجوده ما لم تؤثر عليه التعليمات الخاطئه فتسوقه نحو الشرك و الضلال.

و ينبغي ذكر هذه المسأله الدقيقه، و هي أنّ الضمير في كلمه «منه» يعود إلى الله، و هذا تأكيد على أن جميع النعم من الله سبحانه. و قد اختار كثير من المفسّرين هذا المعنى أمثال «الطباطبائي» في الميزان، و «الطوسي» في التبيان، و «أبو

الفتوح الرازي» في تفسيره وغيرهم، و إن ذهب غيرهم كالفخر الرازي الى إن الضمير في كلمه «منه» يعود على الضرّ، و فسروا الآيه هكذا «حين يذيق الله عباده بعد الضرّ رحمه. إذا فريق منهم يشركون بالله». (فيكون معنى «من» هنا البديهي). إلا أنه من الواضح أن التفسير الأول أكثر انسجاما مع ظاهر الآيه! أما الآيه الأخرى فجاءت بعنوان التهديد لأولئك المشركين، الذين ينسون ربهم عند نيل النعم، إذ تقول: اتركهم ليكفروا بما آتيناهم و ليفعلوا ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا! ثم يخاطب المشركين بأن يتمتعوا بهذه النعم و المواهب الدنيويه الفانيه. و سوف يرون العاقبه السيئه لذلك: فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١) و بالرغم من أن المخاطبين بالآيه هم المشركون، إلا أنه لا يبعد أن يكون لها مفهوم واسع بحيث يشمل جميع الذين ينسون الله عند إقبال النعم، و ينشغلون بالتمتع بهذه النعم فحسب، دون أن يذكروا واهب النعم.

و بديهى أن صيغه الأمر استعملت هنا للتهديد!.

و القرآن في الآيه الأخرى يصوغ الكلام في صيغه الاستفهام المقرون بالتوبيخ فيقول: أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهَوْا يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ .

«أم» هنا للاستفهام، و يحمل الاستفهام هنا غرضا استنكاريا و توبيخا... أى إن سلوك هذا الطريق و الخطه يجب أن يكون إما لنداء الفطره، أو بحكم العقل، أو بأمر الله، لكن حين يصرخ الوجدان و الفطره فى الشدائد و الملمات بالتوحيد....

فإن العقل يقول أيضا: ينبغى التوجه نحو واهب النعم.

يبقى أن حكم الله فى هذه الآيه هو فى مورد النفي، أى: لم يؤمروا من قبل الله بمثل هذا الأمر، فعلى هذا فإن هؤلاء فى اعتقادهم هذا لم يستندوا إلى أى أصل

ص: ٥٣٣

١ - ١) - إن «اللام» فى جمله «ليكفروا» هى لام الأمر، و هذا الأمر للتهديد، و كذلك جمله «تمتعوا» إذ هى للتهديد أيضا. و إن كانت الأولى جاءت بصيغه «الغائب» و الثانيه بصيغه «الخطاب»... فكأنما افترض فى الحاله الأولى أنهم غيب ثم من أجل التشدد بالتهديد جعلهم مواجهين للتهديد و الخطاب، إلا أن بعض المفسرين عدوا «اللام» للعاقبه، أى كان عاقبه أمرهم الكفر بنعم الله، إلا أن المعنى الأول أكثر انسجاما مع ظاهر الآيه.

و«السلطان» معناه ما يدل على السلطه و ينتهى إلى الإنتصار عادة، و معناه هنا هو الدليل المحكم المقنع.

و التعبير ب«يتكلم» هو نوع من التعبير المجازى، إذ ترانا نعبر عند وضوح الدليل قائلين «كأن هذا الدليل يتكلم مع الإنسان!» و احتمال بعض المفسرين أن المراد بالسلطان هنا هو أحد الملائكه المقتدرين، فيكون استعمال «يتكلم» هنا على نحو الحقيقه، أى لم نرسل عليهم ملكا يتكلم بالشرك فيتبعوه!.

إلّا- أنّ التفسير الأوّل أوضح كما يبدو! أمّا آخر آيه من الآيات محل البحث، فهى ترسم طريقه تفكير و روحه هؤلاء الجهله الأغبياء الذين يقنطون و يحزنون لأقل مصيبه، فتقول: وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ .

فى حين أنّ المؤمنين الصادقين هم الذين لا يغفلون عن ذكر الله عند النعم، و لا يقنطون عند الشدائد و المصيبه، إذ هم يشكرون الله على نعمه، و يرون المصيبه امتحانا و اختبارا، أو يعدونها نتيجة أعمالهم، فيصبرون و يتجهون إلى الله تعالى.

فالمشركون يعيشون دائما بين «الغرور» و «الأس»، أمّا المؤمنون فهم بين «الشكر» و «الصبر».

و استفاد ضمنا من هذه الآيه بصورة جيده أنّ قسما من المصائب و الابتلاءات التى تحل بالإنسان هى -على الأقل- نتيجة أعماله و ذنوبه، فالله يريد أن ينبههم و يطهرهم و يلفتهم إليه.

و ينبغى الالتفات الى أنّ جملة فَرِحُوا بِهَا ليس المراد منها هنا السرور بالنعمه فحسب، بل السرور المقرون بالغرور و نوع من السكر و النشوه، و هى الحاله التى يكون عليها الأراذل عند ما تنهيا لهم وسائل العيش و الحياه، و إلاّ فإن

السرور المقرون بالشكر و التوجه نحو الله ليس أمرا سيئا، بل هو مأمور به قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا (١).

و التعبير بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ الذى ينسب المعاصى إلى الأيدي، هو لأن أكثر الذنوب و الأعمال يكون على يد الإنسان، و إن كانت هناك ذنوب يكتسبها القلب أو البصر أو السمع، إلا أن كثرة الأعمال التى تصدر عن اليد استدعى هذا التعبير.

و هنا ينقدح هذا السؤال، و هو: أ لا تخالف هذه الآيه، الآيه الثالثه و الثلاثين «ما قبل آيتين» لأن الكلام فى هذه الآيه عن يأسهم عند المصائب، فى حين أن الآيه السابقه تتحدث عن توجيههم إلى الله عند بروز المشاكل و الشدائد.

و الخلاصه، إن واحده من الآيتين تتحدث عن «الرجاء» و الأخرى عن «اليأس»؟ لكن مع الالتفات إلى مسأله دقيقه يتضح جواب هذا السؤال، و ذلك أن الآيه المتقدمه كان الكلام فيها عن «الضر» أى الحوادث الضاره كالطوفان و الزلزله و الشدائد الأخرى التى تصيب عامه الناس «الموحدين منهم و المشركين».

فيتذكرون الله فى هذه الحال، و هذا واحد من دلائل الفطره على التوحيد.

أمّا فى الآيه محل البحث فالكلام على نتائج المعاصى و اليأس الناشئ منها، لأن بعض الأفراد إذا عملوا صالحا أصبحوا مغرورين و حسبوا أنفسهم مصونين من عذاب الله، و حين يعملون السيئات و تحلّ بهم العقوبه فيغم وجودهم اليأس من رحمه الله، فكلتا الحالين «العجب و الغرور» و «اليأس و القنوط من رحمه الله» مدمومتان! فعلى هذا تكون كل آيه من الآيتين قد تناولت موضوعا منفصلا عن الآخر.

ص: ٥٣٥

إشاره

أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧) فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨) وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبَا لِيَرْبُؤَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُؤُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْغِفُونَ (٣٩) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَن يَفْعَلُ مِثْلَ ذَلِكَ مِّنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠)

التفسير

الآية الأولى من الآيات محل البحث-تتحدث عن التوحيد و الربوبية أيضا، و انسجاما مع سياق الآيات السابقة التي كانت تتحدث عن غرور بعض الناس الماديين عند إقبال النعمة عليهم، و يأسهم و قنوطهم عند مواجهتهم الشدائد و البلاء، فإنها تقول: أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ .

فلا ينبغي أن يكون إقبال النعم مدعاة للغرور و نسيان الله و الطغيان، و لا إدارها سببا لليأس و القنوط، لأن سعة الرزق و ضيقه بيد الله، فتاره يرى المصلحه

للعبد في حاله الأولى «سعه الرزق»، و تاره يراها في الثانيه، أى «الضيق».

و صحيح أنّ العالم هو عالم الأسباب، فمن جدّ و جد، و من سعى قاوم الصعاب ينل فائده أكثر و يربح عاده، و أمّا أولئك الكسالى فلا ينالون إلا قليلا...

لكن هذه القاعده في الوقت ذاته ليست دائميّه و لا كليّه، إذ يتفق أن نرى أناسا جديرين و جادّين يركضون من هنا و هناك، إلا أنّهم لا يصلون إلى نتيجة يبلغون هدفهم، و على العكس منهم قد نشاهد أناسا لا يسعون و لا يجدّون و تفتح عليهم أبواب الرزق من كل حدب و صوب.

و هذه الاستثناءات كأنّها لبيان أنّ الله بالرغم من جميع ما جعل للأسباب من تأثير، لا ينبغي أن ينسى في عالم الأسباب، و لا ينبغي للإنسان أن يغفل أن وراء هذا العالم يدا قويه أخرى تديره كيف شاءت! فأحيانا- و وفق مشيئته- توصل جميع الأبواب بوجه الإنسان مهما سعى و جدّ في الأمر، و قد يرحم الإنسان و ييسّر له الأمور الى درجه انه ما أن يخطو خطوه... و إذا الأبواب متفتحه أمامه! فما نرى في حياتنا من هذه المفارقات، بالإضافة إلى أنّه يحدّ من الغرور المتولد من وفور النعمه، و اليأس الناشئ من الفقر، فهو في الوقت ذاته دليل على أن وراء إرادتنا و مشيئتنا يدا قويه أخرى «تسيّر أعمالنا».

لذلك يقول القرآن في نهايه الآيه: **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** .

و ينقل بعض المفسّرين كلاما بهذا المضمون و هو: سئل أحد العلماء: ما الدليل على أنّ للعالم صناعا واحدا؟ فقال هناك ثلاثه أدله: «ذل اللبيب، و فقر الأديب، و سقم الطيب». (1)

أجل إن وجود هذه المستثنيات و المفارقات دليل على أن الأمور بيد قادر آخر، كما

ورد في كلام الإمام على عليه السلام أيضا «عرفت الله سبحانه بفسخ العزائم،

ص: ٥٣٧

(١- ١) - تفسير روح البيان، ج ٧، ص ٢٩، ذيل الآيه محل البحث.

و حلّ العقود، و نقض الهمم». (١)

و حيث أن كل نعمه و موهبه ينالها الإنسان تحمّله و وظائف و مسؤوليات و عليه أداؤها، فإن القرآن يوجه الخطاب للنبي صلّى الله عليه و آله و سلّم فى الآيه التاليه قائلا: فَاتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَ الْمِسْكِينَ وَ ابْنَ السَّبِيلِ .

و ينبغي أن لا- تتصور عند سعه الرزق أن ما عندك هو لك فقط، بل إنّ للآخرين فى مالك حقًا أيضا، و من هؤلاء الأقارب و المساكين الذين باتوا متربين لشده الفقر، و كذلك الأعزّه الذين ابتعدوا عن الوطن و انقطع بهم الطريق نتيجة حوادث معينه و هم محتاجون!...

و التعبير ب«حقّه» كاشف عن أنّهم شركاء فى أموال الإنسان، و إذا دفع المرء شيئا من ماله إليهم فإنّما يؤدى حقهم، و ليس له منّ عليهم!.

و هناك جماعه من المفسّرين يرون أنّ المخاطب فى هذه الآيه هو النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم فحسب، و أن «ذا القربى» أرحامه، و

قد ورد فى روايه عن أبى سعيد الخدرى و غيره ما يلى: «لما نزلت هذه الآيه على النبي أعطى فاطمه فدكا و سلّمها إليها». (٢)

و بالمضمون نفسه نقل عن الإمام الباقر و الصادق عليهما السّلام أيضا. (٣)

و قد ورد المعنى نفسه مفصلا فى احتجاج فاطمه الزهراء عليها السّلام على أبى بكر فى قضيه فدك، و ذلك فى روايه عن الإمام الصادق عليه السّلام. (٤)

غير أنّ جماعه من المفسّرين قالوا: إنّ الخطاب فى هذه الآيه عام، و هو يشمل النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم و غيره، و طبقا لهذا التفسير فإنّ جميع الناس عليهم أن لا ينسوا حق ذوى القربى أيضا.

ص: ٥٣٨

١-١) - نهج البلاغه، الكلمات القصار الجمله ٢٥٠

٢-٢) - مجمع البيان.

٣-٣) - مجمع البيان.

٤-٤) - تفسير على بن إبراهيم، طبقا لنقل نور الثقلين عنه، ج ٤، ص ١٨٦.

و بالطبع فإنه لا منافاه فى الجمع بين التفسيرين، و على هذا فإن مفهوم الآيه مفهوم واسع، و النبى صلى الله عليه و آله و سلم و قرباه و خاصه فاطمه الزهراء عليها السلام هم المصدق الأتم لهذه الآيه.

و من هنا يتضح أن لا منافاه لأى من التفاسير الآنفه مع كون السوره مكيه، لأن مفهوم الآيه مفهوم جامع ينبغى العمل به فى مكه و فى المدينه أيضا، و حتى خبر إعطاء «فدك» لفاطمه عليها السلام على أساس هذه الآيه مقبول جدًا.

الشيء الوحيد الذى يبقى هنا، هو جملة «لما نزلت هذه الآيه...» فى روايه أبى سعيد الخدرى، إذ أن ظاهرها أن إعطاء فدك كان بعد نزول الآيه، و لكن لو أخذنا كلمه «لما» به معنى العله، لا بمعنى الزمان الخاص، ينحل هذا الإشكال، و يكون مفهوم الآيه أن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم أعطى فاطمه فدكا لأمر الله إياه، أضف إلى ذلك فإن بعض آيات القرآن يتكرر نزولها!

و لكن لم ذكر هؤلاء الثلاثة من بين جميع المحتاجين و أصحاب الحق؟ لعل ذلك لأهميتهم، لأن حق ذى القربى أهم و أعلى من أى حق سواه، و من بين المحرومين و المحتاجين فإن المساكين و أبناء السبيل أحوج من الجميع!

أو أن ذلك لما أورده «الفخر الرازى» هنا إذ يقول: «فى تخصص الأقسام الثلاثة بالذكر دون غيرهم، مع أن الله ذكر الأصناف الثمانية فى الصدقات، فنقول:

أراد هاهنا بيان من يجب الإحسان إليه على كل من له مال، سواء كان زكويًا أم لم يكن، و سواء كان بعد الحول أو قبله، لأن المقصود هاهنا الشفقه العامه، و هؤلاء الثلاثة يجب الإحسان إليهم و إن لم يكن للمحسن مال زائد، أمّا القريب فتجب نفقته و إن كان لم تجب عليه زكاه كمال القاصرين أو مال لم يحل عليه الحول، و المسكين كذلك فإن من لا شيء له إذا بقى فى ورطه الحاجه حتى بلغ الشده، يجب على من له مقدره دفع حاجته و إن لم يكن عليه زكاه، و كذلك من انقطع فى مفازه و مع آخر دابه يمكنه بها إيصاله إلى مأمن، يلزمه ذلك، و إن لم تكن عليه

زكاه، و الفقير داخل فى المسكين، لأن من أوصى للمساكين شيئاً يصرف إلى الفقراء أيضاً «فما ذكرته الآيه من ترتيب لهؤلاء إنما يناسب شأنهم». (١)

و على كل حال فإنّ القرآن يبين فى نهايه الآيه ترغيباً للمحسنين، و شرط القبول ضمناً، فيقول: ذَلِكْ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

أولئك المفلحون فى هذه الدنيا، لأنّ الإنفاق يجلب معه البركات العجيبه، و فى الآخره أيضاً، لأنّ الإنفاق هو أكثر الأعمال ثقلاً فى ميزان الله يوم القيامة.

و مع الالتفات إلى أن المراد من وَجْهَ اللَّهِ ليس هو المحيياً الجسمانى، إذ ليس له تعالى وجه جسمانى، بل هو بمعنى ذاته المقدسه، فإن هذه الآيه تشير إلى أن الإنفاق و إيتاء حق الأقارب و أصحاب الحق الآخرين ليس كافياً، بل المهم هو الإخلاص و النيه الطاهره و الخاليه من أى أنواع الرياء و المنه و التحقير و انتظار الأجر و الثواب.

و خلافاً لما ذهب إليه بعض المفسرين. من أنّ الإنفاق لغرض الوصول إلى الجنه ليس مصداقاً لوجه الله، فإن جميع الأعمال التى يؤديها الإنسان و فيها نوع من الارتباط بالله، سواء كانت لمرضاته أو ابتغاء ثوابه أو للنجاه من جزائه، فكلها مصداق لوجه الله، و إن كانت المرحله العليا و الكامله من ذلك أن لا يبتغى الإنسان من وراء عمله إلا الطاعه و العبوديه المحضه!

و تشير الآيه التاليه-بمناسبه البحث المتقدم عن الإنفاق الخالص- إلى نوعين من الإنفاق: أحدهما لله، و الآخر يراد منه الوصول إلى مال الدنيا، فتقول:

وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبًّا لِيُرَبُّوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرُبُّوا عِنْدَ اللَّهِ وَ مَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ

مفهوم الجمله «الثانيه» و هى إعطاء الزكاه و الإنفاق لوجه الله و الثواب واضح، إلا أن الجمله الأولى وَ مَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبًّا مختلف فى تفسيرها مع

ص: ٥٤٠

الالتفات إلى أن «الربا» معناه في الأصل «الزيادة».

فالتفسير الأول، وهو أوضح من جميع التفاسير، ومنسجم مع مفهوم الآيه أكثر، ومتناسق مع الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام، أن المراد من الربا هو الهدايا التي يقدمها بعض الأفراد للآخرين، ولا سيما إلى أصحاب الثروه و المال، كى ينالوا منهم أجرا أحسن و أكثر! و بديهي أنه فى مثل هذه الهدايا لا يؤخذ بنظر الاعتبار استحقاق الطرف الآخر و لا الجداره و الأولويه، بل كل ما يهدف إليه أن تصل الهديه إلى مكان، تعود على مهديها بمبلغ أوفر و من الطبيعى أن مثل هذه الهدايا ليس فيها «جنبه» إخلاص، فلا قيمه لها من الجبهه الأخلاقيه، و المعنويه!.

فعلى هذا يكون معنى «الربا» فى هذه الآيه هو «الهديه و العطيه» و المراد من جمله لِيَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ هو أخذ الأجر الوافر من الناس! و لا شك أن أخذ مثل هذه الأجره ليس حراما، إذ ليس فيه شرط أو قرار، إلا أنه فاقد للقيمه الأخلاقيه و المعنويه... و لذلك فقد ورد التعبير عن هذا الربا فى روايات متعدده عن الإمام الصادق عليه السلام فى مصادر معروفه، بـ «الربا الحلال» فى قبال «الربا الحرام» الذى يستلزم الشرط و العقد أو الاتفاق.

و نقرأ فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام فى كتاب تهذيب الأحكام، فى تفسير الآيه هو

قوله عليه السلام: «هو هديتك إلى الرجل تطلب منه الثواب أفضل منهما، فذلك ربا يؤكل!» كما نقرأ حديثا آخر

عنه عليه السلام «الربا ربا، أحدهما حلال و الآخر حرام، فأما الحلال فهو أن يقرض الرجل أخاه قرضا يريد أن يزيده و يعوضه بأكثر مما يأخذه بلا شرط بينهما، فإن أعطاه أكثر مما أخذه على غير شرط بينهما فهو مباح له، و ليس له عند الله ثواب فيما أقرضه، و هو قوله: فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ و أما الحرام فالرجل

يقرض قرضاً و يشترط أن يردّ أكثر ممّا أخذه فهذا هو الحرام». (١)

و هناك تفسير آخر لهذه الآية، و هو أن المراد من الربا في هذه الآية هو الربا الحرام، و طبقاً لهذا التفسير فإن القرآن يريد أن يقيس الربا بالإنفاق الخالص لوجه الله، و يبين أن الربا و إن كان ظاهره زيادة المال، إلاّ أنّه ليس زياده عند الله، فالزيادة الحقيقية و الواقعية هي الإنفاق في سبيل الله.

و على هذا الأساس فقد عدّوا الآية مقدمه لمسأله «تحريم الربا» التي ذكرها القرآن في بدايه الأمر و قبل الهجره على سبيل الإرشاد الأخلاقي و النصيح، و لكن تمّ تحريم الربا بعد الهجره في ثلاث سور «البقره و آل عمران و النساء» بصوره تدريجيه «و كانت لنا إشاره أيضا في الجزء الثاني من التفسير الأمثل على هذا الأساس».

و بالطبع ليس بين المعنيين أيّ تضاد، و يمكن أن تؤخذ الآية بمعناها الواسع الذي يجمع «الربا الحلال» و «الربا الحرام» و يقاس كلاهما بالإنفاق في سبيل الله، إلاّ أن تعبيرات الآية أكثر انسجاماً مع التفسير الأول، لأنّ الظاهر من الآية هنا أن عملاً قد صدر ليس فيه ثواب، و هو مباح، لأنّ الآية تقول: إن هذا العمل لا يربو عند الله، و هذا يتناسب مع الربا الحلال الذي ليس فيه وزر و لا ثواب، و ليس شيئاً يستوجب مقت الله و غضبه... و قد قلنا: إن الروايات الإسلاميه ناظره إلى هذا المعنى.

و ينبغي الإشارة إلى هذه اللطيفه اللغويه، و هي أنّ كلمه «مضعفون» التي هي صيغه لاسم الفاعل، لا تعنى أنّهم يزيدون و يضعفون بأنفسهم للمال، بل معناها أنّهم أصحاب الثواب المضعف، لأنّ اسم الفاعل قد يأتي في لغه العرب و يراد منه اسم المفعول، مثل «الموسر» أي: صاحب المال الكثير.

و ينبغي أيضا أن يعرف بالنظره البعيده أن المراد من الضعف و المضعف

ص: ٥٤٢

(١ - ١) - تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ١٩١.

ليس معناه «مثل الشيء مرتين» بل يشمل المثل مرتين و يشمل أمثال الشيء، و الحدّ الأقل في الآية هنا عشره أمثال، لأنّ القرآن يقول: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا . (١)

و تبلغ الزيادة أحيانا كما في القرض إلى ثمانية عشر كما نقرأ في هذا

حديثا للإمام الصادق عليه السلام يقول فيه: «على باب الجنّة مكتوب: القرض بثمانية عشر و الصدقة بعشر». (٢)

وقد تبلغ الزيادة إلى سبعمائه «ضعف» كما هو في شأن الإنفاق في سبيل الله، إذ تقول الآية: مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سَنَابِلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ (٣) و في الآية الأخيرة-من الآيات محل البحث-عوده أخرى إلى مسأله المبدأ و المعاد، و هي الموضوع الأساس الذي ورد في كثير من آيات هذه السوره...

و تصف الآية «الله» بأربعة أوصاف لتكون إشاره للتوحيد و مواجهه الشرك، و دليلا على المعاد أيضا فتقول: اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ .

و من المسلم به أن المشركين لم يكن أي منهم يعتقد بأن الخلق كان من قبل الأوثان، أو أن أرزاقهم بيد الأوثان و الأصنام، أو أن نهايه حياتهم بأيدي هذه الأوثان كذلك!! بل لأنهم جعلوا هذه الأوثان المصنوعه واسعه و شفعاء بينهم و بين الله، فعلى هذا يكون الجواب على هذه الأسئلة هو النفي، و الاستفهام هنا استفهام إنكارى!

الموضوع الآخر الذي يثير السؤال هنا هو أن أولئك المشركين لم يكونوا

ص: ٥٤٣

١-١ - الأنعام، الآية ١٦٠.

٢-٢ - نور الثقلين، ج ٤، ص ١٩٠.

٣-٣ - البقره، الآية ٢٦١.

يعتقدون بالحياء بعد الموت، فكيف يستند القرآن في آخر وصف لله تعالى إلى ذلك؟! لعل هذا التعبير هو لأنّ مسأله المعاد و الحياه بعد الموت- كما ذكرناها في بحوثنا المتقدمه- لها «جنبه» فطريّه، و القرآن هنا لا يستند إلى معتقداتهم، بل إلى فطرتهم.

إضافه إلى ذلك فقد يتفق أن متكلما ذلقا حين يواجه شخصا آخر ينكر موضوعا ما، فيستدرجه بما لديه من حقائق يتقبلها ذلك الآخر و يستند إليها بشكل قطعي ليظهر أثرها، و ينزل صاحبه من مركب الإنكار.

ثمّ بعد هذا كله فإن بين الحياه الأولى من قبل الله و قدرته على ذلك، و الحياه بعد الموت رابطه لا تقبل الانفصام، و مع ملاحظه هذه الرابطه المنطقيه فإن «كلا الأمرين» جاءا في عبارته واحده.

و على كل حال فإن القرآن يقول: عند ما يكون الخلق و الرزق و الموت و الحياه بيد الله، فالعباده ينبغي أن تكون له فقط، و يكشف هذه الحقيقه بقوله:

سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ

و هي أنّ المشركين أهانوا كثيرا مقام رب العزه إذ أشركوه في العباده مع أوثانهم.

اشاره

ظَهَرَ الْفُسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (٤٢) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ
يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ (٤٣) مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ
فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٤٥)

التفسير

اشاره

أساس الفساد و مصدره أعمال الناس أنفسهم:

كان الكلام في الآيات السابقة عن الشرك، و نعلم أن أساس جميع المفساد هو الغفلة عن أصل التوحيد و التوجه نحو
الشرك، لذلك فإن القرآن في هذه الآيات محل البحث - يتحدث عن ظهور الفساد في الأرض بسبب أعمال الناس
أنفسهم، فيقول: ظَهَرَ الْفُسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ .

و الله يريد أن يريهم ما قدموه و لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ

و الآيه الآنفه الذكر تبين المعنى الواسع حول ارتباط الفساد بالذنب، الذى لا يختص بأرض «مكه» و الحجاز، و لا بعصر النبى صلى الله عليه و آله، بل هو من قبيل القضية الحقيقيه التى تبين علاقه بين الموضوع و المحمول! و بعبارة أخرى: حيثما ظهر الفساد فهو انعكاس لأعمال الناس و فيه-ضمننا- هدف تربوى، ليدوق الناس «طعم العلقم» نتيجة أعمالهم، لعلمهم ينتهون و يثوبون إلى رشدهم! و يقول بعضهم: إن هذه الآيه ناظره إلى القحط و «الجذب» الذى أصاب المشركين بسبب دعاء النبى صلى الله عليه و آله على مشركى مكه!... فانقطعت المزن و يبست الصحارى، و صار من الصعب عليهم الصيد من البحر الأحمر أيضا.

و على فرض أن يكون هذا الكلام صحيحا تاريخيا، إلا أنه بيان لأحد المصاديق و لا يحدد معنى الآيه فى مسأله ارتباط الفساد بالذنب، فهى ليست محدده بذلك الزمان و المكان، و لا بالجذب و انقطاع «الغيث».

و ممّا ذكرناه آنفا يتضح جيدا أنّ كثيرا من التفسيرات المحدوده و الضيقه التى نقلها بعض المفسرين فى ذيل الآيه غير مقبوله بأى وجه.

كما فتّروا الفساد فى الأرض بأنه قتل «هايل» على يد «قاييل»، أو أن المراد بالفساد فى البحر هو غضب السفن فى عصر موسى، و الخضر عليهم السلام.

أو أنّ المراد من الفساد فى البر و البحر هو ظهور الحكام المتسلطين الفاسدين الذين يشيعون الفساد فى جميع هذه المناطق!.

و بالطبع فإنّ الممكن أن تكون مصاديق الآيه مثل هؤلاء الأفراد الذين يتسلطون على الناس نتيجة الدنيا و المجامله و جرّ الناس للذل، و لكن من المسلّم به أن هذا المصداق لا يعنى تخصيص مفهوم الآيه!.

كما أنّ جماعه من المفسرين بحثوا فى معنى الفساد فى البحر أيضا، فقال

بعضهم: المراد بالبحر هو المدن التي إلى جانب البحر، وقال بعضهم: إن المراد بالبحر هو «المناطق المخصصة ذات البساتين و الأثمار».

و لا نجد دليلاً على هذه التمهلات، لأن البحر معناه معروف، و الفساد فيه لعله قلّه المواهب البحريه، أو عدم الأمن فيه، أو الحروب البحريه.

و نقرأ

حديثاً عن الإمام الصادق عليه السلام في هذا الصدد «حياه دواب البحر بالمطر، فإذا كَفَّ المطر ظهر الفساد في البحر و البرّ، و ذلك إذا كثرت الذنوب و المعاصي» (١).

و بالطبع فإن ما ورد في هذه الروايه هو مصداق واضح للفساد و ما ورد في شأن نزول المطر «و حياه دواب البحر به» فهو موضوع دقيق، تؤكّد عليه تجربته، فكلما قلّ ماء السماء «المطر» قل السمك في البحر، حتى أننا سمعنا ممن يقطنون ساحل البحر يقولون: إن فائده الغيث للبحر أكثر من فائدته للصحراء!

و في الآيه التاليه يأمر الله الناس بالسير في الأرض ليروا شواهد كثيره «حيه» من مسأله ظهور الفساد في الأرض بسبب المعاصي و الذنوب من قبل الناس. و يوصي نبيّه صلّى الله عليه و آله أن يأمرهم بذلك، فيقول: قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ .

انظروا قصور «الظالمين» المتهدمه، و أبراجها المتداعيه و الخزائن المطموسه، و جماعاتهم المتفرقه، ثم انظروا إلى قبورهم المدروسه و عظامهم النخره! و انظروا عاقبه أمر الظلم و الشرك و ما آلى إليه.

أَجَلٌ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ .

و الشرك أساس الفساد و الانحراف و الضلال! ممّا يستلفت الانتباه، أنه حين كان الكلام في الآيات السابقه عن نعم الله،

ص: ٥٤٧

كانت بدايته حول خلق الإنسان ثم رزقه من قبل الله الله الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ إِلَّا- أن الكلام في الآيات محل البحث التي تتحدث عن العقاب يبدأ الكلام فيها أولاً بالإشارة إلى زوال النعم على أثر المعاصي والذنوب، ثم الهلاك على أثر الشرك، لأنه عند الهبة والعطاء «أول الأمر يذكر الخلق ثم الرزق».. وعند الاسترجاع، «فأول الأمر زوال النعمة ثم الهلاك».

والتعبير بـ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ مع الالتفات إلى أن هذه السورة مكيه و كان المسلمون في ذلك الوقت قلة، فلعل ذلك إشاره إلى أن لا تخافوا من كثرة المشركين، لأن الله أهلك من قبلهم من هو أشد منهم، و أكثر جمعاً، و هو في الوقت ذاته إنذار للطغاه ليسيروا في الأرض فينظروا بأعينهم عاقبه الظالمين من قبلهم!.

و حيث أن التصور والوعى والانتباه، ثم العوده والإنابه إلى الله، كل ذلك لا يكون -دائماً- مفيداً و مؤثراً، ففي الآية التاليه يوجه القرآن الخطاب للنبي الأكرم صلى الله عليه و آله قائلاً: فَأَقِّمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ (١) أى يتفرقون «فريق في الجنة و فريق في السعير».

و وصف الدين بأنه «قيم» مع ملاحظه أن «القيم معناه الثابت و القائم» هو إشاره إلى أن هذا التوجه المستمر «أو الإقامة» هي للدين.. أى لأن الإسلام دين ثابت و مستقيم و ذو نظام قائم في الحياه الماديه و المعنويه للناس، فلا تمل عنه أبداً، بل أقم وجهك للدين القيم! و إنما وجه الخطاب للنبي صلى الله عليه و آله ليعرف الآخرون واجبههم و وظيفتهم أيضاً.

ص: ٥٤٨

١ - ١) - كلمه «مردّ» فى جمله «لا- مرد له من الله» مصدر ميمى و هو هنا بمعنى اسم الفاعل فىكون معنى جمله: لا رادّ له من الله. و الضمير فى «له» يعود إلى «يوم» و يكون المفهوم العام للجمله. لا- يستطيع أى كان أن يعيد ذلك اليوم من الله، أى يقف بوجه القضاء و المحاكمه بتأخير ذلك اليوم و «تعطيله». و الخلاصه: إنه لا يخلف الله وعده ليعيد ذلك اليوم، و ليس لأحد سواه القدره على ذلك؛ ففوق ذلك اليوم لا بد منه و هو يوم محتوم» (فلاحظوا بدقه).

والتعبير بـ«يصدعون» من ماده «صدع» معناه فى الأصل: كسر الإناء، ثم انتقل بالتدرىج إلى أى نوع من أنواع التفرق و التشتت. و هنا إشارة إلى انفصال صفوف أهل الجنان عن صفوف أهل النيران، و كل من هذه الصفوف يتفرق إلى عدة صفوف، و ذلك لسلسله المراتب فى الجنان، و دركات النيران «و العياذ بالله».

و الآيه التاليه-بيان لهذا الانفصال فى يوم القيامة، إذ تقول: مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ .

كلمه «يمهدون» مشتقه من «المهد» على زنه «عهد» و كما يقول الراغب فى مفرداته فإنّ معناه السرير المعدّ للطفل، ثم توسعوا فى المعنى فصار المهد و المهاد لكل مكان مهياً و معداً «و فيه منتهى الدعه و الراحة» و قد انتخب هذا التعبير لأهل الجنه و المؤمنين الصالحين، من هذه الجبهه.

و الخلاصه: لا- تحسبوا أن إيمانكم و كفركم و أعمالكم الصالحه و الطالحه لها أثر على الله، بل أنتم الذين تفرحون بها أو تساءون يوم ترونها .

و من الطريف أنّ القرآن اكتفى فى شأن الكفار بالتعبير بـ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ و لكن بالنسبه للمؤمنين تضيف الآيه التاليه: أن المؤمنين لا يرون أعمالهم فحسب، بل يوليهم الله من مواهبه و فضله فيقول: لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ .

و من المسلم به أن هذا الفضل لا يشمل الكفار إذ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ...

و لا شك أنّ الله يعاملهم وفق عدالته، و يجزيهم ما يستحقون، لا أكثر، لكن لا ينالهم منه فضل و موهبه أيضا.

١-العلاقة بين الذنب و الفساد

مما لا شك فيه أن كل ذنب يترك أثره في المجتمع، كما يترك أثره في الأفراد عن طريق المجتمع أيضا...و يسبب نوعا من الفساد في التنظيم الاجتماعي، فالذنب و العمل القبيح، و تجاوز القانون، مثلها كمثل الغذاء السيء و المسموم، إذ يترك أثره غير المطلوب و السيء في البدن شئنا أم أبينا، و يقع الإنسان فريسه للآثار الوضعية لذلك الغذاء المسموم.

«الكذب» يسلب الاعتماد.

و«خيانته الأمانه» تحطّم الروابط الاجتماعيه.

و«الظلم» يسبب إيذاء الآخرين و ظلمهم.

و الإفراط في الحريه يجزّ إلى الديكتاتوريه، و الديكتاتوريه تجر إلى الانفجار.

و«ترك حقوق المحرومين» يورث العداوه و الحقد و البغضاء، و«تراكم الأحقاد و العداوات» يزلزل أساس المجتمع!

و الخلاصه، أن كلّ عمل غير صحيح له أثره السيء سواء كان ذلك في دائره محدوده أم واسع، و أحد تفاسير الآيه ظَهَرَ الْفُسَادُ فِي الْبُرِّ وَ الْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ هو هذا(و هذا يبين العلاقة الطبيعيه بين الذنب و الفساد-«هنا»).

إلا- أنه يستفاد من الروايات الإسلاميه أن كثيرا من الذنوب-إضافه لما ذكرنا-تجلب معها سلسله من الآثار السيئه، و علاقتها و ارتباطها مع تلك الآثار-من الناحيه الطبيعيه على الأقل-غير معروفه.

فمثلا- ورد في الروايات الإسلاميه أن قطع الرحم يقصر العمر، و أن أكل المال الحرام يورث ظلمه القلب، و أن كثره الزنا يورث فناء الناس و يقلل الرزق (١).

ص: ٥٥٠

١- ١) - في حديث عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله أَنَّهُ قَالَ: «لِلزَّانَةِ عَقُوبَاتٌ ثَلَاثٌ مِنْهَا فِي الدُّنْيَا وَ ثَلَاثٌ فِي الْآخِرَةِ، فَأَمَّا الْعُقُوبَاتُ فِي

حديثاً عن الإمام الصادق عليه السلام يقول فيه: «من يموت بالذنوب أكثر ممن يموت بالآجال» (١) و

قد ورد في القرآن نظير هذا المعنى في تعبير آخر، حيث يقول القرآن: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» (٢).

إذن فالفساد-في الآيه محل البحث-هو الفساد الأعم الذي يشمل المفسد الاجتماعي، والبلايا، و سلب النعم و البركات.

و ممّا يستلفت الانتباه أن الآيه المتقدمه يستفاد منها ضمناً أن واحداً من حكم الآفات و البلايا تأثيرها التربوي على الناس، إذ عليهم أن يروا رد الفعل الناتج من أعمالهم.. ليفيقوا من نومهم و غفلتهم، و يعودوا إلى الطهاره و التقوى! و لا- نقول: إن جميع الشرور و الآفات هي من هذا القبيل، و لكننا نقول: إن قسماً منها-على الأقل-فيه هذه الحكمة و الغايه و بالطبع فإن له حكمه أخرى بحثناها في محلها.

٢- فلسفه السير في الأرض

لقد وردت مسأله «السير في الأرض» ست مرات في القرآن المجيد، (في سوره آل عمران و الأنعام و النحل و النمل و العنكبوت و الروم) حيث وردت مرّه بقصد التفكير في أسرار الخلق (سوره العنكبوت الآيه ٢٠) و خمس مرات بقصد العبره من العواقب الوخيمه التي نالها الظالمون و الجابره و الطغاه الآثمون!

(١)

- الدنيا فإنه يسلب النور من الإنسان، و يبتله بموت الفجأه، و يقطع الرزق. و أمّا التي في الآخره فهو على سوء الحساب و غضب الله و الخلود في نار جهنم» (سفينه البحار-ماده زنى).

ص: ٥٥١

(١-١) -سفينه البحار(ماده ذنب).

(٢-٢) -الأعراف، الآيه ٩٦.

و القرآن يهتمّ بالمسائل العينية و الحسيه-التي يمكن لمس آثارها في الأمور التربويه-اهتماما خاصا،و لا سيما أنّه يأمر المسلمين أن ينطلقوا من محيطهم المحدود إلى المدى الأرحب،و يسيروا و يسيحوا في هذا العالم، و ليفكروا في أعمال الآخريين و سجاياهم و عواقب أمورهم،و أن يستوحوا من هذه«الحياه»العابره«و يدخروا ذخيره قيمه»من العبره و الاطلاع! إنّ القوى الشيطانيه في العصر الحاضر-من أجل سعه استثمارها في العالم كافه-مشطت و فحصت جميع الدول و البلدان و الأمم و طريقه حياتهم و ثقافتهم و نقاط القوّه و الضعف فيهم بصوره جيده.

إنّ القرآن يقول:بدلا من هؤلاء المستكبرين سيروا أنتم في أرجاء الأرض و بدلا من خططهم و مؤامراتهم الشيطانيه تعلموا دروسا رحمانيه.

العبره و الإعتبار من حياه الآخريين أهم من التجارب الشخصيه و أكثر قيمه، لأنّ الإنسان ينبغي أن يتحمل خلال تجاربه أضرارا ليتعلم مسائل جديده إلا أن الإنسان عند استلهام العبره من الآخريين يربح معارف جمه و ثمينه دون أن يتحمل ضررا.

و أمر القرآن بالسير في الأرض ينطبق على أكمل الأساليب و الطرق التي حصل عليها البشر في العصر الحاضر،و ذلك بأن يأخذوا بأيدي التلاميذ-بعد استيعاب المسائل في الكتب-و يسيروا في الأرض،و يطالعوا الشواهد العينية التي قرءوها في الكتب! و بالطبع فهناك اليوم نوع آخر من السير في الأرض بعنوان«السياحه»في العالم،و ذلك من قبل«الحضاره الشيطانيه»لجلب الأموال و الثروه«الحرام»التي راجت سوقها،و غالبا ما تكون فيها أهداف منحرفه و تضليليه،كنقل الثقافه السقيمه و إشاعه الهوى و السفاهه و الحماقه و اللهو هذه هي«السياحه المخربه»!

و لكن الإسلام يؤيد السياحة التى تكون وسيله لنقل الثقافات الصحيحه و التجارب المتراكمه، و استكناه أسرار الخلق فى عالم البشر و عالم الطبيعه، و استلهام دروس العبره من عواقب المفسدين و الظالمين الوخيمه.

و لا بأس بالإشاره إلى أنّ هناك سياحه منعها الإسلام و نقرأ

حديثا يقول:

«لا سياحه فى الإسلام» (١).

و المراد من هذا الحديث هو فى جميع سنوات حياتهم-أو بعضها-منفصلين عن الحياه الاجتماعيه تماما، و دون أن يكون لهم نشاط ملحوظ، فهم يسيحون فى الأرض و يعيشون كالرهبان! فيكونون عالاه على الآخرين.

و بتعبير آخر: إنّ عمل هؤلاء بمثابة «الرهبانيه السياره» مقابل الرهبان الثابتين المنزوين فى الدير و المنعزلين عن المجتمع، و حيث أن الإسلام يخالف هذا الاتجاه و الانزواء الاجتماعى، فهو يعد هذه «السياحه» غير مشروعه أيضا.

٣- الدين القيم

كان الخطاب فى الآيات المتقدمه للنبي صلى الله عليه و آله أن يجعل تمام توجهه نحو الدين المستقيم و الثابت، الذى ليس فيه اعوجاج و لا انحراف و لا تزلزل فى قواعده أبدا.

و من الطريف أن تعبيرات أخرى فى آيات القرآن المتعدده جاءت بصدد هذا الدين، ففى الآيه (١٠٥) من سوره يونس جاء التعبير عنه بالحنيف فأقيم وجهك للدين حنيفاً .

و فى الآيه (٣) من سوره الزمر وصف بالخالص ألا لله الدين الخالص .

ص: ٥٥٣

١- (١) -مجمع البحرين ماده «سيح»، و فى حديث آخر عن النبي العظيم صلى الله عليه و آله فى هذا الكتاب نفسه نقرأ قوله صلى الله عليه و آله و سلم «سياحه أمتى الغزو و الجهاد».

و فى الآيه (٥٢) من سورة النحل، وصف بأنه واصب، أى لا يتغير وَ لَهُ الدِّينُ وَأَصِباً .

و فى الآيه (٧٨) من سورة الحج وصف بأنه خال من الحرج و الشده وَ مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ! و نظائر هذه الآيات كثيره فى القرآن! و كل واحد من هذه الأمور يمثل بعدا من أبعاد الدين الإسلامى، و هو فى الوقت ذاته من باب اللازم و الملزوم.

أجل ينبغى أن ينتخب مثل هذا الدين، و أن يسعى فى معرفته، و أن يحفظ حتى آخر رمق!

٤- لا عوده فى يوم القيامة!

قرأنا فى الآيات المتقدمه عن يوم القيامة قوله تعالى: يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ وَ لَا- طريق للعوده إلى الدنيا! و يلاحظ فى آيات القرآن الأخر ما يشبه هذا التعبير، و من ذلك الآيه (٤٤) من سورة الشورى- حين يرى الظالمون العذاب يقولون: هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ .

كما وصف يوم القيامة فى الآيه (٤٧) من سورة الشورى- أيضا- بقوله تعالى: يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ .

و الحقيقه أن عالم الوجود له مراحل لا- عوده فيها إلى مرحله سابقه، و هذه سنه الله التى لا تتبدل و لا تتحول! ترى، هل يرجع الطفل- سواء ولد كاملا أو ناقصا- جنينا مره أخرى إلى رحم أمه؟!

و هل ترجع الثمره المقطوفه من الشجره-ناضجه كانت أم لا-إلى أغصانها؟! فانتقال الإنسان من هذا العالم إلى العالم الآخر على هذه الشاكلة،أى لا طريق للعودة أبدا...و هذه حقيقه تخيف الإنسان و تهزّه و تنذرّه ليكون يقظا!.

ص: ٥٥٥

اشاره

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَ لِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ لَتَجْرِيَ أَلْفُكُ بِأَمْرِهِ وَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَ كَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُبْرِئُ سَيِّحَابًا فَيَنْسِفُ بِهِ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَ يَجْعَلُهُ كَسِيفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبِشِرُونَ (٤٨) وَ إِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْسِلِينَ (٤٩) فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيٍ الْمَوْتَى وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠)

التفسير

اشاره

انظر إلى آثار رحمة الله:

قلنا: إن في هذه السورة قسما مهما «يستلقت النظر» من دلائل التوحيد

و آيات الله، مبينا في سبع آيات تبدأ كل منها بقوله: **وَمِنْ آيَاتِهِ** قرأنا ست آيات منها بصورة متتابعه، والآيه الأولى من الآيات أعلاه هي سابع الآيات التي مرت.

و آخرها.

و حيث كان الكلام في الآيات السابقة عن الإيمان و العمل الصالح، فبيان دلائل التوحيد-أيضا-تأكيدا على ذلك! تقول هذه الآيه: **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُزِيلَ الرِّيحَ مَبْشُرَاتٍ** فهي تمضى سابقه للغيث في حركتها، فتجمع القطع المتفرقة من الغيوم و تربط بينها و تؤلفها و تحملها إلى الأرض اليابسه العطشى، و تغطى صفحه السماء، و مع تغير درجه حراره الجو تهىء المطر للنزول من هذه الغيوم.

و لعل أهميه قدوم الرياح المبشرات-لأهل المدن المتنعمه-ليست جليته واضحه.. إلا أن أهل الصحارى اليابسه الظمأى إلى المطر، ما إن تتحرك الرياح مصحوبه بالسحاب التي هطلت في نقطه أخرى-و النسيم يحمل رائحه الطلّ و الرطوبه منها، حتى يلمع و ميض الأمل في قلوبهم.

و بالرغم من أنّ آيات القرآن تستند إلى البشاره في نزول الغيث أكثر من غيرها، إلا أنّه لا يمكن تحديد كلمه «مبشرات» في هذا المضمون فحسب، لأنّ الرياح تصحب بشائر آخر أيضا.

فالرياح تبدل حراره الجو و برودته الشديده إلى «الاعتدال».

و الرياح تستهلك العفونه في الفضاء الكبير و تصفى الهواء.

و الرياح تخفف من وطء حراره الشمس على الأوراق و النباتات، و تمنع من احتراقها بحراره الشمس.

كما أنّ الرياح تنقل غاز الأوكسجين المتولد من النباتات و أوراق الشجر- إلى الإنسان، و تهب غاز ثانى أوكسيد الكاربون الخارج مع زفير الإنسان و تنفسه إلى النباتات أيضا.

ص: ٥٥٧

و هي كذلك تؤدي وظيفه أخرى، فقد أرسلها الله لواقح تنقل معها لقاح الأزهار الذكور للإناث.

و الرياح تحرك الطواحين الهوائيه و تصفى البيادر.

و الرياح تنقل البذور من المناطق التي قد تجمعت فيها و تنثرها و تبسطها على الصحراء، كأنها فلاح مشفق، فتغدو خضراء ممرعه بعد أن كانت يابا.

و الرياح تنقل السفن مع مسافريها و أثقالهم إلى نقاط مختلفه.

و حتى في هذا العصر الذي حلت الوسائل الحديثه «الماكنات» مكان الرياح، فما تزال الرياح ذات أثر بالنسبه للسفن في اتجاهاتها المخالفه لها أو الموافقه لها...سرعه و بطأ! أجل، أن الرياح مبشرات من جهات شتى.

و لذلك فنحن نقرأ في تعقيب الآيه قوله تعالى: **وَ لِيُذِيقَكُمْ مِّن رَّحْمَتِهِ وَ لِيَجْزِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَ لِيَتَّبِعُوا مَن فَضَّلَهُ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .**

أجل، إن الرياح هي وسيله لتكاثر النعم العديده في مجال الزراعه و التدجين، و هي وسيله للحمل و النقل أيضا، و أخيرا فهي سبب للازدهار التجارى.

و قد أشير إلى الموضوع الأول بجمله **وَ لِيُذِيقَكُمْ مِّن رَّحْمَتِهِ** و إلى الثانى بجمله **وَ لِيَجْزِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ** و للثالث بجمله **وَ لِيَتَّبِعُوا مَن فَضَّلَهُ** ! و الطريف هنا أن جميع هذه البركات منشؤها الحركه، الحركه في ذرات الهواء في الفضاء الجوى لكن لا يعرف قدر أيه نعمه حتى تسلب عن الإنسان! فيعرفها حينذاك. فما لم تتوقف هذه الرياح و النسائم، فلا يعرف الإنسان ما ذا يحلّ به من بلاء؟! فتوقف الهواء يجعل الحياه في أفضل الحقول كالحياه في أشد المطامير و السجون ظلمه! و على العكس فلو أن نسيما عليلا هب في خلايا السجون

الانفراديه لجعلها كالفضاء الرحب «المفتوح»، وعاده فإنّ واحدا من أساليب التعذيب فى السجن هو سدّ منافذ الهواء!.

حتى أنّ الهواء لو توقف فى المحيطات وهدأت الأمواج، لأصبحت حياه الحيوانات البحريه مهدده بالخطر على أثر قلّه الأوكسجين، ويتحول البحر حينذاك إلى مستنقع متعفن موحش! يقول «الفخر الرازى» إن جملة وَ لِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ مع ملاحظه أن الإذاقه تستعمل فى الشىء القليل، فهى إشاره أن جميع الدنيا و نعمها لا تتجاوز الرحمه القليله، أمّا الرحمه الواسعه (من قبل الله) فهى خاصه بالحياه الأخرى!.

و فى الآيه التاليه يقع الكلام عن إرسال الأنبياء إلى قومهم، فى حين أن الآيه التى بعدها تتحدث عن هبوب الرياح مرّه أخرى، و لعل وجود هذه الآيه بين آيتين تتحدثان عن نعمه هبوب الرياح له جانب اعتراضى، كما يذهب إلى ذلك بعض المفسرين.

و لعل ذكر النبوه إلى جانب هذه المسائل، إنّما هو لإكمال البحث المتعلق بالمبدأ و المعاد، إذ ورد البحث عنهما مرارا فى هذه السوره كما قاله بعض المفسرين.

و يمكن أن يكون وجود هذه الآيه إنذارا لأولئك الذين يتمتعون بجميع هذه النعم الكثيره و يكفرون بها.

و على كل حال، فإنّ الآيه تقول: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ أَى المعجزات و الدلائل الواضحه و البراهين العقلية، فاستجاب جماعه منهم لهذه الدلائل، و لم يستجب آخرون لها برغم النصائح فانتقمنا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا و نصرنا المؤمنين وَ كَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ .

و التعبير ب«كان» التى تدل على أن هذه السنه لها جدر عميق، و التعبير ب«حقًا» و بعده التعبير ب«علينا» هو بنفسه مبين للحق و مشعر به، جميع هذه

الألفاظ تأكيدات متتابعة في هذا المجال و تقديم «حقا علينا» على «نصر المؤمنين» الذى يدل على الحصر، هو تأكيد آخر. و بالمجموع تعطى الآية هذا المعنى «إن نصر المؤمنين من المسلم به هو فى عهدتنا و هذا الوعد سنجعله عمليا دون الحاجة إلى نصر من الآخرين».

و هذه الجملة-ضمنا-فيها تسليه و طمأنه لقلوب المسلمين، الذين كانوا حينئذ فى مكّة تحت ضغوط الأعداء و اضطهادهم و كان الأعداء أكثر عددا و عددا.

و أساسا فإنّ أعداء الله طالما كانوا غرقى فى الآثام و الذنوب، فإنّ ذلك بنفسه أحد عوامل انتصار المؤمنين، لأنّ الذنب سيدمرهم آخر الأمر و يهوى و وسائل هلاكهم بأيديهم، و يرسل عليهم نقمه الله.

أما الآية الأخرى فتعود ثانيه لذكر نعمه هبوب الرياح فتقول: **اللَّهُ الَّذِي يُزِيلُ الرِّيحَ فَتُبْرِئُ سَحَابًا فَيَنْسِطُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَ يَجْعَلُهُ كِسْفًا (١) أَى القَطْع الصَّغِيرَه المَتْرَاكِمَه تَمَّ تَخْرُج قَطْرَات المَطْر مِنْهَا عَلَى شَكْل حَبَات صَغِيرَه فَتَرَى الوُدُقَ (٢) يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ .**

أجل، إن واحدا من الآثار المهمه عند نزول الغيث، يقع على عاتق الرياح، إذ تحمل قطعات السحاب من البحر إلى الأرض العطشى و اليابسه، و الرياح هى المأموره ببسط السحاب و الغيوم فى السماء جعلها متراكمه بعضها فوق بعض، و بعد أن تلتطف الجو و تصيره رطبا تهوى الغيث للنزول.

إن مثل الرياح كمثل راعى الغنم المحنك، الذى يجمع قطع الغنم عند الاقتضاء من أطراف الصحراء، و يسير بها فى مسير معين ليقوم بالتالى على حلب

ص : ٥٦٠

١ - ١) - «الكسف» جمع «كسفه» على وزن «حجله» و معناها القطعه، و هى هنا- كما يبدو- إشاره إلى القطعات من الغيوم المتراكمه بعضها فوق بعض فتجعلها غليظه و شديده، و ذلك حين تكون الغيوم مهياه لنزول المطر.

٢ - ٢) - «الودق» على وزن (الحلق) و تطلق على ذرات الماء الصغيره كمثل الغبار أحيانا، إذ تتناثر عند نزول الغيث فى السماء، كما تطلق على قطرات «المطر» المتفرقه أحيانا...

لبنها!.

و جملة فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ لعلها إشاره إلى أن غلظه الغيوم و شده هبوب الرياح، ليستا في تلك الدرجة التي تمنع خروج قطرات الغيث الصغيره من الغيم و نزولها على الأرض، بل إن هذه الذرات الصغيره-على الرغم من الغيوم المغطاه بها صفحه السماء-تجد طريقها من خلال الغيوم إلى الأرض، و تتناثر ناعمه على الأراضي العطشى حتى ترويها بصورة جيده و في الوقت ذاته لا تدمر الثمر.

إن الرياح الشديده و الأعاصير التي تقلع الشجره من أصلها أحيانا-على عظمتها و تحرك الصخور، تأذن للقطره الناعمه أن تمر من خلالها و تستقر على الأرض! و ينبغي الالتفات الى أن كون السحاب قطعات متراكمه «كسفا»-و إن لم يكن لنا جليا بهذه الصوره-في اليوم الغائم، حيث تغطي هذه القطع صفحه السماء، فلا نحس بأنها على شكل قطع، بل نراه سحابا مبسوطا..لكن حين تقلنا الطائر و تحلق بنا فوق السحاب أو من خلاله، نلمس هذه الظاهره بوضوح! و يضيف القرآن في نهايه الآيه قائلا: فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ .

ثم تأتي الآيه الأخرى بعدها فتقول: وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْسِينَ (١).

و إنما يدرك هذا اليأس أو تلك البشاره أمثال العرب الذين يعيشون في رحلاتهم و تنقلهم في الصحراء، و لحياتهم علاقه و صله قريبه مع هذه القطرات، فأولئك يتفق أحيانا أن يلقي اليأس ظلاله السوداء على أنفسهم الظمأى، كما أن أراضيهم و مزارعهم تبدو عليها آثار العطش، و فجأه تهب الرياح المبشره بنزول

ص: ٥٦١

١- (١) -«مبلس» مأخوذه من ماده الإبلاس، و معناها اليأس و عدم الرجاء.

المطر، الرياح التي يشم من خلالها رائحة «الغيث»! وتمرّ لحظات، فتتسع الغيوم في السماء ثم تغلظ و تكون أكثر كثافه، ثم ينزل «القطر» و الغيث، و تمتلئ الحفر بالماء الزلازل، و تفيض الروافد و السواقي الصغيره و الكبيره من هذه المائده السماويه، و تعود الحياه النضره إلى الأرض اليابسه، كما تتبر عم الآمال في قلوب الرّحل في الصحراء و يشرق الأمل في قلوبهم، و تنجلي عنها غيوم الظلمه و اليأس و القنوط! و يبدو أن تكرار كلمه «من قبل» في الآيه للتأكيد، إذ تبين الآيه أن الوجوه كانت عابسه متجهمه من قبل المطر بلحظات، أجل... لحظات قبل المطر، و هم قلقون و لكن حين ينزل عليهم الغيث... تشرق فجأه الوجوه و تبسم الشفاه، فكم هو موجود ضعيف هذا الإنسان! و كم هو رحيم هذا الربّ.

و مثل هذا التعبير وارد في كلماتنا العرفيه حيث نقول مثلا: إن فلانا كان بالأمس، نعم بالأمس صديقا لنا، و اليوم هو من أعدائنا... و الهدف من هذا التكرار هو التأكيد على تغيير حالات الإنسان.

و في آخر آيه- من الآيات محل البحث- يتوجه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه و آله قائلا:

فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا

و الاهتمام أو الاعتماد على كلمه «انظر» هو إشاره إلى أن آثار رحمه الله في إحياء الأرض بالمطر، هي من الوضوح بمكان بحيث تكفي نظره واحده لمشاهده هذه الآثار، دون حاجه للبحث و التدقيق.

و التعبير ب رَحْمَةِ اللَّهِ في شأن المطر هو إشاره الآثار المباركه فيه من جهات مختلفه!.

فالمطر يسقي الأرض و يرعى بذور النباتات... و يهب الأشجار الحياه الجديده! و هو ينقى الجو و المحيط من الغبار المتراكم أو المتناثر في الفضاء.

و هو يغسل النباتات و يمنحها النضرة و الطراوه!

و هو يمضى إلى أعماق التربه و الأرض، و بعد فتره يعود على شكل عيون و قنوات إلى سطح الأرض.

و المطر يدفع الأنهار و السيول و بعد تجمعها خلف السدود يتولد منها «الكهرباء» أو الطاقه و النور و الحرکه!

و أخيرا فإنّ قطر السماء يحسّن الجوّ إذ يخفف من شدّه الحر، و يهدئ من شدّه البروده.

و التعبير ب«الرحمه» عن المطر المذكور فى عدّه آيات من القرآن كما فى الآيه (٤٨) من سوره الفرقان، و الآيه (٦٣) من سوره النمل، و نقرأ كذلك فى سوره الشورى الآيه (٢٨) قوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَ يَنْشُرُ رَحْمَتَهُ .

و مع الالتفات إلى العلاقه بين المبدأ و المعاد فى المسائل المختلفه فإن «القرآن» يضيف قائلاً فى نهايه الآيه: إِنَّ ذَلِكَ لَمُحِي الْمَوْتِ وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

و التعبير ب«محيى» بصيغه اسم الفاعل مكان الفعل المضارع، و خاصّه مع كونه مسبقاً بلام التوكيد، دليل على منتهى التأكيد.

و لقد رأينا مرارا فى آيات القرآن الكريم، أن هذا الكتاب السماوى-من أجل إثبات مسأله المعاد-ينتخب نزول الغيث و إحياء الأرض بعد موتها شاهداً على ذلك!.

ففى سوره (ق) الآيه (١١) يعقب القرآن بعد التعبير بحياء الأرض بعد موتها قائلاً: كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ! و يشبه هذا التعبير فى الآيه (٩) من سوره فاطر إذ يقول القرآن: كَذَلِكَ النُّشُورُ .

ص: ٥٦٣

و الواقع أن قانون الحياه و الموت فى كل مكان متشابه..فالىذى يحى الأرض الميته بقطرات السماء،و يهبها الحركه و البهجه،و يتكرر هذا العمل على طول السنه،و أحيانا فى كل يوم،فإن له هذه القدره على إحياء الناس بعد الموت، فالموت بيده فى كل مكان، كما أن الحياه بأمره أيضا.

صحيح أن الأرض الميته لا تحىي ظاهرا،بل تنمو البذور التى فى قلب الأرض،و لكننا نعلم أن هذه البذور الصغيره تجذب مقدارا عظيما من أجزاء الأرض إلى نفسها،و تحوّل الموجودات الميته إلى موجودات حيه!و حتى بقايا هذه النباتات المتلاشيه-أيضا- تمنح القدره و القوه للأرض لكى تحىي من جديد.

و فى الحقيقه لم يكن لمنكرى المعاد أى دليل على مدعاهم سوى الاستبعاد، و القرآن المجيد إنمّا يستشهد بهذه الأمثال لإحباط هذا الاستبعاد منهم أيضا.

ص: ٥٦٤

اشاره

وَ لَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصِيفًا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (٥١) فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمِّيِّ عَنِ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٥٣) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَ شَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَ هُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤)

التفسير

اشاره

الموتى و الصم لا يسمعون كلامك:

حيث أنّ الكلام كان فى الآيات السابقه-عن الرياح المباركه التى كانت مبشرات بالغيث و الرحمه،ففى أول آيه من الآيات أعلاه إشاره إلى الرياح المدمره و التى تجلب الضرر،إذ يقول القرآن فى هذا الصدد: وَ لَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصِيفًا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ .

أولئك هم الضعفاء الحمقى فهم قبل نزول الغيث ملبسون آيسون،و بعد نزوله مستبشرون،و إذا هبت ريح صفراء فى بعض الأيام و ابتلوا مؤقتا تراهم يتصارخون و بالكفر يجأرون و يتجرءون!

على العكس من المؤمنين الصادقين الذين هم بنعمه الله مستبشرون و عليها يشكرون، و عند نزول المصائب و المشاكل تراهم صابرون، و لا- يؤثر التغيير المعاشى و الحياتى المادى فى إيمانهم أبدا، و ليسوا كعمى القلوب ضعيفى الإيمان، الذين يظهرون إيمانهم بمجرد هبوب الريح، و يكفرون مّره أخرى إذا هبت الريح بشكل آخر! و كلمه «مصفرا» مشتقّه من «الصفرة» على زنه «صفرة» و هى لون معروف، و يعتقد أكثر المفسّرين أن الضمير فى «رأوه» يعود على الشجر و النباتات التى تصفر و ذبل على أثر هبوب الريح المخربه.

و احتمال بعضهم أنّ الضمير يعود على السحاب، و السحاب المصفّر طبعا سحاب خفيف، و هو عادة لا يحمل قطرا، على العكس من الغيوم السود الكثيره، فإنّها تولد الغيث و القطر.

كما يعتقد بعضهم أنّ الضمير فى «رأوه» يعود على الريح، لأنّ الريح الطبيعىه عادة لا لون فيها (فهى عديمه اللون) إلا أن الريح التى تهب و هى مصفّره، فهى ريح سموم و هجير، و فى كثير من الأحيان تحمل معها الغبار.

و هناك احتمال رابع، و هو أنّ «المصفّر» معناه الخالى، لأنّه كما يقول الراغب فى مفرداته، يطلق على الإناء الخالى، و البطن الخاليه من الطعام، و الأورده من الدم أنّها (صفرة) على وزن (سفر)، فعلى هذا يكون هذا التعبير آنف الذكر فى شأن الريح الخاليه من القطر و الغيث.

و فى هذه الصوره يعود الضمير فى «رأوه» على الريح (فلاحظوا بدقه).

إلا أنّ التفسير الأوّل أشهر من الجميع! و ما استلفت النظر، هو أنّ الريح النافعه ذات الغيث جاءت هنا بصيغه الجمع، و لكن على العكس منها الريح التى تجلب الضرر فقد جاءت بصيغه المفرد، و هى إشاره إلى أنّ معظم الريح نافعه و مفيده، غير أن ريح السموم هى من

الحالات الاستثنائية التي تهب أحيانا فى السنه مرّه أو فى الشهر مرّه..لكن الرياح المفيده تهب دائما(ليل نهار).

أو أنّها إشاره إلى أنّ الرياح النافعه إنّما تكون كذلك و يكون لها أثرها المفيد، إذا تابعت، غير أن الريح السيئه تترك أثرها عند هبوبها فى المرّه الأولى.

و آخر ما ينبغى الإشاره إليه من اللطائف الضروريه فى ذيل هذه الآيه، هو التفاوت ما بين يَسْتَبْشِرُونَ فى شأن الرياح النافعه التي ذكرتها الآيه المتقدمه، و جملة لَطَّلُوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ الوارده فى الآيه محل البحث.

و هذا الاختلاف أو التفاوت يدل على أنّهم يرون هذه النعم العظيمه المتتابعه التي أنعمها الله عليهم فيفرحون و يستبشرون، غير أنّهم لو أصيبوا مرّه واحده أو يوما واحدا بمصيبه، فإنّهم يضجون و يكفرون حتى كأنّهم غير تاركين للكفر، حل بهم!

و هذا تماما يشابه حال أولئك الذين يعيشون عمرا بسلامه و لا يشكرون الله، لكنّهم إذا مرضوا ليله واحده بالحمى «و اشتعلوا بحرارتها» فإنّهم يظهر الكفر و هذه هى حال الجهله من ضعفاء الإيمان.

و كان لنا فى هذا الصدد فى الآيه (٣٥) من هذه السوره، و الآيتين (٩) و (١٠) من سوره هود، و الآيه (١١) من سوره الحج بحوث آخر أيضا.

و فى الآيتين التاليتين-بمناسبه البحث الوارد فى الآيه السابقه-فإنّ الناس يقسمون إلى أربعة طوائف:

١- طائفه «الموتى» الذين لا يدركون أيه حقيقه، و إن كانوا أحياء فى الظاهر! ٢- و طائفه «الصم» الذين هم غير مستعدين للاستماع إلى الكلام الحق.

٣- و طائفه «العمى» الذي حرموا من رؤيه وجه الحق! ٤- و أخيرا طائفه المؤمنين الصادقين الذين لهم قلوب يفقهون بها، و لهم

أعين يبصرون بها، و لهم آذان يسمعون بها.

فتقول الآية الأولى: فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ ۖ وَ لَذَلِكَ لَا تُوَثَّرُ مَوَاعِظُكَ فِي أَصْحَابِ الْقُلُوبِ الْمَيِّتَةِ.

وَ كَذَلِكَ وَ لَا تُسْمِعُ الضُّمَمَ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ .

وَ تَأْتِي الْآيَةُ الثَّانِيَةَ لِيَبَانَ بَقِيَّةَ الطَّوَائِفِ فَتَقُولُ: وَ مَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَنِ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ .

وَ كَمَا قَلْنَا مِنْ قَبْلُ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ لَدِيهِ مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْ «الْحَيَاةِ وَ الْمَوْتِ الْمَادِيَيْنِ وَ الْجِسْمَانِيَيْنِ» وَ أَفْضَلُ مِنَ السَّمْعِ وَ الْبَصْرِ الظَّاهِرِيَيْنِ فَلَدِيهِ نَوْعٌ اسْمَى مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ وَ الْمَوْتِ وَ السَّمْعِ وَ الْبَصْرِ، وَ تَكْمُنُ فِيهَا سَعَادَةُ الْإِنْسَانِ أَوْ شَقَاؤُهُ! فَالْقُرْآنَ لَدِيهِ مَعْيَارٌ لَتَقْيِيمِ هَذِهِ الْأُمُورِ، لَا بِالْقِيَمَةِ الْمَادِيَةِ وَ الْفِيْزِيَاءِيَّةِ، بَلْ بِالْقِيَمَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ وَ الْإِنْسَانِيَّةِ.

وَ الشَّرْطُ الْأَوَّلُ لِإِدْرَاكِ الْحَقِيقَةِ أَنْ يَكُونَ لِلْإِنْسَانِ قَلْبٌ مَهْيَأٌ وَ مُسْتَعَدٌّ، وَ عَيْنٌ بَاصِرَةٌ وَ أُذُنٌ سَمِيعَةٌ، وَ إِلَّا فَلَوْ اجْتَمَعَ جَمِيعُ الْأَنْبِيَاءِ وَ الْأَوْلِيَاءِ وَ تَلَّوْا جَمِيعَ الْآيَاتِ الْإِلَهِيَّةِ عَلَى مَنْ لَا يَدْرِكُ الْحَقِيقَةَ لَمَا اقْتَرَفَهُ مِنَ الذَّنُوبِ وَ اللَّجَاجِ وَ الْعِنَادِ، فَإِنَّهَا لَنْ تُوَثَّرَ فِيهِ!

وَ إِنَّمَا أَشَارَ الْقُرْآنَ إِلَى هَاتَيْنِ الْحَاسَتَيْنِ الظَّاهِرَتَيْنِ، بِالْإِضَافَةِ إِلَى الْإِدْرَاكِ الْبَاطِنِي فَحَسَبَ، فَلَأَجَلَ أَنْ أَكْثَرَ مَعْلُومَاتِ الْإِنْسَانِ، إِمَّا أَنْ يَكُونَ عَنْ طَرِيقِ هَاتَيْنِ الْحَاسَتَيْنِ الْعَيْنِ وَ الْأُذُنِ، أَوْ عَنْ طَرِيقِ الْوَجْدَانِ وَ التَّحْلِيلِ الْعَقْلِيِّ! وَ الطَّرِيفُ هُنَا أَنَّ الْمَرَاكِلَ الثَّلَاثَ- الْوَارِدَةَ فِي الْآيَاتِ الْآتِيَةِ الْمَذْكُورَةِ- هِيَ ثَلَاثُ مَرَاكِلَ مُخْتَلِفَةٍ مِنَ الْإِنْحِرَافِ وَ عَدَمِ دَرَكِ الْحَقِيقَةِ، وَ هِيَ تَبْدَأُ مِنْ شَدِيدِهَا وَ تَنْتَهِي بِالْخَفِيفِ مِنْهَا! فَالْمَرَحَلَةُ الْأُولَى: هِيَ مَوْتُ الْقُلُوبِ الْمَعْبُورِ عَنْهَا بـ«الْمَوْتَى» وَ هَذِهِ الْمَرَحَلَةُ لَيْسَ لِلْحَقِيقَةِ أَى طَرِيقَ لِلنَّفُوذِ فِيهَا.

و المرحلة الثانية:مرحلة«الصمم»و عدم السمع،و لا سيما عند أولئك الذين يديرون ظهورهم و هم فى حالة الفرار،فقد يؤثر فيهم الصراخ الشديد لو كانوا قريبين،لكن فى مثل هذه الحال و هم يفرون،فلا! و بالطبع فإنّ هذه الطائفة ليست كالموتى،فمن الممكن أحيانا أن يتمّ تفهيمهم بالإشارة أو العلامه،إلاّ- أنّنا نعرف أن كثيرا من الحقائق لا يمكن بيانها و إيصالها إلى الذهن بالإشارة!و خاصه حين يدير الطرف الآخر ظهره و يكون بعيدا.

المرحلة الثالثة:(العمى)،و بالطبع فإنّ الحياه مع العمى أسهل بمراتب من الحياه مع«الصم»أو الحياه مع«الموتى»،فعلى الأقلّ لديهم آذان سميعة،و يمكن إيصال كثير من المفاهيم إليهم...لكن اين السمع فى إدراك الحقائق من البصر؟! ثمّ بعد هذا كلّه،فإنّ تبين المسائل غير كاف وحده،فلنفرض أن يقال للأعمى سر باتجاه اليمين أو اليسار،فإنّ تطبيق هذا الأمر ليس سهلا،و ربّما بأقلّ خطأ- أحيانا-فى تحديد المقدار،يؤدى بالأعمى إلى السقوط! و فى بحثنا المفصل فى ذيل الآيتين (٨٠)و(٨١)من سوره النمل،بيّنا- ضمن التحليل لحقيقه الحياه و الموت-الإشكال الواهى الذى أثاره جماعه من الوهابيين،إذ يستعينون بمثل هذه الآيات-محلّ البحث و غيرها-لإثبات عدم جواز التوسل بالنّبى و الأئمّه الطاهرين،و يقولون:إنّ الموتى(حتى النّبى) لا يفهمون شيئا.

غير أنّنا أثبتنا هناك أن الإنسان-خاصّه من هو بمستوى الأئمّه الكرام و الشهداء العظام-له نوع من الحياه البرزخيه بعد الموت،و هناك وثائق كثيره و أدله متعدده من القرآن و الأحاديث تشهد بذلك و تؤيده،و فى هذه الحياه البرزخيه إدراك و بصر أوسع من الحياه الدنيويه(لمزيد الإيضاح يراجع التفسير الأمثل،ذيل الآيات المشار إليها آنفا).

و هنا ينبغي أن نضيف هذه الجملة، و هي أن جميع المسلمين في صلاتهم - دائماً - يخاطبون النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ يَسْلَمُونَ عليه بهذه الجملة «السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَ رَحِمَهُ اللهُ وَ بَرَكَاتُهُ» وَ نعرف أن المخاطبه الحقيقيه لا - المجازيه يجب أن تكون - حتماً - مع إنسان يسمع و يدرك! فعلى هذا الأساس لازم السلام على النبي بهيئته المخاطبه من بعيد أو قريب، أن روحه المقدسه تسمع جميع هذه التحيات، و لا دليل يقودنا إلى أن نحمل هذه التحيات على المجازا!.

و في آخر آيه - من الآيات محل البحث - يشير القرآن إلى دليل آخر من أدله التوحيد، و هو دليل الفقر و الغنى، و يكمل البحوث التي تدور حول التوحيد في هذه السوره، فيقول: اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَ شَيْبَةً .

كنتم في البدايه ضعافا إلى درجه أنكم لم تكن لكم القدره على طرد الذباب عنكم، أو أن تحافظوا على لعاب أفواهكم أن يسيل، هذا من الناحيه الجسميه، أمّا من الناحيه الفكرية فمصادقه قوله تعالى: لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً بَحِيثَ لَمْ تَعْرِفُوا حَتَّى أَبْوِيَكُمْ الْمَشْفِقِينَ عَلَيْكُمْ.

لكن - قليلاً - قليلاً - صرتم ذوي رشد و قوه، و صار لكم جسم قوى، و فكر جيد، و عقل مقتدر إدراك واسع! و مع هذه الحال لم تستطيعوا أن تحافظوا على هذه القوه، فمثلكم كمن يصعد من طرف الجبل إلى قمته، ثم يبدأ بالانحدار من القمه إلى قعر الوادي، الذي يمثل «مرحله ضعف الجسم و الروح».

هذا التغير و الصعود و النزول خير دليل لهذه الحقيقه، و هي أنه لم تكن القوه من عندكم و لا الضعف، فكل منهما كان من جهه أخرى، و هذا بنفسه دليل على أن وراءكم من يدبر أموركم و يسيّر حياتكم و ما عندكم فهو أمر عارض!

و هذا هو ما

أشار إليه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في كلامه التّير إذ قال: «عرفت الله بفسخ العزائم و حل العقود و نقض الهمم» (١).

لقد عرفت من هذا الاختلاف و التغير أن القوه الأصلية ليست بأيدينا، فهي بيد الله، و ليس لدينا بنحو مستقل أى شىء سوى ما وهبنا إيّاه! و من الطريف أن القرآن يضيف-عند بيان الضعف الثاني للإنسان- كلمه وَ شَيْبَةً غير أنه لم يذكر «الطفوله» فى الضعف الأول...

و هذا التعبير ربّما كان إشاره إلى أن ضعف الشيخوخه و الشيب أشدّ ألما، لأنّه على العكس من ضعف الطفوله، إذ يتجه نحو الفناء و الموت... هذا أوّلا.

و ثانيا فإن ما يتوقع من الشيبه و المسنين مع ما لهم تجارب ليس كما يتوقع من الأطفال، على حين أن ضعف كل منهما مشابه للآخر، و هذا الموضوع يدعو إلى الإعتبار كثيرا.

فهذه المرحله هى التى تدفع الأقوياء و الطغاه إلى الانحناء، و تجرهم إلى الضعف و الذله! أما آخر جملة فى الآيه فهى إشاره إلى علم الله الواسع و قدرته المطلقة:

يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَ هُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ

و هى بشاره و إنذار فى الوقت ذاته، أى إن الله مطلع على جميع نيّاتكم، و هو قدير على مجازاتكم و ثوابكم!

ص: ٥٧١

اشاره

وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَ لَكِنَّا كُنَّا لَا تَعْلَمُونَ (٥٦) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعَدِّتُهُمْ وَ لَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧) وَ لَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَ لَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (٥٨) كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٥٩) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لَا يَسْتَخْفَنَّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْقِنُونَ (٦٠)

التفسير

اشاره

يوم لا ينفع الاعتذار:

قلنا إن في هذه السوره أبحاثا منسجمه و متناغمه تتعلق بالمبدأ و المعاد..

و في الآيات-محل البحث-يعقب القرآن على البحوث التي كانت حول المبدأ و المعاد أيضا، فيعود إلى بيان مشهد من مشاهد يوم القيامة الأليمه، و ذلك بتجسيمه حاله المجرمين في ذلك اليوم، إذ يقول: وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ

الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ

فى عالم البرزخ أجل كذلك كانوا يُؤفكون فإتهم فيما سبق كانوا محرومين من إدراك الحقائق و مصروفين عنها.

و التعبير ب«الساعة» عن يوم القيامة- كما أشرنا إليه سابقا- هو إما لأن يوم القيامة يقع فى لحظه مفاجئه، أو لأنه من جهه أن أعمال العباد تحاسب بسرعه هناك، لأن الله سريع الحساب، و نعرف أن «الساعة» فى لغه العرب تعنى جزءا أو لحظه من الزمن (١).

و بالرغم من أن الآيه المتقدمه لم تشر إلى مكان (اللبث) حتى احتمل بعضهم أن المراد منه هو لبثهم فى الدنيا، الذى هو فى الواقع بمثابة لحظه عابره لا- أكثر، إلا- أن الآيه التى بعدها دليل واضح على أن المراد منه هو اللبث فى عالم البرزخ.. و عالم ما بعد الموت.. و ما قبل القيامة، لأن جملة لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث تنهى هذا اللبث إلى يوم القيامة، و لا يصح هذا إلا فى شأن البرزخ (فلاحظوا بدقه).

و نعرف- هنا أيضا- أن «البرزخ» ليس للجميع على شاكلة واحده، فقسم له فى البرزخ حياه واعيه، و قسم مثلهم كمن يغط فى نوم عميق- فى عالم البرزخ- و يستيقظون فى يوم القيامة، و يتصورون آلاف السنين ساعه واحده (٢).

مسألان

الأول: كيف يقسم المجرمون مثل هذا القسم الكاذب؟ و الجواب واضح، فهم يتصورون- واقعا- مثل هذا التصور، و يظنون أن فتره

ص: ٥٧٣

١- ١) - كان لنا فى هذا الصدد بحث مفصل ذيل الآيه (١٤) من هذه السوره.

٢- ٢) - بينا هذا البحث «المتعلق بموضوع البرزخ» فى ذيل الآيه ١٠٠، من سوره المؤمنون، كما نوهنا عن هذه اللطيفه و المسأله الدقيقه هناك.

البرزخ كانت قصيره جدًا، لأنهم كانوا في حالة تشبه النوم، ألا ترى أن أصحاب الكهف الذين كانوا صالحين مؤمنين، حين أفاقوا بعد نوم طويل، تصوروا أنهم لبثوا يوماً أو بعض يوم في منامهم.

أو أن أحد الأنبياء الواردة قصته في سورة البقره (الآيه ٢٥٩) بعد أن أماته الله مائه عامه ثم بعثه للحياه ثانيه، لم يظهر في تصوره غير أنه لبث يوماً أو بعض يوم.

فما يمنع أن يتصور المجرمون- مع ملاحظه حالتهم الخاصه في عالم البرزخ و عدم اطلاقهم- مثل هذا التصور؟! لذا يقول المؤمنون الذين أتوا العلم- كما تذكره الآيه التي تأتي بعد هذه الآيه-: إنكم غير مصيبين في قولكم، إذ لبثتم في عالم البرزخ إلى يوم القيامة، و هذا هو يوم القيامة!.

و من هنا تتضح المسأله الثانيه. أى تفسير جمله كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ لِأَنَّ «الإفك» فى الأصل معناه تبدل الوجه الحقيقى و الانصراف عن الحق، و هذه الجماعه ابتعدت عن الواقع لحالتها الخاصه فى عالم البرزخ، فلم تستطع أن تحدد لبثها فى عالم البرزخ.

و مع ملاحظه أنه لا حاجه لنا إلى الأبحاث الطويله التى بحثها جمع من المفسرين، و فى أنه لم يكذب المجرمون عمداً فى يوم القيامة، لأنه ليس فى الآيه دليل على كذبهم العمداً فى هذه المرحله!.

و بالطبع فإننا نرى فى آيات القرآن الأخر أمثله من أكاذيب المجرمين يوم القيامة، و قد بينا الإجابه المفصله على كل ذلك فى ذيل الآيه (٢٣) من سوره الأنعام، لكن ذلك البحث لا علاقته له بموضوع هذه الآيات! أما الآيه التاليه فتتحدث عن جواب المؤمنين المطلعين على كلام المجرمين الغافلين عن حاله البرزخ و القيامة فتقول: وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَ لَكِن كُنْتُمْ لَا

و تقديم العلم على الإيمان هو لأنّ العلم أساس الإيمان.

و التعبير في كِتَابِ اللَّهِ لعله إشاره إلى الكتاب التكويني، أو إلى الكتاب السماوي، أو إشاره إليهما معا، أي كان-بأمر الله التكويني و التشريعي-مقدّرا أن تلبثوا مثل هذه المدّة في البرزخ، ثمّ تحشرون في يوم القيامة (١).

و في أن المقصود ب الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ الْإِيمَانَ من هم؟! قال بعض المفسّرين: هي إشاره إلى ملائكة الله الذين لهم علم و هم مؤمنون أيضا.

و قال بعضهم: المقصود هم المؤمنون العالمون، و المعنى الثاني أظهر طبعاً.

و ما ورد في بعض الروايات من تفسير هذه الآية بالأئمّة الطاهرين، فهو من قبيل المصداق الواضح لها، و لا يحدد معناها الواسع.

و هذه اللطيفه جديره بالالتفات، و هي أن بعض المفسّرين قالوا: إنّ ما قاله المجرمون مقسمين بأنهم ما لبثوا غير ساعه، و ما ردّه عليهم الذين أوتوا العلم و الإيمان بأنهم لبثوا إلى يوم البعث، هذه المحاوره و الكلام منشؤهما أنّ الطائفة الأولى-لأنهم كانوا يتوقعون العذاب- كانوا يرغبون في تأخيرها، و كانت الفاصله و إن طالّت بالنسبه لهم قصيره جدّاً عندهم.

أمّا الطائفة الثانيه فلاّتهم كانوا ينتظرون الجنّه و نعمها الخالده و راغبين في تقديمها، فكانوا يرون الفاصله طويله جدّاً (٢).

و على كل حال، فحين يواجه المجرمون واقعهم المرير المؤلم يظهرون

ص: ٥٧٥

١ - ١) - في كون الآية، هل فيها تقديم و تأخير، أم لا؟- هناك كلام و نقاش بين المفسّرين و العلماء، فقال بعضهم «في كتاب الله» متعلق بجمله «أوتوا العلم و الإيمان» فيكون معنى الآية هكذا: الذين أوتوا العلم في كتاب الله و يؤمنون به قالوا مثل هذا الكلام، و قال بعضهم «في كتاب الله» متعلق بجمله «لبثتم» و نحن اخترنا هذا الرأى أيضا في شرحنا للآيه، لأنّ الحكم بالتقديم و التأخير يحتاج إلى قرينه واضحه و لا نجد هنا قرينه على ذلك!.

٢ - ٢) - تفسير الفخر الرازي ذيل الآيات محل البحث.

ندمهم و يتوبون و يعتذرون ممّا صنعوا، لكن القرآن يقول في هذا الصدد: **فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ** (١) و تجدر الإشارة إلى هذه المسألة، وهي أن في بعض آيات القرآن تصريحاً بعدم الإذن للمجرمين أن يعتذروا ولا يؤذّن لهم **فَيَعْتَذِرُونَ** (٢) غير أن الآية محل البحث تقول: لا ينفَعهم الاعتذار هناك، و ظاهرها أنهم يعتذرون، إلا أنه لا أثر لاعتذارهم.

و بالطبع فإنه لا تضاد بين هذه الآيات، لأن يوم القيامة فيه مراحل مختلفة، و في بعض المراحل لا يؤذّن للمجرمين بالاعتذار أبداً و يختم على أفواههم...

و إنّما تتحدث الجوارح بما أساءت فحسب... و في بعض المراحل تنطلق ألسنتهم بالاعتذار، إلا أنه... لا ينفَعهم الاعتذار أبداً...؟! و واحد من أَعذارهم أنهم يلقون تبعات ذنوبهم على أشياخهم في الكفر و النفاق، فيقولون لهم: **لَوْ لَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ** (٣)، إلا أن أولئك يردون عليهم بالقول: **أَنَحْنُ صِدْقٌ أَمْ كُفْرُكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ** (٤) و أحيانا يلقون اللوم على الشيطان في تضليلهم و انحرافهم و أنه وسوس لهم، إلا أن الشيطان يجيبهم **فَلَا تَلُومُونِي وَ لُومُوا أَنْفُسَكُمْ** (٥)، أي لم أكرهكم على الكفر، إلا أنكم استجبتم لي برغبتكم.

و في الآية التالية إشارة لجميع المواضيع الوارد بيانها في هذه السورة... إذ تقول: **وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ** لقد ذكرنا فيه الوعد

ص: ٥٧٦

١ - ١) - كلمه «يستعبتون» مشتقه من «عتب» على وزن «حتم» و معناها في الأصل الاضطراب النفسى «الداخلى» و حين يصاغ هذا الفعل من باب الإفعال فيكون معناه ازاله هذا الأثر و الاضطراب، كما جاء في لسان العرب أن الاستفعال يؤدي معنى الإفعال هنا، لذلك يقال في شأن الاسترضاء معناه طلب الرضا و التوبه، و معنى الكلمه هنا في الآية هو بمثل ما ذكرناه، و معنى ذلك أن المجرمين في يوم القيامة ليس لهم القدره على التوبه.

٢ - ٢) - المرسلات، الآية ٣٦.

٣ - ٣) - سبأ، الآية ٣١.

٤ - ٤) - سبأ، الآية ٣٢.

٥ - ٥) - إبراهيم، الآية ٢٢.

و الوعيد، الأمر و النهى، البشاره و الإنذار، الآيات الآفاقية و الأنفسيه، دلائل المبدأ و المعاد و الأخبار الغيبية و الخلاصه ذكرنا فيه كل شىء يمكن أن يؤثر فى نفوس الناس.

و فى الحقيقه، إن فى القرآن- بشكل عام- و سوره الروم- بشكل خاص- حيث نحن الآن فى مراحلها النهائيه، مجموعه من المسائل و الدروس الموقظه لكل فئه، و لكل طبقه، و لكل جماعه، و لكل فكر و أسلوب... مجموعه من العبر، و المسائل الأخلاقية، و الخطط و المناهج العمليه، و الأمور الاعتقاديه، بحيث استفيد من جميع الطرق و الأساليب المختلفه للنفوذ فى أفكار الناس و دعوتهم إلى طريق السعاده! و مع هذه الحال، فهناك طائفه لا يؤثروا فى قلوبهم المظلمه السوداء أى من هذه الأمور، لذلك يقول القرآن فى شأنهم: **وَلَيْسَ جِثَّتُهُمْ بِأَيِّهِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطَلُونَ .**

و التعبير ب«مبطلون» تعبير جامع يحمل كل معانى الدجل و الافتراء و النسب الكاذبه و الفاسده من قبل المشركين، كنسبه الكذب للنبي صلى الله عليه و آله و السحر و الجنون و الأساطير الخرافيه، إذ أن كل واحد من هذه الأمور يمثل وجهها من وجوه الباطل، و قد جمعت كل هذه الأمور تحت كلمه «مبطلون».

أجل، إنهم كانوا يتهمون الأنبياء دائما بواحد من هذه الأمور الباطله، ليشغلوا عنهم الناس الطيبين الطاهرين و لو لعدّه أيام- بما ينسبونه للأنبياء ممّا أشرنا إليه.

و المخاطب فى كلمه «أنتم» يمكن أن يكون النبي صلى الله عليه و آله و سلم و المؤمنين الحقيقيين، و يمكن أن يكون جميع أصحاب الحق من الأنبياء و الائمه المعصومين عليهم السلام و أتباعهم، لأن هذه المجموعه من الكفار تخالف جميع اتباع الحق.

و الآيه التى بعدها تبين السبب فى مخالفه هذه الطائفه، فتقول: إن لجاجه هؤلاء التى لا حد لها و عداؤهم للحق، إنما هو لفقدانهم الإحساس و الإدراك

بسبب كثرة ذنوبهم، ولأنهم لا يعلمون شيئاً... إذ تقول: كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ .

و كلمه «يطبع» مأخوذه من الطبع، و معناها ختم الشيء، و هى إشارة إلى ما كان يجرى فى السابق، و هو جار أيضا اليوم إذ يختم على الشيء كيلا يتصرف به و يخلق بإحكام، و قد يضعون عليه القفل و يضربون عليه ماده لوجه مختومه بإشاره معينه كما بينا بحيث لا يمكن فتح ذلك الشيء إلا بكسره، فيفتضح أمره بسرعه.

و كان القرآن استعمل هذا التعبير كناية عن القلوب التى لا ينفذ إليها النصح، و الذين فقدوا الوجدان و العقل و العلم، و لا أمل فى هدايتهم.

و ممّا يسترعى الانتباه أنّ فى الآيات السابقة ذكر العلم أساسا للإيمان، و فى هذه الآية ذكر الجهل أساسا للكفر و عدم التسليم للحق.

أمّا آخر آيه-من الآيات محل البحث- التى تقع فى آخر سورة الروم، فهى تأمر النبى صلى الله عليه و آله أمرين مهمين، و تبشره بشاره كبرى، لتحثه على مواصلة الوقوف و التصدى للمشركين و الجاهلين و السفهاء بالاستقامه و الصبر.

تقول أولًا: إذا كان الأمر كذلك، فعليك بالصبر و الاستقامه امام الحوادث المختلفه، و فى مقابل انواع الأذى و البهتان و المصاعب فاصبر .

لأن الصبر و الاستقامه هما مفتاح النصر الأصيل.

و ليكون النبى صلى الله عليه و آله أكثر اطمئنانا، فإنّ الآية تضيف إنّ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَقَدْ وَعَدَكَ و المؤمنين بالنصر، و الاستخلاف فى الأرض، و غلبه الإسلام على الكفر، و النور على الظلمه، و العلم على الجهل. و سوف يلبس هذا الوعد ثوب العمل!.

و كلمه «الوعد» هنا إشارة إلى الوعود المكرره التى وعدها القرآن فى انتصار المؤمنين، و من ضمنها الآية (٤٧) من هذه السوره وَ كَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ .

و الآية (٥١) من سوره غافر إنا لننصر رُسُلنا و الذين آمنوا فى الحياه الدنيا

وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ! .

و تقول الآية (٥٦) من سورة المائدة أيضا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ .

و تأمر ثانيا بضبط الأعصاب و الهدوء و عدم الانحراف في مواجهه الشديده و المتتابعه، حيث تقول الآية: وَلَا يَسْتَخَفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ .

إن مسئوليتك أن تتحمل كل شيء، و أن يتسع صدرك و خلقك لجميع الناس فهذا هو الجدير بقائد و زعيم لأمثال هؤلاء.

كلمه لا- يَسْتَخَفُّكَ مشتقّه من «الخفه» و هي خلاف الثقل، أى كن رزينا قائما على قدميك لثلا- يهزك مثل هؤلاء الأفراد و يحر كوك من مكانك، و كن ثابتا و مواصلا للمسيره باطمئنان، إذ أنهم فاقدو اليقين، و أنت مركز اليقين و الإيمان!.

هذه السوره بدأت بوعد انتصار المؤمنين على الأعداء، و انتهت أيضا بهذا الوعد، إلا أن شرطها الأساس هو الصبر و الاستقامه!.

ربنا، هب لنا صبرا و استقامه حتى لا يهزنا طوفان الحوادث و المشاكل من مكاننا أبدا.

إلهنا، نلتجئ إلى ذاتك المقدسه، ألا نكون من زمرة الذين لا تؤثر في قلوبهم الموعظه و النصح و الإرشاد و العبر و النذرا!.

إلهنا، إن أعداءنا متحدون، و هم مسلحون بأنواع الأسلحه الشيطانيه، فانصرنا -ربنا- على أعدائنا في الخارج، و شيطاننا في الداخل.

آمين يا رب العالمين انتهاء سوره الروم و نهايه المجلد الثاني عشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ٩

المقدمة:

تأسس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامي عام ١٤٢٦ الهجرى في المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائيين والمثقفين في الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلّة المراكز القائمية بتوفير المصادر في العلوم الإسلامية وتبعثها في أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين في العلوم الإسلامية وتقديم المؤسسة مجاناً مجموعةً إلكترونيةً من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهي منظمة في برامج إلكترونية وجاهزة في مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها. وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدةً على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبي عليهم السلام
تحفيز الناس خصوصاً الشباب على دراسة أدق في المسائل الدينية
تنزيل البرامج المفيدة في الهواتف والحاسوبات واللابتوب
الخدمة للباحثين والمحققين في الحوزات العلمية والجامعات
توسيع عام لفكرة المطالعة
تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها في ملفات إلكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية
إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة
الاجتناب عن الروتين وتكرار المحاولات السابقة
العرض العلمي البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ في نشر المعلومات
من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات في مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما في الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمة الانترنتى بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمى لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة (sms)

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فى البحث والدراسة وتطبيقها فى أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

JAVA.١

ANDROID.٢

EPUB.٣

CHM.٤

PDF.٥

HTML.٦

CHM.٧

GHB.٨

إعداد ٤ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمة ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

ANDROID.١

IOS.٢

WINDOWS PHONE.٣

WINDOWS.٤

وتقدّم مجاناً فى الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتاب وكل من قدم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آواده اى، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلى، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الإلكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب فى طهران ٠٢١ - ٨٨٣١٨٧٢٢

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩ شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.

مركز
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية
الغمامة اصحمان



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم

www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩